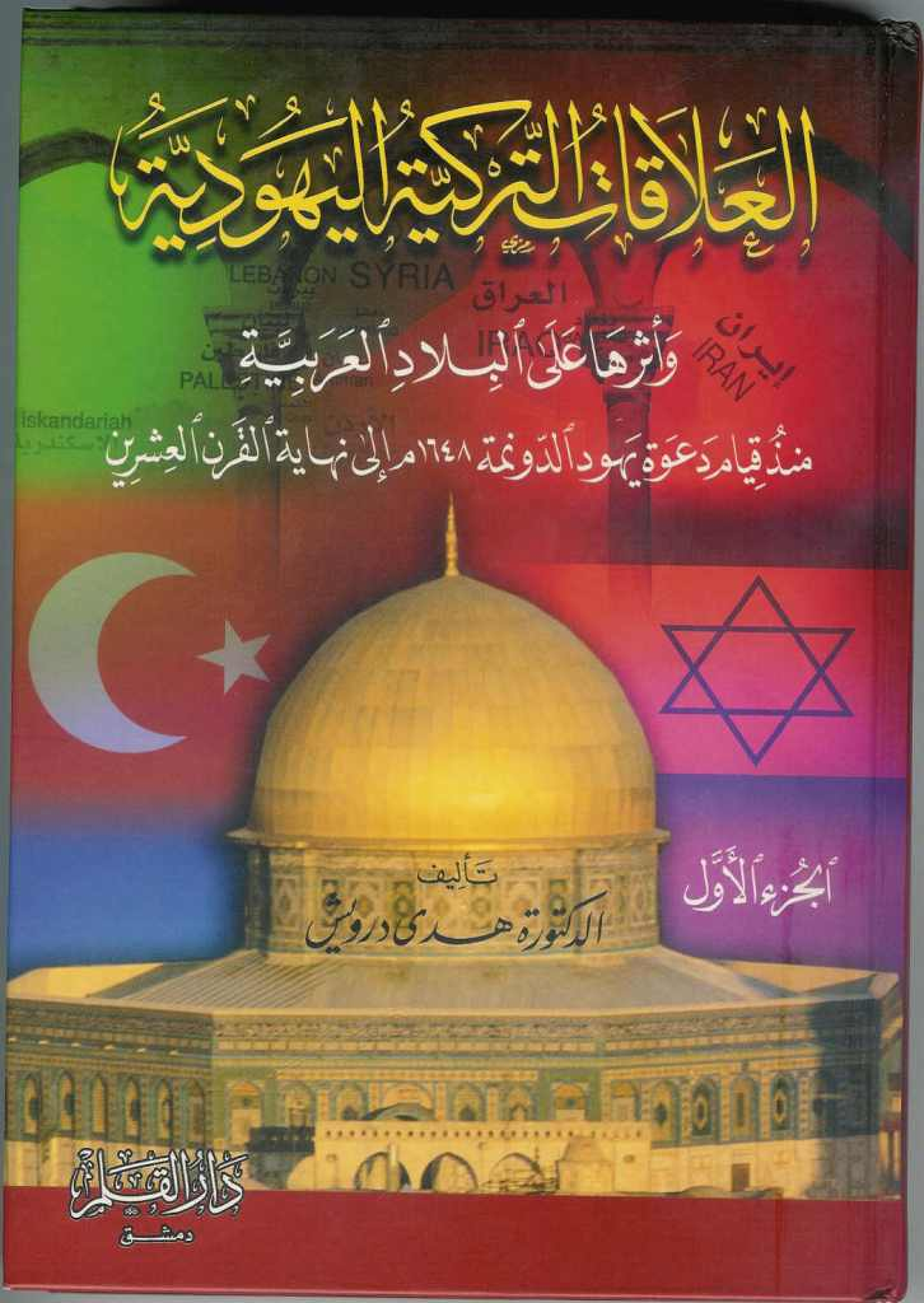


العلاقات التركية اليهودية
LEBANON
SYRIA
العراق
إيران
IRAN
PALESTINE
Iskandariah
وأثرها على البلاد العربية
منذ قيام دعوة يهود الدونمة ١٦٤٨م إلى نهاية القرن العشرين
الجزء الأول
تأليف
الدكتورة هدى درويش
دار القلم
دمشق

الطَّبْعَةُ الأولى
١٤٢٣هـ - ٢٠٠٢م

تُطلب جميع كتبنا من :
دار القلم - دمشق : ص.ب : ٤٥٢٣ - ت : ٢٢٢٩١٧٧
الدار الشامية - بيروت - ت : ٦٥٣٦٥٥ / ٦٥٣٦٦٦
ص.ب : ٦٥٠١ / ١١٣

توزع جميع كتبنا في السعودية عن طريق
دار البشير - جدة : ٢١٤٦١ - ص.ب : ٢٨٩٥
ت : ٦٦٠٨٩٠٤ / ٦٦٥٧٦٢١

العلاقات التركية اليهودية

وأثرها على البلاد العربية

منذ قيام دعوة يهود الدونمة ١٦٤٨م إلى نهاية القرن العشرين

تأليف

الدكتورة هدى درويش

معهد الدراسات والبحوث الآسيوية - جامعة الزقازيق

الجزء الأول

دار القلم

دمشق

بسم الله الرحمن الرحيم

إنَّ العلاقات التركية اليهودية لا تعبّر إلاّ عن مصالح فئة من الأتراك ربطوا مصالحهم بالمصالح اليهودية، ضاربين عرض الحائط بهوية الشعب التركي المسلم وتاريخه الزاهر، ودينه وقِيَمِه، وأواصر القربى والجوار مع بقية الشعوب الإسلامية، وعليه فإن نتائج هذا البحث إنما تصدق على الأنظمة لا على الشعوب.

المقـدّمَة

الحمد لله ربِّ العالمين، والصلاة والسلام على سيدنا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين وبعد:

تنقسم هذه المقدمة إلى ثلاثة عناصر هي:

١ ـ أهمية الدراسة.

٢ ـ منهج الدراسة.

٣ ـ أهداف الدراسة.

وتفصيلها كالآتي:

١ ـ أهمية الدراسة:

تقدّم هذه الدراسة سجلاً علمياً وافياً متعدِّد المصادر للعلاقات التركية اليهودية، سواء في الماضي أو في الحاضر، وبالتالي استشرافُ آفاق مستقبل هذه العلاقات، التي تشكّل أساساً هاماً من أسس الحياة في العالم العربي الإسلامي. وهي دراسة تقدِّم مدى التغلغل اليهودي في الشأن العثماني، ثم التركي، بل وفي الشأن العربي أيضاً، والعالم التركي والذي يمتد من الصين إلى البوسنة والهرسك مروراً بآسيا الوسطى والقوقاز، إذ إنّها حتى الآن هي الدراسة الأولى التي تتناول علاقةَ اليهود والصهيونية بالدولة العثمانية، وبعدها بالجمهورية التركية بهذا القَدْر من التفرع والتخصص.

وتأتي أهميةُ هذه الدراسة في تبصير العالم العربي بالتحركات اليهودية والإسرائيلية، التي تستهدفُ الانفرادَ بدولة شقيقة مثل تركيا لكي تجابه إسرائيل بها المجتمعات العربية المسلمة في المنطقة العربية.

لذلك حَرَصَتْ هذه الدراسة على تبيان الاتجاهات اليهودية عامةً، والإستراتيجية الإسرائيلية خاصّةً تجاه تركيا، واستخدامها لهذا البلد الشقيق وسيلةً للضغط على العرب في حالة النزاع الإسرائيلي العربي، ووسيلةً لتبيان تأثير إسرائيل الإيجابي على البلدان العربية باستخدام تركيا استخداماً يفيدُ إسرائيل في تقديم صورةٍ أقوى لها أمام العرب.

وأخيراً تقدِّم هذه الدراسة للمجتمعات العربية وخاصة السورية والعراقية منها ـ فائدةً تتعلّقُ بوَرَقة المياه في حياة العرب، ودور إسرائيل تحرّك ورقة المياه في يد تركيا. وبالتالي حَرَصَتْ هذه الدراسةُ على إلقاء مزيدٍ من الضوء لظاهرة الخلاف التركي العربي عندما تكونُ إسرائيل داخلةً فيه، وتبرز هذه الدراسة أيضاً أهمية السلام بين تركيا والعرب إذا تقاربت النوايا، وحرصَ كلِّ فريقٍ على ما عند الفريق الآخر من صداقةٍ وجيرة حقيقية، تفرضها الظروف الجغرافية والواقع الديني ومتطلّبات الثقافة الإسلامية.

٢ ـ منهج الدراسة:

اتخذتْ هذه الدراسة المنهج التاريخيَّ للحصول على معرفةِ جوانب العلاقات التاريخية بين اليهود والعثمانيين عبر التاريخ، وما سبق ذلك التطور في العلاقات العثمانية اليهودية من وضع لليهود في البلدان الإسلامية، وذلك باستقراء التاريخ الإسلامي في هذه النقطة بالذات، وكان هذا ضرورياً لدراسة مدى ما قدّمه المسلمون لليهود من وضعٍ لم يُحظَ به اليهود في مجتمع آخر غير المجتمع المسلم، وما إنْ جاء دور العثمانيين في حماية اليهود حتى وجدوا الأسسَ الإسلاميّةَ الشرعيّةَ في علاقات المسلمين بأهل الذمة، فأخذ اليهودُ وضعهم الذي شهد به اليهود أنفسُهم.

وأفادتنا دراسة المنهج التاريخي للعلاقات العثمانية اليهودية في دراسة الحوادث والوقائع التي تسامح فيها المسلمون العثمانيون مع اليهود، والتي كانت علامةً فارقةً، إذ استغلَّ يهود الدونمة في تركيا وقائعَ هذا التسامح، لينقلبوا ضدَّ المجتمع العثماني ويتغلغلوا فيه، مستغلين وضعهم الذي أتاحه لهم (ساباتاي

زفي)[1] - كما سيمرّ في الدراسة - من استخدام الأسماء المسلمة لليهود، واندماجهم الظاهري في المجتمع التركي، بحيث لم يَدْرِ هذا المجتمعُ بتلك الشرور التي يبيتها اليهود للسيطرة على مقدرات هذا المجتمع، الذي عُرف بالتسامح طوال تاريخه، وبذلك تكشف الدراسةُ في منهجها التاريخي هذا جوانبَ الطبيعة اليهودية بكلّ ما فيها من سلبيات، وكذلك جوانب الطبيعة التركية بكلّ ما فيها من إيجابيات فرضتها طبيعتهم الإسلامية.

كما أفاد المنهج التاريخيُّ أيضاً في تبيان تطور المجتمعين اليهودي عامة، واليهودي العثماني - التركي خاصة، بما يشمله هذان التطوران، أو هذا التطور في المجتمعين من أفكار اجتماعية أصبحت تُعلي من شأن اليهود، وتحطُّ من شأن الأتراك، مما كان لذلك أبعدَ الأثر في العلاقات المالية الإسرائيلية التركية.

وأثناء استخدام هذا المنهج التاريخي كان لابدَّ من استخدام الوثائق اليهودية الخاصّة بيهود تركيا، سواء الرسائل أو المذكرات أو النصوص الأصلية التاريخية، أو البيانات المسجّلة - مما سيرد في هذه الدراسة - خاصةً ما يتعلّق بيهود الدونمة بالتفصيل، من قيام حركة (ساباتاي زفي)، وحتى سيطرة أتباعه على توجيه الإعلام في تركيا لصالح اليهود، لإدخال تغييرات غربية جذرية على المجتمع التركي، وتوجيه الرأي العام التركي؛ ورأي النخبة الحاكمة والصفوة المثقفة للتقارب مع إسرائيل.

ومن أدوات هذا المنهج التاريخي تلك الدراسة الهامة التي كتبها (اليغاز زورلو) وهو يهوديٌّ من يهود سلانيك، ولد في إستانبول، ودرس في تركيا، وقد كتب دراسة علمية كشف بها جوانبَ على غايةٍ من الأهمية عن يهود تركيا بمنحة قدمتها له إسرائيل عام ١٩٩٠م بمساعدة الدكتور (جاد ناسي) الأستاذ بمعهد (بن زفي) في القدس. وهذا الكاتب هو الحفيد السادس (لشمس أفندي) الذي كان

---

(١) النطق الصحيح لاسم هذه الشخصية اليهودية المثيرة للجدل هو: (شَبْتاي بن زْفي) بسكون الزاي. هذا ما سمعته من العلاّمة الحجة في تاريخ اليهود ولغتهم الدكتور (حسن ظاظا) رحمه الله. (الناشر)

أما اسم ساباتاي بن زفي فهو التسمية التركية له وجماعته تدعى السابتائيين.

مدرِّساً (لأتاتورك) عندما كان صغيراً في سلانيك.

والكتاب منشور بعنوان (الساباتائية في تركيا)، وصدر في إستانبول أواخر عام ١٩٩٨م، وهو أحدثُ كتابٍ عن يهود الدونمة بقلم واحد منهم وهو إيلغاز زورلو، ولم يُستخدم هذا الكتاب في أي دراسة علمية بعدُ، وهذا الكتابُ قد أحدث انقلاباً في مفهوم حركة اليهود الدونمة في تركيا.

عُنِيَتْ هذه الدراسة باستخدام المنهج التاريخيِّ بالشكل الذي تحدّثنا عنه في البابين الأول والثاني، وواصلتُ استخدامَه في البابين: الثالث والرابع، فكان لهذه الدراسة أهميتُها في إبرازِ دور الماسونية في تركيا، ونشر الفكر القوميّ بين الأتراك، إلى جانب تأثير الإعلام اليهوديّ والإسرائيليّ على المجتمع التركي، وكيفية تغلغلهم في الثقافة التركية، ثم هيمنتهم على الاقتصاد التركي.

أما الباب الخامس والسادس وهما عن العلاقات التركية الإسرائيلية المعاصرة فقد كان استخدامُ المنهج الوصفي هو الأمثلُ، وهو منهجٌ استقرائيٌّ للوثائق المعاصرة، خاصة في الجانب التركي، وفيه تتبعٌ دقيق لوثائق التحالف التركي الإسرائيلي، واستقراءٌ دقيق للصحف التركية اليومية وعلى الجانبين: الصحف التركية اليهودية، والصحف التركية الوطنية، وتعليقات كلٍّ من الفريقين على التحالف بين تركيا وإسرائيل، مما سيكونُ له أكبر الأثر في النظرة الوطنية العربية لمسألة العلاقات التركية الإسرائيلية.

٣ ـ أهدافُ الدراسة:

تهدفُ هذه الدراسة إلى تقديم الوثائق الكاملة التاريخية منها والمعاصرة أمام الدول العربية عامةً ومصرَ وسوريا والعراق بصفة خاصة؛ لكي تصبحَ معرفةُ أسلوب مواجهة إسرائيل فيما يخصُّ الجانبَ التركي العربي واضحةً، وتقدِّم هذه الدراسة اقتراحاتُها للفائدة القومية في طريقة التعامل في الشرق الأوسط.

إنَّ الرغبةَ في إثراء المعرفة العلمية، وإشباع احتياجات الباحثين في ميدان العلاقات التركية الإسرائيلية، وبالتالي العربية في هذا البحث لا يتعارضُ مع الرغبة في تقديم الهدف العملي من هذه الدراسة، لكي تظلَّ نبراساً أمام المثقفين

في الشرق الأوسط من عرب وأتراك، وكذلك لكي يكونَ لهذه الدراسة مكانتها أمام صانعي القرار، وموجِّهي السياسة في المنطقة، سواء على الجانب العربي أو على الجانب التركي.

أما فيما يتعلّقُ بالمصادر والمراجع، فقد اعتمدت على أهمّها وأكثرِها فـائدةً في منظومة مختارةٍ منها، أوردتُها في قائمةِ نهاية هذه الدراسـة، إلا أنَّ الجديدَ في هذه القائمة، والذي استخدمناه لأوّلِ مرة لمصلحةِ المكتبة العربية فهو:

١ ـ كتـاب اليغـاز زورلو، (السـاباتائية في تركيا) Turkiye Sabataycigi , Evet, Ben Selanikliyi والذي صدر في إستانبول في أواخر عام ١٩٩٨، ومؤلف هذا الكتاب يهوديٌّ من يهود الدّونمة، حصلَ على مِنْحة من إسرائيل ليكتبَ في (السـاباتائية) وهو واحدٌ من المنتمين إليها، وقد جاء تصريحُ واحدٍ من يهود الدّونمة أنّه منهم، ويكتبُ الجديدَ في مذهبهم، وخفايا تكوينهم، وقد أثار الكتاب الرأي العام التركي. . وما زال، ويجدر بنا القول أن هذه هي المرة الأولى التي يُستخدم في اللغة العربية هذا المصدر الهام.

٢ ـ وثيقةُ الضابط التركيِّ (شـهاب الدين طان) إلى الأمين العام لرابطـة العالم الإسـلاميّ، وهذه أول مرةٍ تنشرُ فيها هذه الوثيقـةُ، وتشـير إلى الدّور الاستخباريِّ الذي قام به هذا الضابط التركيِّ لصالح مصر والمصلحة العربية ضد إسرائيل.

٣ ـ الصحف التركية بمقالاتها وأخبارها حول اتفاقية التعاون بين تركيـا وإسرائيل وتطورات التعاون بين البلدين أولاً بأول، بما في ذلك اتجاهات الرأي العام التركيّ المختلفة، سواء مع العرب ضد إسرائيل، وهو ما قام به الإعلام الإسلامي في تركيا، أم مع إسرائيل ضد العرب وهو ما قام به الإعلام العلماني في تركيـا، وشـجَّعه الإعلام اليهودي في تركيـة من صحف ومجلات وقنـوات تلفزيونية.

ومن المصادر الهامة الأخرى التي استُخْدمت في هذه الدراسة، وإن لم تكن جديدةً على المكتبة العربية:

١ ـ (مجلة المنار) والتي كتبت عن حركة (الاتحاد والترقي) وخلع (السلطان عبد الحميد) ودور المحافل الماسونية في الوقيعة بين العرب وتركيا، والتحذير من الخطر اليهودي.

وكانت مقالات (المنار) وخاصة ما كتبه (محمد رشيد رضا) مواكبةً أولاً بأول لأحداث حركة (الاتحاد والترقي) والنشاط الماسوني واليهودي في العلاقات العربية اليهودية والإسلامية أيضاً. وكانت معاصرةُ المنارِ لهذه الأحداث وكتاباتها عنها من ناحية، وتعليقاتُها على هذه الأحداث من ناحية أخرى ذاتَ فائدة علمية هامة.

٢ ـ مذكرات السلطان عبد الحميد الثاني، والتي احتوت على فِقْراتٍ على درجة عالية من الفائدة، إذ كانت المصدرَ الوحيد في اللغة التركية التي عبّرت عن وجهة نظر السلطة العثمانية في التحركات اليهودية ضد الدولة العثمانية، وكذلك نشاط الماسونيين، وتحريضهم للصفوة التركية للثورة على الأوضاع الراهنة وقتها، كما يرصدُ هذا المصدر محاولات الصهيونية العالمية للضغط على (السلطان عبد الحميد) للسّماح بإقامة وطن قومي لليهود، ورفضه بإباءٍ هذا الأمر.

٣ ـ كتاب إينكه لهارد (التنظيمات) الذي عاصر أحداث التنظيمات العثمانية، وخدم بلاده في إستانبول سفيراً لفرنسا، وهي الدولة التي استلهمت تركيا منها التغيير الجذريَّ في الحياة التركية، وجَعْل الدولة تتحول تدريجياً من دولة شرقية مسلمة إلى دولة شرقية تأخذ بالاتجاه الغربي، وهذه المرحلة هي التي أدّت إلى أن تصبحَ تركيا الجمهورية دولة علمانية صريحة في علمانيتها.

وقد اعتمدتُ في الاستفادة من هذا الكتاب على الترجمة العثمانية له.

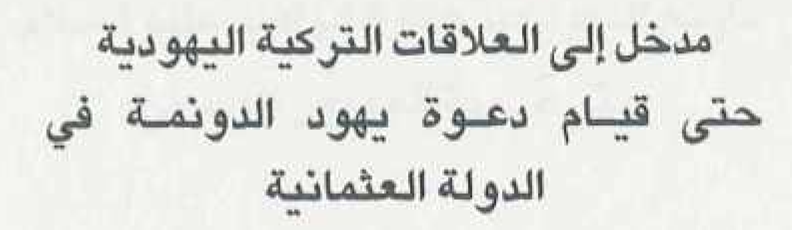
بالإضافة إلى هذا فقد راعيتُ أن يكونَ الإسلوبُ علمياً واضحاً، وإن كان بعض الاستطرادات في بعض أماكن من هذه الدراسة، فذلك مرجعه إلى حرصي على تقصّي (المشكلة) محل الدراسة من جذورها.

و قبل أن أنتهي من مقدمتي هذه يحدوني قول رسولنا ﷺ: «مَنْ أدى إليكم معروفاً فكافئوه، فإن لم تجدوا ما تكافئوه به فقولوا له: جزاك الله خيراً». فإني أذكر

بالعرفان والفضل الأيادي التي امتدت إليّ بالعون في هذا العمل. وأخص بالذكر أستاذي الجليل الأستاذ الدكتور محمد حرب أستاذ الدراسات التركية بجامعة عين شمس الذي يرجع إليه فضل إمدادي بالمعلومات الهامة والوثائق التركية التي أضفت الكثير إلى هذا العمل. وأتمنى من الله أن ينفع به كل مجتهد من قريب أو بعيد.

والله أرجو أن أكونَ قد وُفِّقت في تقديم هذه الدراسة، كما أرجو الله أيضاً أن تكون هذه الدراسة قد قدَّمت فائدة في مجال بحث العلاقات التركية اليهودية الإسرائيلية، والاستفادة منها في دراسات وبحوثٍ قادمة ومفيدة تشمل خدمةَ العالم العربي والإسلاميّ. والله ولي التوفيق.

الدكتورة هدى درويش



مدخل إلى العلاقات التركية اليهودية حتى قيام دعوة يهود الدونمة في الدولة العثمانية

- تاريخ اليهود منذ هجرة إبراهيم عليه السلام حتى مرحلة العصور الوسطى
- العلاقات اليهودية الأوروبية
- وضع اليهود في إسبانيا بعد الفتح الإسلامي
- موقف الملك (فرديناند) والملكة (إيزابيلا) مع يهود إسبانيا
- النزوح اليهودي إلى الدولة العثمانية بعد طردهم من إسبانيا
- اليهود في عهد السلطان مراد الرابع
- تقسيم يهود العالم:

  ١ ـ الإشكنازيون

  ٢ ـ السفارديم

  ٣ ـ اليهود الشرقيون
- لغة اليهود في الدولة العثمانية

تاريخ اليهود منذ هجرة إبراهيم عليه السلام حتى مرحلة العصور الوسطى

بدأ تاريخ اليهود منذ هجرة (إبراهيم عليه السلام) مع قومه إلى فلسطين، وذلك في القرن ١٨ ق.م، تلك الهجرةُ التي تُعَدُّ الهجرةَ الأولى للقبائل اليهودية إلى فلسطين[١].

وتقول بعضُ المصادر: إنّ تعبير (تاريخ اليهود)، تعبيرٌ مجازيٌّ، ذلك لأنَّ اليهود ـ حسب هذا القول ـ لا يُعَدُّون وحدةً متماسكة، فمفهوم (التاريخ اليهودي) غيرُ وارد، وذلك لأنّه يتطلب وجود تشكيل حضاري، ومستقبلٍ واحدٍ، وعرقٍ واحدٍ. ولكنَّ الجماعاتِ اليهوديةَ انتشرت في جميع أرجاء العالم، وكانت تتواجد في مجتمعات مختلفة، تختلِفُ باختلافِ الزّمان والمكان، الذي يعيشون فيه؛ لذا فإنَّه من الصعب قبول مقولة (التاريخ اليهودي) لأنّه من الصعب الحديث عن الهوية اليهودية أو الشخصية اليهودية، فهي جزءٌ لا يتجزَّأُ عن التشكيلات الحضارية التي كانوا يعيشون في كنفها؛ ولهذا فإنَّ من الأفضل استخدام لفظ (الجماعات اليهودية) بدلاً من (التاريخ اليهودي)[٢].

وفي منتصف القرن ١٧ ق.م كان اليهود يسكنون مصر بعد هجرتهم من فلسطين مع يعقوب، وذلك نتيجةَ القحط الذي واجهوه هناك، ثم خرجَ بهم (موسى عليه السلام) من مصرَ بعد اضطهادهم من فرعون مصر (رمسيس الثاني)

---

(١) ابن كثير عماد الدين أبي الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القُرشي، البداية والنهاية، دار الغد العربي، القاهرة، ط٢، ١٩٩٠م: ١/ ١٥٢.

(٢) عبد الوهاب المسيري، يهود أم جماعات يهودية، مقال في جريدة (الشرق الأوسط) ٢٣/ ٦/ ١٩٩٤م.

الذي قابلهم بشتى أنواع التعذيب انتقاماً منهم لتعاونهم مع (الهكسوس) غُزاة مصر[١].

وانتهى بهم خروجُهم مع (موسى عليه السلام) إلى التيه، الذي حدث لهم في (صحراء سيناء) لمدة أربعين سنة عقاباً لهم على مخالفتهم لموسى عليه السلام، وكان عددهم آنذاك (٦٠٠) ألف نسمة[٢]. وقد حدث لهم في تيههم الكثيرَ من المحن حتى تابوا، وأرادوا العودة إلى فلسطين، وفي طريق العودة مات (موسى عليه السلام) وقادهم غلامُه (يوشع بن نون).

أمّا الهجرة الثانية للقبائل اليهودية إلى فلسطين فكانت في القرن ١٤ ق. م.

وفي الأصل كان الكنعانيون أبناءُ كنعان بن حام بن نوح هم سكّان فلسطين، وكان على العبرانيين أن يحاربوهم حتى يدخلوا فلسطين، لكنّهم لم يستطيعوا التغلّبَ عليهم، واقتصر وجودهم على التلال والأراضي الفقيرة[٣].

وخلال الألف الأولى قبل الميلاد قام (داود عليه السلام) بتوحيد الأسباط (أي قبائل إسرائيل الإثني عشر) وهزم اليبوسيين والفلسطينيين، وأسس ووسّع مملكة إسرائيل، التي امتدت من دان في الشمال إلى بئر السبع في الجنوب، واتخذت أورشليم عاصمةً لها (التي كانت تسمى يبوس)[٤].

وفي عهد (سليمان عليه السلام) انشطرتِ الدولة إلى مملكتين: (يهوذا) في الجنوب، وتضمُّ قبيلتي يهوذا وبنيامين، و(مملكة إسرائيل) في الشمال وتضمُّ باقي القبائل، ومن هذا الوقت أصبح اسم اليهود يطلق عليهم نسبة إلى مملكة يهوذا، والتي مقرّها أورشليم، أما إسرائيل فكان مقرّها السامرة[٥].

---

(١) جمال حمدان، اليهود أنثروبولوجياً، المكتبة الثقافية ١٦٩، دار الكاتب العربي للطباعة والنشر، القاهرة، فبراير ١٩٦٧م، ص١١.

(٢) جمال حمدان، المرجع السابق، ص١٢.

(٣) المرجع السابق نفسه.

(٤) المرجع السابق نفسه.

(٥) عجاج نويهض، بروتوكولات حكماء صهيون، ص٤، دار الاستقلال للدراسات والنشر، بيروت، ١٩٩٦م، ص٤٠٣؛ وأحمد شلبي، اليهودية، مكتبة النهضة الحديثة، القاهرة، ط١٠، ١٩٩٢م، ص٨٩.

وقد تعرّضت المملكة الجنوبية (يهوذا) للتدمير على يد (نبَوخذ نصر) في القرن ٦ ق.م، أمّا المملكة الشمالية فتمَّ القضاء عليها على يد (سرجون الآشوري في القرن ٨ ق.م، ودُمّرت أورشليم والهيكل عام ٥٨٦ ق.م، وعُرِفَتْ هذه المرحلة بالشتات الأول لليهود، كما عُرِفَتْ أيضاً بالسبي البابلي، حيث إنَّ أغلبيةَ اليهود نُقلوا أسرى إلى بابل[١].

وكان السبي الأول لليهود هو سبي (إسرائيل الشمالية) حيث فنوا واضمحلّوا في أرجاء مملكة آشور في شمالي العراق على يد سرجون الآشوري.

أما السبي الثاني فكان سبي (يهوذا) بعد قرن وثلث قرن من سبي إسرائيل، وكان بطلُ هذا السبي هو (نَبوخذ نصر) ملك بابل[٢]. ثم عادوا إلى فلسطين بعد ذلك مرة أخرى.

أما الشتات الثاني لليهود فبدأ بفتوح (الإسكندر) واستمرّ مع البطالسة ثم البيزنطيين، وتمركزوا في البلقان وسواحل البحر الأسود، وكان ثلثُ سكان الإسكندرية بمصر في ذلك الوقت من اليهود. وكان الوجود اليهودي هذا يسبق العصر المسيحي بفترة طويلة[٣].

كان للتتار أيضاً دورهم مع اليهود، حيث قامت في القرن ٧م (دولة الخزر) التترية (وهم من الأتراك المغول) الواقعة في جنوب روسيا ثم تحولت إلى دولة يهودية، وكان اليهود يتحدّثون بلغة الخزر التركية المسماة (الجغطاي) وكان لهم مركزان: أحدهما في الغولجة، والآخر في القرم، وقد تحطّمت هذه الدولة على أيدي الدولة السلافية، وانتشر اليهودُ في أجزاء من جنوبي روسيا[٤]، حيث كانت

---

(١) جمال حمدان، ص١٣. اقتبس هؤلاء اليهود قبيل السبي لهجتهم العبرية من الآرامية، ودوّنوا بها التوراة، وكان ذلك بعد زمن موسى بثمانمئة عام، ويطلق على هذه التوراة اسم (توراة اليهود) حتى تتميز عن (توراة موسى) انظر أحمد سوسة، العرب واليهود في التاريخ، العربي للطباعة والنشر والتوزيع، ط٧، دمشق، ص٧٦.

(٢) عجاج نويهض، مصدر سابق، ص٤٠٣.

(٣) جمال حمدان، مصدر سابق، ص١٧.

(٤) يهود الخزر هم اليهود الذين اعتنقوا اليهودية في وقت لاحق، وهم من أصل تركي. انظر=

موطنَ أكبر عدد من اليهود في العالم، حيث قُدِّرَ عددهم بـ(١١) مليون يهودي. وفي القرن ١٢م أي عام ١١١٠م منعت روسيا دخولَ اليهود إلى أراضيها، وحدّدت إقامة الموجودين بها في أماكنَ خاصة بهم، كانت تعرف (بحظيرة اليهود)[١].

أما مرحلة الشتات الثالث لليهود فكانت المرحلة التي بدأت في العصور الوسطى، واستمرّت حتى العصر الحديث، والتي عاصرت فتحَ الرومان مع بداية العصر المسيحي. في هذه المرحلة حدث تخريب أورشليم والهيكل، وتعرّضَ اليهود للإبادة في مذبحة سنة ٧٠م.

ثم ثار اليهود مرة أخرى في القدس ـ فلسطين عام ١٣٥م وفي هذه السنة تمَّ القضاء نهائياً على اليهود في فلسطين على يد الإمبراطور الروماني تيطس[٢].

وقد حرّمَ الرومان على اليهود دخولَ القدس، وتمَّ طردهم من فلسطين، وتُعدُّ هذه الحادثة، هي الخروج الأخير لليهود الذي تشتتوا من بعدِه في جميع أنحاء العالم.

وقد أتت العصورُ الوسطى بحروبها الصليبية التي واجه اليهود فيها ألواناً من الاضطهادات الدينية في جميع أنحاء أوروبا.

العلاقات اليهودية الأوروبية:

تحدّثنا في السطور السابقة كيفَ بدأت مشكلة تفرّق اليهود في أنحاء العالم ـ تلك المشكلة التي ما تزالُ قائمةً حتى الآن ـ فبعد خراب أورشليم عام ١٣٥م،

= في هذا أحمد سوسة، مصدر سابق، ص٧٧. يذكر الرحالة ابن فضلان أنَّ الخزر وملكهم كلّهم يهود، وكان الصقالبة وكلّ من يجاورهم في طاعته، ويخاطبهم بالعبودية، ويدينون له بالطاعة، ويؤكد ابن فضلان أنَّ الملك وخاصتَه مع أنهم يهوداً لكنَّ «الغالبَ على أخلاقهم أخلاقُ أهلِ الأوثان».

(١) ويل وايريل ديوارنت، قصة الحضارة، عصر الإيمان، ترجمة محمد بدران، ج١٣، م٤، بيروت، تونس.

(٢) جمال حمدان، مرجع سابق، ص٢٠.

وبعد إزالة معالم المدينة، ومعالم الهيكل على يد الإمبراطور أدريانوس الروماني (٤٠ ـ ٨١م) بدأ اليهودُ عصرَ شتات طويل، وتفرّقوا في جميع أنحاء البلاد فنزلوا دول أوروبا، كما هاجروا إلى مصر، وشمالي أفريقيا واليمن، وإسبانيا، وغيرها. وتاريخ هذا التفرق ملحَقٌ بتاريخ الممالك التي توطّنوا فيها[1].

ففي أوروبا لم يكن لليهود مثلما كان لهم في الشرق، فقد قام الأوروبيون بفرض محظورات عليهم وهي: ألا يتزوّجوا من مسيحيات، وألا يكونَ لهم عبيدٌ مسيحيون، كما فرضوا عليهم ضرائبَ باهظة، وقد لقّبهم قسطنطين الكبير الإمبراطور الروماني (٢٨٨ ـ ٣٣٧م) بلقب (الشعب المكروه)[2].

وعلى الرغم من ارتقائهم المراتب العسكرية والملكية إلا أنهم اضطُهدوا، ولاقوا كثيراً من ألوان العذاب، وقد طُرِدوا من فرنسا ومن ألمانيا ومن روسيا[3] كما طردوا من بريطانيا في القرن السادس، ومنعوا من دخولها لمدة ثلاثة قرون، وفي فرنسا طُردوا وأُحرق تلمودهم، وفي ألمانيا تعرّضوا لمذابح على أيدي النازيين[4].

---

(١) لتفصيل أكثر انظر أحمد شلبي، اليهودية، مكتبة النهضة الحديثة، القاهرة، ط١٠، ١٩٢٢م، ص٩١ ـ ٩٩.

(٢) قسطنطين الكبير هو ابن قسطانش الأول من أباطرة الرومان البيزنطيين، نودي به إمبراطوراً عند وفات أبيه، كان يميلُ إلى المسيحية، وقد عُمّدَ وهو على فراش الموت، هو الذي أوجدَ فكرة المجامع الدينية، وقد أقام الإمبراطورية على أساس الحكم المطلق، ونقل عاصمته إلى بيزنطة، وأعاد بناءَها، وأسماها القسطنطينية، وأمر بإنشاء كنيسة (آيا صوفية) سنة٣٢٦ وهي أولُ كنيسةٍ تقام في القسطنطينية، وأمر باتخاذ علامة الصليب شعاراً للكنيسة. انظر: شاهين مكاريوس، أربع كتب في الماسونية، تاريخ الإسرائيليين، مكتبة مدبولي، القاهرة، ١٩٩٤م، ص٣١٠ ـ ٣١١.

(٣) شاهين مكاريوس، أربع كتب في الماسونية، مرجع سابق، ص٦١١ ـ ٦١٣.

(٤) رفيق شاكر، السلطان عبد الحميد وفلسطين، مكتبة مدبولي، ط٥، القاهرة، ١٩٩٠م، ص٢٠. يبدو من سلسلة هذه الاضطهادات التي لاقاها اليهود في أوروبا أنها نتيجة مباشرة لأعمال اليهود التخريبية في كل مكان يتواجدون فيه، وقد انتهز اليهود فرصة هذه الاضطهادات حتى يظهروا أمام العالم أنهم شعب مظلوم ومضطهد في العالم.

أما أقسى اضطهاد لاقاه اليهود هو الاضطهاد الأكبر في بلاد الأندلس حينما نزحَ فريقٌ منهم إلى إسبانيا، وعاشوا تحت حكم القوط والرومان، وقد ضُيِّقَ عليهم في عباداتهم، وصودرت معابدهم، وذلك بسبب هُزْئِهم من الكاثوليكية والسُّخرية منها(١).

وبالإضافة إلى اضطهادهم في مختلف بقاع العالم واجه اليهود إحراقَ كتبهم الدينية في كثيرٍ من البلاد الأوروبية.

ففي عام ١٢٤٤م أمر ملك فرنسا بإحراق نسخ التلمود.

وفي عام ١٢٤٨م أمر الكردينال (ليجات أودو) بإعادة إحراق التلمود.

وفي عام ١٣٢٢م أُحرقت نسخُ التلمود في روما، بأمر من البابا (جون الثاني والعشرين).

وفي عام ١٣٥٣م أمر البابا (يوليوس الثالث) بإحراق نسخ التلمود في بارسيلونة والبندقية وروما وبيسارو.

وفي عام ١٥٥٨م أعيد إحراق نسخ التلمود في إيطاليا.

وفي عام ١٥٥٧م جمع شعب بولندا جميع نسخ التلمود وأحرقوها.

وقد سبب عداءُ هذه البلاد حقداً دفيناً في نفوس اليهود، وكان له تأثيرُه البالغ في أفعالهم وكيدهم لكلِّ بلدٍ يعيشون بين أرجائه.

وفي القرن الأول الميلادي عُومِلَ اليهود في إسبانيا بصورة طيبة، فاتخذوا الحِرَفَ والمهن العلمية والصناعية، ونشأ بينهم الكتّاب والشعراء والأثرياء والموظفون وأصحاب الفنون(٢).

وفي عام (٦٣٣م = ١٢هـ) وبعد اعتناق ملوك إسبانيا الديانة المسيحية

---

(١) عبد الجليل شلبي، اليهود واليهودية، كتاب اليوم، عدد مارس، ١٩٩٧م، القاهرة، ص١١٥؛ وأيضاً محمد بحر عبد المجيد، اليهود في الأندلس، المكتبة الثقافية، العدد ٢٣٧، الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر، القاهرة ١٩٧٠م، ص١٣ ـ ١٧.

(٢) شاهين مكاريوس، مرجع سابق، ص٦١٩.

صدر قرار من الدولـة ينصُّ على أنَّ اليهود الذين عُمّدوا ثم ارتـدوا وعادوا إلى اليهودية يجب أن يُفْصَلوا عن أبنائهم، ويباعوا أرقاء، كما حُرّمَ عليهم امتلاكُ الأراضي، وكلّ عمل مالي وتجاري مشترك بينهم وبين المسيحيين(١).

ونتيجة لهذه المعاملة التي عانى منها اليهودُ على يد ملوك إسبانيا الذين اعتنقوا المسيحية، ونتيجة لاضطهادهم؛ رحَّبَ اليهود بالعرب، الذين دخلوا إسـبانية فاتحين لها عـام (٧١١م = ٩٣هـ)(٢) وقد وجد المسلمون من اليهـود المستعبَدين مساعدةً كبيرةً، وكان المسلمون كلّما دخلوا مدينة حرروا يهودها، فكان اليهـودُ بدورهم يقدّمون خدماتهم للجيش الإسلامي الذي كان بقيـادة طارق بن زياد(٣).

وضع اليهود في إسبانيا بعد الفتح الإسلامي:

بعد الفتح الإسلامي لإسبانيا تمتّع اليهودُ بسماحة الإسلام، فشاركوا في نهضة البلاد، وكان من نشاط المسلمين الاهتمامُ بالجوانب العلمية والفكرية، فقامت هناك جامعات دُرّست فيها العلوم العقلية من طب، وهندسة، ورياضيات، إلى جانب دراسة العلوم الإسلامية الدينية، فاجتذبت هذا الجامعات روّادَ الثقافة من جميع أنحاء العالم، وكانت مدينة (طليطلة) مركزاً لهذه الحركة الثقافية(٤). وكانوا يتجمّعون أيضاً في مدن قرطبة وإشبيلية وسرقسطة واليسانة(٥).

كما نشطت حركةُ ترجمةٍ واسعة نقلت فيها الفلسفة الإسلامية إلى اللغات الأوروبية(٦).

---

(١) ويل وايريل ديورانت، قصة الحضارة، عصر الإيمان، مرجع سابق، ص٥٠.
(٢) أحمد نوري النعيمي، اليهود والدولة العثمانية، مؤسسة الرسالة، بيروت، دار البشير، الأردن، ١٩٩٧م، ص٢٢/٩.
(٣) محمد بحر، مرجع سابق، ص٢٠.
(٤) عبد الجليل شلبي، مرجع سابق، ص١١٥ ـ ١١٦.
(٥) محمد بحر، مرجع سابق، ص٢١.
(٦) عبد الجليل شلبي، نفس المرجع، نفس الصفحة.

وخلال فترة الوجود الإسلامي بالأندلس نزحَ عددٌ كبيرٌ من اليهود من مختلف بقاع العالم إلى إسبانيا، وشاركوا في النهضة العلمية التي كانت تعيشُها الدولة في ظِلِّ الإسلام، ووصل عددُ اليهود الذين نزحوا إليها في هذه الفترة إلى ما يقرب من خمسين ألف يهودي، قَدِموا من آسيا وأفريقيا[1] فمنحهم العربُ حرية العمل بالأنشطة الاقتصادية، وانتشروا في ميادين الزراعة والصناعة والمال، ولبسوا ثيابَ العرب، وامتهن عددٌ منهم مهنة الطب، وبرز غيرهم في مجالات الفلسفة والعلم[2] ومنحوهم أيضاً حرية التنقل والتجارة، وأعادوا لهم أراضيهم، وأعادوا لهم أبناءهم الذين كانت الكنيسة أخذتهم لتربيهم تربية مسيحية، وسمحوا لهم ببناء معابدهم، وإقامة شعائرهم، ومنحوهم الاستقلال القضائي في القضايا الشرعية[3].

ونتيجة معاملة المسلمين لهم راجت تجارتُهم في الأندلس، واحتكروا بعضَ أنواع التجارة كتجارة العبيد والحرير والتوابل، واستطاعوا جمعَ الكثير من الأموال التي كانوا يرسلونها إلى اليهود الفقراء في الأندلس وخارجها.

ونتيجة الانتعاش الاقتصادي بدأ اليهود في إنشاء مراكز ثقافية يهودية لهم، وبدؤوا يشجّعون العلماءَ اليهودَ، واختاروا قرطبةَ مركزاً لإنعاش دراستهم اليهودية، وكان في قرطبة حينئذٍ مكتبةٌ كبيرةٌ تضم آلاف المخطوطات في شتى أنواع العلوم[4].

وحدثت أيضاً في غرناطة نهضة إسلامية برز فيها عددٌ من الشخصيات اليهودية من أبرزهم (صموئيل بن ناجديلا) (٩٣٣ـ١٠٥٥م = ٣٢١ـ٤٤٧هـ)[5]

---

(١) ويل ديوارنت، قصة الحضارة: ٢/ ٥١، م٦، ترجمة عبد الحميد يونس، مكتبة القاهرة الكبرى.

(٢) أحمد نوري النعيمي، اليهود والدولة العثمانية، مرجع سابق، ص٢٢/ ٩.

(٣) محمد بحر، اليهود في الأندلس، مرجع سابق، ص٢٠ ـ ٢١.

(٤) المرجع السابق، ص٢١ ـ ٢٢.

(٥) صموئيل بن ناجديلا كان عالماً تلمودياً وشاعراً، شغل منصب وزير للمالية عام ١٠٢٧م (٤١٨هـ) ولد في قرطبة عام ٩٩٣م ونشأ فيها، جمع بين دراسة التلمود والأدب =

ثم خلفه ابنه يوسف بن ناجديلا[1].

وكان العهد الإسلامي في إسبانية عهداً ذهبياً لليهود، فظهر منهم الشعراء والعلماء في اللغة العربية، كان من أبرزهم موسى بن ميمون (١١٣٥م - ١٢٠٤م = ٥٣٠ - ٦٠١هـ)[2]، وابن سهل الإسرائيلي (١٢١٢ -

---

= والعربي، وكان تاجراً. لما سقطت قرطبة في أيدي الإسبان انتقل إلى مالقة، كان أمين سر وزير الملك، ثم أصبح مستشاره، وأوصى الوزير وهو على فراش الموت أن يخلفه، وبذلك أصبح شموئيل عام ١٠٢٧م اليهودي الوحيد الذي شغل منصب وزير في دولة إسلامية، وحظي بهذا اللقب. وازدهرت غرناطة في عهد شموئيل من النواحي المالية، والسياسية، والثقافية. وكان عالماً وشاعراً ونابغةً في الفَلَكِ والرياضة واللغات، وقد ألّف عشرين رسالة في النحو (معظمها بالعبرية) وعدة مجلدات في الشعر والفلسفة، ومقدمة للتلمود، ومجموعة من الأدب العبري. كان يقتسم ماله مع غيره من الشعراء، وأمدَّ بالمال طائفة من الطلاب الشباب، وأعان الجماعات اليهودية في القارات الثلاث. كان وهو وزير الملك حاخاماً لليهود، يحاضِرُ عن التلمود. ولقّبه بنو ملته - اعترافاً منهم بفضله - بالنجيد - (الأمير في إسرائيل) ولما توفي عام ١٠٥٥م خلفه في الوزارة ابنه يوسف بن ناجديلا. (ويل ديورانت، قصة الحضارة: ١٣/ ٥٣، ترجمة محمد بدران، بيروت، تونس).

(١) انظر ويل ديورانت، مرجع سابق، ص٥٠، كان يوسف بن ناجديلا خلفاً لوالده صموئيل ابن ناجديلا في الوزارة.

(٢) موسى بن ميمون، فيلسوف يهودي وطبيب، من كبار اللاهوتيين اليهود في القرون الوسطى، يسميه الغربيون ميمونيدس. درس العلوم الدينية واليهودية والعربية، ولد في قرطبة سنة ١١٣٥م، وتوفي بمصر ١٢٠٤م ودفن بطبرية في فلسطين، تربّى في بيئة علمية، وعاش بقرطبة، ثم نزحَ إلى مصر، واستقرّ في مدينة الفسطاط، التي أسس اليهود فيها مدرسةً لتعليم الديانة اليهودية والفلسفة والرياضة والطب، وانضمّ موسى إلى هذه المدرسة، وأصبحَ من أساتذتها البارزين، وتتلمذَ على يده الكثير من اليهود.

مارس الطب، وعالج الحكامَ الأيوبيين، كما عمل طبيباً لصلاح الدين الأيوبي، وألّف كتباً كثيرة في الطب والفلسفة من أهمها كتاب (دلائل الحائرين)، كما كتب كتاباً في شرح (المشنا) سمي كتاب (السراج) وهو أقدم كتاب عبري بعد أسفار الكتاب المقدس.

وأنشأ مدرسة بالإسكندرية تعدّ نواةً للجامعة العبرية التي أنشئت في فلسطين، وله في الدين كتاب اسمه (الفرائض) وفيه عرض للحلال والحرام في الشريعة الموسوية. وتلقي رسائلُه الخاصةُ ضوءاً على تاريخ اليهود في القرن ١٢م. ولم يثبت ما أشيع عن اعتناقه =

١٢٥١م = ٦٠٩ ـ ٦٤٩هـ)[(١)].

كما اشتهر في قرطبة في القرن العاشر الميلادي الطبيب والسياسي حسداي ابن شبروط (٩١٥ ـ ٩٩٠م = ٣٠٣ ـ ٣٨٠هـ)[(٢)] وشموئيل هنغيد[(٣)]، وموسى بن خانوع[(٤)].

وفي تلك الفترة أيضاً برزت شخصياتٌ أخرى شملت كُتّاباً وشعراء ومؤلفين باللغة العربية منهم: شلومو بن عبيرول (١٠٢٠ ـ ١٠٧٠م = ٤١١ ـ ٤٦٣هـ)، ويهودا هليفي (١٠٨٥ ـ ١١٤٠م = ٤٧٨ ـ ٥٣٥هـ)، وموشي بن عزرا

= الإسلام (عجاج نويهض، مصدر سابق، ص٥١٤ ـ ٥١٥)؛ ومحمد بحر، اليهود في الأندلس، مصدر سابق، ص٩١.

(١) ابن سهل الإسرائيلي هو إبراهيم بن سهل الإسرائيلي الإشبيلي، الشاعر الطائر الزائع الصيت، له قصائد في مدح المتوكل على الله محمد بن يوسف بن هود ملك الأندلس، كان يهودياً ثم أسلم، كتب قصائد لابن جلاص، والى سبتة، ومات معه غريقاً، أكثرُ شعره وجداني، وله موشّحات، وديوان مطبوعٌ ـ شاهين مكاريوس، تاريخ الإسرائيليين، مرجع سابق، ص٦٨٠.

(٢) حسداي بن شبروط طبيب وسياسي يهودي، كوّن حوله مجموعةً من علماء اليهود التلموديين. ولد في أسرة ابن عزرا المثقفة، علّمه أبوه اللغات العبرية، والعربية، واللاتينية، ودرس الطب، داوى الخليفة من أمراضِه، وأظهرَ من واسع المعرفة وعظيم الحكمة في الأمور السياسية ما جعل الخليفة يعينه في الهيئة الدبلوماسية للدولة. تردّدَ الخليفةُ في منحه رسمياً لقب وزيرَ خشيةَ أن يثير عليه النفوس. قام حسداي بمهام منصبه بكياسة أكسبته محبّةَ العرب واليهود والمسيحيين على السواء، وقد شجع العلوم والآداب، وجمعَ حوله الشعراء والعلماء والفلاسفة، و لما مات تنافس المسلمون واليهود في تكريم ذكراه (ويل ديورانت، مرجع سابق، ص٥١). استدعيَ حسداي إلى قرطبة يهوداً كثيرين من الشرق، وأصبحَ في قرطبة مركزٌ روحي وديني، ازدهرت فيه الحضارة اليهودية الأندلسية، ترجم كتاباً في الطب إلى اللغة العربية؛ (انظر سلمان فلاح، تاريخ العرب، وزارة الثقافة والمعارف اليهودية، أورشليم، ١٩٦٥م: ١/ ٢١٦).

(٣) شموئيل هنغيد كان قائداً للجيش، وكان شاعراً وعالماً وزعيماً يهودياً، قدم إلى قرطبة من إيطاليا (عبد الجليل شبلي، مرجع سابق، ص١١٥).

(٤) (موسى بن خانوع) من علماء اليهود التلموديين، أنشأ أكاديمية تلمودية اجتذبت اليهود من أنحاء العالم. (انظر عبد الجليل شبلي، مرجع سابق، ص١١٥ ـ ١١٦).

(١٠٧٠ ـ ١١٣٨م = ٤٦٣ ـ ٥٣٣هـ)، ويهودا الحريزي (١١٧٠ ـ ١٢٢٥م = ٥٦٦ ـ ٦٢٢هـ)[١].

وكان من أبرز هؤلاء يهودا الحريزي (الذي تنسب إليه مقامات الحريزي). وتميزت هذه الفترة في الأندلس بالتعاون الثقافي الكبير بين العرب واليهود، حيث امتدت هذه الفترة من القرن العاشر الميلادي حتى القرن الثالث عشر[٢].

كان اليهود الموجودون بإسبانيا يلقّبون بالسفارديم (Sephardim) وترجِعُ أصولهم إلى قبيلة يهوذا الملكية[٣].

---

(١) يهودا الحريزي، عالم يهودي، تنسبُ إليه ترجمة مقامات الحريري إلى اللغة العبرية، وتأليف كتاب على نمط المقامات باسم (تحكموني) ميخائيل زفي، التاريخ، نشر وزارة المعارف والثقافة الإسرائيلية، أورشليم، ١٩٦٦م، ص١٩٦ ـ ١٩٧). ولد يهوذا في الأندلس وترجم (دلائل الحائرين) لموسى بن ميمون، وجال في إسبانيا وفرنسا، وكان يترجم ما يطلب منه من العربية إلى العبرية، زار مصر والشام والعراق، وكان يمدحُ وجهاء اليهود، ومما زاد أهمية مقامات الحريزي اشتمالُها على مقامتين ضمّنها تاريخَ الأدب العربي في الأندلس؛ انظر محمد بحر، اليهود في الأندلس، مرجع سابق، ص٩٣ ـ ٩٥.

(٢) ميخائيل زفي، التاريخ، مرجع سابق، ص١٩٦ ـ ١٩٧.

(٣) يطلق اسم سفارد أو صفارد على إقليم لعلّه آسيا الصغرى، نقل إليه نبوخذ نصر بعضَ اليهود في ٥٩٧ق.م ثم أُطلق اللفظُ بعد ذلك على بلاد إسبانيا ـ (ويل ديورانت، قصة الحضارة، ص٥٠) وذكر أيضاً لفظ صفارد في سفر عوبديا ما نصه: «وسبي هذا الجيش من بني إسرائيل يرثون الذين هم من الكنعانيين إلى صرفه، وسبي أورشليم الذين في صفارد يرثون مدن الجنوب، ويصعد على جبل صهيون، ليدينوا جبل عيسو، ويكون المُلك للرب (سفر عوبديا) الكتاب المقدس، فصل ٢، ص١٣١٤، طبعة ١٩٩٥م.

وقد أطلق السفارديم على يهود إسبانيا وهم من نسل قبيلة بنيامين، والسفارديم يدعون أنفسهم (باراستقراطية) اليهود على الأساس الديني الذي ينتمون إليه (انظر جمال حمدان، مرجع سابق، ص٢٣).

وفي إسبانيا الإسلامية تأثّر اليهود السفارد في عباداتهم وتلاوتهم وتراتيلهم بالذوق العربي، وانفردوا بنصوص شعرية ونثرية في أدعيتهم وصلاتهم، وكانت قريبةَ الشبهِ بما عند المسلمين، وتم اعتبار عبرية السفارد اللغة الرسمية للمسرح والإذاعة، وكانت لغة التعليم في المدارس، ويهود العالم العربي من السفارد، وكانوا في بادئ الأمر يتكلّمون=

وفي القرن الحادي عشر بدأت حركةٌ مسيحيةٌ تهدُفُ إلى احتلال شبه جزيرة إيبرية من المسلمين، وتسمى بالحركة الإسبانية، وأثناء هذه الحركة عامل الحكام المسيحيون اليهود معاملة حسنة؛ لذلك اعتُبِرَ القرنان الثالث عشر والرابع عشر سنوات هدوءٍ نسبياً لليهود في إسبانيا. وأنشأ اليهود في ذلك الوقت مراكز لدراستهم منها: المدرسة اللغوية واللاهوتية في لوسانية، وكان من أشهر أساتذتها (إسحق بن مرشاؤول) الذي نظم أشعاراً دينية مستخدِماً البحورَ العربية.

وفي ذلك الوقت أيضاً توسّعت مدرسة قرطبة حتى أصبحت داراً للإفتاء للشريعة اليهودية، ومن أشهر علمائها (يوسف بن أبي ثور) الذي ترجمَ إلى العربية مقتطفاتٍ من التلمود، وأهداها إلى الخليفة (الحكم الثاني)[1].

= العربية حتى القرن ١٣ ثم تكلّموا الإسبانية (انظر أحمد سوسة، العرب واليهود في التاريخ، العربي للطباعة والنشر والتوزيع، ط٧، دمشق، ص٦٩٩)؛ كما أنّ يهود إيران كانوا من السفارد (انظر حسن ظاظا، الفكر الديني الإسرائيلي، أطواره ومذاهبه، قسم البحوث والدراسات الفلسطينية، ١٩٧٥م، ص٢٤٦ ـ ٢٤٧)؛ أنشأ السفارديم لأنفسهم حياةً خاصة، وكانت لهم طقوس دينية متميزة، وكانت أعدادُهم في الدولة العثمانية تفوقُ جميع الهيئات الدينية الأخرى، حتى إنهم تزعّموا هناك كافة الملل، (انظر كمال حبيب: ٣٤٩/٢، نقلاً عن هاملتون جب وهارولد بوون، المجتمع الإسلامي والغرب، س.ذ: ٤١١/٢).

ويتميز السفارديون عن الإشكنازيين في الثقافة بسبب استفادتهم من العرب في الأندلس.

أما الإشكنازيون فكانوا منطوين على أنفسهم، وكانت أعلى الطبقات المرفهة من اليهود من السفارديم، وكانوا يعدون أنفسهم أرقى ثقافياً وأعلى من الإشكنازيين (انظر أحمد سوسة، مرجع سابق، ص٧٠٠).

أما قبيلة يهوذا فترجع إلى عهد الانقسام بعد وفاة سليمان ٩٣٥ق.م عندما أعلن رحبعام نفسُه ملكاً على دولة اليهود، فبايعه سبطا يهوذا وبنيامين في أورشليم على ذلك. وبعد ذلك انقسمت المملكة إلى مملكتين: جنوبية اسمها يهوذا وعاصمتها أورشليم، وشمالية واسمها إسرائيل، وعاصمتها شكيم، وكانت مدة مملكة يهوذا ٤٠٠ سنة وتعاقب عليها (٢١) ملكاً، ودمرت عام ٥٨٨، (انظر شاهين مكاريوس، تاريخ الإسرائيليين، مرجع سابق ص٥٧٨؛ وأحمد شبلي، مرجع سابق، ص٨٩).

(١) محمد بحر، اليهود في الأندلس، مرجع سابق، ص٣٤ ـ ٣٥.

وقد شهد القرن الثاني عشر نهضةً فكريةً في مختلف العلوم، وظهر في ذلك الوقت (سفر هقبالة) الذي ألّفه (إبراهيم بن داود الطُّلَيْطِلي)(١).

وفي أوائل القرن الرابع عشر كان وضْعُ يهود إسبانيا الاقتصادي والاجتماعي والثقافي جيداً، وعمل كثيرٌ من اليهود مستشارين اقتصاديين في الدولة، فنالوا ثقةَ الحكّام، وسمح لهم بتسوير أحيائهم على عادة اليهود، وفي ظل هذا الوضع ظهرت زعامة ذاتية قوية(٢).

ولم تبدأ أوضاع اليهود في إسبانيا في التدهور إلا منذ سقوط (يوسف بن ناجديلا) الذي كان يشغل منصب وزير المالية خلفاً لوالده، كما ذكرنا من قبل، والذي ظهر نفوذه على الدولة واضحاً، تشبَّه بالملوك في لباسه، ووصل الأمرُ به إلى أنه سَخِرَ من القرآن الكريم، فثار عليه العرب والبربر سنة (١٠٦٦م = ٤٠٩هـ) وصلبوه، ونكّلوا بأربعة آلافٍ من يهود غرناطة، وأرغم الباقون من اليهود على بيع أراضيهم ومغادرة البلاد(٣).

وكانت خاتمة عهد التسامح الديني في إسبانيا عام (١٢١٢م = ٦٠٩هـ) عندما دخل بعض الصليبيين إسبانيا بغرض طرد المسلمين منها(٤).

وانتهى عصر إسبانيا الإسلامي، وعاد الحكم المسيحي إلى البلاد مرّةً أخرى، وبين عامي (١٠٨٥م = ٤٧٨هـ) و(١٤٩٢م = ٨٩٨هـ) كان بعض اليهود يشغلون المناصب الكبرى في دول إسبانيا المسيحية، منهم القائمون على شؤون المال، ومنهم الدبلوماسيون، ومنهم الوزراء.

عادى اليهود المسيحية عداءً شديداً، حيث كانوا ينظرون إلى هذا الدين على أنه جاء ليهدِمَ مبادئ الربانيين التي تنادي بسمو اليهود كجنس، ووصفوا هذا الدين أنّه يسعى لتخريب مبادئ التلمود، الذي لا يقلّ قدسيةً عندهم عن العهد

---

(١) محمد بحر، اليهود في الأندلس، مرجع سابق، ص٨٢.
(٢) ميخائيل زفي، مرجع سابق، ص١٩٦.
(٣) ويل ديورانت، مرجع سابق، ص٥٣ ـ ٥٤.
(٤) المرجع سابق، ص٥٣.

القديم، فقاموا بشنّ حملاتٍ من التهم والافتراءات على مؤسس المسيحية وحوارييه وتلاميذه، ودخلوا في معارك ضد الدين الجديد، وشككوا في شرعية هذا الدين[١].

أما عن صورة اليهود لدى المسيحية فقد كان معتقداً عند المسيحيين أنَّ اليهوديَّ يطلبُ دم المسيحي لأغراض الطقوس الدينية، وأنه يسرق الأطفال المسيحيين ويقتلهم لهذه الأغراض، وأنّه يتعاون مع العرب المسلمين والتتار أعداء المسيحية، ومن هنا كان عداء أوروبا لهؤلاء اليهود شديداً، وصل إلى حَدّ التنكيل والطرد والسجن، ومصادرة أموالهم، فحاول اليهود بسبب هذا الاضطهاد استدرار عطف الشعوب، وجعلهم في صورة المعتدَى عليه المظلوم. وهناك رأيٌ يقول: إنّ كثيراً من الناس ساعد اليهود في محاولة إقامة وطن قومي لهم، حتى يتخلّصوا من شرورهم وتواجدهم في بلادهم[٢].

ومن ناحية أخرى قام اليهود بمحاولة التسلل إلى صفوف الرهبان، فأصبحَ منهم البطاركة والمطارنة الذين كانوا يتظاهرون بالتعصّب للمسيحية[٣]، بينما ينشرون مبادئهم سِرًّا بين صفوف النصارى، كما قاموا بمحاولة التغلغل إلى حريم ومصارف الشعب الإسباني بقصد التخريب.

ومن ناحية أخرى ادّعى اليهودُ أنَّ أفكار فلاسفة اليونان ـ أمثال أفلاطون وسقراط ـ مطابقة لقواعد اليهودية وأوامرها، كما ادعى حاخام اليهود أنَّ النظريات اليونانية هي نفس ما جاء في دين اليهود، وأنَّ الفلسفة التي سادت الغرب، ترجِعُ أصولها إلى اليهود وشريعة التوراة. وكانت نظرياتهم هذه تهدف إلى السيطرة والسيادة على الشعوب[٤] فصدرت الاتهامات ضدهم بالهرطقة، وأصبحَ مجرّد الاحتفاظ بكتاب لأفلاطون أو أرسطو جريمةً لا تغتفر، يعاقب عليها القانون،

---

(١) محمد بحر، اليهود في الأندلس، ص٨.

(٢) انظر أحمد شلبي، اليهودية، مرجع سابق، ص١٠٢ ـ ١٠٣.

(٣) من هؤلاء اليهود المبشر المشهور (زويمر) الذي طلب عند وفاته إحضار حاخاماً يهودياً وطلب منه أن يدفن في مقابر اليهود. (الناشر)

(٤) أحمد نوري النعيمي، مرجع سابق، ص٢٤. نقلاً عن: Atilhan, Cevat Rifat, Islami Saran Tehlike Siyonizm Ve Protokollar, S. 131.

وقد حدثت هذه الحركة الفكرية خلال القرن الرابع عشر، واستمرت حتى القرن السابع عشر[١].

وخلال القرن الرابع عشر أيضاً كان اليهود يمتهنون تجارة الرقيق، وقد ساعدتهم هذه المهنة على الانتقام من المسيحية، حيث إنهم كانوا يبتاعون الأسرى الإسبان ويبيعونهم بأسعار باهظة في الأقطار الأخرى[٢].

موقف الملك (فرديناند) والملكة (إيزابيلا) مع يهود إسبانيا:

كان يحكم إسبانيا عام (١٤٩٢م = ٨٩٨هـ) الملك (فرديناند) وزوجته الملكة (إيزابيلا) وكانا كاثوليكيين شديدي التعصّب للمسيحية، وكانا يبغِضان اليهودَ بسبب معاداتهم لعيسى (عليه السلام) فلم يعترف اليهود بعيسى أنّه المسيح، واعتبروه مرتداً عابداً للأوثان، وقد جاء عنه في (التلمود): «إنّ يسوعَ الناصريَّ موجودٌ في لُجّاتِ الجحيمِ بين القار والنار. وقد أتت به أُمّه من العسكريّ (باندارا) عن طريقِ الخطيئة. أما الكنائسُ النصرانيةُ فهي قاذوراتٌ، والواعظونَ فيها أشبهُ بالكلابِ النابحةِ».

كما أنَّ قتلَ المسيحيِّ كان من التعاليم المأمور بها. والعهد مع المسيحي لا يكون عهداً صحيحاً يلتزم اليهودُ القيامَ به. ومن الواجب أن يلعنَ اليهودُ ثلاث مرات رؤساء المذهب النصراني وجميعَ الملوك الذين يتظاهرون بالعداوة لبني إسرائيل[٣].

ولهذا أراد الملك فرديناند وزوجته وضعَ نهايةٍ لهؤلاء اليهود وأعمالِهم التخريبية ضد المسيحية تحت ستار العلم والفلسفة، فطالبهم الملك بضرورة دخولهم في المسيحية[٤].

---

(١) أحمد عثمان، تاريخ اليهود، مكتبة الشروق، القاهرة، ١٩٩٤م: ٣/ ٣٦.

(٢) س. ناجي، المفسدون في الأرض، العربي للإعلان والنشر، دمشق، ١٩٧٣م، ط٢، ص٢٨٦ ـ ٢٨٧.

(٣) سليمان مظهر، قصة الديانات، مكتبة مدبولي، القاهرة، ١٩٩٥م، ص٣٦٧ـ٣٦٨.

(٤) أحمد نوري النعيمي، اليهود والدولة العثمانية، مرجع سابق، ص٢٤؛ وس. ناجي، =

وفي ٣٠ مارس سنة ١٤٩٢م = ٨٩٨هـ) وقّعَ (فرديناند) و(إيزابيلا) مرسومَ نفي اليهود، مؤدّاه أنَّ جميعَ اليهود الموجودين في البلاد غير المعمَّدين ـ أيًّا كانت أعمارهم أو أحوالهم ـ عليهم أن يتركوا إسبانية في موعد أقصاه ٣١ يوليو (١٤٩٢م = ٨٩٨هـ)[١] ولا يسمحُ لهم بالعودة، ومن يخالف ذلك تكون عقوبته الإعدام، وعليهم أن يتخلّصوا من أمتعتهم خلال هذه المدة، ولهم أن يأخذوا معهم الأمتعة المنقولة وصكوك المعاملات دون النقد من ذهبٍ وفضةٍ[٢].

وقد حاولت بعض الشخصيات اليهودية الكبيرة أمثال (أبراهام سنيور)، و(إسحاق ابرابانل) دفعَ مبلغٍ كبير من المال لفرديناند وإيزابيلا في سبيل سحب مرسومهما إلا أنهما رفضا طلبَهم[٣].

ولم يستطع كبار الشخصيات اليهودية أن يثنوا الملكَ والملكة عن قرارهما، وإلغاء مرسوم طرد اليهود من إسبانيا[٤].

في هذه الفترة قام بعض اليهودُ بحرق منازلهم، وذلك لأخذ قيمة التأمين عليها، وتنازل البعض الآخر عنها للمجلس البلدي للدولة، وقام المسيحيون بتحويل المعابد اليهودية إلى كنائس، ومدافنِ اليهود إلى مراعٍ[٥].

وفي تلك الأثناء قامت الملكة (إيزابيلا) بتكوين محكمةٍ خاصّةٍ لمحاكمة اليهود، سُمّيت (بمحكمة التفتيش)، وثبت على أكثرهم تهمة خداع الكنيسة،

= مرجع سابق، ص٢٨٨؛ عبد الجليل شلبي، مرجع سابق، ص١١٤.

(١) ويل ديورانت: ٢/ ٩١ ـ ٩٣، م٦، الإصلاح الديني؛ وشاهين مكاريوس، تاريخ الإسرائيليين، مرجع سابق، ص٦١٩.

(٢) أحمد نوري النعيمي، مرجع سابق، ص٢٦ ـ ١٤؛ وشاهين مكاريوس، مرجع سابق، ص٦١٩.

(٣) ويل وايريل ديورانت، قصة الحضارة، الإصلاح الديني، ترجمة عبد الحميد يونس، مراجعة علي أدهم: ٢٥/ ٩١ ـ ٩٣، م٦، بيروت، تونس.

(٤) أحمد نوري النعيمي، مرجع سابق، ص٢٦ ـ ١٤؛ وشاهين مكاريوس، مرجع سابق، ص٦١٩.

(٥) ويل ديورانت، مرجع سابق، ص٩١ ـ ٩٣.

وممارسة المعتقدات الموسوية سِرّاً، وكان الغرضُ من محكمة التفتيش القضاء على الهرطقة في مهدها، بحيث ينسى الجيل الثاني أو الثالث من اليهود المعمّدين يهوديةَ أسلافهم. وقد ظلَّ ما يقارِبُ من مئتين وخمس وثلاثين ألفاً منهم في إسبانيا باعتبارهم مسيحيين.

وفي هذه الأثناء أخبر (فرديناند) أنّ اليهود عنفوا المتنصرين منهم، وحاولوا أن يعيدوهم إلى يهوديتهم مرة أخرى[1]، ونتيجة لذلك ذابت ثروات اليهود، وتنصّر خمسون ألف يهودي، وترك إسبانيا أكثر من مئة ألف منهم في موكب خروج طويل وكئيب[2].

سار المنفيون على متون الخيل أو الحمير أو على الأقدام. وناشد المسيحيون اليهود المنفيين أن يذعنوا للتعميد، فردَّ عليهم الربانيون بأن أكدوا أنَّ الله سيهديهم إلى أرض الميعاد، آملين أن يفتحَ الله لهم معبراً في البحر مثلما فعل لآبائهم في القديم مع (موسى عليه السلام)، ولما انقشعَ عنهم هذا الوهم اضطروا لدفع أجور باهظة لنقلهم بالسفن إلى البلاد المهاجر إليها، وفرّقت العواصف أسطولهم الذي كان يتألّف من خمس وعشرين سفينة، ومروا بكثير من المشاق، وتحطمت سفينة تحمل خمسين يهودياً منهم بالقرب من صقلية، وحكم عليهم بالسجن لمدة عامين، ثم بيعوا رقيقاً[3] وتعرّضَ بعضهم للحرق وهم أحياء، حتى قيل: إنّ (٢٨٠) منهم أحرقوا في سنة واحدة في إشبيلية[4].

وتمّ طرد (٣٠٠,٠٠٠) يهودي من إسبانيا، فغادروا جميعُهم إلى البلدان الإسلامية وشمال أوروبا[5]، واتجهوا مهاجرين إلى البرتغال وإيطاليا والمغرب

---

(١) أحمد نوري النعيمي، اليهود والدولة العثمانية، مرجع سابق، ص٢٦ ـ ١٤؛ وشاهين مكاريوس، مرجع سابق، ص٦١٩.

(٢) ويل ديورانت، مرجع سابق: ٢٥/ ٩٣، م٦، تقول أحد المصادر التركية: إنّ عدد اليهود الذين فضّلوا الهجرة، ولم يقبلوا تغيير دينهم غير معروف، إلا أنَّ الأرقام التي ذُكِرَتْ في هذا الصدد تتراوح بين (٢٠٠,٠٠٠) إلى (٥٠٠,٠٠٠) (Abdürrahman Küçük, Donmeler tarihi, Ankara, 1992, S 97)

(٣) ويل ديورانت: ٢٥/ ٩٣، م٦، مرجع سابق.

(٤) شاهين مكاريوس، مرجع سابق، ص٦١٩.

(٥) ميخائيل زفي، التاريخ، وزارة المعارف الإسرائيلية، مرجع سابق، ص١٩٨.

وفرنسا والدولة العثمانية[١].

في ذلك الوقت كانت البرتغال أكثر الأهداف ملائمةً للمهاجرين اليهود، فهاجر إليها عددٌ كبيرٌ وصلَ إلى ثمانين ألفاً مما أفزعَ ملك البرتغال (جون الثاني) الذي منحهم مهلة ثمانية أشهر على أن يرحلوا بعدها، كما أصدر أمراً إلى جنوده بالقبض على أولادهم من سنّ الرابعة عشرة، وإبقائهم في بلاده حتّى ينشؤوا فيها مسيحيين، فكانت النساء يطرحن أولادهن في الآبار والأنهار حتى لا يُنَصّروا[٢].

ولما تفشّى بين اليهود مرضُ الطاعون، انتشر بين المسيحيين، قام شعب البرتغال بالمطالبة بطرد اليهود من البلاد فوراً خوفاً من انتشار الطاعون في كلِّ أرجاء البرتغال، وقد يسّرَ الملك لهم الخروج عن طريق السفن بأجورٍ زهيدة، ومات منهم الكثيرُ جوعاً. وفي هذه الأحيان مكث مئتان وخمسون يهودياً على سفينة طوال أربعة أشهر لا يسمحُ لهم بالنزول في الموانئ، وذلك بسبب انتشار الطاعون بينهم[٣].

وحينما انتهت مهلة الثمانية أشهر قام الملك (جون) ببيع باقي اليهود المهاجرين إلى البرتغال بيعَ الرقيق، وانتزع الأطفال دون الخامسة عشرة من آبائهم، وأرسلهم إلى جزر القديس توماس لينشؤوا النشأةَ المسيحيةَ التي يريدها.

وسار الملك (أمانويل) على نهج سلفه، فأمر جميع اليهود والمسلمين الموجودين بمملكته أن يتنصّروا، أو يخرجوا من البلاد فوراً، وكان ذلك عام (١٤٩٦م = ٩٠٢هـ) كما قاموا بإجراءات قاسية لتنصيرهم، مما أدّى إلى تعبير أحد الأساقفة عن مشاهداته لبعض هذه الإجراءات بقوله: «لقد رأيتُ أطفالاً كثيرين يُسْحَبون إلى حوض التعميد من شعورهم»[٤].

وانتشرت المذابحُ في اليهود عام (١٥٠٦م = ٩١٢هـ) وقتل فيها ألف يهودي، ودفن مئاتٌ منهم أحياء، وفقدت إسبانيا بعض المزايا بخروج التجار

---

(١) أحمد نوري النعيمي، اليهود والدولة العثمانية، مرجع سابق، ص٢٧.
(٢) شاهين مكاريوس، أربع كتب في الماسونية، تاريخ الإسرائيليين، مرجع سابق، ص ٦٢٠.
(٣) ويل ديورانت، مرجع سابق، ص٩٤ ـ ٩٥.
(٤) ويل ديورانت: ٢٥/ ٩٧، م٦، مرجع سابق.

وأصحاب المهن والدارسين والأطباء والعلماء من اليهود والمسلمين .

ومن ناحية أخرى قام اليهود في عهد نابليون بمساعدة فرنسا لاحتلال إسبانيا انتقاماً من الإسبان نتيجةَ تهجيرهم منها، وبالمقابل ساعدت فرنسا ثوار إسبانيا كما قامت بتزويد اليهود بالسلاح[١] .

النزوح اليهودي إلى الدولة العثمانية بعد طردهم من إسبانيا:

كان لظهور الدولة العثمانية في القرن الرابع عشر وحلولها مكان الإمبراطورية البيزنطية في الأناضول وشرق أوروبا بمثابة طوق النجاة الذي عثر عليه اليهود الهاربون من إسبانيا، فقد فتحت الدولة العثمانية أبوابها على مصراعيها أمام اليهود مرحّبةً بهم، بينما انغلقت أمامهم معظم الأبواب الأوروبية المسيحية، وعاش اليهود في ظلّ التسامح العثماني حقبةً طويلةً امتدت خمسةَ قرون، حققوا فيه استقراراً لم يسبق له مثيل في تاريخهم[٢] .

وإذا كان اليهود قد حصلوا على العلم في بغداد والأندلس والفسطاط، وحصلوا على المال في معظم البلدان، إلا أنّهم لم يحصلوا على الراحة والاستقرار إلا في ظلّ الدولة العثمانية[٣]. مع ملاحظة أنَّ تاريخَ اليهود في الأناضول بدأ قبل هجرة اليهود السفارديم بقرون كثيرة[٤] .

كان المجتمع اليهودي في الدولة العثمانية يتكوّنُ من ثلاث مجموعات :

---

(١) أحمد نوري النعيمي، اليهود والدولة العثمانية، مرجع سابق: ٢٥/ ١٤ .

(٢) أحمد عثمان، مرجع سابق، ص٧ .

(٣) المرجع سابق، ص١٥ .

(٤) في القرن الرابع ق . م في إقليم إيجه اكتُشِفَت بقايا مستوطنات يهودية، كما يروي المؤرخ أرسطو أنّه قابل أناساً يهوداً تبادل معهم وجهات النظر خلال رحلته عبر آسيا الوسطى. كما اكتُشِفَت آثارٌ لمستوطنات قرب بورصة وعبر شواطئ بحر إيجه والبحر الأبيض المتوسط والبحر الأسود. كما وجد عامود برونزي في أنقرة يكشِفُ عن الحقوق التي منحها الإمبراطور أوغسطس لليهود في آسيا الصغرى. (أحمد نوري النعيمي، اليهود والدولة العثمانية، مرجع سابق، ص٣٣ـ٢٨).

الأولى: اليهود الذين عاشوا في الدولة البيزنطية، ثم خضعوا للدولة العثمانية بعد سقوطها.

والثانية: المهاجرون من النمسا والمجر وروسيا وألمانيا وبولندا.

أما المجموعة الثالثة: فكانوا اليهود المهاجرين من إسبانية والبرتغال وإيطالية نتيجة للاضطهاد الذي لا قوه في تلك الشعوب، وقد وجد هؤلاء الأمنَ والأمانَ في كنف الدولة العثمانية[١].

وكان أول اليهود القادمين إلى الدولة العثمانية من إسبانيا هم اليهود الذين كان يطلَقُ عليهم اسم (المارانوا)[٢]، ثم تدفّقت بعد ذلك مجموعات يهودية أخرى من ألمانية، كما تدفّقَ يهود فرنسا الذين طُرِدوا منها عام (١٣٩٤م = ٧٩٧هـ) إلى مدينة أدرنة في تركيا، واستقروا بها[٣].

وقام الأتراك بمساعدة هؤلاء اليهود حيث وجهت مجموعات كبيرة منهم إلى المدن الرئيسية في الدولة العثمانية كالقسطنطينية وأدرنة وإزمير وسلانيك، واستوطن اليهود أحياءَ كثيرةٍ قرب موانئ ومداخل إستانبول، وقاموا بمهمة الإشراف على سَكّ العملة، وفرضوا أنفسَهم على البلاط بوصفهم أطباء[٤].

وأصبحت مدينة إستانبول مركزاً للطباعة العبرية بين القرنين السادس عشر والثامن عشر، كما أصبحت إحدى أهم مدن اليهود في العالم، حيث أدخلت أولُ مطبعةٍ إلى الأراضي العثمانية بعد (٥٠) سنة من ظهور مطبعة (غوتنبرغ)، وفي

---

(١) عايدة العلي سري الدين، دول المثلث بين فكي الكماشة التركية الإسرائيلية، دار الفكر العربي، بيروت، ١٩٩٧م ص٣٢٢. و(Abdürrahman Küçük, Donmeler tarihi Ankra, 1992, S. 100.

(٢) يهود (المارانوا) هم اليهود الذين قدموا إلى الدولة العثمانية، واعتنقوا الإسلام طواعيةً دون إجبار، انظر عبد الوهاب المسيري، اليد الخفية، دار الشروق، بيروت، ١٩٩٨م، ص١٠٠.

(٣) أحمد نوري النعيمي، اليهود والدولة العثمانية، مرجع سابق، ص٢٩ ـ ٢٢.

(٤) المرجع سابق، ص٤٤؛ ومحمد حرب، العثمانيون في التاريخ والحضارة، مرجع سابق، ص٢٨٥.

عام ١٥٤٦م طبع اليهود أسفار التوراة الخمسة. وفي القرن الثامن عشر تأسست مطبعة (إبراهيم متفرقة) تحت رعاية الحكومة العثمانية[١] وكان من الشخصيات التي اشتُهِرت في ميدان الطباعة، (صموئيل بن محياس) و(دافيد) اللذان نفيا من أسبانية، وكذلك عائلة (صونسنيو) التي هي من إيطاليا[٢].

وفي (سلانيك) تمتّع اليهودُ بتعايش سلمي مع العثمانيين، وكانت سلانيك مركزَ تموينٍ اقتصاديٍّ للبلقان العثماني، فقام اليهود بوضع أيديهم على الميادين التجارية، والسيطرة على المرافق الاقتصادية في الدولة العثمانية، وتمتّعوا باستقلال ذاتي.

وعلى هذا النحو وجد يهودُ إسبانيا المأوى والرفاهية والحرية التامة، وممارسة شؤونهم الدينية، حتى إنّ قرارات ومراسيم الحاخام اليهودي كانت تصدِّقُ عليها الحكومة العثمانية، لدرجة أنَّ هذه القرارات تحولَت إلى قانون يخصُّ اليهود[٣]، وأصبح الحاخام في الآستانة يمثّلُ جميع اليهود في الدولة أمامَ الحكومة العثمانية[٤].

وقد سمح السلاطين لليهود بنقل تجارتهم في الشعوب الأوروبية إلى الدولة ولم يعرفوا مخاطرهم[٥].

سمح آل عثمان للمهاجرين اليهود المطرودين من إسبانيا بالاستقرار في كنف الدولة، الأمر الذي رفضته الدول الأوروبية لمعرفتها بدورهم وأساليبهم في صنع الفتن، واختلاق الأكاذيب، والسيطرة على البلاد[٦].

---

(١) انظر محمد حرب، الشعر التركي المعاصر من بداية الحركة الكمالية إلى نهاية الحرب العالمية الثانية، رسالة ماجستير غير منشورة، في جامعة القاهرة، كلية الآداب، قسم الدراسات الشرقية، ص٥.

(٢) عايدة العلي، دول المثلث، مرجع سابق، ص٣٢٣. نقلاً عن حسين عمر حمادة (الأدبيات الماسونية) دار الوثائق، دمشق ١٩٩٥م، ص٣٣٤.

(٣) أحمد نوري النعيمي، اليهود والدولة العثمانية، مرجع سابق، ص٣٧.

(٤) المرجع السابق، ص٣٨.

(٥) المرجع السابق، ص٤٦.

(٦) محمد سرحان، النظام العثماني، (الهجرة اليهودية إلى فلسطين ١٤٩٢ ـ ١٩٥٢م)، دار=

وقد فتح العثمانيون الباب ليهود إسبانيا منذ عام (١٤٩٢م = ٨٩٨هـ) للعمل والنشاط دون مراقبة عليهم، فما إنْ وطأت أقدامهم الدولة، حتى بدؤوا العملَ على تطوير علاقاتهم التجارية الخارجية، وإثارة الفتن، والسيطرة على أسواق المال والذهب، مما أثار عليهم الرأي العام الإسلامي في هذه الفترة وما تلاها من فترات[(١)].

وأصبح اليهود في الدولة العثمانية منذ هجرتهم إليها من إسبانيا من كبار أصحاب المحلات التجارية في إزمير وسلانيك وفي إستانبول[(٢)].

ونافسَ يهودُ إستانبول الصدرَ الأعظم والوزراء في فخامة منازلهم، وكانوا يديرون كثيراً من الأنشطة[(٣)].

إلى جانب هذا فقد أتاحت معرفة اليهود للغات الغربية وميلهم إلى التجارة الفرصة لهم لشغل وظائف هامة في الدولة في مرحلةٍ كانت تشهَدُ تطوير العلاقات مع الدول الأوروبية[(٤)].

وقد عبر رشيد رضا في (المنار) عن خطر اليهود بقوله:

«اليهود قومٌ اعتادوا الربا الفاحش، فلا يبذلون درهماً من المساعدة إلا لينالوا مثقالاً أو قنطاراً من الجزاء، وإذا كانوا بكيدهم وأموالهم قد جعلوا الدولة الفرنسية ككرة اللاعب في أيديهم، فأزالوا منها سلطة الكنيسة، وكانت تُدعى (بنتُ الكنيسة البكر) وحملوها على الظلم في الجزائر، وهي تفاخِرُ الأمم والدول بالعدل والمساواة، وهي في الذروة العليا من العلم والمدنية، والسياسة والثروة والقوة، أفلا يقدرون على أكثر من ذلك في الحكومة العثمانية وهي على ما نعلمُ من الضعف والحاجة إلى المال، وطمعهم فيها أشد، وخطرهم أعظم؟ فبيت

= دمشق، ١٩٩٣م، ص١٢.

(١) محمد سرحان، مرجع سابق، ص١٣.

(٢) المرجع السابق نفسه.

(٣) محمد نور الدين، تركيا في الزمن المتحول، رياض الريس للكتب والنشر، لندن، ١٩٩٧م، ص١٧٨.

(٤) المرجع السابق، ص١٧٧.

المقدس له شأن عظيم عند المسلمين والنصارى، فإذا تغلّبَ اليهودُ عليه أقاموا مُلك إسرائيل، وجعلوا المسجدَ الأقصى هيكل سليمان ـ وهو قبلتهم ـ معبداً خالصاً لهم»[(١)].

وفي القرن السابع عشر قامت حركات يهودية في الدولة العثمانية أُطلق عليها اسم (حركات تحرير) تدعو اليهود إلى الهجرة إلى (الأرض الموعودة) في فلسطين مما سبب توتراً في العلاقات اليهودية العثمانية، وبدأت مرحلةٌ جديدةٌ في حياة اليهود في الدولة العثمانية عرفت باسم مرحلة العد العكسي للنفوذ اليهودي في السلطنة العثمانية، حتى إنّ السلطان مراد الثالث (١٥٧٤ ـ ١٥٩٥م = ٩٨٢ ـ ١٠٠٤هـ) عبر عن وضع اليهود في تلك الفترة بقوله: «ما الذي يحصلُ لو قطعت رؤوس جميع هؤلاء»[(٢)].

اليهود في عهد السلطان مراد الرابع وظهور سباتاي زفي:

في عهد السلطان مراد الرابع (١٦٢٣ ـ ١٦٤٠م = ١٠٣٣ ـ ١٠٥٠هـ) كانت الدولة العثمانية تسير نحو الانهيار حيث دخلت الدولة في حرب مع البنادقة، كما

---

(١) رشيد رضا، المنار: ١٠/ ٧٢٥، م١٣، (الخطر على الدولة العثمانية من اليهود): وفي مجال حسن معاملة الدولة العثمانية لليهود المقيمين فيها نشير إلى الرسالة التي كتبها أحدُ الشخصيات اليهودية البارزة، وهو الحاخام إسحاق، والموجهة إلى يهود العالم في النصف الأول من القرن الخامس عشر يقول فيها: «أكتبُ هذه الرسالة، وأنا أصفُ حالة اليهود في ألمانيا حيثُ الموت أفضل لهم. إنّ إخواننا اليهود في ألمانيا يعانون معاناة كبيرة، إذ تمَّ إجبارهم وطردهم من ألمانيا، إنني من سلالة فرنسية، إلا أني وُلدتُ في ألمانيا، وعلى الرغم من ذلك فإنني أعلن لكم أنّ تركيا هي الأرض التي لا شيءَ يفتقد فيها، والجميع طيبون معكم، إنَّ الطريق للأرض المقدسة يكون مفتوحاً لكم عبر تركيا، أليس من الأفضل لكم أن تعيشوا تحت حكم المسلمين (يقصد الدولة العثمانية) أكثر من حكم المسيحيين، هنا يعيش كلُّ إنسانٍ بسلام تحت شجرة الكروم والتين، هنا يسمَحُ لكم بأن تلبسوا أروابكم وملابسكم اليهودية، أما الأرض المسيحية فعلى العكس من ذلك، وعليه أدعوكم لمغادرة الأرض الملعونة التي أنتم فيها، واذهبوا إلى تركيا»، أحمد نوري النعيمي، اليهود والدولة العثمانية، مرجع سابق، ص٢٩ ـ ٢٢.

(٢) عايدة العلي، دول المثلث، مرجع سابق، ص٣٢٤.

دخلت في سلسلة من الحروب مع روسيا، وقامت بمحاصرة ڤيينا للمرة الثانية، وكانت الدولة قد حاصرتها من قبلُ في عهد السلطان سليمان القانوني، إلا أنها لم تتمكن من دخولها، وبدأت مرحلة من التقهقر في عهد الدولة العثمانية(١).

في ذلك الوقت بدأ يسري شعورٌ لدى اليهود بالاجتماع تحت قيادة واحدة يتحرّرون فيها من سلطة الغير عليهم، حيث ظهرت موجةٌ كبيرةٌ معادية لهؤلاء اليهود في روسيا وبولندا وأوكرانيا، وكان ذلك عام (١٦٤٨م = ١٠٥٨هـ) وقد سيطر على اليهود في هذه الفترة فكرة الخلاص(٢).

ويعتقد اليهود أنَّ الأشياء التي فعلوها لا تولّد تطور فكر والحركات الفكرية في الزمان لم تحلّ مشكلاتهم والحروب التي قاموا بها لم تضمن حقوقهم؛ لذا فهم يبحثون عن شخص منتظر يحيي أسسهم الإيمانية ويحكمهم.

فما كان من مفكري حاخامات اليهود سوى اللجوء إلى الكتب الصوفية والنصوص الدينية القديمة في ديانتهم، يستلهمون منها فكرة خلاصهم من هذه المحن التي يواجهونها، وسيطرت عليهم في هذه الآونة فكرة المسيح المنتظر، حيث كان اعتقادُهم أنَّ المسيح سيأتي، ويعيد إليهم دولتهم واستقلالهم، فاتجهوا بكليتهم إلى يهودي يُدعى (ساباتايّ زفي) (١٦٢٦ ـ ١٦٧٥) الذي أعلنَ نفسه المسيحَ المخلّص لهؤلاء اليهود. وكانت هذه الدعوة في عهد السلطان مراد الرابع (١٦٢٣ ـ ١٦٤٠م).

والصفحات القادمة تَعرِضُ لنا الدور الذي قام به اليهود في تركيا من أجل السيطرة عليها من خلال دعواتهم نحو التحرر وإثبات كيانهم عن طريق التستر خلف الدين، وإعلانهم بقدوم المسيح، حتى يستطيعوا توجيه العالم إليهم، وقد نجحت حركتهم هذه إلى حدٍّ ما وكان على رأس هذه الدعوات دعوة (ساباتاي) الذي أعلنَ أنّه المسيح، وكون جماعته التي سميت (الدونمة) تلك الدعوة التي

---

(١) محمد حرب، يهود الدونمة، دراسات إسلامية تاريخية، مؤسسة الدراسات التاريخية، الكويت، بدون تاريخ ص١١؛ ومحمد حرب، العثمانيون في التاريخ والحضارة، المركز المصري للدراسات العثمانية وبحوث العالم التركي، القاهرة، ١٩٩٤م، ص٧٧ ـ ٧٨.

(٢) أحمد عثمان، مرجع سابق، ص٥٥.

أحدثت الكثير من الأمور السياسية والعقائدية والإعلامية في تركيا.

تقسيم يهود العالم:

يقسّمُ الباحثون يهودَ العالم إلى ثلاثة أقسام رئيسية هم:

١ ـ الإشكنازيون:

وهم اليهود الذين ينحدرون من أصول ألمانية، ويتكلّمون اللغة الألمانية، وكانوايسمونها لغة (الييدش) وهي خليطٌ من الألمانية والآرامية وبعضِ المفردات الأجنبية، وهؤلاء اليهود عاشوا في القرون الوسطى، وترجِعُ كلمة إشكناز إلى (شكناز) ومعناها (ألمانيا)، وكان هؤلاء الإشكنازيين يقتصرون على يهود ألمانيا في البداية، ثم شملوا بعد ذلك يهود أوروبا وفرنسا، وقسمٌ من النمسا[١]. ويطلق عليهم الأوروبيون المتهوّدون، ولم ير هؤلاء فلسطين، وهم غلاةُ الصهيونيين في وقتنا الحاضر.

٢ ـ السفارديم:

وهم اليهود الذين هاجروا إلى شبه الجزيرة الإيبرية بعد فتح المسلمين لها عام ٧١١م، كانوا يتكلّمون في بداية وجودهم اللغةَ العربيةَ حتى القرن الثالث عشر، ثم تكلّموا الإسبانية، واعتبروها لغة أساسية لهم، وتُعْرفُ لغتهم باسم (اللادينو)[٢].

ويختلفُ السفارديم عن الإشكنازيين في ثقافتهم نظراً لاستفادتهم من حضارة العرب في إسبانيا فبينما عاش الإشكنازيون منعزلين منطوين على أنفسهم، كان السفارديم يعتزون بأنفسهم، ويشعرون بتميزهم ثقافياً وحضارياً عن اليهود الإشكناز، فكانوا لا يخالطونهم، ولا يتزوّجون منهم، واستمرَ هذا الحال حتى القرن الثامن عشر[٣].

---

(١) أحمد سوسة، مرجع سابق، ص٦٩٨ ـ ٦٩٩.
(٢) انظر تعريف السفارديم في هذه الدراسة، هامش ص٢٥.
(٣) أحمد سوسة، مرجع سابق، ص٦٩٩ ـ ٧٠٠.

٣ ـ اليهود الشرقيون:

هم اليهود الذين غادروا فلسطين بعد السبي حيث انتشروا في العراق وإيران وسائر شمال أفريقيا وغيرها، وكانوا يتكلّمون لغةَ أهل البلاد التي يعيشون فيها.

لغات اليهود في الدولة العثمانية:

يمكن تقسيم لغات اليهود في الدولة العثمانية طبقاً للجماعات اليهودية التي كانت تعيش فيها كالتالي:

الجماعة الأولى: وهم يهود إسبانيا ويتحدّث (٧٧٪) منهم (اللادينو) وهي مركبةٌ من اللاتينية والإسبانية، وقد انقسمت هذه إلى لهجتين فرعيتين في أواخر القرن الخامس عشر: أولها في كاستليا، والثانية: اللغة المتحدثة بها في شمال إسبانية والبرتغال، وشكلُها المكتوبُ يسمَّى (لادينو) ويستخدم فيها الحروف الهجائية التركية الحديثة، وبها حروف في كتابتها تفرّقها عن اللغة الإسبانية، ثم صارت إسبانيا من ناحية الشكل.

الجماعة الثانية (٩٦٪) يتحدّثون الفرنسية.

والثالثة ويدخل ضمنها (الإشكناز) (٣١٪) وتتحدّث الألمانية.

الرابعة (٨٪) يتحدّثون العبرية.

وكلُّ هذه المجموعات تعرف اللغة التركية.

إن هذه الأرقام ذكرت من قبل (جلازر) بناءً على الإحصاء واستفتاءِ عشرين أسرة عام ١٩٦١م[1].

وكان (٤٨٪) من اليهود يعرفون الإنجليزية و(٣٣٪) يعرفون الرومية، وكانت الغالبية العظمى من اليهود تتحدث أكثر من لغة، ولكنَّ النسبة التي ذكرها (حويل) في التحدث بالعبرية نسبة عالية إلى حد ما.

---

(١) أحمد نوري النعيمي، اليهود والدولة العثمانية، ص٢٩ ـ ٢٢.

كما أنّ (القرائين) في القرم في الأزمنة الأخيرة كانوا يتحدّثون (تترية القرم) واليهود الذين كانوا يعيشون قديماً في دياربكر وسيفر وأُرفه، كانوا يتحدّثون العربية التي في جنوب دياربكر. ولكن اليهود الذين كانوا يقطنون في ماردين كانوا يتحدّثون بلهجة مختلفة، واليهود الذين كانوا يعيشون في (وان) و(بوكسلت) كانوا يتحدّثون الكردية(١).

وفي عام ١٦٦٠م (١٠٧١هـ) كان المهاجرون اليهود الإسبان يستخدمون اللغة اليهودية الإسبانية في الأراضي المجاورة للبحر الأبيض المتوسط وبحر إيجه(٢) وكانت هذه اللغة تسمى (اللادينو) إلى أن حلّت التركية محل (اللادينو) في منتصف القرن التاسع عشر(٣) وهذه اللغة مركّبة من اللاتينية والإسبانية(٤).

* * *

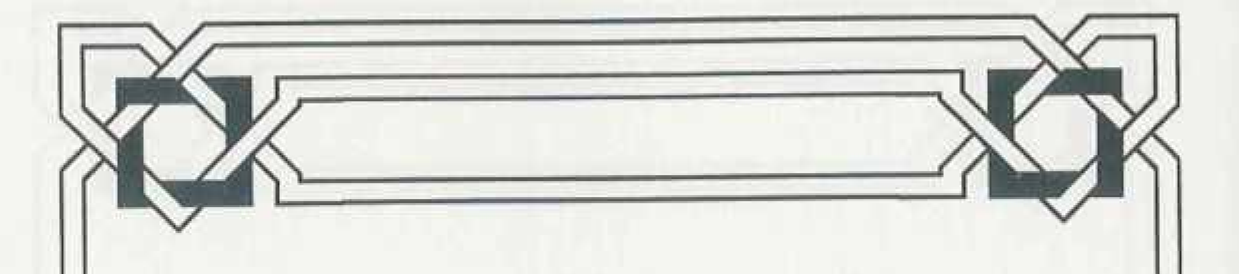
---

(١) أحمد نوري النعيمي، المرجع ذاته.

(٢) عايدة العلي سري الدين، دول المثلث بين فكي الكماشة، مرجع سابق، ص٣٢٤.

(٣) انظر عبد الوهاب المسيري، اليد الخفية، مرجع سابق، ص١٠١.

(٤) أحمد نوري النعيمي، يهود الدونمة، دار البشير، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٩٩٥م، ص٥٥. يتحدّث اليهود الأتراك باللغة التركية ويعتبرونها اللغة الأم، وثمانية في المئة فقط يتحدّثون العبرية، الأمر الذي استدعى فتحَ دورات لتعليم اللغة العبرية في المدارس اليهودية بإستانبول واللغة الأجنبية الشائعة بينهم، الفرنسية يتكلّم بها (٩٦٪) من اليهود في تركيا، والإنجليزية يتحدّث بها (٤٨٪) منهم، ويتحدّث باليونانية (٣٣٪)، أما الألمانية فيتحدّث بها (٣١٪)؛ (انظر محمد نور الدين، مجلة الدفاع الوطني اللبناني، عدد ٢٤/إبريل ١٩٩٨م، ص٨٠). ويقول عبد الرحمن كوتشوك: إنّ اليهود وصلوا في نهاية القرن السادس عشر وبداية القرن السابع عشر إلى أعلى درجات الانتشار، كما أنّ اليهود الذين خرجوا من إسبانيا ومن البرتغال سنة ١٤٩٢م اتخذوا من أغنى وأكبر المدن التركية مثل إستانبول وإزمير وسلانيك وأدرنة وبورصة موطناً لهم، ولم يتركوا اللغة الإسبانية، لكنّهم حافظوا عليها، لكونهم أصحاب مطبعة، واستمرّوا في نشر كتبهم وثقافتهم بلغات غير التركية والعربية، واعتبروا أنّ النفوذ والأموال والأملاك هي كل شيء، فحاولوا أن يكونوا أصحاب دولة خاصة بهم، A.R. Kuguk Donmeler Tarihi, Ankara,



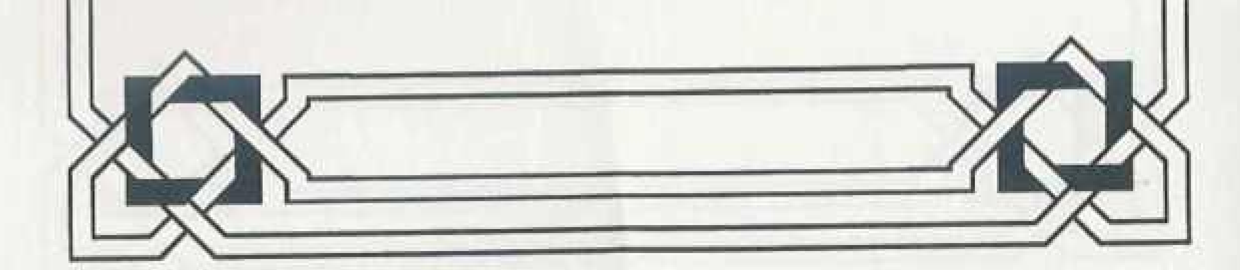
العلاقات التركية اليهودية
وأثرها على البلاد العربية

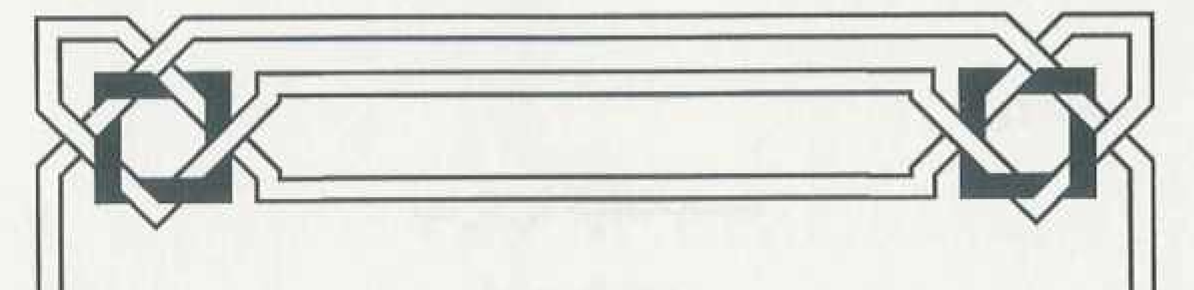
القسم الأول
في العهد العثماني

الباب الأول: الساباتائية في تركيا

الباب الثاني: التواجد اليهودي في ظل الدولة العثمانية

الباب الثالث: العلاقات اليهودية العثمانية في النصف الثاني من القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين



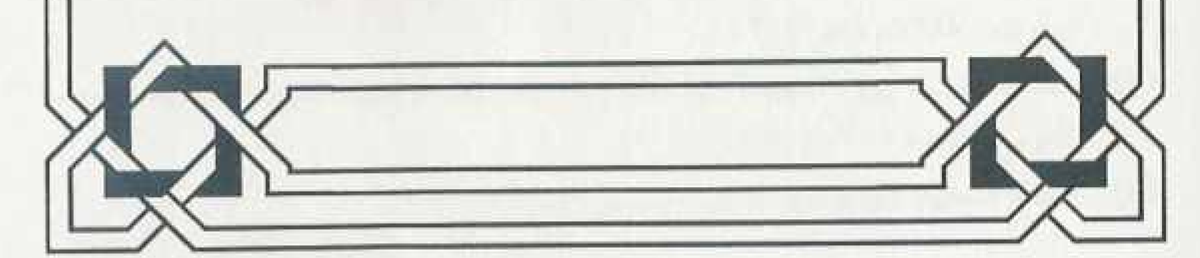


الباب الأول

الساباتائية في تركيا

(يهود الدونمة)

(اليهود الذين اعتنقوا الإسلام للقضاء على الدولة العثمانية)



الساباتائية في تركيا

يهود الدونمة

(اليهود الذين اعتنقوا الإسلام للقضاء على الدولة العثمانية)

في القرن ١٧ (في عام ١٦٤٨م) وخلال الصراع المذهبي في أوروبا سيطر على اليهود فكرة الخلاص والتحرر من سيطرة الدول التي كانت تضطهدهم(١).

استلهم اليهودُ فكرة خلاصهم في توجههم بعقيدتهم في ظهور المسيح الذي ينتظرونه، والذي سوف يخلّصهم من المعاناة، ويساعدهم على إقامة دولةٍ كبرى، ويرغِمُ العالم على اعتناق الدين اليهودي.

و(المسيحُ) كلمةٌ عبرانية تعني (المطهَّر)، وتعني الرجلَ الذي طهره يهوه (أي الإله عند اليهود)، ويطلق هذا اللفظ في التوراة على الملوك والأنبياء، كما يطلَق على الرجال الذين يقومون بعمل ديني مقدس. والمعنى الخاص هو: النبي أو المخلص الذي يرسله يهوه، لإنقاذ بني إسرائيل(٢).

وفي العبرية يُستخدَمُ تعبيرُ (هاميليخ هامشيح) بمعنى الملك الممسوح للدلالة على المسيح وأنّه سيكون من سلالة داود عليه السلام(٣).

---

(١) ذكرنا أيضاً أنّ اليهود الذين شُرّدوا في البلاد وجدوا ضالتهم في الدولة العثمانية، التي سمحت لهم بالاستقرار في بلادها، وقد توسّطت لهم لدى السلطان سليمان العثماني زوجتُه اليهودية التي كانت تسمى روكسلانة (حرم سلطان) وحصلت على إذن منه لهجرة هؤلاء إلى بلاده، فأقام قسمٌ من هؤلاء اليهود في إزمير، ومن هذا القسم ظهرت أسرة (سيفي) التي ولد لها ولد عام ١٠٣٥هـ أسمته (ساباتاي) وهو الذي ينتمي إليه يهود الدونمة، انظر محمود شاكر، التاريخ الإسلامي العهد العثماني، المكتب الإسلامي، بيروت، ١٩٨٧م، ص٢٠٣.

(٢) محمد حرب، يهود الدونمة إلى الآن يحجون ويصومون ويدخلون المساجد، مجلة العربي، العدد ٢٥٥، ١٩٨٠م، ص٤٤.

(٣) أحمد عثمان، تاريخ اليهود، مرجع سابق، ص٥٣-٥٥.

الشخصيات اليهودية التي ادّعت أنّها المسيح المنتظر:

لم يعترف اليهود بعيسى عليه السلام مسيحاً، ولهذا ادّعى كثيرٌ من اليهود أنّهم المسيح المنتظر، الذي سوف يخلّصهم، ويقيمُ دولتهم الكبرى التي تسودُ العالم. ومن هؤلاء (ثيوداس اليهودي)[1] الذي ادّعى أنه المسيح، وكان ذلك عام ٤٤م، و(باركوكبا) الذي ظهر عام ١٣٠م - ١٣٥م[2]، و(سيرنوس) الذي ادّعى النبوّة عام ٧٢٠م[3]، و(أبو عيسى عوبديا الأصفهاني)[4] الذي ظهر في

(١) ثيوداس، ظهر سنة ٤٤ ميلادية واتّبعه جمهورٌ من اليهود، وأراد أن يستغلّهم لصالحه سياسياً، فاجتمع بهم عند نهر الأردن، وادّعى أنه سيغلِقُ ماء النهر مثل موسى ليعبرَ هو والشعب معه، فعلم بأمره الحاكم العسكري الروماني للمنطقة، وأرسل كتيبةً من الفرسان، فقتلت مِنْ هؤلاء اليهود عدداً كبيراً، وقطعت رأسَ هذا المسيح، وحملته معها إلى قائدها. (حسن ظاظا، مرجع سابق، ص١٣١).

(٢) بركوكبا، يهودي ثائر، قام بإعلان الجهاد المقدس لطرد الرومان وغيرهم من فلسطين، والاستيلاء عليها لتكون وطناً لليهود، وادعى لأتباعه أنّه المقدس والمسيح المنتظر، ولما جاء جيش الإمبراطور الروماني (هدريان) وأباد اليهود في فلسطين، وغيّر أكثرَ آثارهم هناك بتهديمها ومحوها وتغيير أسمائها، تبين لليهود أنّ هذا المسيح المنتظر لم يكن إلا دجّالاً، فغيروا اسمه من (بركوكبا) أي ابن الكوكب أو النجم وجعلوه (بركوزيا) أي ابن الكذاب. (حسن ظاظا، الفكر الديني الإسرائيلي، أطواره ومذاهبه، قسم البحوث والدراسات الفلسطينية، طبعة ١٩٧٥م، ص١٣٣ - ١٣٤).

(٣) سيرنوس، ظهر في عهد عمر بن عبد العزيز (٧١٧ - ٧٢٠م) ولعلّ السبب في ظهوره هو أنَّ الخليفة عمر بن عبد العزيز كان قد لاحظ أنَّ اليهود أساؤوا استعمالَ الحرية التي نالوها في ظلّ الإسلام، فبدأ يشدّدُ الرقابة عليهم، ويأخذهم بالحزم، ويعاقبهم بشدة إذا انحرفوا عن جادة الصواب، بالرغم من أنَّ أخبار هذا المسيح الكذاب قليلةٌ، إلا أنه سعى لإقامة المجتمع اليهودي على حرية مطلقة، تتوغل فيه كثيرٌ من الفوضوية، بحجة تحريرهم من سلطة الحاكم. وقال بإلغاء السلطة الملوكية، وتعطيل شرائع التلمود والصلوات، وإلغاء عقود الزواج، ورفع الحظر عن المحرمات في الطعام والشراب. . . إلخ. وقد استمرَّ في دعوته إلى الخليفة يزيد بن عبد الملك بن مروان، الذي تلا عمر بن عبد العزيز. وقد ألقى هذا الخليفةُ القبضَ عليه، فأنكر جديته في هذه الدعوة، وقال: إنّه كان يعبثُ لمجرد الضحك. فأرسله الخليفة ليسلّم إلى بعض اليهود المتمسكين بدينهم ليتوب، وهكذا انتهت حركة سيرينوس هذا (انظر حسن ظاظا، مرجع سابق، ص١٣٥).

(٤) أبو عيسى إسحاق بن يعقوب بن عُوبديا الأصفهاني، عاش في عهد الخليفة الأموي =

أواخر العهد الأموي، و(سلومون) الذي ظهر في القرن ١٢م، و(موسى الدرعي) الذي ظهر عام ١١٢٧م، و(إبراهام أبو العافية) الذي جاء عام ١٢٨٤م، و(أشرإملين) من منطقة قرب (فينسيا) الذي ظهر عام ١٥٠٢م، و(داود الرائي) وهو من يهود الجزيرة العليا الذي ظهر سنة ١١٦٣م[١] و(داود الرأوبيني) الذي ظهر وادّعى النبوّة في القرن ١٦م[٢]، ثم ادعاء (ساباتاي زفي) مؤسس الدونمة

= عبد الملك بن مروان (٦٨٥ ـ ٧٠٥)، وهو من مواليد أصفهان ببلاد فارس، وقد تناول الشريعة بالتغيير والتبديل، ثم خلفه تلميذه (يوجدان) الذي ادّعى بدوره أنه المسيح المنتظر، وصدّقه قوم كثيرون، وقد أطلقوا عليه لقب (الراعي) وإليه تنسب طائفة (اليوجدانية) من اليهود، (حسن ظاظا، مرجع سابق، ص١٣٤ ـ ١٣٥).

(١) داود بن سليمان من مواليد مدينة (آمد) في إقليم كردستان سنة ١١٣٥م. درس في شبابه (التوراة)، و(المدراش)، و(المشنا)، و(التلمود) على أكبر أساتذة عصره، وكان لقبه الرسمي هو (رأس المثيبة) أي مدير الأكاديمية الشرعية اليهودية، أتقن (داود الرائي) علومَ العرب، التي كانت مزدهرة جداً في عصره ببغداد، وأوغلَ في تعلّم التنجيم والسحر وسائر هذه المعارف السرية.

وقد بدأ (داود الرائي) خطواته الأولى نحو ادعائه أنّه المسيح المنتظر حوالي سنة ١١٦٣م، بمحاولة القيام بحركة صهيونية دعا إليها بين يهود بغداد والإقليم المحيط بها، فكان ينادي بالذهاب إلى القدس، وانتزاعِها من أيدي العرب، وإعلان حكم يهودي فيها. ولم تكن دعوته مجرد نزوة في فكر (داود الرائي) ولكنّها كانت قائمة على تخطيط مدروس، وقد نجح في إثارة الفتنة في الدولة السلجوقية، وفي الخلافة العباسية نفسها، وسمّى نفسه (مناحم) ومعناها بالعبرية (المواسي) ثم أطلقَ على نفسه لقب الملك المخلص (المسيح) ولم يكتف بذلك، بل راح يذيع بين يهود العالم العربي أنّ رسالته المقدسة هي خلاص بني إسرائيل من الغربة والاحتقار والتشرد في الأرض، وجمعهم في فلسطين، واغتصاب هذه البلاد من العالم العربي، وإعلان حكومة يهودية مستقلة فيها تعيدُ مملكةَ داود وسليمان.

وتحول (داود الرائي) بعد قتله إلى أسطورة حافلة بالخوارق والمعجزات الخرافية. وقد أثار فتنةً بين العرب والمسلمين، كما جهّزَ جيشاً للقضاء على المسلمين واستعادة القدس منهم، وإعلان حكومة يهودية مستقلة، وقد قتِلَ على أيدي الجنود المسلمين، (انظر حسن ظاظا، مرجع سابق، ص١٤٠)؛ وكذلك حسان علي حلاق، موقف الدولة العثمانية من الحركة الصهيونية، جامعة بيروت العربية، ط٢، دار الهدى، ١٩٩٠م، ص٣٥.

(٢) ولد في خيبر في جزيرة العرب سنة ١٤٩٠، ومات في البرتغال مسموماً سنة ١٥٣٥ (انظر حسن ظاظا، مرجع سابق، ص١١٩).

الذي ادعى النبوّة عام ١٦٤٨م[١].

وحول ادعاءات هؤلاء الدجالين أنهم المسيح المنتظر جاء عن السيد المسيح قوله: «لأنه يكون في تلك الأيام ضيق لم يكن مثله منذ ابتداء الخليقة التي خلقها الله إلى الآن، ولن يكون. ولو لم يقصّر الربُّ تلك الأيام لم يخلص جسد. ولكنْ لأجل المختارين الذين اختارهم قصّر الأيام. حينئذٍ إن قال لكم أحدٌ: هو ذا المسيح هنا، أو هو ذا هناك، فلا تصدّقوا، لأنه سيقوم مُسَحَاءُ كذبةٌ، وأنبياءُ كذبةٌ، ويعطون آيات وعجائب لكي يُضِلُّوا لو أمكن المختارين أيضاً. فانظروا أنتم. ها أنا قد سبقتُ وأخبرتكم بكل شيء»[٢].

وقد فسر المفسرون اليهود الذين كانوا يشرحون الكتابات اليهودية المقدسة بشكل رمزي وصوفي أنَّ كلَّ حرف في الأبجدية العبرية يحمِلُ رقماً خاصاً به يدل على أحداثٍ لها معنى، وقام بعضُ اليهود بحساب بعض الكلمات الواردة في بعض آيات التوراة، واستخلصوا منها أنّ المسيح المنتظر سوف يظهر عام ١٦٤٨م، وهو المنقذ الذي ينتظره اليهود، ليخلّصهم من المحن والضيق الذي يتعرّضون له، ويجعلهم شعب الله المختار.

كما اعتقد بعض هؤلاء اليهود أنّ المسيح سيظهر ويتجلّى في صورة إنسان، وأنّه سيحكم العالم من فلسطين، وتكون القدسُ هي مركز الدولة اليهودية التي ستجمع أشتاتَ اليهود المتفرّقين في العالم[٣].

قام ساباتاي زفي في عام ١٦٤٨م بإبلاغ أصحابه بنبوته، وأعلنه في بيانٍ إلى يهود العالم جاء فيه:

«سلامٌ من ابن الله ساباتاي زفي مسيح إسرائيل ومخلّصها إلى كل فرد من بني إسرائيل:

---

(١) نوري النعيمي، يهود الدونمة، مرجع سابق، ص١٦ ـ ١٨.
(٢) العهد الجديد، إنجيل مرقس، إصحاح ١٣، آية ١٩ ـ ٢٣.
(٣) محمد حرب، يهود الدونمة، مرجع سابق، ص١٥.

لقد نلتم شرفَ معاصرة منقذِ بني إسرائيل ومخلّصهم، الذي بشّرَ به أنبياؤنا وآباؤنا، فعليكم أن تجعلوا أحزانكم أفراحاً، وصيامكم إفطاراً ولهواً، فلن تحزنوا بعدَ اليوم، فأعلنوا عن فرحتكم بالطنبور والأورغ والموسيقى، ولا تهابوا شيئاً، فإنّ حكمكم لن يقتصرَ على أممِ الأرض، بل سيتعداها إلى جميع المخلوقات في أعماق البحار، فكلُّ هؤلاء مسخَّرون لكم لرفاهيتكم»[١].

ولم يكتف ساباتاي بهذا البيان، بل إنـه طلب أن تُزَفَّ التوراة إليه حيث اعتبرها عروسَ الله ثم نطق ـ حسب ادعائه ـ باسم الله الأعظم الخفي المحرّم (يهوه) وأعلنَ بطلان كل النواميس والشريعة المكتوبة والشفوية[٢].

قام ساباتاي بتحريف النصوص الدينية لاستخدامها في دعوته، فقام بتحريف بيت من الشعر يقول: «دوم دود ليسفي» بمعنى «حبيبي يشبه الغزال» فجعله «ربي يشبه سباتاي سفي»[٣]. كما أنه كان يأخذ بعضَ ضعفاء العقول، ويذهب بهم إلى المقابر في الليل، ويمارس عليهم تأثيراً نفسياً، فكانوا يؤكّدون أنهم يسمعون أصواتاً في القبور تهتِفُ وتقول: ساباتاي زفي هو المسيح[٤].

وفي ذلك الوقت قام ساباتاي بنشر وثيقة مزيفة زوّرها له حاخامٌ دجّال يدعى (أبراهام ياكيني) في إستانبول جعلها كرّسالة قديمة تحمِلُ عنوان (تفسير مزامير سليمان) وفي هذه الرسالة خبرٌ يقول: إنّ مسيحاً سيولَدُ اسمه ساباتاي زفي. واستغلّ هذه الوثيقة للدعاية لنفسه[٥].

والجدير بالذكر أنّ عام ١٩٩٢م هو العام الخمسمئة على طرد اليهود من إسبانيا وكانت الاجتماعات تنظّم في الولايات المتحدة وتركيا وإسرائيل من أجل

---

(١) مصطفى طوران، يهود الدونمة، ترجمة كمال خوجه، دار الإسلام، إستانبول، ١٩٧٧م، ص١ ـ ١١.
(٢) عبد الوهاب المسيري، موسوعة المفاهيم والمصطلحات الصهيونية، مركز الدراسات السياسية والإستراتيجية بالأهرام، القاهرة، ١٩٧٥م، ص٢٢٦.
(٣) مصطفى طوران، مرجع سابق، ص٩، محمد حرب، يهود الدونمة، مرجع سابق، ص١٦.
(٤) حسن ظاظا، مرجع سابق، ص١٤٤.
(٥) محمد حرب، يهود الدونمة، مرجع سابق، ص١٨ ـ ١٩.

إحياء ذكرى هذه الطائفة اليهودية التي هاجرت من إسبانيا، وعاشت في أمانِ الدولة العثمانية(١).

ويشير (اليلغاز زورلو)(٢) بهذه المناسبة أنّه خلال هذا الاحتفال لم تُطرَقْ مسألةُ الساباتائيين على الإطلاق، وعلى حدّ قوله: «فإنّ هذا الأمرَ يثيرُ الاهتمام».

وحركة ساباتاي وتدعى (الساباتائية) هي واحدةٌ من الحركات التي تعبّر عن بؤس اليهود، وعن أزمة اليهودية التي انتهت بظهور الصهيونية، وهي كلُّها حركاتٌ هروبية، ترفضُ الزمان والمكان، وتطالِبُ بالانتقال من واقع تاريخي مُعاش إلى مجتمع جديد مثالي يشيّدُ على أرض فلسطين(٣). وقد استطاع ساباتاي أن يستأثِرَ

---

(١) Ilgaz Zorlu, evet, ben selanik liyim, turkiye sabetaycilige, 1988, istanbul, s.24.

(٢) (اليغاز زورلو) يهودي من سلانيك، ولد في مدينة إستانبول عام ١٩٦٩م. أتمّ تعليمه الأساسي والمتوسط في نفس المدينة، ثم تخرّجَ من قسم الاجتماع بكلية العلوم الإدارية جامعة (أولوداغ) في بورصة عام ١٩٩٠م ومن عام ١٩٩٠م - ١٩٩١م ذهب إلى القدس، لكي يُجري بعضَ البحوث والدراسات، وكان ذلك بمساعدة الدكتور. جاد ناسي، وخلال فترة تواجده في مدينة القدس قام ببعض الدراسات في معهد (بن زفي) الذي يحتفظُ بأهمّ المصادر التي تخصُّ جماعة الساباتائية في تركيا، وقد كانت دراسته كلّها عن الثقافة والتاريخ اليهودي. و(اليغاز زورلو) هو الحفيد السادس لشمس أفندي ذلك الرجل الذي كان مدرّساً لأتاتورك، وكانت مدرسته في سلانيك، كما كان من الساباتائيين (يهود الدونمة) وكتاب (الساباتائية في تركيا) الذي نشره في تركيا عام ١٩٩٨م هو أحدثُ كتابٍ يبحث في تاريخ الساباتائية في تركيا ومن أهمها أيضاً، وهو مجموعة من المقالات التي كتبها اليغاز ونشرها في المجلات المختلفة، مثل مجلة (التاريخ) و(المجتمع) و(التاريخ الاجتماعي) كما يضمُّ هذا الكتاب مجموعة من المقالات استقى معلوماتها من خلال الوثائق الموجودة في أرشيف بعض العائلات اليهودية الذين يحفظونها في سرية تامة. وأصول (زورلو) ساباتائية، وهو يعتقد أنَّ ساباتاي زفي هو واضع أكبر نظرية للساباتائية في منهج التصوّف اليهودي. وقد ذهب زورلو إلى إسرائيل لمدة تقرب من العام لإتمام أبحاثه ودراساته عن هذه الجماعة، واشترك في العديد من المؤتمرات، وتقرّبَ من بعض الكتاب الذين كتبوا مقالات عن الساباتائيين بالإضافة إلى مقابلاته مع بعض العائلات الساباتائية هناك.

(٣) عبد الوهاب المسيري، موسوعة المفاهيم والمصطلحات الصهيونية، مرجع سابق، ص٢٢٦.

بعواطف اليهود، وصدّقه الكثيرون[١].

وكانت الحركةُ الساباتائية حركةً يهوديةً دينيةً اجتماعية، قادها الدجّال ساباتاي، ليعبِّر بها عن أزمة اليهود في العالم، حيث تلتها العديدُ من الحركات، والتي انتهت بالصهيونية[٢].

ونستعرض في الفصول القادمة تفصيلاتٌ عن دعوة ساباتاي.

* * *

---

(١) قال (بندكت دي سبينوزا) الفيلسوف اليهودي في هولندا ـ وهو من أصل إسباني ـ حينما سُئِلَ عن رأيه في ساباتاي فقال: «إنّه لا يرى سبباً عقلياً يمنع إمكان إعادة الحكم الزمني إلى اليهود» نويهض، برتوكولات حكماء صهيون، مرجع سابق، ص٥١٩.

(٢) انظر نويهض، برتوكولات حكماء صهيون، مرجع سابق، ص٥١٩.

الفصل الأول

نشأة ساباتاي زفي - عقيدته - ومراحل دعوته

حياة ساباتاي زفي:

ولد ساباتاي زفي في إزمير عام (١٦٢٦م - ١٦٧٥م) في بيئة تلمودية متزمّتة، ومن أسرة يهودية إسبانية الأصل، كان أبوه مردخاي وكيلاً لشركة إنجليزية، وكان تاجراً ميسوراً له ثلاثة أبناء أصغرهم ساباتاي[١].

حبب مردخاي ولديه في التجارة، فاستجابا له، لكنّه لم يستطع إقناعَ ابنه الأصغر ساباتاي، حيث إنّه كان شغوفاً بقرءاة الكتب الدينية، فكان يرغَبُ أن يصبح حاخاماً، فعهد به إلى حاخامٍ يسمّى (إسحاق دالبا) فأثّر فيه كثيراً منذ صغره، وعلّمه التوراة والتلمود، وحبب إليه الكشف عن المعاني المجازية والتصوفية في الكتب الدينية، الأمر الذي هيأه للنجاح في محاولته بإعلانه أنّه المسيح المنتظر[٢].

أدخله والده مدرسةً يهوديةً، تعلّم فيها التوراةَ والتلمودَ، وظهرت عليه علاماتُ النجابة والذكاء، وتخرّجَ من المدرسة وهو في الخامسة عشرة من عمره، وكان يتغلّبُ على مناقشيه، ويسعى إلى تحريف النصوص الدينية[٣].

مارس مهنةَ التدريس، وأصبح حاخاماً وهو في سن الثامنة عشرة من عمره[٤] وحصل على مرتبة الأستاذية[٥].

---

(١) مصطفى طوران، مرجع سابق، ص٧-٨.

(٢) محمد حرب، يهود الدونمة، مرجع سابق، ص١٤-١٥؛ Ilgaz Zorlu,a.g.e.s.11.

(٣) مصطفى طوران، مرجع سابق، ص٧-٨.

(٤) أحمد عثمان، مرجع سابق، ص٥٦.

(٥) نوري، يهود الدونمة، مرجع سابق، ص١٢.

كان ساباتاي جميلَ الصورة ذكياً عالماً أنيقاً، حلوَ الحديثِ، يتميّزُ بطلاقةِ اللسان[١].

كما كان متميّزاً في قوة جاذبيته في التأثير على الآخرين، وكان يعيشُ صباه في عزلةٍ وتأمُّلٍ، ويقوم بطقوس عبادةٍ لا أصلَ لها في التقاليد الدينية اليهودية[٢]. حتى تكوّنت لديه نتيجة إدمانه قراءة الكتب الصوفية وتفسيرها وتحريفها عاداتٌ غريبة، فكان يواصِلُ الصوم، ويكثِرُ من الاستحمام والتطهّر، حتى يضفي القدسية على نفسه[٣]. ومن حالاتِه الصحية أنّه كانت تنتابُه حالاتُ صرعٍ، وكان معتلّ الصحة والمزاج[٤].

ويبدو أن حياة ساباتاي زفي النفسية لم تكن سويةً، لأنّه كان محباً للعزلة، وكان كثيرَ الاغتسال والتعطر، وكان أصدقاؤه يعرفونه برائحته الزكية[٥].

كما كان مولعاً بالسباحة صيفاً وشتاءً، وكان يقضي الليلَ وهو ينشِدُ أشعاراً بالعبرية والآرامية[٦].

عقيدة ساباتاي ومذهب القبالة:

كان ساباتاي زفي مؤمناً بالتصوّف اليهودي القبالي، التابع لمذهب القبالة[٧].

---

(١) محمد حرب، يهود الدونمة، مرجع سابق، ص١٥.
(٢) أحمد عثمان، مرجع سابق، ص٥٦.
(٣) محمد حرب، يهود الدونمة، مرجع سابق، ص١٦؛ Ilgaz Zorlu,a.g.e.s.12.
(٤) محمد حرب، العثمانيون في التاريخ والحضارة، مرجع سابق، ص٧٨؛ Ilgaz Zorlu, a.g.e.s.12.
(٥) عبد الوهاب المسيري، موسوعة المصطلحات الصهيونية، مرجع سابق، ص٢٢٦.
(٦) عجاج نويهض، بروتوكولات حكماء صهيون، مرجع سابق، ص٥١٧.
(٧) المرجع السابق، ص٥٠٥. ظهرت لفظة قبالة لأول مرة في أعمال الشاعر الإسباني ابن جبيرول في القرن الحادي عشر وتأتي من فعل (قابل קבל) بالعبرية بمعنى (تلقى هدية) وكانت تطلق في التلمود على كتابات الأنبياء والتوراة الشفهية، وفي القرن الثالث عشر استخدمت لتدل على أصحاب الحكمة الخفية أو أصحاب الأسرار المتلقين. (انظر =

والقبالة مذهبٌ في اليهودية مصدرُه التلمود، وتعودُ بذوره الأولى إلى الأنبياءِ (عزرا) و(حزقيال) و(نحميا) و(دانيال) و(أستير) أيام السبي الثاني النبوخذ نَصّري، وذلك بعد تخريب أورشليم، وتخريب الهيكل، ونقل كنوزه إلى بابل.

وقد دُوّنت تعاليم القبالة في وثيقتين عبريتين هما (السفر جزيرا) و(السفر هازوهار)[١]. مكتوبة باللغة الآرامية[٢].

وكتاب (القبالة) ينقسم إلى كتابين رئيسين كتاب الأخلاق (الذخار) (ويسمى الإشراق، والزوهر وهي تعني النور) وكتاب الخلق (يتندهار) وهما يشكّلان القبالة المكتوبة، وهناك كتاب يسمّى (القبالة الشفوية) وهذه القبالة تلقى اهتماماً خاصاً في أمريكا[٣].

أما عن منشأ القبالة فاختلفت الآراءُ في ذلك، فيرى البعضُ أنّ القبالة من الوحي، وأنّها ترجعُ إلى آدم عليه السلام.

ويرى آخرون أن أصل منشأ القبالة يعود إلى أيام السبي، حيثُ كان العقل اليهودي منغمساً في الآراء الشرقية ودين الفرس وزرادشت، والتأثيرات الهلينية[٤].

ومنشئو القبالة يردون أصلهم الروحي إلى كلماتٍ في سفر دانيال[٥].

= سوزان السعيد يوسف، المعتقدات الشعبية حول الأضرحة اليهودية، عين للدراسات والبحوث، القاهرة، ١٩٩٧م، ص٧٥.

(١) جوار رفعت أتلخان، أسرار الماسونية، المختار الإسلامي، ترجمه عن التركية نور الدين رضا الواعظ وسليمان محمد أمين القابلي، القاهرة، ١٩٧٥م، ص٩.

(٢) ilgaz zorlu, a.g.e.s.100 .

(٣) ilgaz zorlu, a.g.e.s.100.

(٤) abdurrahman kucuk, a.g.e.s.198.

(٥) سفر دانيال مؤلف من (١٢) فصلاً في نحو من (٢٥) صفحة. وقد تحدّث في الفصلين الأخيرين عن ملك الشمال وملك الجنوب، وعن المركبات والسفن والفرسان، والحرب وذهاب دولة وقيام أخرى، وهو يريدُ من خلال هذا كله أن يرمز إلى عودة اليهود من خلال الحروب الكبرى بين تلك الدول.

وكان دانيال من رجال السبي، وكان يشتهر بتفسير الهواجس النفسية، والأحلام والرؤى وقراءة المستقبل السياسي في بلاد الفرس[١].

وقد ذكر في سفر دانيال العديد من التنبؤات الفلكية، وكان الكلدان يهتمون بعلم التنجيم، ومراقبة الحركات الفلكية، وكانوا يزهون به زهواً رفيعاً؛ فعمَّ السحر العالم القديم، حتى استقرَّ في الأذهان، كأنّه قوة ضرورية في الأرض. وكان دانيالُ بارعاً في هذه العلوم، وما جرى عليه اليهود من أمرِ العمل لحفظ كيانهم بالتوراتيين: المكتوبة والشفوية، وكلتاهما من موسى كما يقولون[٢].

وكان دانيال منجّماً فلكياً، سياسياً، طموحاً، يعمل في سبيل العودة إلى أورشليم هو وقومه. وهذا ما رآه العالِمُ المعاصر من أمر اليهود في الحربين العالميتين في خلال الثلثين الأولين من هذا القرن، بعدَ دانيال بخمسة وعشرين قرناً[٣].

والكلمات التي جاءت في سفر دانيال في الإصحاح ١٢/ ٣ والتي اتخذها القباليون دستوراً لهم تقول:

«ويضيء العقلاء كضياء الجلد، والذين جعلوا كثيرين أبراراً كالكواكب إلى الدهر والأبد».

وقد اعتمد القباليون هذا النص وقالوا: إنما نحن المعنيون بهذا النص، ونحن هم الحكماء الذين أشار إليهم دانيال، وجعلوا هذا النصّ دستورهم[٤].

وكلمة (قبالة) العبرية تعني عادة أو عرف، وتأتي بمعنى الأخذ والفهم والاستيعاب ومعنى العلم الملهم، أو علم العرف، وتسمّى العلم الخفي أو الحكمة[٥].

---

(١) عجاج نويهض، بروتوكولات حكماء صهيون، مرجع سابق، ص٥٠٥.
(٢) المرجع السابق نفسه.
(٣) عجاج نويهض، بروتوكولات حكماء صهيون، مرجع سابق، ص٥٠٦.
(٤) نوري، يهود الدونمة، مرجع سابق، ص١٧.
(٥) abdurrahmhn kucuk, a.g.e.s. 198.

ومعنى القبالة في العربية هي القبول أو التلقي للرواية الشفوية، وفي مصادر أخرى جاء من معاني القبالة أيضاً: «القبالة مصطلحٌ يراد به التعليم الباطني المتعلّق بالله والكائنات، نزل وحياً على أكرم القديسين في الزمن القديم، واحتفظ به عدد قليل من الأخيار»[(١)].

وفي تعريفٍ آخر للقبالة أنها: «سر فوق الأسرار، ادّعت القِدَم والوحيَ والروايةَ عن الأوائل»[(٢)].

وفي موضع آخر نجدُ في معنى القبالة أنّها تلك الطريقة الفلسفية الشرقية الغربية التي أُدخلت في وقتٍ غيرِ معلوم التاريخ، على المذاهب اليهودية، وتحتوي على جميع آراء الربانيين في الشؤون الدينية والمدنية[(٣)].

والقبالة أيضاً كلمة أرامية معناها القبول أو تلقي الرواية الشفوية[(٤)].

والقبالة عند أصحابها هي تعلّمُ جميع المعاني الرمزية «لتجسيم الله» والقباليون يدّعون أنّ كتاب التكوين عندهم مستمدّ من موسى، وموسى استمدّه من إبراهيم، إذا لم يكن من آدم أو ممن هو أعلى من آدم وأقدم.

والقبالة كانت قائمةً على علم التنجيم السحري؛ تعاطاه كثيرون فسمّوا حكماء، درسوا (التلمود) ثم اجتازوه إلى تعاليم أعلى وأبعد[(٥)].

وكان هؤلاء الذين يتّبعون مذهبَ القبالة يبحثون عن معرفة العلائم التي تنبئ بظهور المسيح اليهودي، الذي ينقِذُ الشعبَ من الآلام التي يعانيها[(٦)].

---

(١) نويهض، بروتوكولات حكماء صهيون، مرجع سابق، ص٥٠٦ ـ ٥٠٧. ونحن مع هذا الرأي ذلك لأن قولهم في القبالة إنها كتاب التصوف قول خاطئ وهو بعيد كل البعد عن التصوف.

(٢) هـ. هـ فلمان صاحب كتاب (تاريخ اليهود من أقدم الأزمنة إلى العصر الحديث).

(٣) عجاج نويهض، بروتوكولات حكماء صهيون، مرجع سابق، ص٥٠٦ ـ ٥٠٧.

(٤) أحمد سوسة، مرجع سابق، ص٤٠٣.

(٥) المرجع السابق، ص٤٠٣ ـ ٤٠٤.

(٦) أحمد سوسة، المرجع السابق، ص٤٠٣.

والقبالة كمصطلح يعني عادة وعرف كما أن التصوف اليهودي معتمد على أساس الحرف والعدد. وتحتوي تعاليم ودستور القبالة على كتاب (الإشراق) واسمه في العبرية (الزوهر) أو (الذخار)، و(الزوهر) كلمة أرامية معناها النور[١].

وأهمية كتاب الإشراق لدى اليهود يضارعُ أهمية العهد القديم وقدسيته لديهم، ويضم شروحاً على فِقرات من التوراة وعظاتٍ دينية، وقصصاً شعبية[٢].

وهذا الكتاب مُتْخَمٌ بأخبار خلق العالم، وطبيعة الله، والمعاني الباطنية في التوراة، والرموز الخفية في أسرار الوجود، وعلل الكون.

وقد أقبل اليهود على هذا الكتاب لغرائبه، ووجدوا فيه متنفساً لهم بعد طردهم من إسبانيا[٣] وترجع الأشعار الصوفية التي يحتويها إلى زمن الحاخام (سمعان بن يوشاي) من القرن الثاني للميلاد، وقد قِيل عنه أنه وُجِدَ متخفّياً في إحدى مغاور فلسطين ثلاث عشرة سنة كشفت له من خلالها أسرار السماء والأرض[٤].

ومن أساطير الزوهر أنّ الاثنين والعشرين حرفاً من الأبجدية الآرامية نزلت من السماء قبل الخليفة بستة وعشرين جيلاً، وأنّها نُقِشت بالنار الملتهبة، كما يرون أنَّ كلَّ صلاةٍ تبعث قوة روحية تؤدي إلى انتصار الخير على الشر، وسوف تظهر مع ظهور المسيح المنتظر[٥].

---

(١) عجاج نويهض، بروتوكولات حكماء صهيون، مرجع سابق، ص٥١٦. في القرن الثاني عشر كان للعلوم الإسلامية في العصور الوسطى أثرها الكبير في التصوف اليهودي، حيث نهج اليهود نهج علماء المسلمين في علوم الكلام والتفسير وكان لكتب الغزالي أثرها البالغ على الفكر اليهودي عن طريق ترجمة أعماله إلى اللغة اللاتينية وخاصة كتابيه (المقاصد) و(التهافت) حيث قاموا باستبدال شواهده القرآنية والنبوية بأخرى من التوراة التلمود. (انظر سوزان السعيد يوسف، مرجع سابق، ص٧٦).

(٢) نوري النعيمي، يهود الدونمة، مرجع سابق، ص١٩.

(٣) عجاج نويهض، مرجع سابق، ص٥١٧.

(٤) أحمد سوسة مرجع سابق، ص٤٠٤.

(٥) المرجع السابق نفسه. وهذا المعنى يقترب من ديانة الزرادشت (ديانة الفرس القديمة)=

أسست القبالة أول موطنٍ لها في فلسطين بعد العودة من السبي، ثم انتقلت إلى الإسكندرية[1].

وفي هذه المناسبة نورد بعضَ معتقدات القبالة التي كان اليهود يعتقدونها:

- «اللانهاية تمثلها الكثرةُ في الزمان والمكان».

- «إنّ الواحد من القدماء الأولين طولُ وجهه أكبرُ من عشرة آلاف عالم بثلاثمئة وسبعين مرة، ولون وجهه يضيء أربعمئة ألف عالم. وكل يوم ينبثق من عقله أربعمئة ألف عالم».

- «الإنسان صورةُ الله، وهو أدنى من الملائكة، أمّا الشياطين فهي أسماء لشهواته واستكباره وقسوته»[2].

يقول مذهب القبالة بضرورة الصلاة من أجل مجيء الخلاص، كما ركّزَ على سلوك الزهد والتأمل والتعبد من أجل الإسراع في قدومه[3].

ومن هنا كان ظهور ساباتاي زفي، وإعلانه أنّه المسيح المنتظر، وعقيدتُه القبالية أثره الكبير في التفاف اليهود حوله[4]. وقد استغرق المؤمنون بالقبالة في السحر والشعوذة، وأَوَّلُوْا التوراة، ووصفوا الأعداد ٧ ـ ١ ـ ١٢ ـ ٣٢ بأن لها معاني رمزية خاصة.

قام ساباتاي زفي بالإملاء على مريديه كتاباً سماه (سر العقيدة الصحيحة) شرحَ فيها أصول دعوته، والتي استخلصها من كتاب (الزوهر) التابع لمذهب القبالة الذي ينتمي إليه. يقول ساباتاي زفي: إنّ دعوته تتلخص بالإيمان بإلـٰهين: إلـه للعالمين، وآخر لليهود، والاعتقاد (بالشخيناه) وهي حصن الله أو حلوله في الشعب، ويعتقد أيضاً: أنَّ رب العالمين هو العلّة الأولى، ومنه جاء إله إسرائيل،

= التي تقوم على وجود إلـٰهين: إلـه الخير وإلـه الشر. والنصر في النهاية لإلـه الخير

(١) عجاج نويهض، بروتوكولات حكماء صهيون، مرجع سابق، ص٥٠٩.

(٢) عجاج نوهض، مرجع سابق، ص٥١٠.

(٣) أحمد عثمان، مرجع سابق، ص٥٥ ـ ٥٦.

(٤) عجاج نويهض، مرجع سابق، ص٥١٦ ـ ٥١٧.

والعلة الثانية: أنَّ إلـهَ إسرائيل كان الوجود والموجودات(١).

أيضاً حاول ساباتاي أن يحاكي (النبي موسى عليه السلام) ويقوم بحركات غير طبيعية، فكان اليهود يلتفّون حوله، ويستقبلونه استقبالَ الملوك، وهم يرددون قائلين: «عِشْ طويلاً أيها المسيح الملك، عش طويلاً أيها السلطان زفي»(٢).

تقول المصادر: إنّ القبالة ظلّت موجودةً بين اليهود طوال العصر الوسيط، وأنّها مازالت تعيشُ بين يهود أوروبا وروسيا في القرن التاسع عشر تحت مسمّى هاسيدوت (Hasidut) (٣).

ويرى البعض أنّ القبالة كانت سبباً في ظهور تيارات متعددة، وكان أيضاً لها تأثيرها على المتصوّفة وأصحاب عقيدة وحدة الوجود، وعلى أصحاب الاعتقادات الباطنية(٤).

أمّا كتبُ الأدعية الخاصة بالمناجاة التي كان السباتائيين يرددونها، فهي محفوظةٌ الآن في المكتبات الكبرى التي تأسست في معهد (بن زفي) التابع (للجامعة العبرية) والذي تأسّس بعد تأسيس دولة إسرائيل، وأهمُّ هذه الكتب كتابٌ يحمِلُ أهميةً تاريخية بالنسبة للسباتائيين، تمّ طبعه في فلسطين، وهو سفر (شيروت وتشيباهوت شل هاشباتايم) عام ١٩٤٧م، وكان رجال العلم

---

(١) نوري، يهود الدونمة، مرجع سابق، ص٢٥، نقلاً عن عبد المنعم الحفني، الموسوعة النقدية للفلسفة اليهودية، دار المسيرة، بيروت، ١٩٨٠م، ص١٢٩؛ وكان أول بيان ألقاه ساباتاي إلى الشعب اليهودي جاء فيه: «من أول ابنِ لله، ساباتاي زفي، المسيح، مُخلص شعب إسرائيل، إلى جميع أبناء إسرائيل . . . السلام . . . لما كان قد قُدِّرَ لكم أن تكونوا جديرين برؤية اليوم العظيم، وإنجاز وعد الله إلى أبنائه، فلا بدّ أن تغيروا أحزانكم، فرحاً، وصومكم مرحاً، لأنكم لنْ تبكوا بعد الآن، فاستمتعوا وغنّوا، واستبدلوا باليوم الذي كان مِنْ قبل يُقضى في حزن وآلام، يومَ عيدٍ، لأنّي ظهرتُ . . .» أحمد شلبي، مرجع سابق، ص٢٤٤.

(٢) نوري، يهود الدونمة، مرجع سابق، ص٢٦، نقلاً عن ibrahim alaettik, govsa sabatay sevi, s. iutfi k.evi, istanbul, tarihsiz,, ss. 33 - 34.

(٣) (abdurrahman kucuk, a.g.e. .s. 150).

(٤) (abdurrahman kucuk, a.g.e. .s. 150).

الإسرائيليون يحفظون هذه الكتب بعيداً عن الأعين في سرية تامة(1).

كتب عالم إسرائيلي، يدعى (جيرشوق شويلم) كتاب (ساباتاي زفي المسيح المنتظر) ضمَّ هذا الكتابُ مجموعةً من الأشعار الساباتائية، جمعها الكاتبُ من أرشيف إحدى العائلات الإزميرية التي تنتمي إلى فرقة (القبانجلر) (إحدى الفرق التي ظهرت بعد وفاة ساباتاي) وهي مكتوبةٌ باللغة الإسبانية، أمّا لغة الكتاب الأصلية فهي اللغة العبرية، وبها بعضُ الأخطاء الإملائية نتيجة لعدم تمكّنهم من اللغة العبرية في ذلك الوقت. ومن هذه الأشعار:

يا ملك الدنيا والدين، نحن فداءٌ لك، ارحمنا، ونحن سنكونُ بجانبك نادمين.

يا من لم نر مثلك في العالم، ارحمنا، ونحنُ عاشقين لك.

نحن نفديك بأرواحنا، نحن عاشقين لك.

الآن يا نور القمر ارحمنا ونحن سنطيعك دائماً(2).

وأساس (نظرية الساباتائية) تعتمد على (نظرية الخلق)، التي تنسب إلى اليهودي المتصوّف (إسحاق لوريا). وتعرف هذه النظرية باسم (نظرية الانكسار) وتقول هذه النظرية: إن الآلهة قد أرسلت على هيئة ضوء ونور، وكل من تجمّعَ لرؤية هذا الضوء الإلٰهي لم يستطع أن يتحمله فماتوا، ومنهم جماعة لم يموتوا، وأصابهم شيءٌ من هذا الضوء، وعندما يعود هذا الضوء إلى مصدره سيظلون ملاحقين لهذه الأجزاء التي كُسرت(3).

وقد تمّ تناول شخصية ووظائف المسيح في النظرية الساباتائية من خلال نظرية (لوريا). ويؤمن الساباتائيون أنّهم سوف يموتون وهم مخلّصون من

---

(1) Ilgaz Zorlu, a.g.e.s. 36).

(2) Ilgaz Zorlu, a.g.e.s. 37.

(3) إسحاق لوريا هو شخص صوفي يهودي مهتمٌ بالفلسفة اليهودية، عاش في عهد الأشكنياز، وهو مؤسس السفارد، وقد أضيفت أشياء كثيرة لنظريته بعد موته. وهو أول من قال بالإيمان بالمسيح المنتظر، وهو الذي فتحَ الطريق لظهور الساباتائية.

ذنوبهم، وقد صرحوا بهذا في أدعيتهم ومناجاتهم الدينية، وهذه المقطوعة التي سنقرؤها هي أول مقطوعة شعرية من نوعها يظهرها الساباتائيون، وهي خاصة بفرقة (القبانجلر) وتقول:

يا بابَ الجنّةِ ويا بناءَ الجواهر!

يا ساباتاي يا تاج الرأس

أنتَ شموع الأعمدة وسوف نراها ومن سيراها[١].

سيرى الله

يا تاج الرأس يا ساباتاي

لو يكون هذا اليوم سنراك

وسنصل إلى مرادنا

وسنرى سيدنا

يا تاج الرؤوس يا ساباتاي

ستموتُ القشور والأشياء

وستظل الدنيا لنا، وسوف تعزف المزامير

يا تاج الرؤوس يا ساباتاي

ويرى في بداية هذه الأدعية والمناجات كيف أنّهم يطيلون الآمال من ساباتاي، بل إنّه هو نفسُه أصبح مطلباً وأصلاً لهم، وأنّ هذا سيتحقق بمجيئه مسيحاً عليهم، كما أنَّ الذنوب والأشياء سوف تُمحَى، وأنه سوف يعودُ داود للعزف مرّةً أخرى، ويُذكر أن ساباتاي سوف يكون من نسل داود.

وفكر وعقيدة الساباتائين تقول: إنّ المسيح سوف يأتي إلى الدنيا، ويغيّر جسدَه فيها لمدة ثمانية عشرة مرة منذ أيام إبراهيم، وبمجيء المسيح سوف يظهر

---

(١) Ilgaz Zorlu, a.g.e.s. 38.

كلُّ واحد من هؤلاء الثمانية عشر مسيحاً في صورة المسيح ساباتاي، وسوف يكون دور الساباتائيين يومَ القيامة هو إنقاذُ الناس من هول القيامة، وهم يسمّون أنفسهم بالمؤمنين، نتيجة لتلك الفلسفة، لأنّه عندما يأتي المسيح مرّةً أخرى سوف يأتي لإنقاذ المؤمنين به الصادقين فقط.

وعلى الرغم من أنَّ الحركة الساباتائية كانت تعتمد على نظرية القبالة وظهرت على أنها حركة صوفية يهودية، إلا أنّها بدأت تأخذ السمات الإسلامية بمرور الوقت، وقد بدأ هذا في الظهور منذُ نهايات القرن التاسع عشر وحتى الآن. وخاصة فرقة (اليعاقبة الساباتائية) فقد يتّجهون إلى الحركات الصوفية، وإلى إظهار اهتمام بهم، فمنذ أن أعلنَ ساباتاي زفي إسلامَه هو ومعه مئتا عائلة تابعين له، يتقرّبون إلى الجماعات الإسلامية، ولم يكن هذا في المجتمع العثماني فحسب، بل كان في كل أوروبا وآسية، حيث ترك الساباتائيون تأثيراً كبيراً لهم في نفوس الجماعات اليهودية، وذلك من خلال مبدئهم (الشبه والتشابهه) ومنذ ذلك الحين بدأ الساباتائيون يتقرّبون إلى الجماعات الإسلامية، بل إنّهم وجدوا صعوبةً في هذا التقرّب، لأنّه كان كرهاً منهم(١).

وكان الساباتائيون يدخلون الجماعات الدينية الأكثرُ تساهلاً في قواعدها الدينية، والأكثر تقرّباً إلى السلطة، والسبب الرئيسي لدخولهم في هذه الجماعات لم يكن للمحافظة على هويتهم السرية فحسب، ولكنّهم كانوا يهدفون إلى تشكيل سماتٍ ونماذجَ صوفية للطرق في الأديان المختلفة(٢).

وقد تركّزت نشاطات الساباتائين بالمتصوّفة الإسلامية في ثلاثة مراكز رئيسية هي (إستانبول) التي كانت عاصمة الدولة العثمانية، ثم بعد ذلك في غرب الأناضول في مدينة (إزمير) ثم بعد ذلك انتقلت إلى البلقان مثل (سلانيك) و(صوفيا) و(تراقيا) و(أدرنة).

---

(١) Ilgaz Zorlu, a.g.e.s. 39 - 40.

(٢) وهذا هو السبب في اشتراكهم مع الطرق الإسلامية الصوفية مثل الطريقة المولوية، والطريقة البكتاشية إلى جانب الملامتية.

وأول عمل قام به الساباتائيون في إستانبول بعد دخولهم الإسلام كان تحقيق المساعدة المادية في تأسيس تكية (عزيز محمود خداي) الذي كان من شيوخ الطريقة الخَلْوتية ومدفون في (أسكيدار)[١] . والسبب في هذا هو مكوث الساباتائيين لفترة طويلة في تلك التكية حتى مبادلة عام ١٩٢٤م[٢] .

ويحمل حي (بلبل دره سي) في (أسكيدار) مفهوماً خاصًا عند الساباتائين، لأنّ التلمود يقول: إنّ المسيح سيأتي على (صوت البلبل). لذلك كان هذا الحي هـو أكبرُ مركزٍ لتجمع الساباتائيين في إستانبول، بل إنهم أنشؤوا مدافنهم هناك[٣] .

وعندما ننظر إلى أماكن العبادة الأخرى التي أسسها الساباتائيون في إستانبول، نجد أنّها كلّها في (أسكيدار) وما حولها، وفي مدخل مدفن حي (بلبل دره سي) كما نجد مسجد (فيضيـة خاتون) وهو من إنشاء الساباتائيين، واسم هذا الجامع وهو (فيضية) إنما يرجع إلى أنّ هذه الكلمة تحتلّ معنىً رمزياً عند طائفة (القارقش الساباتائية) كما أنّ المدرسة التي تلقى أتاتورك تعليمه الأول فيها في سلانيك كانت تحمل الاسم نفسه[٤] .

وهناك بعض المصادر تدّعي أنّ ساباتاي زفي كان على علاقة مع نيازي المصري (التركي الأصل) وهو من المتصوفين الإسلاميين[٥] .

---

(١) Ilgaz Zorlu, a.g.e.s. 41.

(٢) وفيها تم استبدال المسلمين في اليونان بالنصارى واليهود في تركيا، واستثنيت إستانبول من هذا الاستبدال. (الناشر)

(٣) Ilgaz Zorlu, a.g.e.s. 41.

(٤) Ilgaz Zorlu, a.g.e.s. 41.

(٥) يمكن الاستفادة في هذا الموضوع من كتاب (تاريخ هامر) وذلك في الموضوع الذي يتعلّق بالساباتائيين، ويتعرّض أيضاً (باول مينتون) إلى هذا الموضوع في عِدّة مقالات، حيث يوضّحُ كيف تقابلت الثقافتان الإسلامية والصوفية اليهودية في عام ١٦٦٦م ويوضح أيضاً أنّ ساباتاي أقام فترةً في تكية المصري، وأسس معه علاقات صداقة، وهذه التكية هي تكية محمد باشا، الموجودة بجوار جامع السلطان أحمد. وقد أ قام=

وعندما ندرسُ الفلسفةَ التي كانت بين (زفي) وبين (نيازي المصري) نجدُ أنَّ كلا الاثنين ساباتاي ونيازي قد دافعوا عن ادعاءاتهم وأفكارهم المشتركة. وأنَّ كليهما أيضاً ادّعى أنّه هو المسيح والآخر هو المهدي، وقاموا بفعل أشياء تدلُّ على ذلك. كما أنّهما كانا يحاربان شيخَ الإسلام في ذلك العصر وهو (واني أفندي) لأنّه كان عدوهم الأوحد، وكان الناسُ ينظرون إليهما كمجانين، وكانوا يسخرون منهما دائماً.

وتقول الروايات: إنّ (نيازي المصريّ) تقابل فترة مع زفي في إستانبول أو أدرنة. ومع أنّه غير معروف كيف تفاهم الاثنان، وبأي لغة تحدّثا، إلا أنّه يدعم تابعيهم أنهما أثرا في بعضهما جداً. ولم يهتم أعضاء الفريق الذي كان يتبع نيازي المصري بأفكاره كمصدر لهم، بل إنّ أول من اتخذه مصدراً لهم هم الملامتية، وهي فرقة من الفرق الصوفية في ذلك الوقت. وأظهر الملامتية نشاطاً وتأثيراً مماثلاً لدور الساباتائية في البلقان وأوروبا[١].

ومع أن علاقة الساباتائيين بالطرق الصوفية استمرت حتى عام ١٩٢٤م إلا أنهم بعد عام ١٩٢٤م قلّ نشاطهم في إستانبول، وقلّ عددهم أيضاً. طبقاً لقرار الحكومة التركية بإغلاق التكايا والزوايا بعد ذلك بفترة، إلى جانب تقرّب الساباتائيين إلى الماسونية كان من الأسباب الرئيسة في انتهاء هذه العلاقة التي استمرّت كثيراً[٢].

وبالرغم من أن الساباتائية أو الدونمة كانت حركةً ذاتَ أصولٍ يهودية، إلا أنها كانت ذات تأثير قوي نتيجة تقرّبها إلى المؤسسات والطرق الصوفية الإسلامية؛ ولهذا يكون من الخطأ اعتبارُ أنّ الساباتائية امتدادٌ للثقافة اليهودية فقط[٣].

= كلاهما في هذه التكية لفترة، ويكتب (إسرائيل حازان) أنّ (ساباتاي) أضاف لطريقته ذكر يسمى اسم الله.(Zorlu, s. 42).

(١) Ilgaz Zorlu, a.g.e.s. 42 - 43.

(٢) ilgaz zorlu, a.g.e.s. 45.

(٣) Ilgaz Zorlu, a.g.e.w. 45؛ انظر إجراءات أتاتورك للسيطرة على الطرق الصوفية ومن ثمَّ=

وقد ظهر التأثير السياسي للساباتائيين منذ اتخذوا بعضَ المؤسسات المهمة مركزاً لهم مثل (جمعية الاتحاد والترقي)، و(المحافل الماسونية)، و(الطرق الصوفية)، وعلى رأسها (البكتاشية) و(الملامتية) و(المولوية) الأمر الذي جعل القصر يهتمّ وينتبه إلى هذه الجماعة. والشيء المثير هنا هو اهتمام الكتّاب العثمانيين بالساباتائية بعد ثلاثة قرون من تأسيسها، وكان أقدم كتاب كتب عن هذه الجماعة هو كتاب لمؤلف مجهول، وقد طبع عام ١٩١٩م(١).

في بداية هذا الكتاب قام الكاتب بإعطاء تعريف مختصر عن الدونمة، كما أعطى معلومات عن ساباتاي زفي، ويدّعي المؤلف أنّ هدف ساباتاي كان تأسيسَ دين جديد، لكنّه (أي ساباتاي) عندما هرب ترك جماعته على حال لا يستطيع حتى فهم نفسه.

ويوضّح المؤلف أيضاً أنّ الجماعة لم تكن تتكون من اليهود فقط، بل كانت تتألف من القِبْطِ والمجوس واليهود.

وتقدِّمُ الرسالة بعد ذلك معلومات عن الساباتائية، حيث تحدثت عن عادة الزواج عند الساباتائية، وعن انطوائهم على أنفسهم، كما تحدثت عن الغش التجاري عند (القبانجلر) و(القارقش) وهما الجماعتان اللتان تفرعتا من الساباتائية بعد وفاة ساباتاي زفي.

ويوضح الكاتب أنَّ الدونمة هم سبب تجوّل النساء في المجتمع التركي وهنّ عراة الرأس (بلا حجاب)(٢).

= إلغائها ملحق mustafa kara tekkeler ve zaviye ler istanbul, 1980, s. 389 - 423 ؛ انظر إغلاق التكايا والزوايا في، يلماز أوزتونا، تاريخ الدولة العثمانية، ترجمة عدنان محمود سليمان، م٢، منشورات مؤسسة فيصل، إستانبول، تركيا ١٩٩٠م، ص٥٠٠، وهدى درويش؛ الإسلاميون وتركيا العلمانية، دار الآفاق العربية، القاهرة، ١٩٩٨م، ص١١٠ ـ ١١٦.

(١) توجد معلومات موضحة ومختلفة عن الكتاب وما يحتويه قدّمها عبد الرحمن كوجك في كتابه (الدونمة ويهود الدونمة).

(٢) الكاتب دائماً في رسالته يستخدم كلمة الدونمة بدلاً من الساباتائية، وكتابه مكتوب باللغة العثمانية.

وقد حصر المؤلف كلَّ الخلاعة والمجون واللادين الذي ظهر في الأناضول والروملي في هؤلاء الدونمة، كما أظهرَ المؤلف أيضاً أنّهم كانوا سبباً في كثيرٍ من المشكلات التي وقعت فيها الدولة العثمانية. ويوضّحُ المؤلف أنّ احتفال الدونمة بالأيام المقدسة عند المسلمين وصومَهم رمضان لا يُعَدُّ سوى تعبير عن نفاقهم وخداعهم.

ويقولُ الكاتب في نهاية كتابه: إنّ الدونمة لهم طريقةٌ خاصةٌ في كيفية تكفين موتاهم، وذلك في القسم الأخير من الكتاب.. وهنا. ينتهي الكتاب، مما يوضِّحُ أنَّ له قسماً آخر، إلا أنّه لم يصادَف قط أي تسجيل له في المكتبات[١].

أما الآيات التي توضّحُ أنّ الساباتائيين بقية بني إسرائيل، فقد جاءت في الآيات ٢٢/ ٢٣ في السفر العاشر من أشعيا وتقول فيه: «حتى لو كان بنو إسرائيل مثل زبد البحر يتبقى منهم بقية ستعود» وقد آمن الساباتائيون أنّهم هم هؤلاء البقية الباقية[٢].

ويرى الساباتائيون أيضاً أنّ الدين اليهودي انتشر على شكل فكرين في مدة زمنية تتراوح بين خمسة آلاف سنة، الفكر الأول: **هو التوراة والتلمود**، والثاني **هوالتوراة والقبالة**، ويعتقدون أنّ الله خلق الدنيا قبل خمسة آلاف سنة، لهذا فإنّ تاريخهم يمتد إلى ما قبل خمسة آلاف سنة؛ لذا فهم يستخدمون تقويماً خاصاً بهم[٣].

مراحل دعوة ساباتاي زفي:

تزوّجَ ساباتاي وهو في الثانية والعشرين من عمره من امرأةٍ لم يمسّها استعداداً للمرحلة التي سوف يعلِنُ فيها نفسَه مسيحاً[٤] وكان اليهود يعتقدون أنَّ

---

(١) Ilgaz Zorlu, a.g.e.s. 46 - 47.

(٢) الكتاب المقدس، سفر أشعيا: ١٠/ ٢٢ ـ ٢٣؛ Ilgaz Zorlu, a.g.e.s. 106

(٣) Ilgaz Zorlu, a.g.e.s. 124.

(٤) محمد حرب، يهود الدونمة، مرجع سابق، ص١٧.

مخلصهم لابدّ أن يكونَ من بيت داود، وكان ساباتاي يحلمُ وهو صبي أن يصبحَ مسيحاً[(١)].

أمّا المفسّرون اليهود الذين يفسّرون الكتب المقدسة بشكل رمزي، فيقولون: إنّ كل حرف من الأبجدية العبرية له رقم خاصٌ به، ومجموع الأرقام لديهم تدلُّ على أحداث معينة، فاستخرجوا حساب بُني على كلمة ZAT ومقدارها طبقاً لحساب الجمل ٤٠٨ كما يلي: Z = ٧، A = ١، T = ٤٠٠، ويضيف القباليون (٥٠٠٠) عام إلى ٨٠٤، وهو ما يقابل عام ١٦٤٨م، ويعتقد اليهود أنَّ هذا هو العام الذي ينتظره يهود العالم المسحوقون، وهو العام الذي سيقودهم إلى السيادة على العالم، وهو تاريخ إجراء اليوبيل، وهو العام الذي سيعود فيه الإسرائيليون إلى فلسطين[(٢)].

قام (إسحاق لوريا) الذي اشتهر بلقب (أسد السفارد) في القرن ١٦ ـ وهو القرن الذي تشكّلت فيه الصوفية اليهودية ـ بإعطاء المتصوّفين اليهود صورةً كاملةً عن التصوف اليهودي، الذي لخّصه في ظهور المسيح الذي سينقذهم[(٣)]. فقد قام (لوريا) بتعليم تلاميذه أنَّ المسيح المنتظر سوف يأتي. ويصنع نهايةً للألم الذي تعرّضَ له اليهود.

---

(١) نوري النعيمي، يهود الدونمة، مرجع سابق، ص٢٧.

(٢) محمد حرب، يهود الدونمة، مرجع سابق، ص١٥ ـ ١٦. واليوبيل مراسم تتمُّ كل خمسين عام في شريعة موسى عليه السلام، وهو عام المسرة الذي يأتي كل خمسين عام، المصدر نفسه؛ abdurrahman küçük, s. 155.

(٣) تتمثل نظرية إسحاق لوريا في التصوف والتي تسمى نظرية الانكسار أنَّ العالم في بداية تكوينه لم يأتِ إليه الله بشكل مباشر، لأنَّ العالم لا يستطيع مقاومةَ نور الله، وإنما أرسل الله نوراً بسيطاً إلى الدنيا، وكان هذا الضوءُ كبيراً وقوياً، لأنَّ المادة لم تستطع تحمُّلَ هذا الضوء، فقد كان هذا سبباً في تكسّر هذا الضوء، ولكن نجح جزءٌ كبير من هذا الضوء في الرجوع إلى مصدره الأصلي وبقي منه (٢٦٨) جزءاً التصق بالمادة على الأرض، وبدأ في شكل القشور، والتصق هذا الضوء الإلـهي الموجود مع القشور، ويحتاج هذا الضوء إلى حادثة إصلاحية كبرى حتى يرجعَ إلى مصدره الأول والذي سيفعل ذلك هو المسيح المنقذ.

وبعد سنوات من موت (إسحاق لوريا) عاش اليهود عهدَ مذابح واضطرابات كان معظمها في روسيا وبولندا وأوكرانيا، وعلى الأخصّ في مناطق القوزاق، وأخذوا يترقّبون نهايةً لهذا الوضع، فجاء ساباتاي زفي الذي أملوا فيه أن يضع نهايةً لعذابهم، ليصلَ بهم إلى الضوء المقدس للآلهة من أجل إنقاذهم[١].

وفي عام ١٦٤٨م أعلن ساباتاي نفسَه مسيحاً بعد سماع أخبار مذابح اليهود في شرق أوروبا، وأعلنَ أنَّ الأمرَ جاءه عن طريق الوحي من الروح الإلـٰهية[٢].

وقد غضب عليه أحبار اليهود في إزمير، وقام معلّمه (الحبر) (جوزيف إسكابا) رئيس الطائفة اليهودية في إزمير بإعلان ساباتاي خارجاً عن التعاليم اليهودية بعد أن تمّ جلدُه تأديباً له، ولكنّه لم يرتدع[٣]، وحكم الحاخامون عليه بالإعدام، لكنّ الدولة العثمانية قامت بحمايته، ولم تنفّذ الحكم[٤] وفي ظلّ هذه الظروف تركَ ساباتاي إزمير، وتوجّه إلى إستانبول عام ١٦٥٠م[٥].

بعد ذلك تزوّجَ ساباتاي من فتاة بولونية تدعى (سارة) كانت هذه الفتاة جميلةً وذكيةً، ولها الكثير من المغامرات، فعند سماعها بوجود شاب وسيم في إزمير يدّعي المسيحية، أرادت أن تكسب شهرةً عن طريقه، فاختلقت (رؤيا) نشرتها بين اليهود، تقول: إنّها رأت نوراً سيسطع عام ١٦٦٦م وأنّها ستتزوج من المسيح الذي سيظهر في هذا العام، فانتهزَ ساباتاي هذه الفرصة، وادّعى أنّه أوحي إليه بالزواج من فتاة بولونية، فتزوّجها عام ١٦٦٤م في القاهرة، إلا أنّه لم يمسها أيضاً[٦]. في هذه الفترة قام حاخامات إزمير بإرسال رسالة إلى حاخامات إستانبول تحثّهم على الوقوف في وجه ساباتاي[٧].

---

(١) Ilgaz Zorlu, a.g.e.s.125, 103.

(٢) أحمد عثمان، مرجع سابق، ص٥٦.

(٣) أحمد عثمان، مرجع سابق، ص٥٦.

(٤) علي حسون، الدولة العثمانية وعلاقتها الخارجية، المكتب الإسلامي، ط٣، بيروت دمشق، ١٩٨٣، ص١٨٥.

(٥) محمد حرب، يهود الدونمة، مرجع سابق، ص١٩.

(٦) مصطفى طوران، مرجع سابق، ص١٢.

(٧) محمد حرب، يهود الدونمة، مرجع سابق، ص٢٠.

وبعد وفاة سارة تزوّجَ من إمرأةٍ من سلانيك تدعى (يوهيفيد) وأسماها عائشة[١].

وعند خروجه من سلانيك طلّقَ زوجته، وأعلنَ أنّه لن يتزوّجَ مرةً أخرى، لأنّه تزوج التوراة[٢].

عاد ساباتاي إلى إزمير مرّةً أخرى عام ١٦٥٩م، ومكث هناك فترةً من الوقت حتى تسنحَ له فرصة أخرى لإعلان دعوته[٣].

وفي عام ١٦٦٢م سافر ساباتاي إلى بلاد اليونان، وأقام في سلانيك، ثم انتقل إلى أثينا والإسكندرية والقاهرة[٤].

وفي عام ١٦٦٣م بدأ دورة جديدة من ادعاءاته بأنّه المسيح المنتظر، فجمع تابعيه، وتوجه إلى فلسطين، وفي طريقه اتجه إلى مصر في ضيافة (روفائيل جوزيف جلبي) الذي كان يعمل رئيس الصيارفة في القاهرة، وكان بالغَ الثراء، يعرفه المسلمون باسم (يوسف جلبي).

وفي ذلك الوقت قام بزيارة إلى القدس، وقام ساباتاي بالتوسّط لدى (روفائيل جوزيف) لمساعدة يهود القدس الفقراء، وبهذا استطاع ساباتاي أن يكسب (روفائيل) ويستفيدَ من دعمه المادي له[٥] وأثناء هذه الزيارة قابل رجلاً

---

(١) نوري النعيمي، يهود الدونمة، مرجع سابق، ص١٢.

(٢) محمد حرب، يهود الدونمة، مرجع سابق، ص٢٠. يقول إبراهيم الداقوقي في هذا الخصوص: «على الرغم من أنّ ساباتاي لم يمسَّ زوجاته، وما أشيع عن طهارته وتبتله وزهده إلا أنّ هناك روايةً تقول: إنّه لم يعرف الاعتدال الجنسي، وإنّه زنى بزوجة صديقه في مصر روفائيل جوزيف، الصراف اليهودي، وإنّه عاش طوال إقامته في مصر حياةً خليعةً؛ انظر نوري النعيمي، يهود الدونمة، مرجع سابق، ص١٤ نقلاً عن إبراهيم الداقوقي، فلسطين والصهيونية في وسائل الإعلام التركية، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ١٩٧٤م، ص٥٨.

(٣) محمد حرب، يهود الدونمة، مرجع سابق، ص٢١.

(٤) أحمد عثمان، مرجع سابق، ص٥٧.

(٥) محمد حرب، العثمانيون في التاريخ والحضارة، مرجع سابق، ص٧٨.

يدعى (أبراهام ناثان الغزاوي)،[1] وكان من غزة، وقد تأثر ساباتاي به، وخضع لتوجيهاته، حيث كان لهذا الرجل تأثير كبير في النفوس، فكانوا يعتقدون في قدرته على معرفة الأسرار، واتفقا أن يكون ناثان هذا نبياً لساباتاي.

أعلن ناثان أنّه تلقى رؤية مضمونها أنَّ ساباتاي هو مسيح إسرائيل، وأنّه المسيح المنتظر، كما أعلنَ أنَّ له اثنى عشر حوارياً يمثّلون أسباط إسرائيل.[2] وفي حزيران ـ يونيو عام ١٦٦٥م طاف ساباتاي على صهوة حصانه حولَ مدينة القدس سبع مرات.

وأعلن ناثـان أيضاً أنّه يجب إعلانُ توبـة اليهود حتى تسهلَ عملية قدوم الخلاص، وانتشرت الروايات والأساطير الشعبية عن ساباتاي زفي ومعجزاته، وقام اليهود بالامتناع عن الدعاء للسلطان العثماني، متوجهين إلى ملكهم الجديد ومسيحهم المنتظر ساباتاي بالدعاء[3].

---

(١) وفي رواية أخرى يسمى: أبراهام نطحان (مصطفى طوران، مرجع سابق، ص١٣) ولد ناثان بنيامين عام ١٦٤٤م وتوفي عام ١٦٨٠م وكان يسكن غزة، ادعى النبوة، له المعرفة التامة بالتوراة والتلمود، وعلم القبالة، وكان من أول المصدقين بساباتاي زفي والمؤمنين به، والداعين إليه. ولما مات زفي ادعى ناثان أن ساباتاي زفي لم يُقْبَض كسائر الناس، لكنه رفع، وساح في الفضاء، وانتشر مع الضياء العلوي. ولناثان كتاب في المذهب هو (سفر البرية)، وقد أرسل ناثان توجيهات إلى اليهود داعياً اليهود إلى التوبة، وقد قبلت توجيهاته حرفياً، وطبّقت من قِبَلِ اليهود برغبة وبحماس في المناطق البعيدة من أمستردام إلى اليمن، ومن الحدود الشرقية لبولندا إلى القرى المحيطة بجبال الأطلس في شمال أفريقيا، وفي الحقيقة كان ساباتاي ونبيه ناثان الغزاوي هما من أكثر الأشخاص شهرةً في مدة الموجة المسائحية. كان المسيح ساباتاي سفاردياً، بينما كان نبيه ناثان إشكنازياً، كان للأول شخصية آسرة جذابة وبدت عواطفه وتصوره أعظم من قوته العقلية؛ (انظر نوري النعيمي، يهود الدونمة، مرجع سابق، ص٢٩ ـ ٦٥)؛ وكذلك عجاج نويهض، بروتوكولات حكماء صهيون، مرجع سابق، ص٢٠٥.

(٢) أحمد عثمان، مرجع سابق، ص٥٧.

(٣) حل الدعاء الآتي في المعابد اليهودية في إستانبول محل الدعاء للسلطان العثماني: «إنَّ الذي يمنحُ الخلاصَ للملوك والحكمَ للأمراء، مالك الملك الأبدي الذي خلّص عبده داود من السيف القاتل، الذي يُعَبِّد طرقاً في البحر، ويشقُّ سبلاً في المياه العظيمة، هو=

بعد ذلك انهالت على ساباتاي وفود اليهود من كلٍّ من إزمير ورودس وأدرنة وصوفيا واليونان وألمانيا، وقامت هذه الوفود بتقليده تاج (ملك الملوك) وتصور أنه سيحكم العالم من فلسطين، وكان يوقع بلقب (الابن الوحيد الأول ليهوه)[١].

وفي الوقت الذي تمَّ قراءة الدعاء للملك في معبد (هامبورغ) في ذلك العام، كان يقرأ الدعاء للمسيح (ساباتاي زفي) وكأنه في نفس مرتبة ذلك الملك. وخلاصة القول: إن الحال بدا وكأن نوبة من الجنون قد حلت بجميع اليهود[٢].

قام ساباتاي بتقسيم العالم إلى ٣٨ قسماً، وعيَّن على كلِّ قسم ملكاً[٣]. وعندما أجريت له مراسم لبس التاج، أصبحَ يستقبِلُ زوّاره بمواعيد ومراسيم معينة، وكان له شغفٌ باستقبال النساء على وجه الخصوص[٤].

وكان اليهود يَلْقَونه بالترحيب والتعظيم، وانتشرت بينهم منشوراته، حتى إنّهم انقطعوا عن الدنيا، وتوقّفت تجارتهم، وأصبح التجار يتبرّعون بالذخيرة والأطعمة لتنقل إلى فلسطين أرضهم الموعودة، وفي هذه الأثناء اشتد هوسهم

= الذي يبارِك ويحفَظُ ويرعَى إلى الأبد سيدنا ومسيحنا، مبارك رب يعقوب الأسد والأيل السماوي، مسيح العدل، ملك الملوك، السلطان ساباتاي. ليحفظه الملك الأكبر، ويمنحه حياة، وليرعه، ويرفع نجمه ومملكته، ويجعل قلوبَ الملوك والأمراء تتجه نحوه ونحونا ونحو إسرائيل بالخير آمين»؛ انظر نوري، يهود الدونمة، مرجع سابق، ص٢٨ . نقلاً عن Scholem, c,p. 424.

(١) محمد حرب، العثمانيون في التاريخ والحضارة، مرجع سابق، ص٧٨. وفي هذا الصدد يقول خير الله أورس ـ وهو من الماسونيين الأتراك ـ في كتابه: موسى واليهودية Musa ve Yahudilik: «إن ساباتاي زفي الذي تلقّى الاحترام من قبل مجموعة صغيرة للغاية وقتئذ، قد حيّاه اليهود في رأس سنة ١٦٦٥ في معبد اليهود بشعار: «فليعش ملكنا المسيح».

(٢) نوري، يهود الدونمة، مرجع سابق، ص٣٠.

(٣) محمد محمد إبراهيم زغروت، دور يهود الدونمة في إسقاط الخلافة العثمانية، دار التوزيع والنشر الإسلامية، القاهرة، ١٩٩١م، ص١١ ـ ١٢ و Abdurrahman K., s.217.

(٤) مصطفى طوران، يهود الدونمة، مرجع سابق، ص٧ ـ ٨.

وتعلقهم بساباتاي، وكان ساباتاي يوقع منشوراته باسم (ساباتاي بن داود وسليمان)(١).

قام ساباتاي بقلب الشريعة رأساً على عقب، ولم يكن يتردد في جعل بعض الأشياء الممنوعة بصورة قطعية مباحةً، كلُّ ذلك أدى إلى بروز خطر وفوضى بين اليهود، الذين كانوا يخضعون من قبل لحاخاميهم في نظام متماسك عبر القرون، إضافة إلى ارتباطهم في جميع حياتهم المعيشية بأوامر الشريعة. وذلك لأنهم كانوا ينظرون إلى ساباتاي زفي بالتمجيد والتعظيم، لأنّه كان يمثل المسيح المخلص، ولم يُعْهَدْ أنّ يهودياً آخر لقي مثل ما لقي ساباتاي زفي، حتى تيودور هرتزل، الذي برز بعد مؤتمر بازل الأول سنة ١٨٩٧م، لم ينل من الالتفاف حولَه مثل ما نال ساباتاي زفي في القرن السابع عشر(٢).

وعلى صعيدٍ آخر قام عدد من الحاخاميين اليهود يعارضونه في أقواله وأفعاله، منهم حاخام إزمير، الذي أجبره أَتباع ساباتاي زفي على ترك وظيفته، وترك المدينة.

أما (نحميا كوهين) الحاخام البولندي الذي كان مطلعاً على كُتب استحضار الأرواح، فقد قضى مع ساباتاي زفي ثلاثة أيام في سجنه وهو يحاوره في معتقده، قال بعد مقابلته: إنّ ماذكره علماء اليهود بالنسبة إلى المسيح لاينطبق على ساباتاي زفي، فضلاً عن ذلك، فإنّ (نحميا كوهين) وبعض الحاخامين المعارضين لساباتاي زفي أبلغوا السلطان في أدرنة عن طريق القائمقام (مصطفى باشا)، بادعاءات ساباتاي زفي مؤكدين أن ساباتاي زفي رجل فاجر منغمس في الملذات، يغيّر من طاعتهم للسلطان، ويشجعهم على الثورة ضد الدولة، وأنّه ينبغي التخلّص من شروره(٣).

---

(١) عجاج نويهض، بروتوكولات حكماء صهيون، مرجع سابق، ص٥١٨.

(٢) نوري النعيمي، يهود الدونمة، مرجع سابق، ص٣.

(٣) فضلاً عن هذه المعارضة الداخلية من يهود الدولة العثمانية لساباتاي زفي، كانت هناك معارضة من بعض يهود العالم لادعاءاته، وعلى سبيل المثال قام يهودي في لندن بانتقاد ساباتاي زفي أمام جمهرة من اليهود قائلاً: «إني أراهن على أنّ الشخص الذي في إزمير،=

في تلك الفترة لم تتدخل الدولة العثمانية في أمر المسيح المزيف تأكيداً على تسامح العثمانيين الديني واستقلالية اليهود في الدولة، ومن ناحيةٍ أخرى كانت الدولة العثمانية مشغولة بحروبها في كريت[1].

وفي أواخر كانون الأول ـ ديسمبر عام ١٦٦٥م اصطحب ساباتاي زفي أتباعه من اليهود، وذهب بهم إلى إستانبول، ولدى وصوله تمّ القبض عليه، واقتيدَ إلى سجن (زندان قابيسي) في (غاليبولي) وكان الزوّار يتوافدون عليه من كلّ مكان، فاتُّهِمَ ساباتاي زفي بمحاولة التمرّد على الدولة العثمانية، وإقامة دولة لليهود على حساب الدولة العثمانية[2].

وبسبب هذه الأفعال تسبب ساباتاي في إزعاج السلطات العثمانية، فاستدعاه السلطان العثماني محمد الرابع، فخيّره بين الموت أو التراجع عن دعوته، فقرّر إنقاذَ نفسه بلجوئه إلى الإسلام، وإعلان إسلامه، وذلك في ١٥ أيلول ـ سبتمبر ١٦٦٦م وضحّى بإمبراطورية العالم[3].

* * *

= ساباتاي زفي، ما هو إلا دجّال!!» نوري، يهود الدونمة، مرجع سابق، ص٣٢ وIlgaz/ Zorlu,a.g.e.s 13 ويتضح لنا هنا أن موقف اليهود بالنسبة لساباتاي، ورفضهم له هو نفس الموقف الذي كان لهم مع عيسى عليه السلام، فقد شكا اليهود ساباتاي إلى السلطان العثماني محمد الرابع، مثلما تمّت شكاية عيسى عليه السلام إلى الحاكم الروماني بلاطيوس، وفي الوقت نفسه لم تقابل مبادئ القبالة قبولاً لدى الحاخامات اليهود، وذلك بسبب رفض اليهود المؤمنين بالتوراة والتلمود لها، ويعتقدون أنّهم استطاعوا فهم التوراة جيداً، ولهذا فلا داعي إلى نصوص القبالة.Ilgaz Zorlu,a.g.e.s,.80

(١) محمد حرب، يهود الدونمة، مرجع سابق، ص٤٩؛ مصطفى طوران، مرجع سابق، ص١٢، و.Ilgaz Zorlu,a.g.e.s.13

(٢) محمد حرب، المرجع السابق، ص٢٦ ـ ٢٨.

(٣) أحمد عثمان، مرجع سابق، ص٦.

الفصل الثاني

إسلام ساباتاي زفي

أسباب إعلان ساباتاي زفي إسلامه:

تسبب ساباتاي زفي في إثارة الكثير من الفتن وقت تواجده في إزمير، كما تسبب في إزعاج السلطات العثمانية كما ذكرنا من قبلُ، لدرجة أنّهم كانوا يتوجّهون بالدعاء لساباتاي زفي بدلاً من السلطان العثماني، باعتباره ملكهم، فقام الوزير (أحمد كوبرولي) بإصدار أوامره بالقبض على ساباتاي، ولمنع حدوث ثورة بين اليهود أمر بنقله إلى قلعة في جزيرة غاليبولي على الدردنيل، وكان ذلك في ١٩ نيسان ـ إبريل ١٦٦٦م اليوم السابق لعيد الفصح، وقد أثر انتقال ساباتاي في نفوس مريديه من اليهود، حتى أطلقوا على هذه القلعة (مجدل عز) أي برج القوة[١].

عاش ساباتاي في هذه القلعة عيشةَ الأمراء، وقد سمحوا لزوجته وكاتِبه الخاص بالسكن معه، وكان اليهودُ يأتون إليه من جميع أنحاء العالم، وكان حرّاس السجن يأخذونَ الرشاوي مقابل سماحهم لهم بالدخول. وقد تسبب توافد اليهود على هذه القلعة أن حدثَ نقصٌ في المواد الغذائية، وارتفاع في الأسعار، فقام الأهالي بتقديم شكوى إلى السلطان العثماني، واتهموا ساباتاي زفي بإثارة البلبلة[٢].

قام السلطان العثماني بتشكيل هيئة علمية لمحاكمة ساباتاي، وتكونت هذه الهيئة من (مصطفى باشا) نائب الصدر الأعظم، وعضوية شيخ الإسلام (يحيى

---

(١) محمد حرب، يهود الدونمة، مرجع سابق، ص٢٥؛ نوري النعيمي، يهود الدونمة، مرجع سابق، ص٣٥.

(٢) نوري النعيمي، يهود الدونمة، مرجع سابق، ص٣٦ـ٨٤ـ٨٥.

أفندي زاده) وواحد من كبار العلماء هو (محمد أفندي وانلي)، أما الذي قام بدور المترجم من الإسبانية إلى التركية فكان الطبيب (مصطفى حياتي)[(١)].

قام هذا المترجم بدور كبير في تغيير معتقدات ساباتاي، حيث استطاع إقناعَ ساباتاي أنّ إعلان إسلامه لن يحوّله عن دعوته إلى المسيح المنتظر، بل أقنعه أنّ دعوته وهو مسلم مخادع سوفَ تكون أقوى تأثيراً مِنْ أن يظهرَ بثوب المدعي أنّه المسيح.

وقام أتباعه بإشاعة «أنّ شخصية ساباتاي قد عرجت إلى السماء، وحلّ محلها بأمر الله مسيحٌ يرتدي ثوبَ مسلم»[(٢)].

وتروي المراجعُ أنّ ساباتاي عندما مَثُل أمام السلطان محمد الرابع، وطلبَ إليه أن يثبت دعواه، أو يقتل، فحين أدرك ساباتاي أنّه لا مناصَ من الموت أنكرَ ادعاءه بأنه المسيح المنتظر، وأظهر رغبته في الإسلام[(٣)].

وبهذا تحوّلَ ساباتاي من مسيح مزيّف إلى مسلم مزيّف في ١٥ أيلول ـ سبتمبر عام ١٦٦٦م، وتسمى باسم (محمد أفندي) فخصص له السلطان ريع وظيفة رئيس البوابين في القصر السلطاني[(٤)].

فقام ساباتاي وأرسلَ نشرةً إلى كلِّ أتباعه قال فيها:

«جعلني الله مسلماً، أنا أخوكم محمّد البوّاب، هكذا أمرني،

---

(١) انظر محمد حرب، يهود الدونمة، مرجع سابق، ص٢٦؛ نويهض، مرجع سابق، ص٢١٠؛ ومصطفى حياتي طبيب مسلم في الظاهر، وهو من اليهود الذين طردوا من إسبانيا، واحتموا بالسلطان العثماني، فأجارهم السلطانُ، وأقاموا في كنفه، فأصبحوا يهوداً متلبسين الإسلام للتضليل، انظر نويهض، بروتوكولات حكماء صهيون، مرجع سابق، ص٥٢١.

(٢) عجاج نويهض، مرجع سابق، ص٥٢٢.

(٣) محمد إبراهيم زغروت، دور يهود الدونمة، مرجع سابق، ص١٣. «إنه في عام ١٦٦٦م خُيّر ساباتاي بين الموت والإسلام، لا بسبب تعصب ديني مفاجئ أظهره الأتراك، بل لأنّ أحمد كوبرولي شعر أنّ ساباتاي يخلق كثيراً من الخلافات بين اليهود في تركيا».

(٤) محمد حرب، يهود الدونمة، مرجع سابق، ص٢٧.

وأطعتُ»[١] عرف مريدوه أنّه يطلب منهم البقاء على عهدهم له، وأنه إنما فعل ذلك مجاراةً للواقع، وتجنباً لمخاطر الموت[٢].

فدخل عدد كبير من أتباعه في الإسلام، وذلك لكسب ثقة الأتراك، وبدّلوا أسماءهم بأسماء إسلامية، واندمجوا في صفوف الشعب، وراحوا يعملون في السرّ لتحقيق أغراضهم القومية تحت ستار الإسلام.

ثم قام ساباتاي بتقديم طلب للسلطان بالسماح له بدعوة اليهود للإسلام، وعندما أذن له أمر مريديه بالدخول إلى الإسلام، فلبوا دعوته، ولبسوا الجبب والعمائم، فكانوا في الظاهر مسلمين، وفي الباطن يهود[٣]. وكان عددهم حينئذٍ حوالي مئتي أسرة، استقرت في سلانيك[٤].

وأُطْلق على أتباعه لفظ (الدونمة) وهي كلمةٌ تستعمل كصفة مشتقة من المصدر التركي (دونمك) Donmek بمعنى العودة والرجوع، وهي صفة تعني العائد، أي الذي أسلمَ بعد أن كان يدينُ باليهودية، ثم أصبحتْ تعني اصطلاحاً المسلمَ ظاهراً اليهوديَّ فعلاً وباطناً.

وتفيدَ دونمك النهيَ أيضاً بمعنى لا ترجع ولا تعد، أي أنهم لن يقبلوا ديناً غير دينهم، وكلمة (دونمة) بمثابة التنبيه أنّهم لن يتركوا اعتقاداتهم القديمة[٥].

وفي مصدرٍ آخر يقول: إنّ الدونمة تعني (المبدِّلَ لدينه)[٦].

---

(١) انظر محمد حرب، يهود الدونمة، مرجع سابق، ص٢٧؛ ومحمد إبراهيم زغروت، مرجع سابق، ص١٣؛ ونوري النعيمي، يهود الدونمة، مرجع سابق، ص٣٨-٣٩.

(٢) محمد إبراهيم زغروت، دور يهود الدونمة، مرجع سابق، ص١٣.

(٣) زغروت، دور يهود الدونمة، مرجع سابق، ص١٣.

(٤) Ilgaz Zorlu,a.g.e.p.26.

(٥) محمد حرب، يهود الدونمة، مرجع سابق، ص٢٨؛ ومحمد حرب، العثمانيون في التاريخ والحضارة، مرجع سابق، ص٨٠؛ وانظر أيضاً في تعريف الدونمة، Belgelerle Turkiye,de Donmeler ve Donmelik, Istanbul 1977,S.9-14 ومما يجدر ذكره هنا أنّ المؤلف أورد في مقدمة كتابه كلَّ معاني الدونمة، ويهود الدونمة لغةً ومصطلحاً، ورجعَ إلى المصادر اللغوية والتاريخية في هذا التعريف.

(٦) ارنست أ. رامزور، تركيا الفتاة، ترجمة صالح أحمد العلي، منشورات دار مكتبة=

ومن معاني الدونمة أيضاً أنها تعني المرتدين[1]. وتعني التراجعُ والعودة من مكان إلى آخر.

من معانيها أيضاً لفظ منافق والمرائي، وذو الوجهين، والمرتد، والمخادع، ومن يضمِرُ الشركَ والكفر، ويعلن الإسلام[2].

والدونمة بالمعنى العام تعني عودتي، وتستخدم لمن يترك دينَه، ويدخلُ الإسلامَ، أمّا الدونمة ليك (Dunmalek) فتعني الارتداد قبل الإسلام، أما دخوله بعد ظهور الإسـلام إلى دين الإسلام وترك دينه فيسمى مهتدي، وقد أطلق الردة أو الارتداد بعد الإسلام بمعنى التكذيب بعد التصديق.

يقول الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱرْتَدُّوا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَـٰرِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْهُدَى ٱلشَّيْطَـٰنُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَىٰ لَهُمْ ۝٢٥ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا۟ لِلَّذِينَ كَرِهُوا۟ مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ سَنُطِيعُكُمْ فِى بَعْضِ ٱلْأَمْرِ ۖ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ﴾ [محمد: ٢٥ـ٢٦][3].

والدونمة في المعنى الخاص هو الاسم الذي أطلقه التركُ العثمانيون على جماعة اليهود التي تعيشُ في سلانيك، وأظهروا إسلامهم.

وتذكر أحد المصادر: «أنَّ تعبير الدونمة اسمٌ أطلِقَ على الجماعة التي قبلتِ الإسـلامَ لأسـباب سياسية، ولم يرتبطوا بنسـبٍ لا باليهود أبناءِ دينهم وجنسـهم ولا بالترك المسلمين السكان الأصليين لمدينة سـلانيك، وعاشـوا منعزلين عن المجتمع، ولم يستخدم تعبير (مهتدي) أحدٌ منهم على الإطلاق،

= الحياة، بيروت، ١٩٦٠م، ص١٩٤ ـ ١٩٥. نقلاً عن Abrraham Galante, Nouveaux Documents sur Sabbetai Sevi, Istanbul, 1935,s.73.

(١) قدَّم الدكتور حسن ظاظا تعريفاً آخر لكلمة (دونمة) قال فيه: الدونمة كلمةٌ مركبة تتكون من (دو) أي اثنين (فارسية الأصل) (ونمه) بمعنى نوع، أي الفرقة القائمة على نوعين من الأصول (النوع اليهودي) و(النوع الإسلامي) ثم عدّلَ أبناؤها تسميتهم بفرقة (المؤمنين) (الرفاق) و(المجاهدين)، انظر هذا التعريف في حسن ظاظا، الفكر الديني الإسرائيلي، مرجع سابق، ص٢١٠.

(٢) Aburahman Kucuk,a.g.e.s.197.

(٣) Abdurahman Kucuk,a.g.e.s.208,209.

وذلك لأنَّ الإسلام كان يفرِّقُ جيداً بين المؤمنين، وبين من تظاهروا بالإسلام قال تعالى: ﴿قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّا ۖ قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا۟ وَلَٰكِن قُولُوٓا۟ أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَٰنُ فِى قُلُوبِكُمْ ۖ وَإِن تُطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَا يَلِتْكُم مِّنْ أَعْمَٰلِكُمْ شَيْـًٔا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤﴾ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ﴾ [الحجرات: ١٤ ـ ١٥][(١)].

في ذلك الوقت قام الحبر (أبراهام ناثان) بإعلان، «أنَّ ساباتاي زفي هو مسيح اليهود بالرغم من إسلامه» كما أعلن أنّه بالرغم من ارتداء ساباتاي العمامة الإسلامية، فإنّ هذا ليس تدنيساً لحرمته كشخص، فهو مقدس[(٢)].

ويطلقُ الدونمة على أنفسهم أسماءَ ضخمة مثل (المؤمنين) و(المجاهدين) وكانوا يتسترون عن النـاس بكل ما يثبت أنهم يهود، فكانوا يتخفون بأسماء إسلامية، لا يستعملونها في بيوتهم، ولكن يستعملونها في الحياة العامة. وكانوا يستعملون العبرية في صلواتهم، والتركية في حديثهم مع عامة الناس[(٣)].

كان ساباتاي يمارس الشعائر الإسلامية إلى جانب شعائره اليهودية، كان يدعو اليهود لقبولِ الإسلام حيث اعتبره يمثل (توراة المغفرة) لديهم، فدخلَ الكثيرُ من أتباعه الإسلام، وانتشر مذهبهم من القاهرة إلى هامبورج، ومن سلانيك إلى اليمن، ومن بولندا إلى بلاد الفرس[(٤)].

---

(١) (Abdurrahman Kucuk,a.g.e.p.215-217).

(٢) نوري النعيمي، يهود الدونمة، مرجع سابق، ص٣٨.

(٣) حسن ظاظا، مرجع سابق، ص٢١١.

(٤) أحمد عثمان، مرجع سابق، ص٦٠؛ ويعرف عجاج نويهض يهود الدونمة بقوله: إنَّ يهود الدونمة هم أوتاد اليهودية متخفين تحت الجبة والعمامة، وقد كانوا المعول الأول في الهدم، ونقل التركَ من العثمانية الإسلامية إلى الفكرة الطورانية. وتهدفُ فكرة الطورانية إلى إعلاء القومية التركية، وتدعيم الصِّلات بين التركِ في الدولة العثمانية وسائر أجناسهم في آسيا الوسطى، ويقوم أساسها الفلسفي على الدعوة إلى:
١ ـ ربط أتراك الدولة العثمانية بسائر أجناسهم خارج الدولة.
٢ ـ تحرير التراث التركي والثقافة واللغة من المؤثرات العربية والفارسية.
٣ ـ العمل على سيادة العنصر التركي وتفوقه بتتريك سائر الجنسيات في الدولة.
ولتدعيم تلك الاتجاهات فقد تمّ تأسيس أكاديمية تركيا عام ١٩١٢م، قامت بترجمة=

وقد أصيب يهودُ العالم بالإحباط بسبب اعتناق (مسيحهم) الإسلامَ بدلاً من نشر اليهودية في جميع أنحاء العالم كما كانوا يعتقدون[1].

وقد حدثت ردودُ فعل كبيرة بين الأوساط اليهودية حول رفضهم اعتناق ساباتاي الإسلام. ونتيجة لذلك قام (أبراهام ناثان) بتقديم تفسيره حول سلوك ساباتاي، مستنداً إلى معرفته بالكتب الدينية، إذ رجع إلى بعض الكلمات الغامضة في هذه الكتب، فقدّم التفسير الآتي: «إنّه ينبغي دخولُ المسيح بين الأمم غير اليهودية، وإشعال الشرارات المقدسة الكائنة فيها، وتنبيه الأشخاص المقدسين والأولياء رغم جهلهم هذا، على أنّ حركة المسيح هذه هي أيضاً لأجل غايةٍ إلـٰهية. وبهذا فإنّ المسيح كان يخلع نفسَه ورغبتَه من جذره المقدس، ويعيدُ نفي إسرائيل مرةً أخرى في ذاته. إنّ ارتدادَ ساباتاي كان جزءاً ضرورياً من وظيفته الصوفية والتاريخية في الوقت نفسه. وبعدَ هذا كان عليه حتى بعد عودته من جديد وعظمة مسيحيته كافة، أن يعيشَ على شكل شخصيتين مختلفتين: شخصيته الداخلية، وشخصيته الخارجية، وستبقى هاتان الشخصيتان مختلفتين الواحدةُ عن الأخرى»[2].

= القرآن الكريم إلى اللغة التركية، ثم أُنشِئ اتحاد (يني لسان) أي اللغة الجديدة و(اتحاد يني حيات) أي الحياة الجديدة، لتنقية اللغة التركية من الألفاظ العربية والفارسية.

ومن أقوالهم: (نحن أتراك، فكعبتنا طوران)، كما أنّهم راحوا يتغنون بمدح جنكيز خان، ويُعجبون بفتوحات المغول، ولا ينكرون شيئاً من أعمالهم. وشعار الطورانية هو شعار الذئب الأبيض - أو الأغبر - وهو رمز الأتراك القدامى، وقد تم نشر هذا الشعار على بعض طوابع البريد في حكومة تركيا الجديدة. وكانت فكرةُ الطورانية في حقيقتها إحياءَ العصبية التركية التي أعد لها الاتحاديون إعداداً محكماً، وخصّصوا لها دعماً مالياً كبيراً، أطلق عليه (إعانات الملية التركية)، وكان كبارُ الاتحاديين أعضاء منتمين إليها، ومن ثَمّ برزت سياستُهم في هذا الصدد متجهةً نحو سياسة التتريك الإجبارية للشعوب العربية والشعوب العثمانية الأخرى. انظر محمد زغروت، ص١٠٦ - ١٠٩؛ نقلاً عن الشيخ مصطفى صبري مقال جريدة الأهرام المصرية ٨ ديسمبر ١٩٢٣م؛ وعن كتاب الأسرار الخفية وراء إلغاء الخلافة العثمانية للشيخ مصطفى صبري، دار الدعوة، الإسكندرية، ١٩٨٥م، ص١٩٧.

(١) أحمد عثمان، مرجع سابق، ص٦.

(٢) نوري النعيمي، يهود الدونمة، مرجع سابق، ص٤٠.

وفي نفس الوقت أرسل ساباتاي توضيحاً إلى يهود العالم قال فيه:

«كيان ساباتاي القديم صعدَ إلى السماء بأمرٍ من يهوه، ترك ملكاً يستمرّ في كونه المسيح، لكن تحت جبة وعمامة»[1].

قام ساباتاي بتعلّم أركان الإسلام على يد (وانلي زاده محمد أفندي) وكان يذهبُ إلى معبد اليهود يقدّم مواعظ تتعلّق بمعتقداته، وكان يدعوهم إلى الإسلام من الناحية الشكلية فقط[2].

كما ذكر ساباتاي أنّه تلقى وحياً في عيد الفصح يخبره بامتلائه بروح مقدس من جديد، وأنّه المسيح الحقيقي على الرغم من تغيير دينه[3]. فانطلق يواصِلُ دعوته إلى الإيمان به، وظلّ أنصارُه يتبعون دينهم اليهودي سرّاً، ويظهِرون إخلاصهم الظاهري للإسلام، وكان ساباتاي يقول لأتباعه: «إنّه كالنبي موسى الذي اضطر أن يبقى مدةً من الزمن في قصور الفراعنة»[4].

وقد قام ساباتاي بإضافة بعض الزيادات على أدعية اليهود السفارد، وكان أعضاء الجماعة يطبّقون سراً هذه الطقوس والدعاء كل وقت مع إعلان إسلامهم[5].

وسأله يوماً الصدر الأعظم: ما هو العمل الذي تقوم به في كنائس اليهود؟.

فأجاب ساباتاي: سيدي! كما جعلتُ قسماً من أقاربي وأصدقائي مسلمين، أحاوِلُ دعوةَ الناس إلى دين الله الحق[6].

---

(١) محمد حرب، العثمانيون في التاريخ والحضارة، مرجع سابق ص٧٩.

(٢) محمد حرب، يهود الدونمة، مرجع سابق، ص٢٨.

(٣) نوري النعيمي، يهود الدونمة، مرجع سابق، ص٣٩؛ نقلاً عن Atilhan,s.118,A.Kucuk,s.170.

(٤) نوري النعيمي، أثر الأقلية اليهودية في سياسة الدولة العثمانية تجاه فلسطين، وزارة التعليم العالي والبحث العلمي، رئاسة جامعة بغداد، مركز الدراسات الفلسطينية، مطبعة جامعة بغداد، ١٩٨٢م، ص٢٨.

(٥) Ilgaz Zorlu, a.g.e.s.14.

(٦) نوري النعيمي، يهود الدونمة، مرجع سابق، ص٣٩.

فردّ عليه الصدر الأعظم: «كن عاقلاً بعد أن أعلنتَ إسلامك، إن قمتَ ثانية بيهوديتك ستجدُ ما لا تحمَدُ عقباه».

فقال ساباتاي: أمركم يا سيدي[1].

قدم ساباتاي قائمةً تتضمّن عقيدة الدونمة، وأسس دعوته: وقد جاء فيها: هذه الأوامر الثمانية عشرة التي أمر بها سيدنا وملكنا ومسيحنا سابا تاي زفي فليزدد شرفُه، ومن أهم هذه الأوامر[2].

ـ الإيمانُ بأنَّ مسيحَ الله هو المسيح الحق، ولا مخلِّصَ غيره، هو سيدُنا وملكُنا ساباتاي زفي، وأنّه من نسل داود، فليزدد شرفه.

ـ عدم القسم بالله أو المسيح كذباً، لأنّ اسم الله مندمجٌ فيه أيضاً، ويجبُ أن لا نعملَ على تحقيره.

ـ كما يعظم اسم الله عند ذكره لابدَّ من تعظيم المسيح عند ذكره أيضاً، كما يجبُ أن يعظَّمَ كل شخص ممتاز بين أقرانه بعلمه.

ـ يجب تناقلُ وشرحُ ودراسةُ سِرّ المسيح من مجتمع إلى مجتمع.

ـ أن يجتمع كلُّ الأتباع في بيتٍ من البيوت في اليوم السادس عشر من شهر كيسلف (الشهر التاسع من السنة اليهودية) ويتداولوا فيما بينهم ما سمعوه عن المسيح، وعن سر الإيمان بالمسيح.

ـ الاحتفال بسرور بالغ بالعيد الواقع في السادس عشر من شهر كيسلف (الشهر التاسع من شهور السنة اليهودية وهو ١٦ ربيع الأول الذي أسلم فيه ساباتاي في سراي أدرنة).

ـ قراءةُ مزامير داود سرّاً كلَّ يوم.

ـ يجبُ مراعاة عادات الأتراك المسلمين ذرّاً للرماد في أعينهم، ويجبُ

---

(١) نوري النعيمي، يهود الدونمة، مرجع سابق، ص٤٠.
(٢) محمد حرب، يهود الدونمة، مرجع سابق، ص٢٩.

عدم إظهار الضيق بصومِ رمضان، أو عند تقديم الأضحية، ويجب المحافظةُ على جميع المظاهر.

ـ ممنوع الزواج من المسلمين[١].

نظَّم ساباتاي هذه الأوامر التي تمثّل عقيدةَ الدونمة في ثماني عشرة مادة، وتعتبر أهم مادتين في هذه المواد المادة رقم ١٦ وهو أهمُّ سماتِ الدونمة، وقد جاء فيها: يجبُ أن تطبّقَ عادات الأتراك بدقة لصرف أنظارهم عنكم. والمادة رقم ١٧ التي تقول: «إنّ مناكحتَهم (أي المسلمين) ممنوعةٌ قطعاً»[٢] فتقول الدونمة في هذا: «إننا إذا لجأنا إلى مصاهرة إخواننا في الدين ممن ليسوا منا، لفقدنا الأخوة المتبادلة المبنية على التعاون والمشاركة فيما بيننا، ومن جهةٍ أخرى فإنَّ بعض المسلمين من غيرنا يأخذون جانب اللامبالاة في حبهم لعيالهم، لذلك نرى الكثيرَ من هؤلاء يفارقون رفيقاتِ حياتهم دونما سبب، وحيال هذا الوضع، فإنَّ الحب الذي نكنّه لأولادنا يمنعنا من أن نرميهم بأحضانِ كلّ إنسانٍ»[٣].

رأي الصحف والمجلات العثمانية في إسلام يهود الدونمة:

كانت دعوةُ يهود الدونمة في عدم التزاوج مع المسلمين قد أثارَ حفيظة المسلمين الأتراك، فقامت الصحفُ الإسلاميةُ التركيةُ تعارِضُ هؤلاء الدونمة المسلمين.

كتبت مجلة (**سبيل الرشاد**) الإسلامية عن مسلمي الدونمة، إنَّ الدونمة فئة أسلمت لكنّها لا تتزاوج مع المسلمين، وإنّ لها لغتها الإسبانية للحديث فيما بينهم، واللغة التركية يحادثون بها الأتراك، وأنّهم لا يختلطون بأحد، وأنّهم منغلقون على أنفسهم، وهذا مما ينفِّر الناس منهم[٤].

---

(١) محمد حرب، يهود الدونمة، مرجع سابق، ص٢٩ ـ ٣٠.

(٢) نوري النعيمي، يهود الدونمة، مرجع سابق، ص٤٥؛ ومصطفى طوران، مرجع سابق، ص١٩ ـ ٢٠.

(٣) مصطفى طوران، مرجع سابق، ص٨٥ ـ ٨٨ ـ ٨٩.

(٤) محمد حرب، يهود الدونمة، ص٣٧ ـ ٣٨ نقلاً عن مجلة الرشاد الإسلامية، العدد رقم ٢٠٨، تاريخ ٢٩ آب ـ أغسطس عام ١٩١٢م.

وقالت أيضاً إنّ هذه المجموعة من الناس، وإنْ عُرِفَ عنها أنّها أسلمت، إلا أنّها (طائفة خاصة)[1]. كذلك فإنّ لهؤلاء الدونمة صفات خاصة حيث إنّهم يدفنون موتاهم في مقابر خاصة بهم[2].

وعن هؤلاء الدونمة نشرت أيضاً **(الجريدة المصورة)** التركية مقالاً جاء فيه: «دونمة سلانيك الذين يعيشون بين ظهرانينا، ويتكلّمون بلغتنا، يحسّون في الظاهر بإحساسنا، لكنّهم في الحقيقة يأخذون الحَيْطَة والحَذَرَ تجاه الأتراك، لا يناكِحون إلا مَنْ كان منهم، يَحْيَوْنَ حياةً خاصة بهم من المهد إلى اللحد في أعراسهم ومآتمهم، وفي كلِّ صفحةٍ من صفحاتِ عيشهم الاجتماعية منها والعائلية»[3].

أما جريدة **(الوطن)** التي يُصْدِرها يهود الدونمة فقالت عنهم: «إنّه في عهد السلطان مراد الرابع أعلنت فئةٌ من الناس تقدّرُ ببضعة آلاف، تقطنُ في سلانيك إسلامها، وبقيت هذه الفئة مدةً من الزمان على حالتها المجردة، ثم انقسمت إلى فرق، انتشرت فيهم خرافات لن تصادفها إلا في القبائل البدائية في أستراليا، ثم انشطرت إلى مجتمعاتٍ صغيرةٍ جداً بقيت في معزل عن بعضها البعض، وعن الأتراك، فلم تناكِحْ إلا بعضها، ومع ذلك فقد تخلّقوا بالخلق التركي الإسلامي، واعتبروا أنفسَهم مسلمين أتراك، فمنهم من سلك طريقَ التجارة، ومنهم من ترقّي في وظائف الدولة، وقاموا بكثيرٍ من الخدمات للدولة»[4].

وجاء على صفحات **(جريدة الوطن)** التي يصدرها الدونمة أيضاً على لسان يهود الدونمة وهم يدافعون عن أنفسهم بقولهم: «لا شكَّ أنَّ إثارةَ الفتنة والفرقةَ في البلاد، بغرض الانتقام الشخصي أمر مذموم. فأيُّ شيءٍ أقبحُ وأبشعُ ممن يسعى إلى عزل أناس قبلوا الإسلام قبل قرنين ونصف وأصبح أكثرُهُم أتراكاً

---

(١) محمد حرب، يهود الدونمة، مرجع سابق، ص٣٧.
(٢) مصطفى طوران، مرجع سابق، ص٣٣.
(٣) مصطفى طوران، يهود الدونمة، مرجع سابق، ص٣٢ نقلاً عن الجريدة المصورة (التركية)، العدد رقم ١١٦، عام ١٩٢٥م في مقال بعنوان (دونمة سلانيك).
(٤) نقلاً عن مصطفى طوران، المصدر السابق، ص٦٦.

حقيقيين. إننا نأمل أن يسعى المجلس الوطني إلى التحقيق في الأمر، ومعرفة الوضع الحالي، وإلى وضع حَدٍّ لاستغلال هذا الوضع (ألا وهو إسلام يهود الدونمة) في إثارة الفتن»[١].

وجاء على صفحات (جريدة الوطن) أيضاً في محاولتهم الاندماج مع الأتراك:

«ألا تعلمون أنَّ الشعب التركي يرغب أن يكون كلُّ الذين يعيشون على أرضه على قلب رجل واحد؟ أو تظنون أنَّ الأتراكَ سينخدعون ببضعة أشخاص منا خالطوهم رياء ونفاقاً، ليصبروا على طفيلية خمسة عشر ألفاً منا تمتصُّ دماءهم، وتأكل من خيرات بلادهم؟ لقد انصرفتم إلى جمع مزيد من المال والثروة، أمّا الأتراك الذين أصبحوا محرومين من كلِّ عون فقد ربطوا قلوبهم بربهم وتوكلوا عليه. واليوم ليس لنا إلا اتباع أحد سبيلين: إما أن نلتحم بالشعب التركي التحاماً تاماً، نشاركهم في الأفراح والمصائب، وإمّا أن نبحثَ عن إمكانات مادية ومعنوية خارجَ حدود هذا الوطن»[٢].

ونشرت أيضاً هذه الجريدة أنّه أصدر شباب الدونمة مجلة (زهرة الأدب) يصفون ساباتاي زفي بقولهم: «إنّه دجال عاش في القرن السابع عشر، ومن المضحك أن يتبعه الناس، فيشكلوا مذهباً لأنفسهم، فلا يناكحون الأتراك ولا يخالطونهم»[٣].

ويقول (قره قاش زاده محمد رشدي): «إنّ الدونمة ما هم إلا يهود باطنيون، ولا يمتّون إلى الإسلام بصلة»[٤].

ويذكر (ليون سايكي) Leon Sciaky أنَّ خمسةَ عشرَ ألف شخص حوّلوا

---

(١) مصطفى طوران، مرجع سابق، ص٦٧.

(٢) مصطفى طوران، مرجع سابق، ص٧٠. نقلاً عن مقال لمحمد رشدي، جريدة الوطن، ٧ كانون الثاني-يناير، ١٩٢٤م.

(٣) مصطفى طوران، مرجع سابق، ص٧٢ نقلاً عن مقال بجريدة الوطن في تاريخ ٢٠ كانون الثاني-يناير، ١٩٢٤م.

(٤) عجاج نويهض، مرجع سابق، ص٥٢٢.

كتبهم من التوراة إلى القرآن الكريم، و في استخدام التركية بدلاً من الإسبانية، مع الاحتفاظ بلغتهم العبرية ولكن في سريةٍ كاملة.

ظل ساباتاي وأتباعه يتبعون دينهم اليهودي سرًا، ويمارسون عملهم في الخفاء، ويظهرون الإخلاصَ للإسلام في العلن والصلاح والتقوى أمام الأتراك(١).

ويصرّحُ أحد اليهود الساباتائيين، وهو من سلانيك: إنَّ الساباتائيين اضطروا إلى اتباع السرية بسبب الضغوط التي تعرّضوا لها بسبب النزاع بين الأديان والدين الجديد الذي أظهروه، ولهذا أصبحت السرية هي أسلوبهم وسماتهم.

أما من ناحية عدم السماح بالتزاوج من أجنبيات فيقول: إنّه لو تزوج أحدهم من الخارج، فإنهم سوف يعلّموه هذه السرية، وبمرور الوقت سينساها، وسيظهر فساد هذا الزواج بمرور الوقت، وكان هناك خوف يداخلهم من المجتمعات النصرانية، نتيجة الاضطهادات التي لاقوها من النصارى كما أنّهم كانوا يعيشون حياةً غيرَ سعيدةٍ، ويغلب عليهم التشاؤم، وينبع هذا من كونهم غير مسلمين حقيقيين، وأنّهم مضطهدون دائماً، ويخشون دائماً من المستقبل، وذلك نتيجة عقليتهم التي نمت على أنهم أقلية(٢).

لقد كان اعتناقُ يهود الدونمة الإسلام وسيلةً لتحقيق أهدافهم التوراتية، وتسهيلاً لمهمة التغلغل في السلطة.

كما جاء إشهارُ اليهود لإسلامهم لتحقيق هدف سياسي، فكان توسّعهم في العلاقات التجارية مع التجار الأوروبيين والشركات الأجنبية التي يملكها الرأسماليون اليهود في النمسا وألمانيا(٣).

---

(١) نوري النعيمي، يهود الدونمة، مرجع سابق، ص٤١.

(٢) Ilgaz Zorlu, a.g.e.s.154,155.

(٣) محمد سرحان، النظام العثماني، مرجع سابق، ص١٧؛ وفي مقال بعنوان يد الله مع الجماعة جاء فيه: «إنّ الأتراك الذين أقاموا حكمهم في بلدانٍ فتحوها وقعوا في أخطاءَ كثيرة، جلبت لهم بعض الأضرار، ومع ذلك فقد كانت لهم مزايا عظيمة، وأعظم هذه المزايا اعتبار المسلمين سواسية كأسنان المشط، لا فضلَ لتركي على غيره. لذلك فكلٌ=

وجاء في (مجلة سبيل الرشاد) أيضاً:

«هذه الطائفة التي تسمّت تسميةً إسلامية لا تزالُ تعتمد طريقاً خاصاً بها في الزواج، الذي هو أهمُّ عامل في تماسك المسلمين بعضهم ببعض، وكان من الأجدر في عصرنا هذا نبذُ العقائد الجاهلية الباطلة، لا السعي إلى ترويجها.

كان أملُنا كبيراً في هذه الطائفة الصغيرة الذكية النشيطة الفعالة، التي اتخذت سلانيك مستقراً لها، أن تكون مع المسلمين الآخرين قلباً وقالباً، فهم يعرفون جيداً أنَّ ذراعي أخوةِ الإسلام مفتوحٌ لهم في كلّ الأوقات»[1].

وقد تم القبض على ساباتاي وبعض أتباعه داخلَ المعبد اليهودي، وكان يرتدي زياً يهودياً، وكانوا محاطون بالنساء، يشربون الخمر، وينشدون الأناشيد الدينية، ويقرؤون المزامير، واتّهم ساباتاي أنّه يدعو المسلمين إلى ترك دينهم[2]

= طائفةٍ لا تلجأ إلى الشقاق والنفاق تعيش في المملكة العثمانية بهناءة مادية ومعنوية، وفي ظل هذا التماسك تكسب الدولة قوة على قوتها، وفي ولاية هامة من ولايات المملكة العثمانية تعيش طائفة صغيرة أصلُها من بني إسرائيل، لا ندري في أي وقتٍ من التاريخ أعلنتْ إسلامَها، إننا نعرف أفراد هذه الطائفة كمسلمين، يتكلّمون لغتنا، ولم تبقَ لهم أية روابط بجماعة اليهود، مع أنهم يجاورونهم في مساكنهم، كما أنّهم لا يزاوجونهم، فاليهود يتكلّمون فيما بينهم بالإسبانية أما مع الآخرين فبالتركية، ومن المعروف لدينا أنّ كلَّ من دخل الإسلام يعتبر (دونمة) أو على الأصح مهتدياً، لكنّ صفة الاهتداء تكون مؤقتة تزول بالانخراط في صف المسلمين، فلا يبقى بينهم وبين المسلمين أية علامات فارقة. أما هذه الطائفة المهتدية، فبقيت على صفة (الدونمة) وتبنتها، ففي العبادات والمناكحات التي هي أهم الأوصاف المميزة لجماعة المسلمين تسلك هذه الطائفة مسلكاً خاصاً بها، وهذه حال تدعو للأسف الشديد. نقلاً عن مجلة (سبيل الرشاد) عدد ٢٠٦ تاريخ ٢٩ آب ـ أغسطس ١٩١٢م؛ ويعبر رئيس إسرائيل الأسبق إسحاق بن زفي في كتابه الصادر عام ١٩٥٧م بعنوان (الدونمة) عن هؤلاء الدونمة بقوله: «إنّ يهوداً كثيرين وكثيرين جداً يعيشون بين الشعوب بطبيعتين: إحداهما ظاهرة وهي اعتناق دين الشعب الذي يعيشون وسطه اعتناقاً جماعياً وظاهرياً. والثانية باطنة، وهي إخلاص عميق لليهودية».

(١) انظر مصطفى طوران، مرجع سابق، ص٤١ ـ ٤٣.

(٢) نوري النعيمي، يهود الدونمة، مرجع سابق، ص٤١.

أما اليهود التابعين له فتبقى يهوديتهم في قلوبهم، وكان يعظهم بالعبرية، ويخون الإسلام، واصطنع صلواتٍ هي مزيجٌ من الإسبانية والتركية ينشدها اليهود والدموع تنهمر من عيونهم تعلقاً بساباتاي[1].

فحكموا عليه بالإعدام إلا أنّ شيخ الإسلام اعترضَ على إعدامه حتى لا يدّعي مريدوه بعروجه إلى السماء كعيسى عليه السلام، فاكتفى بنفيه إلى مدينة (دولسجنو) في ألبانيا وذلك عام ١٦٧٣م[2].

وعاش ساباتاي في ألبانيا حتى وفاته في ٣٠ أيلول ـ سبتمبر عام ١٦٧٥ عن عمر يناهز تسعة وأربعين عاماً[3].

والمؤمنون به يعتقدون أنّه لم يمت طبقاً لعقيدتهم في التناسخ على مذهب القبالة الذي يقول: إنّ المسيح قد مرَّ منذ آدم من أجسام كثيرة، ولا يزالون ينادونه على سواحل البحار والأنهار يقولون: «ساباتاي زفي.. نحن في انتظارك»..

ولا تزالُ عقيدة الساباتائية موجودة لدى بعض فرق يهود سلانيك حتى الآن[4]. ولا يزال أتباعُه يقفون على ضفاف الأنهار يدعون وينتظرون مسيحهم ساباتاي، الذي سوف يقودهم إلى أرضهم الموعودة.

لقد نجحت الدونمة طويلاً في إخفاء حقيقتها، على الرغم من ثبوت يهوديتهم المتأصلة، وبعدهم التام عن الإسلام.

* * *

---

(١) عجاج نويهض، مرجع سابق، ص٥٢٣ ـ ٥٢٤.
(٢) نوري النعيمي، يهود الدونمة، مرجع سابق، ص٤١.
(٣) المرجع السابق، ص٤٢ ـ ٤٣.
(٤) المرجع السابق، ص٤٢ ـ ٤٥.

الفصل الثالث

موقف يهود الدونمة (الساباتائية)
بعد وفاة مؤسسها ساباتاي زفي

خليفة ساباتاي زفي وانقسام الساباتائية:

قبل وفاة ساباتاي زفي زاره (يعقوب جلبي) أخو زوجته (يوهيفيد) التي تزوّجها بعد وفاة زوجته (سارة) وكان ساباتاي حينئذ طريح الفراش، فأخذ يعقوب موافقة ساباتاي على خلافته من بعده، ومات ساباتاي في ٣٠/ ٩/ ١٦٧٥م في ألبانيا عن عمر يناهز التاسعة والأربعين عاماً[(١)].

وكما ظهر سالفاً فإنّ ساباتاي زفي لم يترك أيَّ آثارٍ مكتوبة توضّح حياته السرية الروحية[(٢)]. وبعد وفاته جمع (يعقوب) و(يوهيفيد) أنصارهما من الدونمة، وكانت أسرهم تتجاوز المئتين، حيث انتقلوا إلى سلانيك، وانضم إليهم اليهود القادمون من أوروبا، واستطاعت (يوهيفيد) أن تجدَ أتباعاً كثيرين من عُشّاق المسيح، ينضمون إليهم[(٣)].

جماعة اليعقوبيين:

وعندما تولّى يعقوب رئاسة السباتائيين في سلانيك قام بتنظيم عقائدهم، وحثّهم على مرعاة القواعد الإسلامية، والحفاظ على التقاليد التركية، وقد قام بالحجّ لتغطية يهوديته، إلا أنّه توفي هناك[(٤)].

---

(١) مصطفى طوران، يهود الدونمة، مرجع سابق، ص٢٢ ـ ٢٧.

(٢) Ilgaz Zorlu, a.g.e.s.16.

(٣) نوري النعيمي، يهود الدونمة، مرجع سابق، ص٤٧ ـ ٥٤.

(٤) المرجع السابق نفسه، و Ilgaz Zorlu, a.g.e.s.92,15.

قسّم يعقوب جماعته التي تسمت بـ (اليعقوبيين) إلى قسمين: الأغنياء والفقراء، وكان لكلّ منهم زي خاص، ورجالهم يحلقون شعورهم بالموسى، أما النساء فيضفرونَ شعورهن، وادّعى اليعقوبيون أن روح ساباتاي تقمّصت جسم (يعقوب جلبي)[1].

ولليعقوبيين عقائد يعتنقونها هي:

● أنّهم يناصرون الطلاق عكس عقيدة ساباتاي.

● يحظر على النساء التبرّجُ للغرباء حتى أظافرهن.

● اتباع الأوامر الإسلامية في الظاهر.

● إلزام النساء بارتداء ملابس بيضاء.

● إجراء الختان حسب العادات الإسلامية.

● الإخلاص للعبادات اليهودية فيما عدا إيقاد النار أيام السبت، حتى لا يكتشف أمرُهم.

● قراءة أدعيتهم بالعبرية والإسبانية واللاتينية.

● عدم الذهاب للمساجد.

● عدم التعرّف على أسرار الطائفة إلا بعد الزواج[2].

وكان لهؤلاء اليعقوبيين ملابس خاصة وقد انتبه إليها (مدحت باشا) أثناء ولايته على سلانيك، إلا أنّه لم يبد أيَّ اعتراض، أو يطلب تعديل أيِّ شيءٍ من عاداتهم، وقد تأثّر هؤلاء اليعاقبة بالملامتية في فكرها، وتلقّوا مساعدات مادية ومعنوية من الطريقة البكتاشية والمولوية، كما كان (حمدي بك) رئيس بلدية سلانيك من اليعاقبة، أسس اليعقوبيون في سلانيك مجلة باسم (نمونجة الأدب)

---

(١) نوري النعيمي، يهود الدونمة، مرجع سابق، ص٤٧ ـ ٥٤.

(٢) المرجع السابق، ص٥٤ ـ ٦٢.

أو (برعمة الأدب)، واتجه أعضاء هذه الجماعة إلى التزاوج من الخارج، وكان لهم مزار خاص بهم، ويبيعون ويشترون من أماكن خاصة.

قام أعضاء هذه الجماعة أيضاً بفتح مدارس خاصة مثل مدرسة (فيزي بك) ومعاهد (البوغاز) في إستانبول. وبعد موت رئيسها انطوت هذه الجماعة على نفسها، وكانوا يتخذون تعاليم ساباتاي إلى جانب القبالة مبدأ لهم في تعاملهم اليومي[1].

وقد ظهرت من هذه الطائفة شخصيات هامة، تولّت مناصب هامة في الدولة، مثل أمين الترسانة وكتخدا القصر السلطاني، وكتخدا المدينة، وأمين الصرة وغيرهم[2].

واشتُهر منهم الكاتب والصحفي (أحمد أمين يلمان) وغيره وكان لهم تأثيراً على بعض الطرق الصوفية ومنها الملامتية[3].

جماعة القره قاش:

انفصلت عن جماعة اليعقوبيين جماعة تسمت باسم **القره قاشيون**، وذلك لاختلافهم مع العقوبيين على بعض العقائد برئاسة (مصطفى جلبي) حيث اختلفوا على ممارسة الأحكام الإسلامية، وهذه الجماعة لا ترى ضرورة للحفاظ على التقاليد التركية الإسلامية[4].

ادعى (مصطفى جلبي) زعيمُ هذه الجماعة بأنّ روح ساباتاي قد حلّت بجسد طفل ولِد بعد موت ساباتاي بتسعة أشهر، ويسمّى هذا الطفل (عثمان) وعندما وصل عثمان إلى سن التاسعة والعشرين أعلن مصطفى جلبي أنّ عثمان هذا ممثل

---

(١) Ilgaz Zorlu, a.g.e.s.92,93.

(٢) مصطفى طوران، يهود الدونمة، مرجع سابق، ص٢٢ ـ ٢٧؛ ومحمد حرب، يهود الدونمة، مرجع سابق، ص٣٣.

(٣) ilgaz zorlu, a.g.e.s. 128.

(٤) Kucuk. A.g.e ss. 204-205 Tanyu A.g.e.s. 175.

لساباتاي زفي، وعندما وصل عثمان إلى سن الأربعين تم إعلانه (مسيحاً) وأوصلوه إلى مرتبة الألوهية[1].

وجدير بالذكر أنّ جاويد بك ناظر المالية كان من أعضاء هذه الجماعة[2]، واشتُهِرَ منهم أيضاً (فائق نزهت) أحد وزراء المالية في الدولة العثمانية و(عبدي إيبكجي) وكانت لهما علاقات مع البولنديين[3].

جماعة القابانجلو:

قام أحدُ أعضاء هذا الحزب بالاعتراض على تصرفات هذه الجماعة، فانفصل عنهم بحزب آخر سُمّي حزب (إبراهيم آغا) وعندما مات عثمان، وكثر الجدل حوله طلب (إبراهيم آغا) فتح مقبرة عثمان، فإذا وُجِد جسمه سليماً ليس متحلّلا فهو المسيح وإلا . . فلا[4] وجماعة (إبراهيم آغا) أو (القابانجيون) أو (البابو) أو القبانجلر يطبّقون مبادئ ساباتاي كما هي.

وتوصف هذه الطائفة بأنهم مثقفون، ولا يهتمون بالخرافات[5]. وقد

---

(١) محمد حرب، يهود الدونمة، مرجع سابق، ص٣٣؛ نوري النعيمي، يهود الدونمة، مرجع سابق، ص٥٤ ـ ٦٢.

(٢) Ilgaz Zorlu, a.g.e.s.95.

(٣) Ilgaz Zorlu, a.g.e.s.128.

(٤) محمد حرب، يهود الدونمة، مرجع سابق، ص٣٤.

(٥) نوري النعيمي، يهود الدونمة، مرجع سابق، ص٥٤ ـ ٦٢؛ قدّم لنا كاتبان فرنسيان كتاباً بعنوان (جغرافية التاريخ) يتضمّنُ معلومات عن القبانجيين من الدونمة، وقد نشرتها مجلة (محراب) التركية في عددها الخامس عام ١٩٢٤ بعنوان (الدونمة القابانجية) تقول عنهم: هم أكثر مجموعات أهل سلانيك ذكاء، فقد اندسوا في خلايا حزب الاتحاد والترقي بشكل كبير وملحوظ، ونستطيع القول بأنّهم قد أداروا الجزءَ الأعظم من انقلاب تركيا الفتاة (الذي أسقط السلطان عبد الحميد الثاني) وهذا الانقلاب قام به يهود الدونمة وهم مسلمون ظاهراً، وهم في الحقيقة معادون للإسلام، وكلُّ صلتهم بالإسلام انحصرت في الأفعال الظاهرة فقط. انظر محمد حرب، يهود الدونمة، مرجع سابق، ص٤٢ ـ ٤٣؛ وفي مذكرات (غالب باشا) وهو من الاتحاديين وبرتبة أميرالاي، وكان المفتش العام للشرطة، وحرس الحدود، يذكر أنه في حادثة ٣١ مارت التي قامت ضد الاتحاديين في=

أظهروا نشاطاً وتأثيراً في المراكز الأوروبية في القرن ١٨، وكانوا يسكنون بالقرب من بعضهم في سلانيك، ويخاطبون بعضهم بعضاً بلقب (الجار) وكانوا متقدّمين في النواحي الصناعية والتجارية وأعمال الصرافة، كما كانوا مهتمين بالمجال التعليمي[١]. وكانت لهم تأثيراتٌ كبيرةٌ في عهد أتاتورك، ومن أشهر عائلاتهم عائلة (بزمن) وعائلة (اطه بك)[٢].

تلك هي المجموعات الثلاث التي انشقت عن الدونمة بعد وفاة ساباتاي، وعلى الرغم من اختلافهم في بعض العقائد، إلا أنّهم يجمعون على اتباع مبادئ عامة، وهي عدم الزواج من أصحاب الديانات الأخرى، وهو المبدأ الأساس الذي وضعه ساباتاي زفي لجماعته يهود الدونمة حتى يظلوا منغلقين على أنفسهم.

وقد ظلَّ النزاع قائماً بين طوائف الدونمة حتى نهاية القرن التاسع عشر، وبلغ الخلافُ حدًّا كبيراً، حتى إنهم كانوا يحرّمون شراء أي مواد غذائية من طائفة أخرى، ولا يمكن حدوثُ تزاوج بنات طائفة من طائفة أخرى. وقد تمّت إزالةُ هذه الأقسام تحت وطأة نظام الجمهورية التركية وحاولوا التخفي والانصهار داخل الأتراك، وعلى الرغم من هذا، فقد بقيت بعض العناصر حاولت الحفاظ على تقاليد الساباتائية خصوصاً بعض المثقفين منهم أمثال (خالدة أديب)،

= عهد السلطان عبد الحميد الثاني نجد أنَّ هذا الضابط الكبير كان خائفاً من الخروج من منزله، وفي اليوم الرابع من هذا الحادث الشهير خرج ولم يتوجّه إلا إلى مركز محلات إيبكجي السلانيكي، والمعروف أنّه من الدونمة أصحاب النفوذ، كما نجد أنَّ محمد رؤوف لسقو ويكلي ـ وهو من ضباط الاتحاد والترقي ـ يُنفَى بسبب نشاطه السري ضد الدولة إلى سلانيك عام ١٨٩٥، وهناك احتضنته الدونمة، ونشر محمد رؤوف هذا كتاباً في ١١٢ صفحة بعنوان (ماذا كانت جمعية الاتحاد والترقي؟) وقد دافع فيه عن الدونمة دفاعاً حاراً وحياها، بقوله: «لقد أظهر الدونمة أثناء جهادي وكفاحي ونفيي إلى سلانيك من ضروب التضحيات والفداء ما عظم في نظري. . . إنّهم محبون للحرية»، انظر محمد حرب، يهود الدونمة، مرجع سابق، ص٤٣.

(١) Ilgaz Zorlu, a.g.e.s.95.

(٢) Ilgaz Zorlu, a.g.e.s.128.

و(شفيق حسني)، و(صبيحة سرتل) بالإضافة إلى (عائلة إيبكجي)[١].

كما أصبحت المؤسسات التعليمية للجماعة مثل مدرسة (الفيزية) ومدرسة (الترقي) من أكبر المدارس تطوراً في تركيا، وكانت المبادئ التي يسير عليها الساباتائيون تتفق مع الماسونية واليهودية. بالإضافة إلى هذا فقد تعلّم الساباتائيون الثقافات الغربية واللغات الأجنبية، وعلى الرغم من هذا كانوا يحاولون إخفاء أصولهم[٢].

أما الجيل الجديد من طائفة الدونمة فيحاولون إزالة أسباب الخلاف بينهم، ويعملون على الاندماج في المجتمع التركي، كما يحاولون التخلّص من لقب الدونمة، الذي يُعرفون به، حيث أصبحَ من الصعب إقامة طائفة الآن في تركيا منطوية على نفسها، وذلك نتيجة للثورة الاجتماعية التي حدثت في تركيا، والتي أدّت إلى انصهارهم داخل المجتمع[٣].

والجدير بالذكر أنّه حدث حريق في سلانيك عام ١٩١٧م وقد التهم هذا الحريق جميعَ مصادر ووثائق الدونمة، وأثناء هجرتهم من سلانيك عام ١٩٢٤م قام اليهود بترك كتاب دعاء خاص بهم، وقد انتقل هذا الكتاب إلى إسرائيل عام ١٩٤٨م[٤]. وقبلَ هذا الحريق توضح المصادر أنَّ المؤرخ (روزانس) هو الشخص الوحيد الذي استطاع دخول مكتبة جماعة القبانجلر في سلانيك وقام بتدوين ملاحظاته في كتاب باللغة العبرية.

ومن الملاحظ أنَّ اليهود المحافظين لا يعترفون بهؤلاء الساباتائيين، ولا يعترفون بأنّ لهم وجوداً في الثقافة اليهودية، إلى جانب عدم اعترافهم بالباحثين

---

(١) لمزيد من معرفة دور شفيق حسني وصبيحة سرتل وعائلة إيبكجي انظر:
Hikmet Tanyu, Tarih Boyunca Yahudiler ve Turkler, Istanbul 1977 C.IIs.722 - 723 - 724ne C.I.359 - 361.

(٢) Ilgaz Zorlu, a.g.e.s.147.

(٣) نوري النعيمي، يهود الدونمة، مرجع سابق، ص٦٥.

(٤) Ilgaz Zorlu, a.g.e.s.15.

الأتراك الذين درسوا وثائق السباتائية[١]. ومع أنّ الساباتائية حركة قامت وانتهت في تركيا إلا أنّه يعيشُ كثيرٌ منهم حتى وقتنا الحاضر، ويعيشون في أمريكا وإنجلترا وفرنسا وإسبانيا وهولندا[٢].

ومن عادات الدونمة أنّ الذي يقوم بتطبيق تعاليمها رجلٌ له صفة (مباشر) لمراقبة تطبيقها بين الرجال. أمّا النساء فكانت تقوم بهذا العمل امرأة مرشدة، لها حق تطبيق العقوبات على الذين يخالفون تعاليم الدونمة.

ولم يكن مسموحاً لأبناء الدونمة بتعلم اللغات الأجنبية أو دراسة القانون أو الصيدلة أو الطب[٣]. ومن العادات الحية ليهود الدونمة والتي لا تزال يتبعها هؤلاء الدونمة:

١ ـ عادة ذبح الخروف، وأكل لحمه في اليوم الأول من السنة اليهودية في ذكرى فداء إسحاق على حدّ زعمهم.

٢ ـ عادة حلق الشعور بالموسى لدى اليعقوبيين للرجال، وتجديل الشعور إلى ضفائر رفيعة للنساء.

٣ ـ لكلّ فردٍ من الدونمة اسمٌ آخر يهودي.

٤ ـ الالتحاء سمةٌ من سماتهم.

٥ ـ لا يؤكل لحم الخروف في أول كلّ سنة إلا بعد إجراء الطقوس الخاصة بذلك اليوم، ومن يأكل لحم الخروف في غير أوانه يكون معرّضاً للموت طوال ذلك العام[٤].

---

(١) Ilgaz Zorlu, a.g.e.s.16.
(٢) Ilgaz Zorlu, a.g.e.s.96.

(٣) محمد حرب، يهود الدونمة، ص٣٤ ـ ٣٥.
(٤) يقول علاء الدين غوسة في كتابه: «كنت مديراً لمدرسة ليلية تابعة للسباتائيين بقرية ماكري، وكان طباخ المدرسة سباتائياً، أمرته في أحد أيام الربيع أن يطبخ لنا لحم خروف فرفض، فشكوتُه إلى الهيئة الإدارية فلم أفلح في شكواي، ولم أتمكن من إطعام أحد لحم خروف قبل أوانه». نقلاً عن مصطفى طوران، يهود الدونمة، مرجع سابق، ص٣٦.

٦ ـ لا يجوزُ لأي واحد من الدونمة إنشاء علاقات جنسية مع إمرأة ليست من الدونمة، ومن يفعل كان من أهل النار.

٧ ـ لا يجوز للدونمة المبادرة إلى أداء التحية لغيرهم.

٨ ـ الذهاب إلى ساحل البحر أو إلى ضفة نهر والقيام بالنداء التالي:

«ساباتاي زفي نحن بانتظارك»[١].

العادات التي اتبعها الساباتائيون:

يحتفل الساباتائيون (يهود الدونمة) بجميع الأعياد اليهودية، ويقيمون شعائرهم فيما عدا الكفّ عن العمل يوم السبت حتى لا يلفتوا النظر إليهم[٢].

وللدونمة حوالي عشرين عيداً، يحتفلون به من أهمها عيد يسمى (عيد الخروف) أو (عيد الشمعة)[٣].

عيد إطفاء الشمعة عند الساباتائية:

وهو من أهم الأعياد عند الساباتائيين، ويوافق هذا العيد يومي ٢١ـ٢٢ آذار ـ مارس من كل عام، حيث يتمُّ فيه ذبح خروف، ويؤكل وهو عيد ليلي، ويشترط لهذا الاحتفال تواجد رجلين وزوجتيهما، ويمكن زيادةُ العدد بشرط أن يتعادل عدد الرجال والنساء، تتحلّى النساء في هذا اليوم بأبهى زينتها، وبعد تناول الطعام تطفَئ الأنوار، ويبقى الجميع في الظلام.. والأولاد الذين يولدون في هذا اليوم يكتسبون قدسية خاصة[٤].

---

(١) مصطفى طوران، يهود الدونمة، مرجع سابق، ص٣٥ نقلاً عن (أبراهام غالانتي) من كتاب (وثائق عن عادات ومنظمات السباتاي).

(٢) عبد الوهاب المسيري، موسوعة المفاهيم والمصطلحات الصهيونية، مادة (الدونمة)، مرجع سابق، ص١٩١.

(٣) Ilgaz Zorlu, a.g.e.p.51.

(٤) محمد حرب، يهود الدونمة، مرجع سابق، ص٣٥ ـ ٣٦. نقلاً عن جريدة (أقشام) في عددها الصادر في ٤/ ٥/ ١٩٣٥م.

ولا يزال يحتفل بهذا العيد حتى الآن، وخاصة عند فرقة القره قاش الساباتائية[1].

تأثير يهود الدونمة على الحياة الاقتصادية في الدولة العثمانية:

كان ليهود الدونمة دورهم البارز في الميزان الاقتصادي التركي، وذلك من خلال النقود الإسبانية والنمساوية التي جلبها اليهود بتجارتهم إلى تركيا، فكان الأتراك يفضلون هذه العملات عن أية عملات أخرى، وكانت تستخدم في شراء سلع باهظة الثمن، وكانت الشركات اليهودية الأوروبية والأمريكية ترسَلُ لليهود

---

(١) محمد حرب، المرجع السابق، ص٣٥ ـ ٣٦؛ ويذكر شابٌ ساباتائيٌ من حزب (إبراهيم آغا) هذا العيد قائلاً في مقال نشره عام ١٩٢٥م في مجلة (الدنيا المصورة): «أعتقد أنّ الاحتفال بإطفاء الأنوار ما يزالُ من العادات المتبعة لدى القره قاش. وأغلبُ ظنّي أنّ العائلة التي أنا فرد منها كانت إلى عهد قريب تمارس هذه العادة، ولم أشترك في أيّ احتفال كهذا بسبب كوني عازباً، وكلّما أظهرتُ رغبة في حضور الاحتفال منعوني وقالوا: إنّ الاحتفال للمتزوجين فقط». (انظر مصطفى طوران، مرجع سابق، ص٢٩).

كما نشرت جريدة المساء التركية في عددها الصادر بتاريخ ٤/ ٥/ ١٩٣٥م خبراً من مراسلها في مرعش يقول فيه: ألقت سلطات الأمن القبض على جماعة من الرجال والنساء يمارسون عادة إطفاء الشموع، وضبطتهم بالجرم المشهود، كما عثرت في الغرفة المجاورة لصالة الاحتفال على بعض الآلات الموسيقية، وعلى دجاجةٍ سوداء قُطِعَ رأسُها. ونستدل من هذا الخبر أنّ الدجاجة قد أخذت مكان الخروف في الاحتفال، وأنّ هذه العادة متبعة حتى في هذه الأيام. (انظر مصطفى طوران، مرجع سابق، ص٣٠). وقد اتهمت هذه الجماعة بالانحلال الخلقي والانغماس في الجنس. انظر (عبد الوهاب المسيري، موسوعة المفاهيم والمصطلحات الصهيونية، مرجع سابق، ص١٩١).

كما أضاف يهود الدونمة عيداً خاصاً بهم أسموه عيد ميلاد ساباتاي زفي. كما كانت صلواتهم وطقوسهم تكتب في كتب صغيرة الحجم حتى يسهل عليهم إخفاؤها. وقد نشرت (الجريدة المصورة) في عددها رقم ١١٦ الصادر عام ١٩٢٥م مقالاً قالت فيه: إنّ حقيقة الدونمة أنهم يُشعِرُون الأتراكَ بعلاقتهم الحميمة بهم، لكنّهم في حياتهم الاقتصادية كما في الحياة العائلية يحذرون من الأتراك حذر الغراب. (مصطفى طوران، يهود الدونمة، مرجع سابق، ص٣٢ ـ ٣٣).

من الخارج معونات مالية أحدثت انتعاشاً في الحركة الاقتصادية في تركيا[1].

وقد توصّلَ (حكمت طانيو) عند دراسته ليهود الدونمة من خلال شواهد مقابرهم في إزمير إلى حقيقة هامة، وهي أنَّ التجار من يهود الدونمة أخذوا يتزاوجون من العائلات التركية المسلمة المعروفة في عالم التجارة، وقد حدث تزاوج بين الدونمة والمسلمين الذي كان ممنوعاً بينهم طبقاً للعقيدة الدونموية من قبلُ، ومن أبرز هذه الحالات زواج (زكريا سرتل) الكاتب التركي المعروف من (صابحة سرتل) اليهودية الدونموية الأصل[2].

---

(١) محمد سرحان، النظام العثماني، مرجع سابق، ص١٧.

(٢) صبيحة سرتل أو صابحة سرتل هي فتاة من طائفة الدونمة، تزوّجها زكريا سرتل، سميت فيما بعد صابحة زكريا سرتل، قامت مع زوجها بعدة نشاطات في فترة الهدنة وفي العهد الجمهوري، ثم أسسا معاً عام ١٩٤٥م الجريدة الشيوعية (طنين).

وأخيراً هربا من تركيا عام ١٩٥٢م، توفيت الزوجة عام ١٩٦٨م في باكو بروسية، ونُشرت مذكراتها في إستانبول عام ١٩٦٩م.

أما زكريا سرتل فهو أول شيوعي تركي، بقي أكثر من عشرين سنة خارج تركيا، حيث منع من الدخول إليها بسبب دعايته للشيوعية مع زوجته صبيحة، وعندما صدر قانون العفو العام عام ١٩٧٤م عاد زكريا سرتل إلى تركيا، ولايزال حياً، ويكتب في صحف الدونمة.

والصحفية صبيحة سرتل ـ زوجة زكريا سرتل ـ قامت بتأسيس جريدة طنين الشيوعية، وقادت هي وزوجها حركة شيوعية، وكانت هي وزوجها من أفراد الطبقات العليا، وكانا مقرّبين إلى قيادة تركيا الفتاة، واعتنقا الاشتراكية العقائدية خلال فترة وجودهما في الولايات المتحدة في نهاية الحرب العالمية الأولى، رفضا العروض المقدمة لهما من قبل القيادة الكمالية، واتجها إلى صحافة المعارضة، فأدى ذلك إلى اعتقالهما في منتصف العشرينيات. كانا قادرين على نشر المجلات الأولى والصحف التي حققت لهما مكاناً دائماً ورئيساً في تاريخ الصحافة التركية، إلى جانب دورهما في تاريخ اليسار التركي، وكان نشاطهما الوظيفي قد طبع بالصراعات مع السلطة، وحتى السجن، ويبلغ مصيرهما في النهاية إلى تدمير صحيفتهما من قبل الجماهير في عام ١٩٤٦م فهربا إلى المنفى عام ١٩٥٠م. واستقرا في الاتحاد السوفيتي، وظلت صبيحة سرتل هناك حتى ماتت في مدينة باكو عام ١٩٦٨م، ونشرت مذكراتها في إستانبول عام ١٩٦٩م، راجع: محمد حرب، العثمانيون في التاريخ والحضارة، مرجع سابق، ص٨١؛ =

التأثير السياسي ليهود الدونمة الساباتائية:

يقول دانشمند عن هؤلاء الدونمة: إنّ هؤلاء الرجال محرومون تماماً من الشعور بالوطن والأمة، وهؤلاء الذين أسلموا قهراً، وانتسبوا إلى المجتمع العثماني كعبيد، كانوا ينظرون إلى الترك بعين رديئة وسيئة[(١)].

يرى البعض أنّ جماعة الدونمة اختلطت تاريخياً بالأتراك بإعلان الجمهورية، وأن حياتهم السرية قد انتهت من القرن السادس عشر وبعد مشروطية عام ١٩٠٨م بدأ الزواج بين الفِرَق بعد أن كان محرّماً قبل ذلك، وتطوّر الأمر بعد ذلك، وأصبحوا يتصاهرون مع أتراك سلانيك، فزالت عرقيتهم بالتدريج، وتركوا لغتهم الإسبانية في الربع الأول من القرن العشرين.

وهناك رأى آخر يقول: إنّ طائفة الدونمة ما تزالُ موجودةً حتى وقتنا الحاضر[(٢)].

وعائلات الدونمة كانت ما تزال موجودة عام حتى ١٩٦٠م، وكان أحدُهم يعمل أستاذاً في جامعة إستانبول، وتقول المصادر إنّه في عام ١٩٣٥م عُثِرَ على كتب أدعية خاصة بالدونمة في يد أطفالهم، وفي عام ١٩٣٩م عثر أحدُ الموظفين في مدرسة الدونمة في إستانبول على كتاب أدعية فكتب كتاباً باسم ساباتاي زفي.

وفي عام ١٩٤٢م طُبّقت على هؤلاء الدونمة ضريبة الوجود، على أن تأخذ منهم الحكومة التركية ضعف ما تأخذه من المسلمين، الأمر الذي أدّى إلى الإضرار بوضعهم في الدولة[(٣)].

= وكذلك Hikmet Tanyu, Tarih Boyunca Yahudiler ve Turkler, c.L, s.350 - 351
وكذلك محمد حرب، (يهود الدونمة إلى الآن يحجون ويصومون ويدخلون المساجد)، مرجع سابق، ص٤٦.

(١) Ismail Hami Danismend, Izahli Osmanli Tarihi Kronolojisi, c.l Istanbul, 1972, s. 354.

(٢) Abdurrahman Kucuk, a.g.e.s. 461.

(٣) Abdurrahman Kucuk, a.g.e.,.s. 402.

وعند تأسيس دولة إسرائيل ذهب إلى هناك جزء من جماعة الدونمة، وكان ذلك عام ١٩٤٨م ـ والمجتمع التركي يرى استمرارَ هذه الجماعة، لكنّه لا يعرف ما يريدُه هؤلاء، وذلك نتيجة لأسلوب التخفّي الذي يتبعونه، فليس من السهل معرفتهم، وذلك لاستخدامهم أسماء تركية إسلامية، وهم يستطيعون معرفةَ بعضهم البعض، ولكن في سرية شديدة[١].

وفي القرن العشرين بدأ البحث عن أدوار وتأثيرات الدونمة في ضعف وتقسيم الإمبراطورية العثمانية، وقد تمّ رصدُ هذا الدور الذي لعبه الدونمة في حركة (جون ترك) و(جمعية الاتحاد والترقي) و(واقعة ٣١ مارت) حيث كانت الدونمة والماسون على رأس التشكيلات التي بذلت جهداً كبيراً للقضاء على السلطان عبد الحميد بقيادة رئيسهم الدونمي (رمزي بك) وبدلاً من محاكمته عسكرياً بسبب سوء تصرف الجنود الذين كانوا تحت إمرته عُين رئيساً لأركان حرب السلطان محمد الخامس[٢].

أما المسؤول عن حراسة السلطان بعد نفيه إلى سلانيك فكان أخا (رمزي بك) (موشيه الآتيني) اليهودي الدونمي[٣].

احتلّ أيضاً عددٌ من الدونمة مناصب وزارية، وذلك في الحكومات التي أسست بعد عام ١٩٠٨م وزعمت الموسوعة اليهودية أن (جاويد بك) الذي كان وزير المالية في أول حكومة للجمهورية التركية كان من الدونمة[٤].

وفي حديث لـ (اليغاز زورلو) الساباتائي الذي كتب الكثير عن السباتائية في تركيا، وقام بنشر بحوث كثيرة في هذا الموضوع، نشر في جريدة (جوراسالم بوست) (Jerusalem Post) الإسرائيلية أن (روخشان أجاويد) زوجة (بولاند

---

(١) Abdurrahman Kuc.,a.g.e., p.463,464.

(٢) وثائق في الماسونية، مخطوط غير منشور، مركز بحوث العالم التركي، القاهرة.

(٣) Abdurrahman Kuc.,.s.464.

(٤) Abdurrahman Kucuk,s. 465.

أجاويد) و(إسماعيل جم) وزير الخارجية التركي و(تانسو تشيلر) رئيسة وزراء تركيا سابقاً، من الساباتائيين. وذكر أيضاً (زورلو) الساباتائي في حوارٍ له مع جريدة (يديعوت أحرونوت) (Yedioht Ahroronot) المشهورة في إسرائيل: «أنّ السلوك الذي اتبعته إسرائيل واليهود في عدم دخول ساباتائي تركيا بينهم يعد ظلماً في حق الساباتائيين في تركيا»، وأوضح أنَّ هناك الكثير من الشخصيات الأكاديمية والصحفية التركية ينتسبون إلى الساباتائية، كما أكد أنَّ جماعة اليهود لا ترغَبُ في المساواة بينهم وبين الساباتائيين، وقد أعلنَ كبيرُ الحاخامات «أنّ الساباتائيين إما أن يكونوا مسلمين أو يهود، ولا يمكن أن يكونوا بين بين».

وقد دافع زورلو عن هذا بقوله: «إنّ جماعتنا لم تتزوج بالمسلمين حتى تبقى يهوديتهم خالصة، كما أنَّ الأجيال القديمة للساباتائيين مرتبطةٌ بالعادات الساباتائية إلى أقصى درجة، أمّا أجيالنا الجديدة فقد تربت على منطق جديد. . من الممكن أن تكون هناك فروق بيننا، لكننا في النهاية كلُّنا يهود» وصرح أن ساباتاي زفي أعلن أنّه أسلم حتى ينجو من العقاب، لكن على الرغم من هذا فإنَّ الذين استمروا معه بعد إسلامه ظلوا يحافظون على يهوديتهم.

ويقول أيضاً: «في الهجرة التي تمت عام ١٩٢٤م انتقل كلُّ الساباتائيين الموجودين في سلانيك إلى إستانبول وانقسمت الجماعة بعد موت ساباتاي زفي إلى ثلاثة أقسام، وقامت كلُّ فرقةٍ باتخاذ كبير حاخامات لها، ومعابد خاصة بهم. . فهذه الجماعة جماعة يهودية خالصة وحقيقية»[١].

يهود الدونمة (الساباتائيين) والماسونية:

استفاد يهود الدونمة من إنشاء جمعيات سرية ماسونية لتحقيق أغراضهم نفسها، من هذه الجمعيات جمعية (فرسان المعبد)، و(جمعية البناء الحر)[٢]

---

(١) Ogun Duru, Sabetayciden Muthis Iddia, yeni Safak, 22 Mayis, 1999.

(٢) جمعية البناء الحر: جمعية تعمل كمعظم الجمعيات السرية على سحق التعاليم الدينية، وبث الدسائس السياسية تحت ستار الإخاء والصداقة والحرية (انظر محمد زغروت، =

وجمعية (إخوة الشيطان)[1]، وجمعية (أصحاب القداس الأسود)[2]، وجماعة (شهود يهوه)[3]، وجمعية (بني برت)[4].

= دور يهود الدونمة، مرجع سابق، ص٢٥؛ نقلاً عن محمد عبد الله عنان، تاريخ الجمعيات السرية، ص٩٥).

(١) إخوة الشيطان أو المعابد الشيطانية، وتلك الجماعة يتخذون من الشيطان زعيماً لهم، لأنه كما يدعون تزعّمَ ثورةَ الملائكة في السماء، ورفض أن يسجدَ لآدم، ويعتقدون أنّه لا قيامة ولا دين، ولا وجود لله، وأنَّ عُبّادَ الشيطان هم الغالبون، ويتكون المعبد الشيطاني من مذبح يعلوه صورة امرأة عارية، طبع على جسمها نجمة ذات خمسة رؤوس رمزاً لمعبودهم الشيطان، وأول ما ظهرت هذه المعابد في سان فرانسيسكو عام ١٩٦٦م. (محمد زغروت، مرجع سابق، ص١٦ نقلاً عن داود عبد العفو، القوى الخفية اليهودية العالمية الماسونية، دار الفرقان ١٩٨٣م، ص٣٢٨ ـ ٣٣٠).

(٢) أصحاب القداس الأسود، دعوة ظهرت في جنوب فرنسا ضد تعاليم الكنيسة، يدعون لمحاربة الأخلاق والسلطة، والانطواء تحت لواء الشيطان، الذي هو في نظرهم خصم الله، وتعتمد على السحر والشعوذة، وترجعُ بأصولها إلى مدرسة القابالة اليهودية، وتهدف إلى هدم الكنيسة، وتدنيس شعائر الدين المسيحي. محمد زغروت، ص١٧؛ وفهمي الشناوي، مصرع الخلافة العثمانية، المختار الإسلامي، القاهرة، ١٩٩٥م، ص٦٩).

(٣) جماعة شهود يهوه، هم جماعة يهودية تتظاهر بالمسيحية، ويزعمون أنهم جمعية يدعون للخير، لكنّ تعاليمهم السرية تهدف إلى إقامة مملكة يهوه إله اليهود، وهدفهم الأسمى تكوين دولة دينية واحدة تسيطر على العالم كله، وأعضاؤها يعملون في أعمال المخابرات والدعاية (محمد حرب، شهود يهوه. سلسلة دراسات تاريخية، ط٢، ١٩٨٣م، ص٣٦ ـ ٣٧).

(٤) جمعية بني برت، تأسست في نيويورك تتكون من زعماء اليهود الكبار أمثال (ناحوم سوكولوف) و(ذنكوف) و(حاييم نخمن) و(حاييم وايزمن)، و(دافيد يلين)، و(مائير برلين) وغيرهم، وتزعم هذه الجمعية أنها تنشر الخير بين الناس، وكان لها أثرها على قادة العالم الغربي في العصر الحديث، (زغروت، ص١٧)؛ وعبد الله التل، أطر اليهودية العالمية، ص١٥٢ ـ ١٥٣). أسست هذه المنظمة عام ١٨٣٤م وكانت مهمتها التقاط الأخبار، واحتلال مراكز حساسة في الدول، كان لهذه المنظمة في لندن إدارة ومكتبة، وقد كشف جهود هذه المنظمة الجنرال التركي (محمد جواد رفعت أتلخان) في كتابه (إسلامي صاران تهلكت) وكان لها في كل بلد فرع سري، يسيطر على التجارة، وفرع يدرس وضع البلد السياسي، وكان من أشهر شخصياتها (فرويد) وهو أحد =

وكذلك جمعية (الروحية الحديثة) هذا إلى جانب أندية (الروتاري) و(الليونز)[١].

قام يهود الدونمة بالتحالف مع الصهيونية والاستعمار، وذلك في فترة الضعف التي كانت تسري في الدولة العثمانية، فكان هؤلاء اليهود هم الأداةُ المنفذّة لأكبرِ حركتين شهدتهما تركيا، وهما:

- الحركة الصهيونية التي هدفت لإقامة وطن قومي لليهود في فلسطين.

- والحركة الثانية هي حركة الاتحاد والترقي، التي أثّرت على مجريات الحياة في الدولة العثمانية، والتي أدت إلى سقوط الخلافة الإسلامية، وإعلان الجمهورية التركية بزعامة كمال أتاتورك.



و(الدونمة) - طائفة إسلامية يهودية، منهم جاويد بك (١٨٧٥ - ١٩٢٦) الذي تكرر تعيينه وزيراً للمالية - قاموا بدور رئيس وقيادي في ثورة الشبان الأتراك عام ١٩٠٩م تلك الثورة التي نظّمها وأوحى بها ووجّهها الماسون[٢].

وكانت العقول المفكرة لرجال الاتحاد والترقي هم يهود الدونمة، الذين خططوا من أجل هدم الخلافة العثمانية وتتريك تركيا من ناحية والهيمنة الاقتصادية من ناحية أخرى، هذا إلى جانب السيطرة على الإعلام التركي، وتشجيع

= الأقطاب الذين اعتمد عليهم هرتزل، وهو يرى هدمَ جميع الأديان والأخلاق، كما يرى إفناءَ الشعوب، وخاصةً هذه الجمعية ترفع من شأن مهاجمي الأديان الأخرى (انظر محمد علي الزعبي، الماسونية في العراء، ص٦٠ - ٦٣)؛ وبني برت عبارة عبرية بمعنى أبناء العهد، تستهدف توحيد اليهود والعمل على تحسين أحوالهم، لها فروع فيما يزيد على ثلاثين دولة، ساهمت في المؤتمر الصهيوني في واشنطن عام ١٩٣٥م، وقامت بمعاونة الصندوق القومي اليهودي في شراء الأراضي وإقامة المستعمرات في فلسطين (انظر عبد الوهاب المسيري، موسوعة المفاهيم والمصطلحات اليهودية، مرجع سابق، ص١٠٨).

(١) محمد زغروت، مرجع سابق، ص١٤ - ١٦ - ١٧.

(٢) محمود ثابت الشاذلي، المسألة الشرقية، مكتبة وهبة، القاهرة، ١٩٨٩م، ص١٤٧.

الاتجاهات القومية التركية[١].

قام يهود الدونمة أيضاً بدور مؤثر مع الأحزاب السياسية التركية دون أن ينتموا إليها، وذلك من أجل التأثير على اتخاذ القرارات السياسية في الدولة، وكانوا يعينون بعض النواب والشيوخ وكبار الموظفين في مجالس إدارة الشركات اليهودية، وذلك من أجل الاستفادة من دورهم السياسي، ونفوذهم فيه.

وكان هدفهم من هذا هو عدم اتخاذ موقف من قبل الدولة يضر بالمصالح الصهيونية[٢]. وكان شعارهم هو شعار الماسونية: الحرية.. المساواة... الإخاء[٣].

واليهود لا ينكرون أنَّ الماسونية هي حليفتهم، وأنّهم مؤسسوها، وقد صرّح الحاخام الأكبر (إسحاق ويز) أنّ الماسونية هي مؤسسة يهودية خالصة، وأنَّ تقاليدها وأنظمتها وتعاليمها مأخوذة من مصادرنا، فهي منا ولنا من البداية حتى النهاية[٤].

علاقة الساباتائيين بالاتحاد والترقي ودورهم في تتريك الدولة:

ترجعُ جذور (جمعية الاتحاد والترقي) إلى عهد السلطان عبد العزيز (١٨٦١ ـ ١٨٧٦م)، وكان نشاطها يقتصر على إصدار الصحف التي كانت تتمتع بحقوق خاصة، عن طريق دوائر البريد الأجنبية الموجودة بالدولة، وكانت هذه الدوائر تتمتع بحرية خاصة[٥].

وقد كانت (جمعية الاتحاد والترقي) صاحبةَ السلطة الحقيقية في الدولة العثمانية بين عامي ١٩٠٨ ـ ١٩١٨م، وفي هذه الفترة نشطت الجمعيات السياسية

---

(١) محمد زغروت، دور يهود الدونمة، مرجع سابق، ص١٦ ـ ٢٤.
(٢) نوري النعيمي، أثر الأقلية اليهودية، مرجع سابق، ص٢٩.
(٣) فهمي الشناوي، مرجع سابق، ص٧٠.
(٤) جواد رفعت أتلخان، مرجع سابق، ص٥٣.
(٥) رامزور، تركيا الفتاة، مرجع سابق، ص٤١.

والأحزاب، وكانت تدعو إلى الإصلاح ولا مركزية الإدارة.

وكان لجمعية الاتحاد والترقي دور كبير في القضاء على الحريات، واتخذت سياسة القمع والعنف مع زعماء المعارضة لسياستها الداخلية والخارجية[1].

وكان لهذه الجمعية فروعٌ في عواصم أوروبية مختلفة، فكان لها فرع في باريس يضمُّ الطلاّب والدارسين فيها، هذا إلى جانب فروعها في سلانيك.

تقول بعض المصادر عن هؤلاء الدونمة:

«في سلانيك طائفةٌ يقال لها: (الدونمة) أي العائدون، أصلهم يهودٌ من مهاجري إسبانيا، أسلموا منذ أربعمئة سنة إسلاماً مشوباً ببعض عقائدهم الأصلية، ولمّا كانوا المثلَ البعيد في الحصافة والذكاء، والقيام بأمور المالية بنوع خاص، فكان الدور الذي يمثّلونه في الهيئة الاجتماعية التركية أعظمَ جدّاً مما يستحقه عددهم، وكان أثرهم في حركة الانقلاب الدستوري مهماً، فكان منهم أناس يعدون أركاناً في جمعية الاتحاد والترقي».

«إنّ (جمعية الاتحاد والترقي) قامت على عناصر تركية، وعناصر إسلامية غير تركية، فمنذ أنْ وُجِدَت هذه الجمعية لم نجد من قادتها رجلٌ واحد من أصل تركي فـ(أنور باشا) هو ابن لرجل بولندي مرتد، وكان (جاويد) من يهود الدونمة، و(قره صو) يهودي سفارديمي من ولاية سلانيك، وكان (طلعت) من مسلمي الغجر البلغاريين، أمّا (أحمد رضا) فينتمي إلى إحدى الجماعات الوضعية الفلسفية، ويجبُ أن نعترف أنَّ هذه هي صورة تركيا الفتاة»[2].

وقد كانت (جمعية الاتحاد والترقي) في بداية أمرها فرعاً لحزب تركيا الفتاة الذي تأسس على أيدي الترك المتشبعين بالأفكار الفرنسية بزعامة (أحمد رضا بك) وكانت هذه الجمعية سرية، لها فروعٌ في برلين وسلانيك وإستانبول، وكان

---

(١) محمد الخير عبد القادر، نكبة الأمة العربية بسقوط الخلافة العثمانية، مكتبة وهبة، القاهرة، ١٩٨٥م، ص٨٥.

(٢) نوري النعيمي، اليهود والدولة العثمانية، مرجع سابق، ص١٦٩.

فرع سلانيك يضمُّ معظم الضباط، من بينهم (طلعت بك) الذي أصبح رئيساً للوزارة فيما بعد.

وقد رحّبَ المحفل الماسوني في سلانيك بإنشاء هذه الجمعية، وقد اتخذ اليهود هذا المحفل مركزاً لانطلاقهم برئاسة (قره صو) بالتعاون مع (جاويد)، وكانت جلساتهم تعقد داخل المحافل الماسونية مستخدمين أساليبهم في تأمين اتصالاتهم بالعاصمة، حتى تمكنوا من قلب الحكم في البلاد عام ١٩٠٨م.

وقام يهود الدونمة بدور فعال في نصرة القوى التي تحركت من سلانيك لعزل السلطان عبد الحميد، وانتشروا في البلاد العثمانية، وتجنّسوا بجنسيات مختلفة، وساعدوا الجمعيات السرية، وأسسوا المدارس الخاصة، فعملوا على نشر الإلحاد والأفكار الغربية. والدعوة لهتك حجاب المرأة المسلمة، إلى جانب نشر الدعايات المختلفة ضد السلطان عبد الحميد، والتي تقول: إنّ البلاد ترزحُ تحت الحكم المطلق، وإنّ الحرية قد فقدت، وإنّ السلطان يفتِكُ بالعناصر المثقفة، ويرميها من نوافذ القصر إلى البحر، وغيرها من الشعارات التي تقول: إنه لا حرية في الدولة العثمانية، والاستبداد يخيّمُ علينا، وكان هذا من الشائعات الماسونية[١].

وقد تشكّلت جمعية (الاتحاد والترقي) عام ١٨٨٩م بغرض القضاء على السلطان عبد الحميد، بزعامة رجل ماسوني ألباني هو (إبراهيم تيمو)[٢] المعروف بأدهم، حيث اتفق مع عدد من طلاب المدرسة الطبية العسكرية في إستانبول على إنشاء ذلك التنظيم بهدف عزل السلطان عبد الحميد الثاني، وكان منهم: (إسحاق سكوتي)، و(شركس محمد رشيد)، و(عبد الله جودت)، وكرديان، وقد باشرت أعمالها في جنيف أولاً عام ١٨٩١م، ثم انتقلت إلى باريس، وقد ركزوا دعوتهم داخل صفوف الجيش، وقد أنشأ كلٌّ من (إسحاق سكوتي) و(عبد الله جودت)

(١) علي حسون، الدولة العثمانية وعلاقتها الخارجية، مرجع سابق، ص١٨٧ ـ ؛ ومحمد ثابت الشاذلي، المسألة الشرقية، مرجع سابق، ص١٨٤.

(٢) Ibrahim Timonun ittihad ve Terakki Anilari, Arba yayinlari, Istanbul, Tarihsiz.

مجلة (عثمانلي) في جنيف، لتأليب الرأي العام على السلطان[1].

وجدير بالذكر أنّ السلطان عبد الحميد كان يعلم أنَّ عدداً من الدونمة يُسهمون في الحركة ضده، لكنّه لم يتخذ أيَّ إجراءات ضدهم خشية تاريخهم الغريب[2].

وفي مقدونيا برز (أنور بك)[3] الذي كان يشغل منصب ملحق عسكري في

---

(١) مذكرات السلطان عبد الحميد، محمد حرب، دار القلم، ١٩٩٨م. وانظر في ذلك أيضاً مذكرات إبراهيم تيمو، Ibrahim Temonun ittihad ve Terakki Anilari, Arba Yayinlar, Istanbul, Tarihsiz.

(٢) رامزور، تركيا الفتاة، مرجع سابق، ص١٩٥، نقلاً عن أبراهام غالانتي.

(٣) أنور باشا ولد عام ١٨٨١م في إستانبول، وهو جنرال عثماني، وقائد ركن ثورة تركيا الفتاة عام ١٩٠٨م، وأحد الرجال الثلاثة الذين حكموا الدولة العثمانية من عام ١٩١٣ - ١٩١٨م، لعب دوراً أساسياً في دخول الدولة العثمانية الحرب إلى جانب الألمان، ثم انهزام الدولة عام ١٩١٨م، حاول تنظيم الشعوب التركية في آسيا الوسطى ضد الروس. رُقّي أنور تدريجياً في الأكاديمية العسكرية في إستانبول، حيث تخرَّجَ برتبة رئيس، وعين في الجيش الثالث بسلانيك التي كانت مركز النشاط الرئيس المضاد لحكم عبد الحميد. قاد في عام ١٩٠٣م العمليات العسكرية العثمانية ضد العصابات المقدونية، وفي عام ١٩٠٦م عُيّن في أركان الجيش الثالث (بمناستر) إذ انضم هناك إلى (جمعية الاتحاد والترقي) وجذب إليه الجنرال (محمود شوكت) الذي تقدّمَ جيشُ الحركة تحت إمرته إلى العاصمة. عين في عام ١٩٠٩م ملحقاً عسكرياً في برلين، فتحققت معرفته باللغة الألمانية العسكرية، ترك برلين أثناء الحرب الإيطالية التركية، وانضم إلى المقاومة العثمانية في ليبيا، ثم عين حاكماً لبنغازي عام ١٩١٢م، وبعد رجوعه إلى إستانبول اشترك في نشاطات (الاتحاد والترقي) السياسية، ثم قاد انقلاباً في عام ١٩١٣م، وأطاح بالحكومة، وأرجع حزبه إلى السلطة، استعاد أدرنة من البلغار في حرب البلقان الثانية، وحكم الدولة بدءاً من ذلك الحين وحتى عام ١٩١٨م، إلى جانب طلعت وجمال. فرَّ إلى ألمانيا بعد هزيمة الدولة في الحرب العالمية الأولى، ثم ذهب إلى موسكو عام ١٩١١م حيث شجعه الروس على تشكيل اتحاد تركي في روسيا، ثم رجع إلى برلين للتحضير لاستلام زمام القيادة في الأناضول، ولكنّ الروس نقضوا عهودهم، فانضمَّ إلى الثورة المضادة للشيوعية في بخارى، احتلّ باكو إثر الثورة الروسية لعام ١٩١٧م، وطلب إخلاءها من الروس فقتلوه في السنة الثالثة. ، علي حسون، ص٢٠٣.

برلين، وقد حاول هو و(نيازي بك) إحياء دستور ١٨٧٦ الذي وضعه (مدحت باشا)[١].

وخوفاً من تعقب رجالات السلطان عبد الحميد لنشاط هذه الجماعة فقد اتجهت إلى أوكار المحافل الماسونية في تركيا، وإلى منازل يهود الدونمة لعقد اجتماعاتهم السرية بها، كما فتحت السفارات الأجنبية أبوابها داخل تركيا وخارجها لأولئك المتمردين لحمايتهم وتشجيعهم على معارضة السلطان عبد الحميد علناً، لإسقاطه وإنهاء حكمه[٢].

---

(١) مدحت باشا (١٨٢٢ ـ ١٨٨٥م) كان والياً على نيش عام ١٨٦٠م، ثم عين والياً على الطونة عام ١٨٦٤م، ثم عين والياً على بغداد عام ١٨٦٩م، ثم عين صدراً أعظم (=رئيس وزراء) عام ١٨٧٢م في عهد السلطان عبد العزيز، وتولى الصدارة العظمى مرة أخرى عام ١٨٧٦م في أول عهد السلطان عبد الحميد. يقول السلطان عبد الحميد عن مدحت باشا: «إنّه كان فيه ميزة رجل الدولة، وكان يبرع في أداء بعض الأعمال، وتمّ اختباره في منصب الوالي، وبيّضَ وجه الدولة في الأماكن التي عُيّنَ فيها. . وأمكن الإفادة منه ومن خبرته، إلا أنَّ له مجموعة أخطاء قاتلة (انظر مذكرات السلطان عبد الحميد الثاني، محمد حرب، ص٤٥).

وكان مدحت باشا من أبرز الداعين للاقتباس من الغرب من أجل نهضة الدولة العثمانية، وكان يرى أنّه من الضروري تقليص نفوذ السلطان العثماني، ولن يحدث هذا إلا بإعلان الدستور، وكان الدستور قائماً على مفاهيم أوروبية، وقد رأت الغالبية العظمى أنَّ هذا الدستور بديلاً عن الشريعة الإسلامية. ورأى السلطان عبد الحميد أنَّ مدحت باشا كان خطراً على الدولة، وكان لمدحت دور كبير في دخول الدولة العثمانية في حرب مع روسيا عام ١٨٧٧م، ومنيت الدولة بهزيمة كبيرة خَسِرت على أثرها كلَّ ممتلكاتها في أوروبا، وقد أقاله السلطان عبد الحميد من منصب الصدارة، ونفاه خارج البلاد، ثم عاد مرة أخرى، وولاه على سوريا في الفترة ١٨٧٨ ـ ١٨٨٠م، وعمل خلال هذه الفترة على استقلال سوريا عن الدولة العثمانية، ثم نقل والياً على إزمير، وقد اتّهم مدحت باشا في حادثة مقتل السلطان عبد العزيز، ولجأ إلى القنصلية البريطانيا، إلا أن سلطات إزمير ألقت القبضَ عليه، وقضت المحكمة بإعدام مدحت باشا إلا أن السلطان عبد الحميد أمر بالاكتفاء بإبعاده إلى الطائف، حتى مات عام ١٨٨٥م. (انظر أحمد فهد الشوابكة، حركة الجامعة الإسلامية، رسالة ماجستير، كلية الآداب، جامعة عين شمس، ١٩٨٣م ص٢٥ ـ ٣١).

(٢) حسان علي حلاق، موقف الدولة العثمانية من الحركة الصهيونية، ط٢، دار الهدى، =

وفي رسالةٍ بعثها السفير البريطاني في إستانبول إلى وزير خارجيته في آب ـ أغسطس سنة ١٩١٠م جاء فيها: «إنّ لجنة الاتحاد والترقي تبدو في تشكيلها الداخلي تحالفاً يهودياً تركياً مزدوجاً. فالأتراك يمدّونها بالمادة العسكرية الفاخرة، ويمدّها اليهود بالعقل المدبر، إنّ اليهود الذين يبدون الآن في الموقف الملهم والمسيطر على الجهاز الداخلي للدولة، يعملون على السيطرة الاقتصادية والصناعية على تركيا الفتاة، ولكي يصلَ اليهودُ إلى مكان النفوذ في تركيا الفتاة، فإنّهم يشجعون الاتجاهات القومية التركية»[١].

وفي تأثير اليهود على (جمعية الاتحاد والترقي) قال (لويس شيخو) في كتابة (السر المصون في شيعة الفرمسون): إنّ من لوازم تشيّع الاتحاد والترقي للماسونية، قوة نفوذ اليهود فيهم وفي الدولة، وذلك يقضي بفوز الجمعية الصهيونية في استعمار بلاد فلسطين، الذي يُرادُ به إعادة ملك إسرائيل إلى وطنهم الأول، وإلى ابتلاع أصحاب الملايين من اليهود لكثيرٍ من خيرات البلاد[٢].

استخدم الضباط الاتحاديون من وقت لآخر قصورَ ومنازِلَ يهود الدونمة لعقد اجتماعاتهم السرية[٣] كما أنّ جمعية الاتحاد والترقي جعلت في وزارتها الجديدة ثلاثة وزراءٍ من اليهود، وجعلت في أيديهم نظارة النافعة (الأشغال العامة) وعلى رأسها (بساريا)، ونظارة الزراعة الذي تولّى أمورها (نسيم مازلياح) ونظارة التجارة التي يرأسها (جاويد) بمعنى أنهم يمتلكون ينابيع الثروة في البلاد[٤].

= بيروت، ١٩٩٠م، ص٢٨٧.

(١) نوري النعيمي أثر الأقلية اليهودية، مرجع سابق، ص١٢٩ نقلاً عن، حسن صبري الخولي (دكتور)؛ سياسة الاستعمار والصهيونية تجاه فلسطين في النصف الأول من القرن العشرين، المجلد الثاني، دار المعارف بمصر، ١٩٧٠، ص١٠٩.

(٢) أحمد نوري النعيمي أثر الأقلية اليهودية، مرجع سابق، ص١٢٩ كتابه نقلاً عن لويس شيخو، المرجع السابق، ص٣٢٩.

(٣) محمد الخير عبد القادر، مرجع سابق، ص٨٥.

(٤) رشيد رضا المنار: ٢/١٥٦ ـ ١٥٧، م١٦ فبراير ١٩١٣م.

وقد ذكر (أرمسترونج) أنّ أعضاء (الاتحاد والترقي) دأبوا على الاحتماء بحصانة اليهود فكانوا يجتمعون في بيوتهم آمنين من كل خطر![1].

بعد ذلك بدأت الماسونية في سلانيك الاتصال بعناصرها في العواصم الأوروبية، ولا سيما بجماعة (الاتحاد والترقي) التي برزت في المحيط السياسي التركي كقوّة مؤثرة.

ويذكر أحد القادة الأتراك المعاصرين للسلطان عبد الحميد أنَّ القرار رقم (٧٠) للجمعية الماسونية الفرنسية قد نصَّ على تأسيس جمعية سرية باسم (جون ترك) حيث باشرت نشاطها من سلانيك، التي تضمُّ اليهود الأكثر نفوذاً في أوروبا، عدا ذلك كان يوجد هناك المحافل الماسونية الكثيرة لقبول الثائرين فيها، نظراً لكون هذه المحافل تحت حماية السياسة الأوروبية..

وقد ولدت (جمعية الاتحاد والترقي) في المحفل الماسوني المسمّى (ماكدونيا ريزورتا) الذي أسسه (قره صو اليهودي الدونمي السلانيكي)[2]. وقبل انتشارهم في سلانيك كانت لهم فروع في يافا والقدس، وكان مقرّ الجمعية في دمشق[3].

---

(١) هـ. س. أرمسترونج، الذئب الأغبر، مصطفى كمال، دار الهلال، القاهرة، يوليو ١٩٥٢م، ص٢٩.

(٢) محمد زغروت، دور يهود الدونمة، مرجع سابق، ص٣١.

(٣) نوري النعيمي، اليهود والدولة العثمانية، مرجع سابق، ص١٦١. (قره صو) إسباني الأصل، وهو يهودي من سلانيك، وأستاذ أعظم في المحفل الماسوني المعروف بـ(ماكدونيا ريزورتا) أصبحَ فيما بعد عضواً بارزاً في (جمعية الاتحاد والترقي) فكان أحد أعضاء الوفد الذي نقل إلى عبد الحميد نبأ خلعه في ٢٧/ ٤/ ١٩٠٩م، وأصبحَ عضواً في المجلس النيابي العثماني مرةً عن سلانيك في عام ١٩٠٨م ومرتين عن إستانبول (١٩١٢م و١٩١٤م) من بين ثلاثة نواب لليهود. شأن بقية الأعضاء اليهود، وكان حريصاً على أن يكون تركياً بالدرجة الأولى. وهذا موقف تقليدي لليهود الأتراك، عَمِلَ في الحرب العالمية الأولى مفتشاً للإعاشة، واستطاع أثناء وجوده في هذه الوظيفة أن يجمعَ أموالاً كثيرة لحسابه الخاص، فضلاً عن ذلك فإنّ قره صو كان حلقةَ وصلٍ بين سلانيك=

ولم يقتصر الأمر على ذلك الحد، بل قامت المحافلُ الأوروبية، ولا سيّما الفرنسية والإيطالية بتأييد فرقة (الاتحاد والترقي) وليدةِ (المحفل الماسوني السلانيكي) وتقديم العون المالي والسياسي والإعلامي لأفراد هذه الجماعة لتباشر نشاطها ضد السلطان عبد الحميد داخل تركيا وخارجها[1].

اتخذت جمعية الاتحاد والترقي شعار الحرية للمواطنين، والمساواة بين شعوب الدولة، فأشاعت الدعايات ضد السلطان عبد الحميد، ولا تزال كتب التاريخ تتبنى هذه الدعايات حتى الآن[2].

كان الدعم الأوروبي لتلك الطائفة كبيراً حيث إنّ عدداً من أعضاء (جمعية الاتحاد والترقي) كانوا من (الدونمة) ممن عاشوا في المنفى، وكان هؤلاء تلاميذ السياسة الأوروبية الذين كانت تأتيهم بالمساعدات المالية من الرأسمالية العالمية

= وإستانبول فيما يتعلّق باتصالات (حركة الاتحاد والترقي).

وبعد عام ١٩٠٨م أصبح (قره صو) من ضمن الجناح اليعقوبي(Jacobin) للاتحاد والترقي، وكان مقرباً من طلعت باشا.

وقد كشفَ (لاوثر) في رسالته المطوّلة إلى هاردنغ وزير خارجية بريطانيا في ٢٩/ ٣/ ١٩١٠م، هذه الحقائق، وقد جاء في قسم منها ما يأتي: «قام (قره صو) وقبلَ عدة سنوات، وهو من الماسونيين اليهود في سلانيك، ونائب المدينة، ونائب غرفة التجارة، على إيجاد محفل (ماكدونيا ريزورتا)، وذلك بالتنسيق والتعاون مع المحافل الماسونية الإيطالية، وقد استطاع (قره صو) استمالةَ جمعية الاتحاد والترقي، من مدنيين وعسكريين إلى الانضمام إلى الماسونية، وكان الهدفُ من وراء ذلك هو فرض النفوذ اليهودي على النظام السياسي الجديد في تركيا العثمانية، و(قره صو) هو المسؤول عن تكوين عصبة البلقان والحروب البلقانية، وكان يعرف محاولة النمسا في حربها على صربيا قبل بضعة أشهر، وقد بين (قره صو) ذلك لأحد أصحابه، وكان مقتنعاً بقيام حرب عالمية في تلك الحقبة، وأنّ الدولة العثمانية سوف تنال حصتها من ذلك. وأخيراً هرب (قره صو) إلى إيطاليا، حيث حصل على المواطنة، واستقرّ في تريستا إلى أن مات عام ١٩٣٤م، وقد رثته صحيفة التايمز الإنجليزية رثاءً حاراً إثر وفاته (نوري النعيمي، اليهود والدولة العثمانية، مرجع سابق، ص١٩٢ ـ ١٩٣).

(١) محمد زغروت، مرجع سابق، ص٣١.

(٢) عبد الله البكري، أحقاد على الإسلام، ص٣٢.

من فيينا وبودابست وبرلين ولندن وباريس[1].

وقد بلغ تدخل لجنة (الاتحاد والترقي) في شؤون الدولة حدّاً كبيراً[2]: «فقد تمادت هذه اللجنة في تدخّلها في شؤون الحكومة، حتى استأثرت بالسلطة في كلّ فروعها، ولما استأثرت بها لم تكتف بالنضال عنها، بل لجأت إلى وسائل الإرهاب، حتى أفضت تلك الوسائل إلى ما عُزِيَ إليها من مقتل الصحفي العثماني (حسن فهمي)[3] فتجمهر جمعٌ غفير من فئات الشعب والجنود الألبانيين مع بعض الطلاب في الشوارع الرئيسة للعاصمة، و يرددون (الشريعة في خطر) و(نريد حكم الشريعة) وهؤلاء من الذين عارضوا حدوث الثورة على السلطان، فلم يشترك واحد منهم في هتاف للاتحاديين، أو امتداح العهد الجديد، بل إنّهم ألّفوا جمعيات مناهضة لجمعية الاتحاد والترقي لا لشيء إلا لأنها تضم بينها خليطاً لا دينياً من أتراك ويهود دونمة وروم. ومن هذه الجمعيات (جمعية الأحرار) وكان هدفها الاحتفاظ بالدستور، وترك السلطة الفعلية للحكومة والنواب، وقد تصدّت لجمعية الاتحاد والترقي لإجبارها لوقف توسع نفوذها، وكانت هناك أيضاً (الجمعيـة المحمدية) برئاسة مراد بك الداغستاني، وكان يسيطر عليها العلماء والعامة».

كان تخطيط يهود الدونمة لإلغاء الخلافة تدريجياً، وذلك حتى لا يألّبوا الرأي العام المسلم ضدهم، وكانت وسائلهم في ذلك هي:

١ ـ إثـارة الأقليـات غير المسلمـة، مثل إثـارة الأرمـن ضد السلطـان عبد الحميد، بهدف تكوين دولة أرمنية داخل الأناضول.

---

(١) انظر حسان علي حلاق، مرجع سابق، ص٢٩٧ ـ ٢٩٨.

(٢) حسان علي حلاق، مرجع سابق، ص٣٢١.

(٣) المجلة المصرية مقال بتاريخ ٢٥/ ٤/ ١٩٠٩م، ص٥٦ والصحفي (حسن فهمي) كان يعمل ضد سياسة الاتحاديين، يؤيده في ذلك عدد كبير من الشعب. وللدلالة على ذلك أنه عندما شُيّعت جنازته بلغ عدد المشتركين فيها أكثر من ثلاثين ألفاً، وقيل يومذاك: إنّ إستانبول بأجمعها قامت بتشييع الجثمان، وأظهرت سخطها على الجناة.

هذا إلى جانب استغلال الطوائف المسيحية للتمرد على الدولة، مما دفع السلطان إلى القول بأنّ «لم أكنْ أُدهشُ لهيامِ الأرمن بحب الاستقلال، وخاصة بعد معرفة إثارة الدول الكبرى لهم بلا توقف، لكنّي أُدْهَشُ لأنّ بعضَ أفراد (تركيا الفتاة) الذين هربوا إلى أوروبا وأصدروا هناك صحفاً ضدي، كانوا يتعاونون مع أعضاء المنظمات والجمعيات الأرمنية، كما أدهش لأنهم كانوا يأخذون منهم أموالاً أيضاً». وكانوا يقولون: إنّهم يريدون إنقاذ الدولة العثمانية من التمزق، ثم يتعاونون مع الذين يعملون على تفتيت الدولة، ويتعاهدون معهم، تُرى هل قيام دولة في بطن الأناضول شاهد على إثبات وطنيتهم؟ ... إنهم لم يهدموا عبد الحميد، هاهم قد هدموا الدولة العثمانية[(١)]!.

وفي الوقت نفسه كان اليهود يقومون بخلق الأكاذيب والأضاليل وتزويد الدولة بمعلومات كاذبة عن الأرمن، ومن هؤلاء المحامي (قره صو) فكان يقدّم عشرات التقارير التي يتهم فيها الأرمن بالتجسس، أو تهريب الأموال إلى الخارج، أو محاولة اغتيال السلطان، وإذا ما حاولت الدولة التحقق من هذه الأمور، كان اليهود يسارعون إلى دفع الرشاوى إلى المحققين من أجل طمس الحقيقة[(٢)].

٢ ـ تمجيد الحضارة الغربية، وتشجيع تغريب تركيا، والبعد عن المظاهر الإسلامية، في الوقت الذي قام فيه أساتذة اليهود بتلقين الشباب التركي المبادئ والاتجاهات الفكرية الغربية[(٣)].

كما أنّهم حاولوا إرغامَ الطلاب الأتراك للانضمام إلى صفوفهم عن طريق رشوتهم، ومدهم بالأموال، ومن يأبى مجاراتهم كانوا يلفّقون له التهم بانضمامه إلى الجماعات السرية المناهضة للدولة[(٤)].

---

(١) مذكرات السلطان عبد الحميد، محمد حرب، دار القلم، دمشق، ط٤، ١٩٩٨م، ص١٢٩.

(٢) انظر س. ناجي، المفسدون في الأرض، مرجع سابق، ص٣١٤.

(٣) أرمسترونج، مرجع سابق، ص٢٠٦.

(٤) انظر س. ناجي، مرجع سابق، ص٣١٤.

٣ ـ سياسة التتريك وبعث القوميات، فقد قام الدونمة بدور بارز في سياسة تتريك الدولة، وهذه القضية قامت على سياسة الضرب على أوتار القوميات القديمة التي أماتها الإسلام، وإحياء النعرات الطائفية، وإثارة الجنسيات المختلفة التي تعيشُ في كنف الدولة العثمانية، ومن ثَمّ تتمزق أوصال تلك الدولة التي ظلّت دولة متماسكة زهاء أربعة قرون أو تزيد، تضمُّ جميعَ جنسياتها نسيجٌ ذو صبغة إسلامية واحدة لا غير، هو المواطنة في الإسلام[١].

وقد نجح اليهود في مساعيهم للإيقاع بين الأتراك والطوائف، ونتيجة هذه المساعي اضطهدت الدولة العثمانية الطائفة الأرمنية، وأبعدتهم عن ميادينها الاقتصادية، فقام اليهود باحتلال مكانة الأرمن، واستولوا على مرافق الدولة الاقتصادية، وخاصة في إستانبول وإزمير وسلانيك التي سيطر فيها اليهود على اقتصاديات تلك البلاد، محتلّين مكانةَ الأرمن الاقتصادية فيها[٢].

في ذلك الوقت أصبح الحاكم الفعلي والتخطيط لجمعية الاتحاد والترقي التي سارت بخطة يهودية ودعوة قومية تركية[٣].

وبعد إقصاء السلطان عبد الحميد، قام اليهود بالدور الأكبر في تقطيع أوصال الخلافة، والتوجه نحو سياسة قومية تركية، فأعلنوا عن نواياهم في تتريك بقية العناصر الممثلة لشعوب الخلافة[٤].

وكانت سياسة التتريك تلك التي روّج لها الاتحاديون بمساعدة اليهود الدونمة، قد ظهرت في عهد السلطان عبد الحميد الثاني، على أيدي بعض المناوئين لحكمه، والحانقين على آل عثمان.

وقد أدار فرع (القبانجية) من يهود الدونمة انقلاب حزب تركيا الفتاة، الذي

---

(١) محمد زغروت، مرجع سابق، ص٦٤.
(٢) س. ناجي، مرجع سابق، ص٣١٥.
(٣) عبد الله البكري، أحقاد على الإسلام، ص٣٢.
(٤) عبد الله البكري، المرجع السابق، ص٣٣.

أطاح بحكم السلطان عبد الحميد، وأفسح المجال لحكم جمعية الاتحاد والترقي[(١)].

ومن أبرز يهود الداخل الذين كان لهم تأثير كبير على الحياة التركية (موئيز كوهين) الكاتب اليهودي، وكان عضواً أساسياً في جمعية الاتحاد والترقي، وهو الذي دعى إلى ضرورة قيام دولة تركية طورانية، تجمعُ أتراك العالم في دولة واحدة، وتتريك البلدان التابعة للدولة العثمانية، ومن يهود الداخل أيضاً برز (أورام غالانتي) و(عمانويل قره صو)[(٢)].

ومن أبرز الشخصيات الدونمية في الحياة السياسية التركية هي:

(عمانويل قره صو) وهو عضو اللجنة التي قابلت السلطان عبد الحميد لخلعه، وكان (قره صو) مسؤول جمعية الاتحاد والترقي، وكان له دوره في تهيئة الفرصة لعمل الجمعية الثوري، وهو الذي باع ليبيا لإيطاليا نظيرَ رشوة تلقّاها من الإيطاليين[(٣)].

محمد جاويد: وقد شغل منصب وزير المالية في عهد الاتحاد والترقي أكثر

---

(١) محمد حرب، العثمانيون في التاريخ والحضارة، مرجع سابق، ص٨٣.

(٢) محمد حرب، السلطان عبد الحميد، مرجع سابق، ص٢٣٢.

(٣) مذكرات السلطان عبد الحميد، محمد حرب، مقدمة، دار القلم، ١٩٩٨م، ومحمد حرب، العثمانيون في التاريخ والحضارة، مرجع سابق، ص٨٣؛ ومحمود ثابت، المسألة الشرقية، ص١٩١؛ ويعلق رضا نور الذي كان وزيراً هاماً في أول حكومة كمالية على دور اليهود في إسقاط السلطان عبد الحميد بقوله: لقد أسقطوا السلطان التركي، وهورئيس سلطنة عظيمة، على يد يهودي حقير جداً، ومعه ألباني رذيل قاتل، هو أسعد باشا، ثم أرسلوا السلطان منفياً إلى سلانيك ليجلسوه في منزل تاجر يهودي غني يدعى آلاتيني، رضا نور المجتمع الكويتية، العدد ٥٣٤، ٣٠/٦/١٩٨١م، ويقول السلطان عبد الحميد في (مذكراته): عما نويل قره صو الذي كان ضمن اللجنة التي أبلغتني بقرار عزلي، كان هذا الرجل ضمن الوفد الذي أراد عام ١٨٩٨م شراء المزارع السلطانية الموجودة في سنجق القدس لإقامة وطن يهودي في فلسطين، ولما رُفض هذا الاقتراح طلب الوفد تأجير المكان لمدة ٩٩ سنة (مذكرات السلطان عبد الحميد)، محمد حرب، دار القلم، مرجع سابق، ص٢٠٣.

من ثلاث مرات حتى عام ١٩١٨م[1] وهو يهودي من الدونمة.

نزهت فائق: وهو أحد وزراء مالية هذا العهد.

مصطفى عارف: أحد وزراء داخلية الاتحاد والترقي من يهود الدونمة أيضاً.

مصلح الدين عادل: الذي كان مستشاراً لوزارة التعليم التركية، وأحد أساتذة الحقوق وكان نائباً لوزير التربية[2].

في تلك الفترة أوعز اليهود إلى أنصارهم اغتيال محمود شوكت قائد الانقلاب على السلطان عبد الحميد، الذي اصطدم بهم حيث إنه لم يكن ماسونياً وسهلوا عملية قتله[3].

ومن يهود الدونمة البارزين:

رمزي بك: أحد قواد الجيش وكان ذلك أيام السلطان عبد الحميد، وأصبح بعد ذلك رئيس مساعدي السلطان محمد رشاد.

وأحمد أمين يلمان[4]: الذي أسس صحيفة (الصباح) عام ١٩٠٧م، والذي

---

(١) نوري النعيمي، اليهود والدولة العثمانية، مرجع سابق، ص٨٣.

(٢) محمد حرب، العثمانيون في التاريخ والحضارة، مرجع سابق، ص٨٣؛ حسان علي حلاق، مرجع سابق، ص٣١٢.

(٣) س. ناجي، مرجع سابق، ص٣١٧.

(٤) نوري النعيمي، يهود الدونمة، مرجع سابق، ص٦٩، ولد (أحمد أمين يلمان) في سلانيك عام ١٨٨٨م، درس الحقوق، ودرس في جامعة كولومبيا دكتوراه الفلسفة. قام بتأسيس (صحيفة الصباح) في عام ١٩٠٧م، وفي عام ١٩٠٨م أوجد الصحيفة الجديدة Yeni gazete، وأصبح رئيساً لتحرير صحيفة طنين Tanin، وفي عام ١٩١٦م أصبح رئيساً لتحرير صحيفة صباح Sabah، وفي المدة الواقعة بين ١٩٢٣ ـ ١٩٢٥م أصبح رئيساً لتحرير صحيفة الوطن، وبعد مرور سنة ترك مهنة الصحافة. إلا أنّه عاد في عام ١٩٤٠م وأسس صحيفة الوطن. قامت جامعة كولومبيا بإصدار مجموعة من كتبه منها على سبيل المثال (تركيا والحرب العالمية) و(تركيا في أيامي) راجع: Govsa, Ibrahim Alaettin, Turk Meshurlari Ansiklopedisi, S. 401. وصف أحمد أمين يلمان في كتابه (تركيا في =

أصبح رئيساً لتحرير صحيفة طنين (Tanin) عام ١٩٠٨م، وفي عام ١٩١٦م أصبح رئيساً لتحرير صحيفتي (صباح) و(الوطن)[١].

ومن هؤلاء اليهود الذين كان لهم دورهم البارز في الحياة السياسية التركية:

مدحت باشا: وهو من يهود الدونمة الذي كان والياً على بغداد عام ١٨٦٨م، وكان متأثراً بالأفكار الغربية، واستطاع الإطاحة بالسلطان عبد العزيز بالاتفاق مع إنجلترا وألمانيا وفرنسا، وفي عام ١٨٧٧م تبيّنَ أنَّ (مدحت باشا) كان له اتصال بإنجلترا حين كان يعمل صدراً أعظم للبلاد، فقام السلطان عبد الحميد بإقالته، واتهم بالخيانة العظمى، وحُكِمَ عليه بالإعدام، إلا أنَّ الحكم لم ينفذ نتيجة لتدخل السفراء الأجانب، وتوفي وهو في منفاه في الطائف في الحجاز، واستغلت اليهودية العالمية هذه الحادثة ضد السلطان عبد الحميد[٢].

= أيامي) إستانبول صباح ٢٥/٧/١٩٠٨م: «إنّ الصحف التي ظهرت في ٢٥ تموز ـ يوليو لم تكن سوى صرخة داوية من الفرح والسرور، وكان أثر ذلك كبيراً. فالمدينة القائمة انتفضت وقد عرتها هزة الانفعال والحماسة، فامتلأت الشوارع بالجماهير المرحة، وهي تولي الخطابات الثورية عنايتها واهتمامها، وأخذ الناس من مختلف الأجناس والمذاهب يعانق أحدهم الآخر ويؤاخيه» (راجع: رامزور، المصدر السابق، ص١٤).
قام مواطن تركي في كانون الثاني ـ يناير ١٩٥٢م بمحاولة اغتيال يلمان، حيث كان يطالب باستمرار إقامة دولة أرمنية في تركيا، فضلاً عن مطالبته الغرب بأن تستعمر تركيا، وتدير شؤونها. استغلت الجرائد ووسائل الإعلام الماسونية والصحف التي يملكها يهود الدونمة هذه الحادثة، ونتيجة لذلك ظهرت حملة صحفية كبيرة من صحف المعارضة للهجوم على حكومة مندريس، مؤكدة أنها المسؤولة عن هذه الحادثة، حيث أعطت الحرية للرجعيين، فاستجابت الحكومة لها، وقامت بإغلاق جميع الجرائد والمجلات الإسلامية، واعتقال جميعَ الكتاب والمفكرين المسلمين. (راجع: بديع الزمان، سعيد النورسي، الإنسان والإيمان، المصدر السابق، ص٦٣ ـ ٦٤)؛ وقد قام الشاعر (ينزن توفيق) بهجاء يلمان في قصيدة مطلعها: (أحمد أمين، دونمة يقذف بالطين أهل الشرف).
راجع: عبد الحميد، محمد حرب، (يهود الدونمة إلى الآن يحجون ويصومون ويدخلون المساجد)، مرجع سابق، ص٤٧.

(١) نوري النعيمي، يهود الدونمة، ص٦٦ ـ ٧٦.
(٢) راجع نوري النعيمي، اليهود والدولة العثمانية ص١٠٣؛ وإرنست رامزور، مرجع سابق، ص٤٦.

قام يهود الدونمة بالعمل ضد تركيا تحت أسماء متعددة منها: (جمعية الاتحاد اليهودي العالمي) و(المنظمة الصهيونية) و(منظمة رأس المال العالمي وإسرائيل) كما اتجه يهود الدونمة إلى العمل نحو هدفهم في تحقيق فكرة السيطرة على العالم، وفي هذا يتفق كل اليهود[١].

كان ليهود الدونمة دورهم البارز داخل جمعية الاتحاد والترقي في اغتيال السلطان عبد العزيز، وذلك لأنّه كان يفضل الأرمن على اليهود، وكان يبعد اليهود عن المراكز الحساسة في الدولة، فتآمروا عليه، وأزاحوه عن السلطنة، والسلطان عبد العزيز هو حفيد مراد الثاني الذي فتح لهم البلاد على مصراعيها عند طلبهم الهجرة إليها[٢]. واستبدلوه بمراد الخامس، ومن بين هؤلاء كان مدحت باشا حاكم ولاية الطونة (الدانوب) ابن حاخام هنغاري، وهو الذي أنشأ المدارس اليهودية في الشرق[٣]. وفي عام ١٩٠٨م هاجر عددٌ كبير من يهود الدونمة إلى إستانبول، حيث مارسوا هناك سياسة الضغط السياسي والاقتصادي على العثمانيين[٤].

واليهود هم الذين قاموا بحوادث ١٩٠٨م، إذ ثبت تأثيرُ الدونمة (المرتدين) في صفوف الجيش عندما تخفّوا في زي الجنود، وبدؤوا بتحريضهم للقيام بالثورة[٥].

كما أنَّ لجنة سلانيك قد تكوّنت تحت رعاية ماسونية بمعاضدة اليهود والدونمة في تركيا، وكان مركزهم في سلانيك[٦].

---

(١) محمد حرب، العثمانيون في التاريخ والحضارة، مرجع سابق، ص٨٦-٨٨، إستانبول، ١٩٧٩م.
(٢) س. ناجي، مرجع سابق، ص٣١٣.
(٣) أنور الجندي، اليقظة الإسلامية في مواجهة الاستعمار، دار الاعتصام، القاهرة، بلا، ص١٢٥.
(٤) حسان علي حلاق، مرجع سابق، ص٣١٤.
(٥) حسان علي حلاق، مرجع سابق ص٣١١؛ نقلاً عن جواد رفعت أتلخان في كتابه (الخطر المحيط بالإسلام) الصهيونية وبروتوكولاتها، ص٧٦.
(٦) كان عدد يهود الدونمة في سلانيك عام ١٧٠٠م بضع مئات، وفي أوائل القرن الثامن=

وإنّ أمثال (قره صو) و(مترسالم) و(ساسون) و(فارحي) و(مازلياح) و(جاويد) وأسرة (بالجي) لعبوا دوراً بارزاً في تنظيم اللجنة، وفي مناقشات جهازها المركزي في سلانيك[1].

وكان السلطان عبد الحميد يعلمُ حقيقةَ العلاقة بين يهود الدونمة وجمعية الاتحاد والترقي، ففي ذلك الوقت طلب السلطان عبد الحميد من حاخام إستانبول (موشي ليفي) أن يكتب له تاريخهم، فقام بكتابة هذا التاريخ، وترجمه إلى اللغة التركية، وقدّمه إلى السلطان عبد الحميد، فكان السلطان عبد الحميد يعلم جيداً أساليب هؤلاء اليهود للإطاحة به، إلا أنّه لم يتخذ قراراً ضدهم[2].

= عشر كان عدد يهود الدونمة في سلانيك يبلغ حوالي عشرين ألف نسمة، وذلك من خلال وثيقة بريطانية أرسلت إلى القسطنطينية في ٢٩/ ٣/ ١٩١٠م نوري النعيمي (يهود الدونمة، مرجع سابق، ص٤٤)؛ وفي رواية أخرى بلغ عدد السكان عام ١٩٠٩م (٢٠٠) ألف من يهود الدونمة (انظر حسان علي حلاق، مرجع سابق، ص٢٨٥).

(١) حسان علي حلاق، مرجع سابق، ص٣١٢.

(٢) نوري، يهود الدونمة، مرجع سابق، ص٧٧؛ نقلاً عن جعفر هادي حسن، ص١٣٠ - ١٣١.

يقول (رفعت أتلخان): إنّ الشخص الوحيد في تاريخ الترك، الذي عرف حقيقة الصهيونية والساباتائية وأضرارهما على الترك والإسلام وكافحَ معهما مدةً طويلةً وبصورة جدية لتحديد شرورهم هو السلطان العثماني الرابع والثلاثون (عبد الحميد الثاني) إنّ هذا السلطان التركي العظيم كافحَ هذه المنظمات الخطيرة مدة ثلاث وثلاثين سنة بذكاء وعزم وإرادة مدهشة جداً كالأبطال. ويقول أيضاً: إنّ الهدف من ثورة ١٩٠٨م هو «أن الصهيونيين يريدون تجريد السلطان عبد الحميد من سلطته وثروته وأملاكه انتقاماً منه لعدم إفساح المجال له للقيام ضدهم ثانية. والمرتدون (الدونمة) كانوا منحصرين في سلانيك يريدون إزالة عبد الحميد من طريقهم لتصفية الجوّ لهم... (جمعية الاتحاد والترقي) كانت بحاجة إلى المال...» «ويضيف في كتابه (الإسلام وبنو إسرائيل) إنّ اليهود هم الذين نشروا الفوضى في داخل البلاد، ونظّموا القوة المناهضة للحكم التركي بقصد تحطيم الإمبراطورية العثمانية، وسلّحوا أعضاء تركيا الفتاة في الخارج، ونظّموا صفوفهم، وأمدوهم بالأموال، كما نظّموا العصابات السلافية في البلقان». وكان المحفل الماسوني(Macedonia Ristora) قد شارك في هذه النشاطات قبل فترة طويلة، فقبل عامين من انقلاب تموز-يوليو، حصل اليهودي (قره صو)=

وكان العثمانيون يعلمون بهذا الأمر، ويعلمون أنَّ مركز ذلك الانقلاب إنّما كان في سلانيك، واليهود فيها نيف وسبعون ألفاً. بعد أن قام السلطان عبد الحميد بإبعادهم عن إستانبول[1]. وقد استطاعت هذه الحركة استغلالَ عداء العرب، وبقية القوميات في الدولة العثمانية لحكم السلطان العثماني، بالرغم من أنّه لم يكن هناك هدف واحد وقاسم مشترك بين المشتركين بالثورة، ولكنْ تعددت الأهداف بتعدد القوميات، وتعددت المطالب بتعدد الزعامات، ويمكن القول: إنّـه لم تكن توجد أهداف مشـتركة بين الاتحاديين وبين الحركة العربية سـوى اشتراكها في كراهية سياسة السلطان عبد الحميد[2].

أمّا عن يهود الدونمة الذين عاشوا في سلانيك: «فقد كان يهود سلانيك يعرفون بأنهم شركاء الثورة التركية الحقيقية. وهؤلاء من العرق اليهودي، لكن

= على إذن لعقد اجتماعات (جمعية الاتحاد والترقي) في محفله. وبهذه الطريقة أصبح أعضاء هذه الجمعية من الماسون، في الوقت الذي كان فيه (قره صو) منهمكاً في تكوين اللجان الداخلية للجمعية. انظر حسان، مرجع سابق، ص٣٠٠ـ٣٠٢.

هذا ويمكن القول إنّ اليهود لعبوا دوراً فعالاً في ثورة ١٩٠٨م؛ ويؤكد (Seton - Watson) هذه الحقيقة بقوله: إنَّ أصحاب العقول المحركة لثورة الاتحاد والترقي عام ١٩٠٨م كانوا يهوداً ومن الدونمة. وأمّا المساعدات المالية فإنّما كانت تأتي إليهم عن طريق الدونمة ويهود سلانيك المتمولين. حسان، ص٣٠١ وكان العثمانيون يعلمون بهذا الأمر. كان أتلخان معاصراً لحكم السلطان عبد الحميد الثاني، وكان مديراً لدائرة الأمن العام العثماني أثناء الحرب العالمية الأولى، وقد وعى أهدافَ الحركة الصهيونية أثناء النشاط الصهيوني قبل وبعد ثورة ١٩٠٨ ـ ١٩٠٩م. ويُعتبَرُ هذا القائد من الذين تعرضوا ـ فيما بعد ـ لتهديدات الصهيونية إثر كشفه الستار عن كثير من المعلومات التي تتعلّق بأطماع اليهود في فلسطين، وخطرهم على العالم العربي والإسلامي. ومن مؤلفاته: إسلام صاران تهلكه (الخطر المحيط بالإسلام)، تورك أو على دوشمانك طاني (أيها التركي، اعرف عدوك)، أسرار الماسونية، كيزلي دولت (الدولة الخفية)، جبل موسى، اينه لي فيجي، الإسلام وبني إسرائيل، تمزيق القناع الماسوني وغيرها؛ وكان يصدر جريدة استقبال (المستقبل) وجريدة بالإنجليزية باسم (United Islam Natios). انظر حسان علي حلاق، مرجع سابق، ص٣٠١.

(١) حسان علي حلاق، مرجع سابق، ص٣١١.

(٢) جريدة المشرق، عدد ٨، آب ـ أغسطس ١٩١١، ص٦١٧.

معتقدهم قد لا يكون يهودياً أصيلاً، والاعتقاد الشائع بين الناس هو أنّهم مسلمون بالاسم، أما بالفعل فهم من أتباع توراة موسى!!

وفي تلك الفترة التي نحن بصددها لم يعرف أحدٌ من الناس شيئاً عنهم سوى قلة من العلماء المختصين بدراسة الشرق الأدنى، ولم يكن أحدٌ من الناس يجرؤ أن يتنبأ أنَّ هذه الطائفة اليهودية المغمورة المسماة (الدونمة) ستلعبُ دوراً رئيساً في ثورة كان لها نتائج خطيرة في سير التاريخ[(١)].

من هنا نستطيعُ القول أنّ حركة (ساباتاي زفي) كانت حركة سياسية وحركة دينية، وذلك لأن ساباتاي كان أوّلَ صهيوني يبشر بعودة بني إسرائيل إلى فلسطين.

تأثير يهود الدونمة على الفكر التركي المسلم:

كان ليهـود الدونمة تأثيرُهم القوي على الفكر التركي المسـلم، فقد قام هؤلاء اليهود بتوجيه الرأي العام التركي، وعلى الأخص المسلم منه إلى تشجيع تغريب تركيا، والبعد عن المظاهر الإسلامية، واتجهوا إلى تلقين الشباب المبادئ الفكرية الغربية، مع تمجيد حضارة الغرب[(٢)].

هذا إلى جانب الدعوة إلى سفور المرأة، حتى إنّه أثناء دخول الدولة العثمانية الحرب العالمية الأولى وفي الليلة التي أغرق فيها الأعداء عِدّة سفن حربية عثمانية، أراد يهود الدونمـة تنظيمَ حفلة على أحد المسـارح أرادوا أن يعلِنـوا فيها إلغاءَ الحجاب، وكان من المقرر أن تقومَ النساء بتمزيق الحجاب على خشبة المسرح، لكنّ الحكومة في ذلك الوقت منعت هذه الحفلة، وعلى الرغم من عدم تقديمَ العرض إلا أنَّ هذه الأفكار كانت مقدمةً طبيعيةً لقيام الثورة التي قادها (كمال أتاتورك) ضد الإسلام، وضد الحجاب وتتريك البلاد متشرّباً من أفكار واتجاهات هؤلاء اليهود[(٣)].

---

(١) زين نـور الدين زين، نشوء القومية العربية مع دراسة تاريخية في العلاقات العربية التركية، دار النهار للنشر، بيروت، ١٩٧٩، ص٢٠٧ـ٢٠٨.

(٢) محمد زغروت، مرجع سابق، ص٣٣ـ٣٥.

(٣) محمد حرب، العثمانيون في التاريخ والحضارة، مرجع سابق، ص٨٢؛ نوري النعيمي يهود الدونمة، مرجع سابق، ص٥١.

وفي سبيل التشبه بالغرب فإنّ مسابقات ملكات الجمال التي تشترك فيها تركيا كانت من تنظيم جريدتي (ميللت) و(كون أيدن) اللتين يمتلكهما يهود الدونمة[1].

---

(١) محمد حرب، العثمانيون في التاريخ والحضارة، مرجع سابق، ص٨٢؛ وعن هذه المسابقة كتب الدكتور محمد حرب أستاذ التاريخ التركي بجامعة عين شمس بالقاهرة والمتخصص في الشؤون التركية في مقالٍ له تُرجم إلى التركية، وصدر في آب ـ أغسطس ١٩٩١م تحت عنوان (كيف أفسد الغرب شباب المسلمين؟) يقول المقال: قال أحد المتحدثين في الهيئة العامة لاتحاد الكنائس في فرانكفورت: المرأة المسلمة تشغل في الإسلام مكانة هامة، وعندما سلمت المرأة المسلمة قلبها وعقلها وجسدها للإسلام في ذلك الوقت تمكن المسلمون من إقامة دولهم الكبرى في التاريخ، أما عندما ذهبت المرأة المسلمة إلى الدنيا وإلى نفسها أصبحت الدول الإسلامية خاضعة للغرب خضوع العبيد. المرأة المسلمة شكّلت في الماضي الخطرَ الأكبرَ ضد الغرب، وستكون كذلك عندما تعود إلى الإسلام مرة أخرى، وطريق القضاء على المسلمين لابدَّ أن يمرَّ بالمرأة المسلمة.

قال (نمياني ميشيل) وزير خارجية إيطاليا في ١٩/ ١٢/ ١٩٨٩م، وكان وقتها رئيساً للمجلس الأوروبي: إنّ الشباب المسلم في شمال أفريقيا وخاصة في الجزائر يتجه بسرعة ملحوظة إلى السلوكيات الإسلامية، وإلى أخلاق الإسلام، وإلى الحجاب، وإلى الصلاة، وهذا يعني أنّ أوروبا محاصرةٌ إسلامياً من الجنوب، ولابدّ من إبطال مفعول النهضة الإسلامية في شمال أفريقيا بتوجيه الشباب هناك إلى وجهات غير دينية، وتشجيع هذا الشباب على تبنّي النمط الغربي في السلوك والحياة عن طرق عدة أهمها: المسلسلات التلفزيونية، ولابدّ من تخصيص ثلاثة عشر مليار دولار لهذا المشروع.

وفي مقال آخر للدكتور محمد حرب بعنوان (الوعي الإسلامي في تركيا) جاء فيه:

«الغرب ينصّب تركيةً ملكةً لجمال العالم»:

في رسالة من أحد شخصيات قونية البلدة التركية المتدينة، والتي يرقدُ فيها مولانا جلال الدين الرومي وأستاذه شمس تبريزي نشرت في ١٩/ ١٢/ ١٩٨٩م جاء فيها أنّ جريدة (جمهوريت) كبرى الصحف التركية الداعية للتغريب في تركيا نظّمت عام ١٩٣٢م مسابقةً لاختيار ملكة جمال تركيا، نجحت فيها فتاة تركيا تدعى (كريمان خالص). ذهبت كريمان إلى بلجيكا للاشتراك في المسابقة الدولية لاختيار ملكة جمال العالم، وبدون الرجوع إلى لجنة التحكيم، تقدّمَ رئيس اللجنة في حركة مفاجئة بعد استعراض كل ملكات جمال العالم إلى المنصة، ليقرر نجاحَ وفوزَ (كريمان خالص) بلقب ملكة جمال العالم التي اشتركت فيها (٢٨) دولة. قال رئيس اللجنة في كلمته: أيها السادة=

= أعضاء اللجنة! إنّ أوروبا كلها تحتفل اليوم بانتصار النصرانية، لقد انتهى الإسلام الذي ظلَّ يسيطر على العالم منذ ١٤٠٠ سنة. إنّ (كريمان خالص) ملكة جمال تركيا تمثل أمامنا المرأة المسلمة، تلك المرأة التي لم تكن تخرج إلى الشارع، وإنما كانت ترى الناس من وراء المشربيات، ها هي كريمان خالص حفيدةُ هذه المرأة المسلمة المحافظة بيننا الآن بالمايوه، ولابدَّ من الاعتراف بأنَّ هذه الفتاة هي تاجُ انتصارنا، سنختارها ملكةَ جمالِ العالم، وقد يكونُ بين المشتركات من هي أجملُ منها، وقد لا يكون، هذا لا يضيرنا، إننا في هذا العام بالذات لا نختار ملكة جمال للعالم بقدر ما نحتفل بانتصار النصرانية على الإسلام.

ذاتَ يوم من أيام التاريخ انزعج السلطان العثماني (سليمان القانوني) من فن الرقص الذي ظهر في فرنسا عندما جاورت الدولة العثمانية حدود فرنسا، فتدخل السلطان لإيقاف الرقص خشية أن يسري في بلاده. ها هي حفيدة السلطان العثماني المسلم تقفُ بيننا، ولا ترتدي غير المايوه، تطلبُ منا أن نُعجبَ بها، ونحن نعلنُ لها بالتالي أننا أعجبنا بها، وقد انساقت إلينا، إننا اليوم نختارُ ملكةَ جمال تركيا ملكةَ جمال العالم مع كل تمنياتنا بأن يكون مستقبل الفتيات المسلمات يسير حَسْبَ ما نريدُ، فَلْتُرفَعَ الأقداحُ تكريماً لانتصار أوروبا. (محمد حرب، خواطر عائد من إستانبول، جريدة الأحرار، ١٥/ ١١/ ١٩٩٦م مقال بعنوان: (الوعي الإسلامي في تركيا).

كانت مجلة (سبيل الرشاد) قد نشرت في عددها الصادر في ١٨/ ٢/ ١٩١٩م: نرى أنّ (الدونمة) يسعون إلى هتك حجاب المرأة المسلمة، فيقول الكاتب مؤيداً المرأة المسلمة التي تحافظ على شرفها معارضاً الأفكار المخرّبة: «أيتها المرأة المسلمة! ما أكثر أعداءك، إنّ عفتك وعصمتك قد أصبحتا شوكةً في أعين فاقدي هاتين النعمتين، لذلك فهم لا يتوقّفون لحظةً عن تهجمهم عليك، بارك الله فيك، فما أمتنُك من إنسانة. ليتك عرفتِ كم من المؤامرات يدبّرون لهدمك، وكم من القوى والأموال يبذلونها، لن يستطيعوا مغالبةَ الإسلام طالما اعتصمتِ برداءِ عفّتك، وبقيتِ مثالاً حياً لشعائر الإسلام، إنهم يريدون إزالة الحياء من وجهك، وتمزيق حجابك، وقطع الروابط بينك وبين أهلك. لذلك فهم يلينون لك بالقول، يبحثون عن المدنية والذوق والجمال، ويضعون لك أمثلة من القرن العشرين. فَمِنْ هؤلاء مَنْ هو فاقد لدينه، ومنهم من هو مفتقِرٌ للعفة والحياء، ومنهم من تقطّعت صِلاتُه بأهله وأسرته. من الطبيعي أن يناصبوك هؤلاء العداء، لأنّهم غرباء عن مجتمعك، يختلّ توازنهم بصمودك، فيفتشون عن سبل الراحة منك، ولن يتأتى لهم هذا إلا بجعلك تتشبهين بهم.

أيتها المرأة المسلمة المسكينة! تخطئين وتظنين أنّ كل من يحمل اسماً مسلماً هو

كما تولّت أجهزةُ الدعاية التي يمتلكها الدونمة إصدارَ الكتب والرسائل والمقالات لمهاجمة الحجاب. وتجمّعَ كثيرٌ من الكتاب الملحدين والقوميين حول (المجلة الجديدة) أو (يني مجموعة) وأفاضوا في الكتابة عن مساوئ الحجاب، وأنّه ليس من الإسلام، وإنّما انتقل من الروم إلى المسلمين. فلم يكتفوا بمهاجمة الحجاب، وإنّما وجدوها فرصة للهجوم على شعائر الإسلام[1].

= مسلم، فما أكثر المنافقين منهم وما أكثر اللامنتمين، وما أكثر من يحمل في طيات قلبه ديناً آخر، إنهم يظهرون الإسلام حتى يضمنوا بقاءهم بين المسلمين، ويحصلوا به على مكاسب ضخمة، يلقبون أولادهم ألقاباً إسلامية، وليست لهم أية علاقة بالإسلام، بل ملأت قلوبهم الأحقادُ، يتخذون كافةَ التدابير الخفية لهدم الشعائر الإسلامية. فإن وجدوا فرصةً سانحةً انتقموا من الإسلام، وفعلوا كلّ شيء من شأنه إفساد الحياة الاجتماعية الإسلامية. انظر مصطفى طوران، مرجع سابق، ص٤٤ـ٤٥.

(١) انظر محمد حرب، يهود الدونمة، مرجع سابق، ص٤٠. هذا وقد حملت مجلة (اجتهاد) حملةً شعواء على الدين الإسلامي ومحاولة النيل منه، ووصفته بأنّه دين متخلّف عن ركب العصر. وأخذ (الدونمة) يروّجون (للموضة) بين النساء، ويكثرون من إقامة المحاضرات العامة، وعن طريقها يتيحون الفرصة للاختلاط بين الشبان والشابات. وكان للدونمة اتصالٌ وثيق بالجهات العليا في حكومة (الاتحاد والترقي) والتي حلّت محل السلطان عبد الحميد الثاني بعد خلعه، وعن طريق هذه الصلة كانوا يستصدرون القرارات بإغلاق كل صحيفة معارضة لهم، وكل صحيفة يصدر فيها مقال ضدهم.

وسار (سداد سيماوي) على الخط نفسه بمهاجمة الحجاب في جريدة (حريت) وكثير من الصحف والمجلات التي أسسها، ومنها مجلة (إينجي) وهي مجلة نسائية. واشتركت مجلة (بيوك مجموعة) أي المجلة الكبيرة في هذه الحملات التي أدارها الدونمة. وهذه المجلة الأخيرة أصدرها (زكريا سرتل)، وتولت زوجته (صابحة سرتل) وهي من (الدونمة) إصدارَ هذه المجلة بعد أن سُجِنَ زوجها.

تقول المصادر الإسلامية: إنّ زكريا هذا كان يصدر جريدة (الفلسفة الجديدة) وكان شاباً مثقفاً ثقافة عالية ومشهوراً. ولذلك سهل له (الدونمة) التزوج بهذه الفتاة، لكي يكونَ لعبةً في أيديهم. وقد خدم أغراضهم. والأخ الكبير لصابحة كان محامياً يدعى (جلال درويش) وهو دونمي، وكان ماسونياً ينتمي إلى محفل (نجاة) وكان المتحدث باسم هذا المحفل. وهذا المحفل الماسوني هو الذي أسس (جمعية حماية الأطفال) محمد حرب، يهود الدونمة، مرجع سابق، ص٤١ـ٤٢.

وتصدت مجلة (سبيل الرشاد) لهؤلاء الدونمة رداً على دعوتهم لاختلاط الشبان بالشابات، ودعوة المرأة إلى السفور[١].

وفي سبيل مضي (الدونمة) في سياستهم التخريبية في البلاد، قام يهود الدونمة بإنشاء مدرستين خاصتين بإستانبول، وهما: (ثانوية الفيضية) و(ثانوية الترقي) وذلك لتلقين أبنائهم فكرهم، وحتى لا يضطروا لإرسالهم إلى المدارس التركية[٢].

وفي الوقت الذي أعقب الحرب العالمية الأولى دعا الدونمة عن طريق صحفهم ومجلاتهم بحرارة للاختلاط بين الطلبة والطالبات في الجامعة. وكانوا بذلك يهدفون إلى منع ظهور شباب جيد، يخدم الإسلام من الجنسين من الذين يريدون أن يحصلوا تحصيلاً عالياً.

وقد انجرفَ لحملة الدونمة التي تدعو للاختلاط بين طلبة وطالبات الجامعة بعض المثقفين الأتراك، الذين تأثروا بالفكر الغربي، وهؤلاء لم يكونوا في ذلك الوقت على وعي بما يجري حولهم، ويدبّر ضد دولتهم من مؤامرات واسعة النطاق. هؤلاء الأتراك أعلوا القومية فوق الدين، والتفوا حول مفكر القومية التركية وفيلسوفها (ضيا كوك آلب) في (المجلة الجديدة) و(ضيا كوك آلب) كردي العرق[٣]، وتلميذ لدور كايم المفكر اليهودي الفرنسي، كما تجمّعَ بعضُ شباب

---

(١) مصطفى طوران، يهود الدونمة، مرجع سابق، ص٤٦ ـ ٤٧؛ نقلاً عن مجلة (سبيل الرشاد) في مقال بعنوان جاء فيه: (التدريس المختلط في الجامعة) في عددها رقم ٤٠٦ الصادر بتاريخ ٣٠/ ٤/ ١٩١٩م. جاء فيه: إن الذين شهدوا منافع لهم في التهجم على دين هذا البلد ومقدراته، جعلوا هدفهم في الأعوام الأخيرة النيل من حجاب المرأة المسلمة، لإحداث فوضى اجتماعية في هذا المجتمع. ففي السنوات الست الأخيرة عمل أناس مجهولو المذهب، منافقون، ليست لهم أية علاقة بالإسلام، على إظهار أنفسهم بمظهر المناصر للحق، بغية إحداث تغيير عائلي في البلاد، وإشاعة الفاحشة بين المؤمنين، وبذلوا كلَّ جهدٍ ممكن في سبيل الإسراع في خراب هذا الوطن، انظر في هذا أيضاً محمد حرب، يهود الدونمة، مرجع سابق، ص٣٩.

(٢) مصطفى طوران، يهود الدونمة، مرجع سابق، ص٥٤.

(٣) محمد حرب، يهود الدونمة، مرجع سابق، ص٣٩.

الأتراك السذّج حول (عبد الله جودت) صاحب جريدة (اجتهاد) وعبد الله جودت رجل معروف بإلحاده[1].

واستغل الدونمة بتأثيرهم الإعلامي هؤلاء الشباب في إذكاء مسألة الاختلاط والدعاية لها، وكانوا هم القدوة لبقية المسلمين الأتراك[2].

وقد استطاعت الحركةُ الصهيونية مع المحافل الماسونية متابعةَ النشاط السياسي لتحقيق المشروع الصهيوني باستيطان فلسطين. وكان يهودُ الدونمة يشكّلون اللبنة الأولى لتنفيذ المخططات الصهيونية ـ الدولية ـ الماسونية[3].

علاقة الدونمة بكمال أتاتورك:

أكّد بعضُ يهود سالونيك أنّ كمال أتاتورك كان أصلُه من الدونمة، وقد اختلف كثيرون في نسبه، إلا أنّ الحكومة التركية أنكرت انتسابَه ليهود الدونمة، وهناك رواية تقول: إنّ (جاويد بك) و(كمال أتاتورك) كانوا من أعضاء الدونمة النشيطين. وكانت تصل للمحافل الماسونية أموالٌ طائلة من قبل جاويد بك، الذي كان يشغل منصب أمين صندوق جمعية الاتحاد والترقي[4].

كان المحفل الماسوني هو مكان اجتماع جمعية الاتحاد والترقي، وكان أتاتورك يلتقي هناك بأعضاء هذه الجمعية[5].

ويعزو يهود الدونمة قولهم بانتساب أتاتورك لهم بأنّ ميلاد كمال أتاتورك كان في مدينة سلانيك بتركيا، وقضى سنوات دراسته في كُتاب شمس أفندي[6].

---

(١) محمد حرب، يهود الدونمة، مرجع سابق، ص٣٨ـ٣٩.

(٢) المرجع سابق، ص٣٩ ـ ٤٠، نقلاً عن مجلة (سبيل الرشاد) الإسلامية في هجومها على الدونمة ووسائلهم بين الأتراك المسلمين القوميين والأتراك الملحدين، في عددها رقم ٤٠٦، الصادر في ٣٠/ ٤/ ١٩١٩م.

(٣) حسان علي حلاق، مرجع سابق، ٢٩٢.

(٤) نوري، يهود الدونمة، مرجع سابق، ص٨٧.

(٥) المرجع السابق، ص٩٠.

(٦) ولد شمس أفندي عام ١٨٥٢م، من أسرة ساباتائية الأصل، عمل مدرساً في المدرسة =

وتقول المصادر: إنّ أول مدرسة تحمل صفة التعليم الجديد كانت مدرسة شمس أفندي التي أنشأت عام ١٨٧٢م في حي (صبري باشا) في تكية (جار شمية). وكانت كل علومها غربية، درس أتاتورك في الفترة التي كان الساباتائيون هم الذين يدرّسون فيها، وكان شمس أفندي هو أول مدرس لكمال أتاتورك واحتل مكاناً في كتاب أتاتورك[١]. وشمس أفندي هو أحد كبار الفلاسفة اليهود الساباتائيين في القرن التاسع عشر[٢].

قضى شمس أفندي جزءاً كبيراً من حياته في دراسة التلمود[٣]. وكان يدرّس للشباب قواعدَ ومبادئ الدين الساباتائي، وكان يهدف إلى توحيد جماعتي القره قاش والقبانجلر، إلا أنّ كلَّ جماعة كانت لها أهدافها الخاصة، لذا فقد فشل في تحقيق أهدافه، ومن أسباب هذا الفشل هو رغبة الشباب في الاختلاط بالأتراك[٤].

هذا وتقول بعض المصادر: إنَّ أتاتورك كان ماسونياً، لتلقيه تعليمه في المدرسة اليهودية، وأنَّ محفله هو مقدونية روزورتا (Macedonia Risorta Veritas) كما أنَّ لوحة أتاتورك التي أقامها اليهود تظهر أنّه من أكبر الماسونيين في العالم، وقد نشرت هذه اللوحة بإحدى الصحف التركية[٥]، ولم تصدر

= الأجنبية في سلانيك كان يدرس فيها العربية والفارسية والفرنسية، وفتح مدرسته بمساعدة من أعضاء جماعة القبانجلر الساباتائيين، وشمس أفندي من أعضاء القبانجلر.

(١) قسم شمس أفندي أستاذ التصوف اليهودي العهد المسيحي في رسالة كتبها باللغة اللاتينية إلى ثلاثة عصور رئيسة: العهد الأول هو العهد الذي يبشّر بمجيء المسيح، وقد تحقق على يد (إسحاق لوريا) العهد الثاني هو الذي سينزل فيه المسيح على وجه الأرض في صورة إنسان يؤمن بالله ويجمع حوله جماعة له، وقد حقق هذا (ساباتاي زفي) والعهد الثالث هو الذي سيأتي فيه المسيح مرة أخرى، وأن هذا سيتحقق عام ٦٠٠٠م، واليهود المتصوّفون جميعاً ينتظرون مجيء المسيح عام ٦٠٠٠م والسر في ذلك هو أن الله خلق الدنيا على ستة أيام وكل يوم يقدر بألف سنة. Ilgaz Zorlu, a.g.e.p. 109.

(٢) Ilgaz Zorlu, a.g.e.s. 19.

(٣) Ilgaz Zorlu, a.g.e.s.21.

(٤) Ilgaz Zorlu, a.g.e.s.20.

(٥) كما نشر ليفي أبو عسل صورة أتاتورك في كتابه (يقظة العالم اليهودي) مع صورة هرتزل لما لأتاتورك من أياد بيضاء على اليهود!. (الناشر)

الدولة أيَّ اعتراض عليها[1].

كما أنّ هناك زعماً أيضاً جاء على صفحات المجلات الإيطالية أنَّ أتاتورك واصل حياته حتى وفاته كماسوني نشط، وأنَّه كان مسجّلاً في محفل (مقدونيا ريزورتا)[2].

كما زعم بعضُ الكتاب عن انتساب أتاتورك إلى الماسونية بقوله: «هذه حقيقة تاريخية، وإنّ الماسونيين يتباهون كونَ أحدهم مثل أتاتورك ماسونياً»[3].

لكنَّ الأستاذ الدكتور عبد الرحمن كوتشوك ردَّ على هذه المعلومات في كتابه عن (الدونمة) قائلاً: إن انتساب كمال أتاتورك للدونمة هو زعم ادّعته الموسوعة اليهودية، وهو يرجع لعدة أسباب هي:

١ ـ أن الدونمة كانوا يشكّلون أغلبية في سلانيك، وكان ينظر لكل مواليد سالونيك أنهم دونمة.

٢ ـ المدرسة التي درس فيها كمال أتاتورك تأسست من قِبَلِ الدونمة، وهو كتّاب شمس أفندي، وقد تربى فيه أكثر أطفال الدونمة.

٣ ـ رغبة الدونمة في كسب مشروعية مثل الماسونية عن طريق انتساب الرجال المشهورين إليها.

ويؤكد كوتشوك عند تقييمه لهذه الحالات الثلاث، أنّه كما كان يوجد دونمة في سلانيك، فقد كان يوجد أتراك مسلمون فيها، وهذا لا يعني أنَّ كلّ سلانيكي من يهود الدونمة.

وأكد أيضاً أنّ استمرار كمال أتاتورك في المدرسة التي فتحها الدونمة

---

(١) ذكر الكاتب أحمد قاباقلي أنّه عقد اجتماع في الجمعية الماسونية بهامبورغ في هذا الاجتماع عرضت هذه اللوحة المذكورة، وقد نشرت صورة هذه اللوحة جريدة ترجمان في ١٢/١١/١٩٨٨م.

(٢) جاء هذا الكلام في المجلة الماسونية الإيطالية Revista Macedonia في عددها الصادر في كانون الثاني ـ يناير ١٩٧٣م.

(٣) نوري، يهود الدونمة، مرجع سابق، ص٩٨ ـ ٩٩.

لا تعني أنّه من الدونمة، فهناك العديد من مدارس الأقليات يتعلّم فيها أطفال الترك.

والرد على هذه المزاعم اليهودية هو أنّ الدونمة تسعى لكسب أتاتورك في صفهم، ونحن نرى أنّه ليس منهم، ولو كان منهم لما سمحَ بإعدام جاويد بك!! كما أنّه لم يكن يقوم بإغلاق جمعيات الماسون[١].

وفي سبيل علاقة اليهود بأتاتورك يجدر بنا أن نذكر أنه فتح أبواب تركيا لليهود، واستعانَ بهم في تنظيم الجامعة التركية. يقول المؤرخ اليهودي إيلي ليفي أبو عسل: «أظهر نابغةُ تركيا وبطلُها العظيم الغازي مصطفى باشا كمال غيرَ قليل من النخوة والمروءة، وسموَّ العواطف، وسعة الصدر نحو البعض من علماء اليهود الذين نبذتهم ألمانيا، وقد استعان بهم هذا المصلح الكبير لتنظيم الجامعة التركية على الأساليب العلمية العصرية، وقَبِل مشروع العالِم الشهير (فيليب سوارتس) الذي يرقى إلى إنشاء معقل عظيم للعلوم فيها، واستدعى ما ينيف عن أربعين أستاذاً من هؤلاء اليهود، لتوسيع نطاق تلك الجامعة، من بينهم الاقتصادي الشيهر الأستاذ (ريك) الذي كانت له مكانة عظيمة في كلية (ماربورج)».

كما كان عدد كبير من المحيطين بأتاتورك من الماسونيين، وفي عام ١٩٣٥م صدر بيانٌ من قِبل الحكومة التركية بوقف نشاط المحافل الماسونية (من الناحية العلنية) وتذكر بعض المصادر أنّ هذا البيان كان خطوةً تضليلية من قبل أتاتورك[٢].

ومن ناحية أخرى فقد شجع اليهودُ خطوات أتاتورك التي اتخذها نحو فصل الدين عن الدولة فحينما قال: «نحن الآن في القرن العشرين لا نستطيعُ أن نسيرَ وراء كتاب تشريع عن التين والزيتون» صفق له يهود الدونمة، ورددوا مع شاعرهم (فاروق نافذ) قائلين:

«الآن سلّمنا البلاد لأيدي مصطفى كمال الأمينة، وتركنا الكعبةَ للعرب».

---

(١) Abdurrahman Kucuk,.s. 465,466.

(٢) انظر صالح زهر الدين، اليهود في تركيا، مرجع سابق، ص٣١.

واعتبره اليهود والماسون قائدَ الثورة الثقافية التي استبدلت الحروف العربية باللاتينية واعتبرها إصلاحات جذرية في تاريخ تركيا.

وكان كمال أتاتورك يستعين بثلاثة أشخاص في أموره، ويتلقون أوامره وهم: عصمت، وفوزي باشا، وضيا صفوت، السكرتير العام لحزب الشعب، وكان يهودياً.

ومنذ أوجد أتاتورك مسابقة ملكة الجمال في تركيا تبنى يهود الدونمة فكرة مسابقة ملكة جمال تركيا حتى يومنا هذا[(١)].

ومن الجدير بالذكر أن اسم (مشرق أعظم عثماني) قد تحول عام ١٩٢٦م إلى (الجمعية التركية العليا) وذلك وقت إغلاق أتاتورك للزوايا والتكايا في الدولة[(٢)].

والماسونيون يعظّمون أتاتورك، ويعدونه (عظيمَ عظمائهم) ويواظبون على زيارة ضريحه، وقد كتبَ رئيس محفل الماسونيين الأتراك (جان آرباش) في الذكرى السبعين لقيام الجمهورية التركية إهداءً إلى أتاتورك يقول فيه: «أيا أتاتورك! يا علة وجودنا! في الذكرى السبعين لجمهوريتنا العلمانية، أثَرِكَ الفريد، أتينا كماسونيين أتراك يعيشون معك كلّ يوم، ونكرر اليوم أننا ـ مهما كانت الظروف ـ لن نحيدَ عن مبادئك. إنَّ الحفاظ بأرواحنا على النور الذي أشعلته، وحمله إلى المستقبل، سيكون المهمة المقدسة لنا جميعاً، مع احتراماتنا الأكثر عمقاً»[(٣)].

ويشير أحد الباحثين إلى أنَّ اليهود الذين هاجروا من تركيا إلى إسرائيل أقاموا نصباً تذكارياً على الطريق بين تل أبيب وحيفا، وكتبوا عليه بالتركية والعبرية (غابة أتاتورك)[(٤)].

---

(١) انظر محمد حسين الطنوبي، الحركة الكمالية والعلمانية في تركيا، رسالة ماجستير، غير منشورة، جامعة الإسكندرية، ١٩٨٩م، ص٣٣٠ ـ ٣٣٢.

(٢) انظر صالح زهر، مرجع سابق، ص٣١.

(٣) شؤون تركيا العدد ١١، ربيع ١٩٩٤م، مركز الدراسات الاستراتيجية والبحوث والتوثيق، إعداد محمد نور الدين، ص٣١.

(٤) ميشال نوفل وآخرون، العرب والأتراك في عالم متغير: ١/ ٩٥، مركز الدراسات =

وقد شكل قادة (الاتحاد والترقي) فكرة الطورانية ومادتها الماسونية من الدونمة، وكان من أهم أهدافها محاربة الأديان، وبث روح الالحاد بين الشعوب، وكانت تمول من قبل اليهود[1].

وقد نُكِبَ اليهود في تركيا بتسليط بريطانيا عليها أثناء الحرب العالمية الأولى، وكادت بريطانيا تعقد الصلح مع تركيا أثناءها، ولكنّ اليهود عطّلوه بزعامة (وايزمن) رئيس إسرائيل ـ كما ذكر وايزمن في مذكراته ـ أنّ بعض النساء هم الذين حالوا دون الصلح بينهما، حتى تخرب تركيا، وتنحلّ خلافتها، وتمتد حاجة بريطانيا بشدة إلى اليهود.

كما كان لهم نصيب كبير في إلغاء الخلافة... لأنَّ اليهود ولا سيما (الدونمة) في سلانيك وغيرها ـ وهم يهود يتظاهرون بالإسلام ـ هم الداعون إلى الجامعة الطورانية للتخلّص من الإسلام وصلة الترك بالعرب[2].

= الاستراتيجية والبحوث، بيروت، ١٩٩٣م.

(١) والطورانية هي الفكر القومي التركي، وهي حركة تركيا تهدف إلى تتريك الدولة العثمانية بما فيها من عناصر غير تركيا، واشتقت كلمة الطورانية من طوران، موطن القبائل التركية، الذين كانوا يعيشون في منطقة جنوبي شرقي إيران، وقد تأسست في تركيا العديد من الجمعيات من أجل نشر فكرة الطورانية، والدعوة لتخليص اللغة التركية من مفرداتها العربية، وقد قامت هذه الحركة بهدف بناء مجتمع جديد، وتؤكد المصادر أنّ هذه الحركة حركة أجنبية وليست تركيا، فتقول دائرة المعارف البريطانية: إنّ نشأة الطورانية مستوحاةٌ من الأوروبيين، أدخلها الصهيونيون على الإمبراطورية العثمانية، وكان معظم قادة الاتحاد والترقي من الماسونيين الطورانيين، وكانوا يهدفون إلى قيام وحدة قومية تركيا بديلة عن الوحدة الإسلامية، وكان من أبرز دعاة الطورانية (تكين ألب) ويسمى (ألبيرت كوهين) الذي وضعَ نظرية تهدف إلى تحول الاقتصاد العثماني بعد الحرب العالمية الأولى إلى الاعتماد على الأموال اليهودية، إلى جانب الاعتماد على الشخصيات اليهودية لإدارة الاقتصاد العثماني (انظر صالح زهر الدين، اليهود في تركيا ودورهم في قيام الحلف التركي الاسرائيلي، الدار الوطنية للدراسات والنشر والتوزيع، كفر نبرخ، ١٩٩٨م، من ص٣٨ ـ ٥٥؛ نقلاً عن الموسوعة الفلسفية العربية م٢، ق٢، ص٨٢٩ ـ ٨٣٠؛ وكذلك الموسوعة السياسية (المؤسسة العربية للدراسات والنشر) بيروت ١٩٧٤م ص٣٦٣؛ وأيضاً تاريخ العرب لفيليب حتي، ص٥٣٨).

(٢) نوري، يهود الدونمة، مرجع سابق، ص٩٣.

تأثير الدونمة في الأدب التركي:

من أبرز وجوه الأدب التركي المعاصر كانت الداعية النشطة للطورانية والقومية المتعصبة (خالدة أديب) حيث تخرّجت هذه السيدة من (الكلية الأمريكية) في إستانبول عام ١٩٠١م وتزوّجت مرتين؛ الأولى من مدرسها في الرياضيات (صالح زكي) والثانية من (عبد الحق عدنان بك) وزارت من البلاد الإسلامية كلاً من مصر والهند وسوريا. وعملت أستاذةً للآداب الغربية في جامعة إستانبول عام ١٩١٨/ ١٩١٩م. تعاونت هذه السيدة مع (جمعية الاتحاد والترقي)، واحتلت مكاناً بارزاً في عهدهم، وكانت لها تأثيرُها الكبير على رجالات الاتحاد والترقي[١].

كتبت (خالدة أديب) روايتها المشهورة (طوران الجديدة) عام ١٩١٦م لتعبّر عن الأيديولوجية الطورانية، ثم انضمت للكماليين، وصارت من أبرز شخصياتهم، وكتبت روايتها (اضربوا الغانية)[٢].

كانت خالدة على صلة شخصية بـ (جمال باشا) أحد قادة (الاتحاد والترقي) المشهورين وحاكم سوريا المعروف، وأيضاً كانت على صلة شخصية بمصطفى كمال باشا قائد الحركة الكمالية. لكنها اختلفت معه، وهربت من تركيا[٣].

وقد اختلف الباحثون عن أصل (خالدة أديب) فمنهم من يقول: إنّها ترجع إلى أصل يهودي، وإنّها من الدونمة، ومنهم من لم يقل هذا، لكنّهم اتفقوا على أنّها صهيونية الهدف، وعنصرية الفكر[٤].

يصف الكتاب (خالدة أديب) أنها (جان دارك الأتراك) وقال عنها كاتب إنجليزي: «لكي يستطيعَ الإنسانُ أن يقابِلَ في أوروبا فنانةً مثقفةً مفكرة مثل (خالدة أديب) فعليه أن يبحثَ جيداً ويبحث كثيراً».

---

(١) صالح زهر الدين، اليهود في تركيا، مرجع سابق، ص٥١.
(٢) محمد حرب، يهود الدونمة، مرجع سابق، ص٤٤.
(٣) المرجع السابق، ص٤٤ ـ ٤٥.
(٤) صالح زهر الدين، مرجع سابق، ص٥١.

وقال عنها كاتب تركي معاصر: «إنَّ (خالدة أديب) تكتبُ بمفهوم القومية الإنسانية».

وتقـول (خالدة أديب) في روايتهـا (طـوران): «أيتها المنطقـة البديعـة! يا طوران الجديدة! حدثينا عن الطريق إليك».

وخالدة أديب تلميذةُ فيلسوف القومية التركية (ضيا كوك آلب) وكما ذكرنا من قبلُ فإنّ ضيا كوك آلب هو تلميذ المفكر اليهودي (دور كايم).

تقول خالدة أديب: «إنَّ الذهنية الشرقية تسبّبت في إضفاء نوع من القدرة الإلـٰهية على الحاكم، وأفسحت الطريقَ لفقر الأكثرية أمام عظمة وغنى أشخاص قليلين، وأكبر وصف للغرب أنه يعتنق فكرة القانون. والقانون في الشرق يأتي من الله، والقانـون في الغرب من وضع الإنسـان. والنضال والحركة يشكلان لبَّ الحياة في الذهنية الغربية».

لقبت خالدة بلقب (أم الملة) (ميللت آناسي) وقد عُرِفت أيضاً باسم (رسول الطورانية)[1].

أما أبلغ حديث عن خالدة أديب جاء على لسان المفكرة المسلمة السيدة (منور عياشلي). والسيدة منور من أسرة مسلمة عريقة، كانت في سوريا أثناء الحرب، حيث كانت (خالدة أديب) مديرة للمدرسة التركية في بيروت.

تقول السيدة منور عياشلي: «كان جمال باشا يعيش عيشةَ الملوك في سوريا أثناء الحرب الأولى. . . . سريعاً ما برزت في قصر جمال باشا سيدة مختلفة كل الاختلاف عن السيدات الأُخريات، اللاتي نسمعُ عنهنَّ، سواء من ناحية المزايا أو من ناحية المساوئ، وكانت معاملة جمال باشا لها تختلف عن معاملته للجميع، فقد كان يحترمها أكثر مما يحترم الجميع، ويعلي مِنْ قدرها فوقَ قدر الجميع، ويعطيها أهمية أكثرَ ممّا يعطي الجميع، ويستمع إليها باهتمام بالغ»[2].

---

(١) صالح زهر الدين، مرجع سابق، ص٥١ ـ ٥٢.

(٢) محمد حرب، يهود الدونمة، مرجع سابق، ص٤٦.

لم تكن هذه السيدة تحترم جمال باشا كما كانت السيدات الأخريات يفعلن، لأنها كانت تجلسُ أمامه واضعة ساقاً فوق ساق، وتطلب من جمال باشا أن يشعلَ لها سيجارتها، وكانت تدير مع الباشا مناقشات سياسية وفكرية. وكان جمال باشا من أصدقاء مصطفى كمال المقرّبين.

... كانت هذه السيدة هي خالدة أديب... وسرعان ما تناقل المحيطون بها أنّها من الدونمة اليهود، ووالدها أديب أفندي من الدونمة أيضاً، كان موظفاً صغيراً في القصر السلطاني، يعني أنّه عاش في قصر يلدز موظفاً صغيراً، لكنّه مكث فيه مدة طويلة.

وابنته كانت معادية للقصر. كانت قومية، وكانت طورانية متعصبة... وكانت خالدة أديب تشبه فتيات بني إسرائيل الجميلات، وكان فيها جمال التوراة أي جمال العهد القديم.

جاءت (خالدة أديب) إلى سوريا مكلّفة من حكومة (الاتحاد والترقي) لكي تنشرَ الثقافة التركية في سوريا، وتعلّم أبناء العرب اللغة التركية، وتدعو إلى حب القومية التركية، وبالتالي كان هدفها تتريك سوريا(١).

خصصت لها الحكومة مبنى مدرسة فرنسية تركها أصحابها أثناء الحرب.. كانت هذه المدرسة بجوار بيروت وكانت كالقصر.

وتستكمل السيدة منور حديثها عن خالدة أديب قائلةً:

افتتحت المدرسة ولم يكن بها طلبة بعد.. وكنت أدرس في ذلك الوقت في مدرسة ألمانيا، وكنتُ أحب مدرستي إلى أنْ قال جمال باشا لوالدي: «يا أخي إننا نريد أن ندخل أولاد العرب في مدارسنا، ومع ذلك فإنَّ أولادنا نحن يذهبون إلى مدارس أجنبية. وخالدة أديب هانم ساخطة على هذا وتشكو: أليس لها حق في سخطها وشكواها؟... وتقول:.. وكانت مديرة مدرستنا خالدة أديب هانم.. مديرة سيئة الإدارة، كنتُ مضطرة للدوام في مدرستها، وداومت مدة ثلاثة أشهر لم أتلق في المدرسة درساً واحداً، كل ما فعلناه نحن الطالبات هو

---

(١) محمد حرب، يهود الدونمة، ص٤٧. و Abdurrahman Kucuk, a.g.e.p. 465.

حضور أوبرا من تأليف خالدة أديب، موضوعها مأخوذ برمته من التوراة.. عنوان هذه الأوبرا (رعاة كنعان) وأمرتنا المديرة خالدة أديب بتمثيل هذه الأوبرا ومثلناها على المسرح في حضور الولاة والقادة العسكريين من الاتحاد والترقي ومديري الشرطة وغيرهم.

كانت هذه الأوبرا تنغّصني وتؤلمني كثيراً، وتثير في نفسي التفكير الحزين.. فولاة الأمور الذين يقبضون على أزمة الأمور بأيديهم يشاهدون وقت الحرب هذه الأوبرا، التي مثلناها أمامهم.. وكانت عبارة عن (بشرى) تعلنُ قربَ قيام إسرائيل[1].

كتبت (خالدة أديب) روايتين عن حرب الاستقلال أولهما (قميص من نار) والثانية (اضربوا الغانية)... و(قميص من نار) ليست بالرواية الجيدة، وإن كانت تحمل عنواناً جميلاً، أما (اضربوا الغانية) فكانت بمثابة الرواية الرائدة في طريق شيء تمَّ إتباعه بعد ذلك بهدف عداء الدين.

تزوجت (خالدة أديب) زواجها الثاني من عبد الحق عدنان بك... وفي عهد (أتاتورك) كانت خالدة أديب وزوجها عدنان بك مجبرين على مغادرة البلاد...

لا نعلم السبب الحقيقي في مغادرتهما البلاد، ولكن (فالح رفقي بك) وهو أحد المقربين جداً من (أتاتورك) في ذلك الوقت، قال: «الخلاف بين أتاتورك وخالدة أديب هانم لم يكن اختلافاً في طريقة التفكير ـ الخلافُ بينهما لم يكن أكثر من خلاف بين رجل وامرأة».

وعندما مات أتاتورك عادت خالدة أديب وزوجها عدنان بك إلى تركيا، وقام زوجها بتأليف كتاب يحمل عنوان (الدين والعلم عبر التاريخ)... فلمّا قرأ (رأفت باشا) ـ وكان على صلة بخالدة وزوجها ـ علق على الكتاب متفكّهاً بقوله:

«كنا نظن أننا نجحنا في استقطاب خالدة أديب إلى الإسلام، وجعلناها تعتنقه، فإذا بنا نجدها تهوّد عدنان بك».

---

(١) محمد حرب، يهود الدونمة، مرجع سابق، ص٤٩.

كان هذا ما قصته الكاتبة منور عياشلي عن خالدة أديب الكاتبة التي تعتبر من أكبر أعلام الأدب التركي الكمالي[1].

التأثير الإعلامي ليهود الدونمة في تركيا:

كـان للدونمة تأثير واسع المدى على الإعلام التركي، وذلـك من خلال عائلات الدونمة الذين كانت لهم مكانتهم الضخمة في الحياة الإعلامية في تركيا، ومن أهم تلك العائلات عائلة (قبانجي) وعائلة (كبار) وعائلة (إيبكجي) وتأثيرهم على هيئـة الإذاعة والتلفزيون كبير، وكان يهود الدونمـة يسيطرون على دور الصحف الكبرى هناك.

كان يهود الدونمة يمتلكون مؤسسة جريدة (حريت) التي توزع يومياً حوالي مليون وثمانمئة ألف نسخة، وقد صدر أول عدد منها أول أيار - مايو ١٩٤٨م، وشعارها (تركية للأتراك) وتملك هذه المؤسسة دار نشر معروفة، وتمتلك عِدّة مجلات دورية مثل (هفته صونو) (نهاية الأسبوع، وهي مجلة فنية) و(ييللربويو) (مجلة التاريخ) وهي مجلة شهرية. ومؤسسها هو (سداد سيماوي) من يهود الدونمة، وعائلة (سماونوي) تملك صحيفة (حريت)[2].

ويمتلك يهود الدونمة أيضاً جريدة (كون إيدين) بمعنى (صباح الخير) وهي جريدة يومية يطبع منها ٥٧٠ ألف نسخة يومياً، وهي ثاني صحف تركيا توزيعاً بعد (حريت).

ويمتلك يهود الدونمة جريدة (ترجمان) وهي ثالث الصحف التركية اليومية الصباحية توزيعاً، ويملك هذه الجريدة (عثمان كبار) وهو من عائلة كبار من يهود الدونمة، وكان هذا الصحفي والكاتب رئيساً لبلدية إزمير[3].

---

(١) محمد حرب، يهود الدونمة، مرجع سابق، ص٥٠.

(٢) نوري النعيمي، يهود الدونمة، مرجع سابق؛ ومحمد حرب، العثمانيون في التاريخ والحضارة، مرجع سابق، ص٨٤، ص٧٤.

(٣) محمد حرب، يهود الدونمة إلى الآن يحجون ويصومون، مقال، مرجع سابق، ص٤٨؛ ومحمد حرب، العثمانيون في التاريخ والحضارة، مرجع سابق، ص٨٤-٨٥.

ويملك يهود الدونمة أيضاً جريدة (ميللت) وهي رابع صحف تركيا توزيعاً، وقد تولّى تحرير هذه الجريدة (عبدي إيبكجي)[١] وتتبعها مجلة (صنعت) بمعنى (الفن) وهي مجلة أسبوعية[٢].

وتمتلك الدونمة أيضاً جريدة (جمهوريت) الصباحية وهي جريدة يومية يطلَقُ عليها برافدا تركيا لِغلبة الطابع الماركسي عليها.

وقد سيطر على إدارتها عام ١٩٧٢م (يونس نادي)[٣] و(رشاد أتابك)،

---

(١) عبدي إيبكجي من الشخصيات البارزة من يهود الدونمة في العصر الحديث، تولى عام ١٩٦٤م إدارة تحرير جريدة (ميللت) الصباحية اليومية، وترأس نقابة الصحفيين الأتراك، وكان عضواً في اللجنة التحضيرية لقانون أخلاق الصحافة، وكان الأمين العام لديوان الشرف الصحفي، وعضواً بمجلس إدارة معهد الصحافة بزيوريخ (أي. بي. أي) المعروف بسيطرة اليهود عليه. وفي عام ١٩٦٨م عين إيبكجي عضواً في هيئة التدريس بمعهد الصحافة بجامعة إستانبول. اغتيل في شباط ـ فبراير عام ١٩٧٩م. راجع محمد حرب، (يهود الدونمة إلى الآن يحجون ويصومون ويدخلون المساجد)، مرجع سابق، ص٤٧.

(٢) محمد حرب، العثمانيون في التاريخ والحضارة، مرجع سابق، ص٨٥.

(٣) يونس نادي، ولد في سنة ١٨٨٠م في قضاء fethiyye التابعة لمنطقة mugla ولقب بـ abalioglu وتذكر الموسوعات التركية أنه ابن abdizade halil efendi درس الابتدائية في قضاءfethiyye ، ثم درس في مدرسة suleymaniye في جزيرة رودس والتي كانت تابعة للدولة العثمانية.

يقول الدكتور رضا نور في (مذكرات): «كان يونس نادي من أبناء إحدى العوائل الموجودة في رودس، ثم جاء إلى إستانبول، وانخرط في سلك الجاسوسية على عهد السلطان عبد الحميد، فهو رجل كل عصر، قام باختلاسات مدهشة، بحيث أصبحَ من أغنى رجالات تركيا. ومن الآثار المذكورة له، أنه كان يحرر جريدة اليوم الجديد (yeni gun) في أنقرة، لم يكن بيني وبين هذا الرجل أي شيء، ولكنّه عدّني منذ القدم عدواً له، وغالباً يكمن السبب في ذلك كوني رجلاً شريفاً في حين يقع يونس نادي في عداد الأشخاص غير الشرفاء».

بعد أن أكمل دراسته في مدرسة السليمانية، دخل مدرسة الحقوق في إستانبول. بدأ يكتبُ في جريدة (المعلومات) وهو في العشرين من عمره، وفي هذه المدة حكم عليه بالسجن لثلاث سنوات بسبب انضمامه إلى جمعية سرية تعمل ضد الدولة، حيث أرسل=

= في عام ١٩٠١م إلى قلعة في جزيرة روملي (midilli) وكانت تابعة وقتئذ للدولة العثمانية. وبعد أن أنهى عقوبته رجع إلى إستانبول، وبدأ يكتب في جريدة ,tasviri efkar ikdam. وبعد عودة دستور عام ١٨٧٦م وذلك في عام ١٩٠٨م أصبح رئيساً لتحرير جريدة روملي rumeli وبسبب كونه عضواً في جمعية الاتحاد والترقي تم انتخابه نائباً في مجلس المبعوثان، وعمل في الوقت نفسه رئيساً ومديراً للتحرير في جريدة (تصوير أفكار) وقد قام يونس نادي فيما بعد بتأسيس جريدة (جمهوريت).

كان هناك اعتقاد من قبل مصطفى كمال في بداية حرب الاستقلال، أنه من الممكن إنقاذ الأمة عن طريق الشيوعية، وعليه فقد قام بتكليف كل من (حقي بهيج) و(يونس نادي) و(توفيق رشدي) بتأسيس حزب شيوعي، وقد أصبح يونس نادي من الأعضاء البارزين في الجيش الأخضر yesil ordu وعمل الجيش الأخضر بالدمج بين الماركسية والإسلام. توفي يونس نادي في عام ١٩٤٥م.

وقد كتب يونس نادي وهو يقوّم التاريخ التركي قائلاً: «اتركوا تاريخنا القديم، وتاريخنا القريب، إنّ عدم معرفتنا لتاريخنا يرجع أساساً إلى ارتباطنا بجزيرة صغيرة من خلال دولة عظيمة، أليس هذا دلالة بعدم معرفتنا بالأشخاص، حسب ما جاء على لسان جدي korkut من أنَّ هؤلاء انتهوا بسبب دفنهم في التراب، حيث ذهبوا إلى الدنيا الحقيقية، ولكننا بقينا في النهاية»؛ (انظر نوري النعيمي، يهود الدونمة، مرجع سابق، ص٧٤ ـ ٧٥).

إنّ يونس نادي الذي جاء إلى أنقرة مع مطبعته، استمر في إصدار جريدة اليوم الجديد، وبذلك فتح صفحة جديدة من حياته، ويظهر أنه ترك تحصيله المدرسي فيrodos والاتحاد في إستانبول، وانضمّ إلى أقوى الأحزاب التي أسست في أنقرة، وكان على رأس هذا الحزب مصطفى كمال.

ويجب أن نؤكد في هذا المجال أنّ يونس نادي، كان يخاطِبُ المعارضة السياسية قائلاً: «لا بدّ من تحطيم رؤوس مثل هؤلاء الرجال». ومن جانب آخر، يقول الدكتور رضا نور: في أنقرة كانت تصدر جريدة اليوم الجديد، وكان يونس نادي على الدوام يقوم بالثناء والمديح لمصطفى كمال، ولكنّه في بعض الأحيان يكتب ضده. وتجدر الإشارة في هذا المجال أنّ مصطفى كمال كان يدفع ليونس نادي جميع تخصيصات المطبوعات، ويقوم بإدخال الأوراق له بدون جمرك، فضلاً عن ذلك كان يدفع له مبالغ في هذا المجال. في أحد الأيام كنت مع مصطفى في داره، وتحدثت معه عن موضوع انتقاد يونس نادي له، أجاب مصطفى كمال قائلاً: «آه إنه مخلوق غريب، لا يكفي ما يأخذه. بين مدة وأخرى يقوم بالنقد، لأنه بحاجة إلى مبالغ مالية، وأنا على دراية به في هذا

وكلاهما من يهود الدونمة.

أما جريدة (طنين) الشيوعية فقد أسستها الصحفية اليهودية المشهورة (صابحة سرتل) في عام ١٩٤٥م وكان لهذه الصحيفة إسهامٌ كبير في نشر الفكر الماركسي في تركيا[١].

وبعد عام ١٩٧٤م زادت الأبحاث والمقالات والاهتمام بوجه عام في تركيا بيهود الدونمة، وذلك بعد تولّي (إسماعيل جم) منصب المدير العام للراديو والتلفزيون التركي[٢].

و(إسماعيل جم) من أبرز الكتاب الماركسيين أيضاً، وهو الذي أسس جريدة (بوليتيكا) اليومية[٣].

ويتحدث (فاروق تيمور طاش) الأستاذ الجامعي والكاتب عن دور (إسماعيل جم) بقوله:

«المفروض رسمياً أن تكونَ هيئةُ الإذاعة والتلفزيون التركية جهازاً محايداً، لكنّ (إسماعيل جم) وجه الجهازَ فكرياً إلى الدعوة لفكر اليسار المتطرف،

= المجال، وعلينا أن ندفع له ألف أو ألفين ليرة، ولكنّه في الأيام الأخيرة أصبح في يده حساسية شديدة، لا يكفيه ما يأخذ، ولكن ما الحل، يجب أن نتعامل معه بهذا الشكل».

وتجدر الأشارة في هذا المجال، أن نادر يونس بن يونس نادي أصبحَ رئيساً لتحرير جريدة (جمهوريت) بعد وفاة والده، أظهر عداء كبيراً للإسلام، مهاجماً علماء الأتراك المسلمين، مشوهاً صورهم، متهماً إياهم بالرجعية والتعصب بوساطة صور كاريكاتيرية، علماً أن يونس نادي أنهى دراسته العلمية في المدرسة العثمانية، وكان يلبسُ العمامة؛ نوري النعيمي، يهود الدونمة، مرجع سابق، ص٧٦؛ محمد حرب، يهود الدونمة، مرجع سابق، ص٥٢.

(١) نوري النعيمي، يهود الدونمة، مرجع سابق، ص٧٣.

(٢) abdurrhman kucuk, a.g.e. p. 467

(٣) ولد إسماعيل جم عام ١٩٤٠م وتلقى تعليمه في روبرت كولج الأمريكية، ثم تخرّجَ من كلية الحقوق في لوزان عام ١٩٦٢م وعمل بالصحافة في جريدتي (حريت) و(ميللت) محرراً ثم مديراً للتحرير. كما نشر عدة دراسات منها: (الإصلاح الزراعي) (تأخر تركيا) (مصر عبد الناصر) وعمل وزيراً للخارجية التركية في حكومة أجاويد ١٩٩٩م.

وحزبياً إلى تأييد حزب الشعب الجمهوري، والدعاية له (وهو أكبر الأحزاب اليسارية في تركيا).

وظل إسماعيل جم هذا مسيطراً على اتجاه هذه الأجهزة، وتسيير برامجها، حتى قامت حكومة الائتلاف عام ١٩٧٥م، وكان (نجم الدين أربكان) مشتركاً فيها، حيث كان نائباً لرئيس الوزراء حيث نشرت بياناً قالت فيه: «إنّ الحكومة ستعمل على منع كل ما من شأنه الإضرار بالأمن الوطني والأخلاق، الذي يأتي عن طريق الإذاعة والتليفزيون ـ التي كان إسماعيل جم يرأسها ـ كما أنها ـ أي الحكومة ـ ستدخلُ في صراع مع الشيوعية أيضاً».

وفي ٤/ ٥/ ١٩٧٥م وقع مجلس الوزراء قراراً بإعفاء إسماعيل جم المدير العام للإذاعة والتلفزيون من منصبه، وأُرسِلَ القرار إلى رئيس الجمهورية للتصديق عليه فرفض التوقيع، وقام رئيس حزب الشعب الجمهوري المعارض بالهجوم على هذا القرار، واعتبر سلوك الحكومة في إقالة إسماعيل جم سلوكاً مستبداً هوائياً. ولما عاد قرار إقالة (جم) إلى مجلس الوزراء بعد رفض رئيس الجمهورية التوقيع عليه، صرح المتحدث باسم الحكومة أن الحكومة ستنفذ قرارها بإقالة المدير العام للإذاعة والتليفزيون حتى ولو لم يوقعه رئيس الجمهورية، واضطر رئيس الجمهورية أخيراً للتوقيع على القرار في ١٢/ ٥/ ١٩٧٥م.

وبهذه الإقالة توفرت للإذاعات التركية وتلفزيونها فرصةً أفضل للبث الأخلاقي و(إعادة بناء الأمة المعنوي) كما يقول دكتور نجم الدين أربكان[1].

وقد شغل (إسماعيل جم) منصب وزير الخارجية التركية في حكومة أجاويد عام ١٩٩٩م والتي كان لها دورها في المشكلة التركية السورية.

نجحت أجهزة إعلام الدونمة في (نشر) رأي عام تركي مؤيد لإسرائيل، وغير متعاطف مع العرب باستثناء (حزب السلامة الوطني) الذي ينادي بضرورة الاعتراف بمنظمة التحرير الفلسطينية وتوطيد العلاقات مع العرب[2].

---

(١) محمد حرب، يهود الدونمة، مرجع سابق، ص٥٤ ـ ٥٥.
(٢) محمد حرب، العثمانيون في التاريخ والحضارة، مرجع سابق، ص٨٦.

ومن ناحية أخرى تقوم أجهزةُ إعلام الدونمة بخدمة اليهودية العالمية عن طريق عرض أفلام تلفزيونية تتجه نحو التنديد بمعاداة اليهود، والمناداة بالتعاطف مع إسرائيل واليهود.

وتقول المصادر: إنّ يهودياً مرتداً اعتنق الإسلام كان اسمه (إبراهيم متفرقة) أصبح مديراً للنشر المطبوع لأول مطبعة تركية، وكان ذلك خلال الفترة من ١٧٤٢ ـ ١٧٨٤م[١].

ولم يجرؤ أحد أن يتعرّضَ للدونمة في أي صحيفة أو مجلة، فسرعان ما كان يقوم أصحاب المجلة بتقديم شكوى لدى أقطاب الدونمة، فتصادر الصحف والمجلات التي تعترض طريق الدونمة[٢].

وفي لقاء عُقد مع الكاتب والمعلم (نبهال اتسز) في ١٩/ ٧/ ١٩٧٥م مع (عبد الرحمن كوتشوك) أوضح فيه أنّه عمل مع الدونمة في (ثانوية بوغارجي) التي أسسها الدونمة، وكان لديه أصحابٌ منهم، وذكر بعضَ الأشخاص الذين يعملون في وظائف ورتب عالية في تركيا، وكان منهم من عمل وزيراً أو عضواً في مجلس الشعب أو رئيس بلدية أو عالم أو صاحب جريدة . . . إلى آخره حتى قيل: إنّ زعماء ماركسيين كانوا من الدونمة. . لكنّ ذكر هذه الأسماء ممنوع، أما الأسماء التي ذكرناها سابقاً فهي أسماء تاريخية ومشهورة[٣].

وفي مقال لـ (ديفيد بورشود) الذي يحمل عنوان: (سماحة تركيا بعين أجنبي) أوضح فيها «أنّ الدونمة من الممكن أن تكون عاملاً مساعداً في انفتاح العلاقات بين الترك واليهود. وليس يخفى أنّ أمهر المثقفين وأصحابَ الجرائد الترك من أصل دونمة، ويفهم من هذا أنّ الدونمة مازالوا موجودين حتى اليوم، ولا يزالون يخدمون الثقافة التركية»[٤].

---

(١) محمد سرحان، مرجع سابق، ص١٨.

(٢) مصطفى طوران، يهود الدونمة، مرجع سابق، ص٤٦ ـ ٤٧.

(٣) abdurrahman kucuk, a.g.e. s. 468,469

(٤) abdurrahman kuc ,a.g.e. s. 470

ويوجد في تركيا الآن أعضاء كثيرون ينتسبون للساباتائية، ولهم نشاطات واضحة في المجالات المختلفة منهم رجال الأعمال والصحفيون والكتاب، وكلّهم ذوي أصولٍ دونمية، ولا تعترف إسرائيلُ بهؤلاء الجماعة كيهود، ولا حتى الحاخامية الكبرى في تركيا تعترف بهم، على الرغم من أنهم ذوو أصول يهودية، ويُعدون جزءاً من الثقافة اليهودية، وبالطبع فمنذ عام ١٩٢٤م فكلُّ مَنْ لهم أصول ساباتائية يلقون ضغوطاً كثيرة في تركيا. وأكبرُ دليل على ذلك حادثة ضرائب ١٩٤٢م، حيث اضطر هؤلاء الذين ينتسبون إلى الدونمة لدفع ضرائب أكثر من المسلمين نظيرَ وجودهم في تركيا[١].

وفي نهاية حديثنا عن (الساباتائيين) أو (يهود الدونمة) أو اليهود الذين تظاهروا بالإسلام نستخلص أنَّ موضوع هؤلاء الجماعة التي سميت بالساباتائية أو يهود الدونمـة كما جاء في الأدب الاجتماعي بصفة عامة يشكّل موضوعاً من الموضوعات التي مع الأسف تم تناولها قليلاً جداً في التاريخ السياسي والثقافي لتركيا.

كما إنَّ موضوع الساباتائية ووجودهم على الساحة التركية لم يحظَ بأيِّ اهتمامٍ سواء في الحياة السياسية التركية أو في الحياة الاجتماعية التي هي انعكاس للسياسة. فلم تقم عنهم أي دراسة قط، اللهم إلا بعض الآثار القليلة بخصوصهم. كما أنّ هؤلاء (الساباتائيين) لعبوا أدواراً كبيرة في مجريات الأمور في الفترة بين القرن التاسع عشر وحتى الآن. ولا عجب في أنّ الموضوع لم يُتَناول بالدراسة، وذلك نتيجة الاحتياط والحذر والسرية التي كانت تسيرُ عليها الجماعة الساباتائية التي كانت تدين بالدين الإسلامي مع ارتباطها في نفس الوقت بالتصوّف اليهودي.

والخلاصة فإنّ الساباتائية هي حركة دينية ظهرت في القرن السابع عشر، أخذت اسمها من اسم مؤسسها (ساباتاي زفي) الذي أدعى إنّه المسيح المنتظر. وبالطبع عندما أعلن ساباتاي نفسه المسيح المنتظر لفت أنظار كل الجماعات اليهودية إليه. واكتسب شهرة من أوروبا حتى أفريقيا بل إنّ يهوداً كثيرين أتوا إلى

---

(١) ilgaz zorlu, a.g.r.s. 163

تركيا لكي يروه وقد آمن به أناس كثيرون. حتى إنّهم اعتقدوا أنّ يوم القيامة قد حان وأنّه ستؤسس دولة إسرائيل.

وبالطبع روى ساباتاي في دعوته هذه أنّه واحد من القائلين بالصهيونية. إلا أنّ هذه الحركة وجدت معارضةً شديدة من رجال الدين الأرثوذوكس، وبالطبع حدث النزاعُ بينهم وبين هؤلاء الجماعات الساباتائية.

كما أنَّ زعماء اليهود الموجودين في الدولة العثمانية هم الذين طلبوا من الحكومة العثمانية التصدي لهذه الحركة، والقضاء عليها، وقتل ساباتاي زفي.

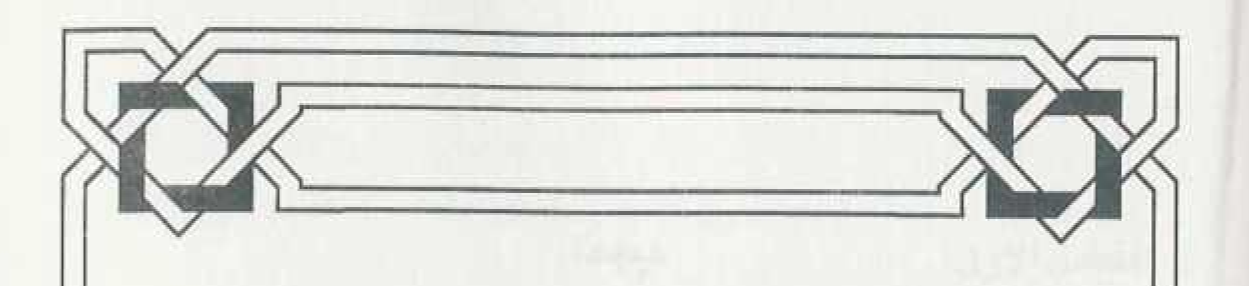
وفي النهاية اضطر ساباتاي زفي أن يغيّر دينه، ويصبحَ مسلماً، وقد أسلم معه بعضُ مريديه الذين بلغ عددهم حوالي مئتين أسرة، وقد قام ساباتاي بتأسيس حركته بهؤلاء العائلات، وأصبحت جماعة الساباتائية لها دورها في الحياة السياسية في الدولة العثمانية وأوروبا اعتباراً من القرن التاسع عشر كما سبق وأوضحنا ذلك من قبل.

والذي يلفت الانتباه أيضاً هو وجود جماعة من المثقفين الذين وقفوا بجوار أتاتورك عند تأسيس الجمهوريـة التركية الحديثة، وكان جميعهم ذوي أصول ساباتائية، وكانوا أيضاً أعضاء في الساباتائية، كما كان لهم نجاحٌ مؤثر في الحياة الاجتماعية لتركيا.

وجدير بالذكر أنَّ معظم الكتب التي تخبرنا عن الحياة الدينية للساباتائيين كلّها أو معظمها قد حُرقت في حريق سالونيك عام ١٩١٧م، ولهذا السبب بدأ التعليم الصوفي الذي كان موجوداً في تشكيل جماعة الساباتائيين يُنسى تماماً، ومعنى هذا أنَّ الكتب والمؤلفات التي نُشرت عن جماعة الساباتائيين وساباتاي زفي تكاد تكون نادرة. ولا يوجد أيُّ كتب تلفت الانتباه عن هذا الموضوع سوى كتاب باسم (الدونمة وتاريخهم) للدكتور (عبد الرحمن كوجك) وكتاب (نعم أنا سلانيكي) (الساباتائية في تركيا) لأليغاز زورلو، وهذا الكتاب نتيجة لدراسة قام بها مؤلفها أليغاز زورلو بناء على المشاهدات التي رآها منذ عام ١٩٧٥م حتى وقت صدور كتابه (١٩٩٨م) إلى جانب مقابلاته في الزيارة التي قام بها لإسرائيل لمدة عام كامل مع عدد من الشخصيات والعائلات الساباتائية.

من هنا يتضح لنا أهمية الدور الذي لعبه - وما يزالُ يلعبه هؤلاء اليهود في مختلف أفرع الحياة التركية، ويهود الدونمة على وجه الخصوص، والدور الخطير الذي لا يزالون مستمرين فيه وتأثيرهم الكبير والفعال سواء داخل الحياة السياسية أو الاجتماعية أو الإعلامية وتغلغلهم وسيطرتهم على المجتمع التركي والذي نجد آثاره حتى يومنا هذا.

* * *



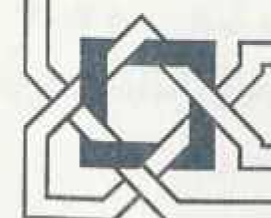
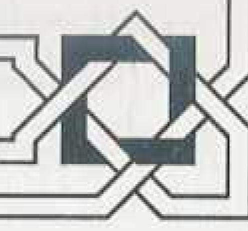
الباب الثاني

التواجد اليهودي في ظلّ الدولة العثمانية

الفصل الأول: أحوال اليهود وعلاقتهم بالمسلمين والدولة العثمانية

الفصل الثاني: التواجد اليهودي في البلدان العثمانية

الفصل الثالث: محاولات اليهود استيطان فلسطين من خلال الدولة العثمانية

تمهيد

كانت الاضطهادات والمعاناة التي واجهها اليهود في شتى أنحاء العالم، وعلى الأخص ما لاقاه يهود الأندلس في مختلف العصور التي عاشها اليهود هناك، واضطرارهم إلى الفرار والهجرة من الأندلس، حيث لم يجدوا أمامهم صدراً رحباً غير الدولة العثمانية، التي كانت تعاملهم معاملة أهل الذمة، وفتحت لهم أبوابَ الراحة والعمل في جوٍّ من التسامح وسَعة الصدر، للدلالة على حُسن التعامل الإسلامي.

ثم كانت الفترة التي عاشها اليهود في رحاب العرب المسلمين عند فتحهم بلاد الأندلس، هذه الفترة التي هي المرحلة الوحيدة التي استقرَّ اليهود فيها، حيث استطاعوا أن يؤكّدوا ذاتهم في ظلّ التسامح الإسلامي، تأكيداً لما ورد في القرآن الكريم بعدم المساس بأصحاب الشرائع السماوية، ومعاملتهم معاملةً حسنة، فالإسلام يعترف بهم، ويعترف برسلهم، سواء كانوا يهوداً أو نصارى.

وسوف نستعرِضُ في هذا الباب أحوال اليهود وعلاقتهم بالمسلمين، ومظاهر التسامح التي طبّقها عليهم المسلمون وسلاطين الدولة العثمانية تطبيقاً لأحكام القرآن الكريم في معاملة أهل الذمة، إلى جانب إظهار رد الفعل اليهودي أمام هذا التسامح الإسلامي لهم.

الفصل الأول:

اليهود وعلاقتهم بالمسلمين

معاملة أهل الذمة في القرآن الكريم:

ورد في القرآن الكريم العديدُ من الآيات القرآنية التي تأمرُ المسلمين بمعاملة أهل الكتاب معاملةَ احترام لديانتهم، ونوردُ هنا بعضاً من هذه الآيات التي تحثُّ المسلمينَ على معاملة أهل الذمة معاملةَ تسامح وإخاءٍ وحُبٍّ، كانت هذه الأوامر القرآنية هي التي اتخذها السلاطين العثمانيون منهاجاً لهم في تعاملهم مع أصحاب الديانات الأخرى.

جاء في القرآن الكريم ضرورةُ الإيمان بجميع الأنبياء والرسل والكتب التي أنزلها الله تعالى، ويظهر ذلك في قوله تعالى: ﴿ ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ ﴾ [البقرة: ٢٨٥]. وجاء قوله تعالى في كيفية التعامل مع أهل الذمة معاملة الرحمة والعدل: ﴿ لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓا۟ إِلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴾ [الممتحنة: ٨]، وورد أيضاً في هذا المعنى قوله تعالى: ﴿ ۞ وَمِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مَنْ إِن تَأْمَنْهُ بِقِنطَارٍ يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيْكَ ﴾ [آل عمران: ٧٥]، وقوله تعالى: ﴿ ۞ لَيْسُوا۟ سَوَآءً ۗ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ أُمَّةٌ قَآئِمَةٌ يَتْلُونَ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ ﴿١١٣﴾ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَأُو۟لَٰٓئِكَ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾ [آل عمران: ١١٣ ـ ١١٤].

ويأمر القرآن الكريم المسلمين بالكفّ عن مجادلةِ أهل الذمة إلا بالتي هي أحسن، ومعاملتهم المعاملةَ الكريمةَ العادلةَ، فجاء في قوله تعالى: ﴿ ۞ وَلَا تُجَٰدِلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْهُمْ ۖ وَقُولُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمْ وَٰحِدٌ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴾ [العنكبوت: ٤٦].

ويذكّر القرآن الكريم اليهود والنصارى والصابئين الذين آمنوا بالله قبل بعثة الرسول ﷺ، أنّ الله سيوفيهم أجورَهم، ويظهرُ هذا في قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ [البقرة: ٦٢].

ويأتي أمر الله سبحانه وتعالى بدعوة المسلمين إلى الاستقامة، وأن يحكموا بالعدل بينهم وبين أهل الكتاب، فيقول سبحانه وتعالى: ﴿ فَلِذَٰلِكَ فَٱدْعُ وَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ وَقُلْ ءَامَنتُ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِن كِتَٰبٍ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ ٱللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ لَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ ﴾ [الشورى: ١٥].

وجاء في حقّ اليهود وكتابهم (التوراة) الذي أنزله الله عليهم قوله تعالى: ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَا ٱلتَّوْرَىٰةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسْلَمُواْ لِلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلرَّبَّٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ بِمَا ٱسْتُحْفِظُواْ مِن كِتَٰبِ ٱللَّهِ وَكَانُواْ عَلَيْهِ شُهَدَآءَ فَلَا تَخْشَوُاْ ٱلنَّاسَ وَٱخْشَوْنِ وَلَا تَشْتَرُواْ بِـَٔايَٰتِى ثَمَنًا قَلِيلًا وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴾ [المائدة: ٤٤].

وقوله تعالى في حقّ أهل الكتاب الذين يؤمنون بالله وبكتابه: ﴿ وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَمَن يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِمْ خَٰشِعِينَ لِلَّهِ لَا يَشْتَرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴾ [آل عمران: ١٩٩].

وقوله تعالى في نهي المسلمين عن محاسبة غير المسلمين ـ ومنهم أهل الذمة ـ على أفعالهم، فالله يحاسبهم بما عملوا يوم القيامة فيقول سبحانه وتعالى: ﴿ وَلَا تَسُبُّواْ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَسُبُّواْ ٱللَّهَ عَدْوًۢا بِغَيْرِ عِلْمٍ كَذَٰلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِم مَّرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾ [الأنعام: ١٠٨]، وقوله تعالى: ﴿ ۞ لَيْسُواْ سَوَآءً مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ أُمَّةٌ قَآئِمَةٌ يَتْلُونَ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ ﴿١١٣﴾ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَأُوْلَٰٓئِكَ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾ [آل عمران: ١١٣ ـ ١١٤].

وفي حثّ الله سبحانه وتعالى المسلمين على الإيمان به والقيام بواجبهم في طاعة الله ما جاء في قوله تعالى: ﴿لَّٰكِنِ ٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلْعِلْمِ مِنْهُمْ وَٱلْمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَٱلْمُقِيمِينَ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱلْمُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ أُوْلَٰٓئِكَ سَنُؤْتِيهِمْ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ١٦٢].

ويحثّ المسلمين على الصبر عليهم، ومعاملتهم بالحسنى في قوله تعالى: ﴿وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا﴾ [المزمل: ١٠].

ويحثّ القرآن المسلمين على الوصول لأقصى درجات التسامح مع أهل الكتاب، ويظهر هذا أيضاً في قوله تعالى: ﴿قُل لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ يَغْفِرُواْ لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ ٱللَّهِ لِيَجْزِيَ قَوْمًا بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ﴾ [الجاثية: ١٤].

وينهى عن مجادلتهم، وتركهم لله حتى يقضي الله أمره فيهم، ويظهر ذلك في قوله تعالى: ﴿لِّكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا هُمْ نَاسِكُوهُ فَلَا يُنَٰزِعُنَّكَ فِي ٱلْأَمْرِ وَٱدْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ إِنَّكَ لَعَلَىٰ هُدًى مُّسْتَقِيمٍ ﴿٦٧﴾ وَإِن جَٰدَلُوكَ فَقُلِ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٦٨﴾ ٱللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾ [الحج: ٦٧ ـ ٦٩]، وقوله تعالى أيضاً: ﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُواْ سَلَٰمًا﴾ [الفرقان: ٦٣]، وقوله تعالى، يخاطب الرسول ﷺ ويأمره بتركهم وشأنهم لله تعالى ويتجلّى ذلك في قوله تعالى: ﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ ﴿٢١﴾ لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ﴾ [الغاشية: ٢١ ـ ٢٢].

ويحل القرآن للمسلمين طعام أهل الذمة، من الذبائح ويتجلى ذلك في قوله تعالى: ﴿وَطَعَامُ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ حِلٌّ لَّكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَّهُمْ﴾ [المائدة: ٥].

ويستدل الفقهاء في حل ذبائح اليهود أيضاً بحديث المرأة اليهودية التي أهدت الرسول ﷺ شاةً، وقد سمّت ذراعها، فأخبر الذراعُ رسولَ الله ﷺ أنه مسموم، فلفظه الرسول ﷺ[1].

---

(١) ابن كثير، تفسير القرآن: ٢/ ١٩؛ وانظر العلاقات الدولية في الفقه الإسلامي، تأليف لجنة من أساتذة كلية الشريعة والقانون في جامعة الأزهر، القاهرة ١٩٩٤م، ص٨٤.

أهل الذمة في الأحاديث الشريفة:

حثّ الرسول ﷺ المسلمين من خلال أحاديثه الشريفة حيث أمرهم بحسن معاملة أهل الذمة. من هذه الأحاديث، حديث «مَنْ ظلمَ معاهَداً، أو كلّفَه فوقَ طاقتهِ فأنا حَجِيْجُه يومَ القيامة»[(١)].

كما كان الرسول ﷺ: يعودُ جاره اليهوديَّ إذا مَرِض[(٢)]. ويقول عنهم ﷺ: «اتركوهم وما يَدْيِنُوْن».

وقد تحدّثنا من قبلُ عن الاضطهاد الذي واجهه يهود الأندلس، وما تعرّضوا له من حرق صحف التوراة أكثرَ من مرة، مع أنَّ النبيّ ﷺ أمرَ المسلمين بتسليم اليهود صحائفهم في غزوة خيبر[(٣)].

وقد سمحَ الإسلامُ لزوجة المسلم سواءً كانت يهودية أو نصرانية أن تذهبَ إلى الكنيس أو الكنيسة، ولا يحقُّ لزوجها أن يمنعها[(٤)].

وكان الرسول ﷺ يأمرُ بالصدقة على أهل الأديان، فيقول: «تصدّقوا على أهل الأديانِ كلِّها»[(٥)].

وعن عائشة رضي الله عنها قالت: إنّ النبيَّ ﷺ اشترى طعاماً مِنْ يهوديٍّ إلى أجلٍ، ورهنه درعاً من حديدٍ، وفي لفظ: تُوفِّي رسولُ الله ﷺ ودِرْعُهُ مرهونٌ عند يهودي بثلاثين صاعاً من شعيرٍ». رواهما البخاريُّ ومسلم[(٦)].

وجمهور العلماء مجمعون على أنَّ قتلَ المسلم الذمي يعدُّ من الكبائر، ويظهر ذلك من قول الرسول ﷺ: «مَنْ قتلَ معاهداً لم يَرُحْ رائحةَ الجَنّةِ، وإنّ

---

(١) الترغيب والترهيب، دار إحياء التراث الإسلامي، ط٣، ١٩٦٨م: ٤/ ١١؛ والسيد سابق، فقه السنة، دار الكاتب العربي ـ بيروت، ١٩٦٩م: ٢/ ٦٦٨.

(٢) العلاقات الدولية في الفقه الإسلامي، مرجع سابق، ص٧٥.

(٣) المرجع سابق، ص٢٧.

(٤) المرجع سابق، ص٧٦.

(٥) مصنف ابن أبي شيبة: ٣/ ١٣٧، دار الفكر ـ بيروت.

(٦) السيد سابق، مرجع سابق: ٢/ ٦٠٩ ـ ٦١٢.

رِيحَهَا لَيُوْجَدُ مِنْ مسيرةِ أربعينَ عاماً» أخرجه البخاري رقم (٣١٦٦)، وابن ماجه رقم (٢٦٨٦).

وقد اتخذت الدولة العثمانية من هذا الحديث منهاجاً لها، وحرّمت قتل الذمي، وعدّت دمه كدم المسلم، وديته مثل دية المسلم[1].

فالإسلام أقرَّ لأهل الذمة التمتعَ بالحرية في ظلّ مجتمع من التسامح والإخاء والعدل والمساواة، فلهم حق حماية أعراضهم ودمائهم، وعدم إكراههم على اعتناق الإسلام، والسماح لهم بممارسة شعائرهم في كنائسهم ومعابدهم.

وعلى الرغم من سماحة الإسلام في معاملة أهل الذمة إلا أنّ اليهود خاصةً تنكّروا له، وانفصلوا عن الدولة الإسلامية التي كانوا يعيشون تحت ظلها، ومنهم من أسلم نفاقاً، وكانت لديهم القدرة على التآمر والمراوغة، وتاريخُ الإسلامِ يشهد بالكثير من الأحداث التي تظهِر أنّ هؤلاء اليهود لم يقدروا المعاني القرآنية والتسامح الإسلامي.

وما ورد في القرآن الكريم واضحٌ من حيث حث المسلمين على معاملة أهل الكتاب من يهود ونصارى المعاملة الطيبة التي كفلت لهم جميع الحقوق الإنسانية من حقوق دينية أو مدنية أو سياسية، ويحكم الإسلام على المسلم أن تقطَع يده إذا سرق مال الذمي، لأنه مال محترم[2] وعلى الرغم من تكريم القرآن لهؤلاء وسماحته، إلا أنّهم كانوا يكنّون للإسلام والمسلمين في كلّ أرجاء العالم عداءً وحقداً واضحين.

وفي مقابل هذا العداء كان المسلمون يعاملونهم المعاملة الطيبة والإكرام، وتاريخُ المسلمين مع اليهود يشهد بهذه المعاملة منذ بداية ظهور الإسلام.

وقبل أن نتطرّقَ لأحوال اليهود في الدولة العثمانية نستعرِضُ أحوال اليهود

---

(١) كمال السعيد حبيب ـ الأقليات والممارسة السياسية في الخبرة الإسلامية، دراسة حالة الدولة العثمانية، رسالة ماجستير غير منشورة، جامعة القاهرة، كلية الاقتصاد والعلوم السياسية، ١٩٩٥م، ص٩٨ـ٩٩.

(٢) العلاقات الدولية في الفقه الإسلامي، مرجع سابق، ص٧٩.

في العالم الإسلامي في ظلّ معاملة الإسلام لهم[١].

تأثيرُ الأدب العربي على اليهود:

أخذ اليهود عن العرب فنّ الكلام، وفنّ الشعر، والنطق الصحيح، وكان يهود العراق والشام وفلسطين والحجاز يتكلّمون اللغة العربية.

وقد تأثر الأدب العبري بالأدب العربي، وكان تأثر الشعر العبري بالشعر العربي واضحاً حتى أصبح صورةً منه في الوزن والقافية، كلُّ هذا يدل على الخُلق العربي والإسلامي الذي كان يفتحُ الباب على مصراعيه لكلّ من أراد أو رغب في معرفة العربية وعلومها.

وقد حظي اليهود بمكانة كبيرة بين العرب، باعتبارهم أصحابَ ديانة سماوية لها الاحترام لديهم، فأسسوا المعاهد الدينية والثقافية، وكان لهم أساتذتهم وعلماءهم الذين كانوا يعملون بحرية مطلقة من خلال معاملة العرب لهم[٢].

وكما عني المسلمون بالقرآن الكريم كذلك عني اليهود بكتبهم، وشرعوا في وضع نحو للغتهم على طريقة النحو العربي صيانةً لها من اللحن والضياع[٣].

تسامح الرسول ﷺ والخلفاء الراشدين مع اليهود:

يتحدّث التاريخ عن معاملة الإسلام لليهود، فيذكر التاريخُ أنّه عندما أمر الرسول ﷺ بإجلاء اليهود من الجزيرة العربية قام عمر بن الخطاب رضي الله عنه بإجلائهم، فأعطاهم أراضٍ على نهر الفرات بالقرب من الكوفة تعويضاً لهم عن

---

(١) انظر ابن قيم الجوزية. حقوق أهل الذمة، مجلدان، نشر دار العلم للملايين، تحقيق الدكتور محمد صبحي الصالح. (الناشر)

(٢) أحمد سوسة، مرجع سابق، ص٧٤٧ـ٧٤٨.

(٣) أنور الجندي، السلطان عبد الحميد والخلافة الإسلامية، دار ابن زيدون ـ بيروت ١٤٠٧هـ، ص١٩٢ ـ ١٩٣. نقلاً عن مقولة للدكتور فؤاد علي حسنين: في بعض حسنات العرب على اليهود.

أراضيهم التي فقدوها بالجلاء[1].

وعند الفتح الإسلامي لفلسطين على يد الخليفة عمر بن الخطاب يسمح عمر بن الخطاب رضي الله عنه لليهود بالعودة إلى القدس[2]، ومنحهم هناك قطعةَ أرضٍ على جبل الزيتون لإقامة صلواتهم عليها[3].

وجديرٌ بالذكر أنّه عندما فتح المسلمون بيت المقدس عام ٦٣٦م قام الخليفة عمر بن الخطاب لدى تسلّمه المدينة عهداً وأماناً للنصارى جاء فيه:

بسم الله الرحمن الرحيم:

«هذا ما أعطى عبد الله عمر أمير المؤمنين أهلَ إيلياء من الأمان. أعطاهم أماناً لأنفسهم ولكنائسهم وصلبانهم. سقيمها وبريئها وسائر ملتها. أنّه لا تُسْكَنُ كنائسهم، ولا تُهْدَمُ، ولا يُنتقَصُ منها، ولا من خيرها ولا من صلبهم، ولا من شيءٍ من أموالهم، ولا يُكْرَهُوْنَ على دينهم، ولا يضارَّ أحدٌ منهم، **ولا يسكن بإيلياء معهم أحدٌ من اليهود.**

وعلى أهل إيلياء أن يعطوا الجزية، كما تعطي أهلُ المدائن، وعليهم أن يخرجوا منها الرومَ واللصوص، فمن خرجَ منهم فهو آمن، وعليه مثل ما على أهل إيلياء من الجزية.. ومن أحبَّ من أهل إيلياء أن يسيرَ بنفسه وماله مع الروم، ويخلّي بيعهم وصلبهم، فإنّهم آمنون على أنفسِهم وعلى بيعهم وصلبهم حتى يبلغوا مأمنهم.. فمن شاء منهم قعد، وعليه مثل ما على أهل إيلياء من الجزية. ومن شاء سار مع الروم، ومن شاء رجع إلى أهله، فإنّه لا يؤخَذُ منهم حتى يحصدوا حصادهم. (وعلى ما في هذا الكتاب عهد الله وذمة رسوله وذمة الخلفاء والمؤمنين،

---

(١) أنور الجندي، السلطان عبد الحميد والخلافة الإسلامية، مرجع سابق، ص١٩٢. نقلاً عن قول للمؤرخ اليهودي (جرتيز)، في حق الإسلام والمسلمين.

(٢) هذا الخبر مناقض لصك العهدة العمرية لنصارى بيت المقدس، والتي بموجبها تسلّم عمر رضي الله عنه المدينة، وتنص صراحة، (ولا يسكن بإيلياء معهم أحد من اليهود). (الناشر)

(٣) رفيق شاكر النتشة، السلطان عبد الحميد الثاني وفلسطين، مكتبة مدبولي ط ٥، ١٩٩٠م، ص٤٥.

إذا أعطوا الذي عليهم من الجزية). كتب سنة ١٥ للهجرة.

(شهد على ذلك خالد بن الوليد، وعبد الرحمن بن عوف، وعمرو بن العاص، ومعاوية بن أبي سفيان).

وكان وضع اليهود في البلاد التي نزلوا بها وضعاً قلقاً، إذ كانوا يكوّنون طبقة خاصة معادية للجميع، تعيشُ في عزلة عن باقي فئات المجتمع، ويبحثون عن سيد يمشون في ركابه، ولا يتورّعون عن خيانته لو ظهر سيد جديد أقوى.. كلُّ ذلك في سبيل العودة إلى أرض الميعاد.. فلسطين[١].

ومن ناحية أخرى سمح السلطان صلاح الدين الأيوبي لليهود بالعودة إلى فلسطين بعد تعرّضهم للإبادة والتعذيب أثناء الحروب الصليبية. كما سمح لهم العثمانيون بدخولها وامتلاك أراضٍ بها، وذلك بعد طردهم من الأندلس كما أوضحنا سابقاً.

وفي مصر عاش اليهودُ طوال ألف سنة مع المسلمين، وبعضهم من أحفاد (موسى عليه السلام) الذين خلفهم وراءه عند خروجه من مصر[٢].

وفي سوريا كان أكثر الصيارفة وأرباب البنوك من اليهود، وكان لهم مراكز مرموقة، وذلك على عهد الخليفة المعتضد، وكان ذلك في الفترة من ٨٩٢ ـ ٩٠٢م.

وفي بغداد كان لليهود مستعمرة كبيرة، بها عشر مدارس للحاخامين، وثلاث وعشرون كنيساً[٣].

ويمكن لنا القول: إنّه قبل السبي البابلي الذي قام به (نبوخذ نصر) كان أكثر اليهود موزعين في العالم العربي، ولم يقتصر وجودهم في فلسطين فقط. وكانت

---

(١) يوسف محمود يوسف، إسرائيل البداية والنهاية، تشرين أول ـ أكتوبر ١٩٩٤.

(٢) رفيق شاكر، مرجع سابق، ص٢٧.

(٣) رفيق شاكر، مرجع سابق، ص٢٧. يجدر بنا القول هنا عند حديثنا عن معاملة أهل العراق لليهود أن نذكرَ أنّه عندما تشكّلت حكومة العراق عام ١٩٢٠م كان أولُ وزير للمالية فيها وزيراً يهودياً هو (ساسون حسقيل)، كما كان لليهود هناك مقعد في مجلس النواب والأعيان؛ (انظر في هذا أحمد سوسة، مرجع سابق، ص٧٤٨).

أوضاعُ اليهود فترة الحكم الإسلامي في الأندلس عام ٧١١م فترةَ استقرارٍ، وقد شهد اليهود أنفسهم على أنَّ هذه الفترة كانت بمثابة العصر الذهبي لهم، حيثُ منحوا فيها حرية التنقل في أنحاء البلاد، والتجارة، وأعيدت لهم أراضيهم التي صودرت منهم من قبلُ، كما أصبح لهم الحق في أداء شعائرهم الدينية إلى جانب استقلالهم القضائي.

ونتيجة لمنحهم تلك الحريات التي حُرِموا منها في العصور السابقة فقد راجت تجارتهم، واحتكروا بعضها؛ مثل تجارة العبيد والحرير والتوابل، وبجانب هذا الانتعاش الاقتصادي حدثت لهم نهضة فكرية كبرى، وأنشؤوا المراكز الثقافية التي نافسوا بها مراكز الشرق الثقافية الأخرى، وأصبحت لهم مكتبة غنية تضم آلاف المخطوطات في مختلف العلوم والفنون[١].

وفي العهد الحديث حَظِيَ اليهودُ بمكانة قوية في البلاد العربية الأخرى، فكان منهم الوزراء مثل (بنزاكين) في المغرب، و(أندريس بسيس) و(أندريه باروخ) في تونس، إلى جانب هذا فقد وقف الملك محمد الخامس ملك المغرب في وجه حكومة هتلر حينما حاولت اضطهاد يهود المغرب[٢].

معاملة السلاطين العثمانيين لليهود المهاجرين إلى الدولة العثمانية:

في ظل معاملة الدولة العثمانية الكريمة لليهود سمحت ليهود العالم بالهجرة إليها، والإقامة فيها كمستوطنين، مع تمتعهم بكافة الحقوق التي تكفل لهم الحياة الكريمة، حيثُ عمل اليهود في كلِّ فروع التجارة والصناعة والعلم، ووصلوا إلى مراكز مرموقة في الدولة، وتمتعوا بالاستقلال الذاتي والإداري والطائفي.

وقد كان الحاخام الأكبر هو ممثل اليهود أمام الحكومة، وكانت مدارسهم تتمتع بالاستقلال الثقافي، وكانت قضاياهم تُنظرُ أمامَ المحاكم على حسب الشريعة اليهودية[٣].

---

(١) محمد بحر، اليهود في الأندلس، المكتبة الثقافية، العدد ٢٣٧، الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر ـ القاهرة ١٩٧٠م، ص٢٠ ـ ٢٢.

(٢) أحمد سوسة، مرجع سابق، ص٧٤٨.

(٣) رفيق شاكر، مرجع سابق، ص٣١. نقلاً عن حسن صبري الخولي، سياسة الاستعمار والصهيونية تجاه فلسطين، م١، ص٨٣.

وفي الوقت الذي خضعت فيه فلسطين للحكم العثماني أوائل القرن السادس عشر الميلادي هاجر اليهود إليها، واستوطنوا (القدس) و(طبرية) و(صفد) و(الخليل).

وفي القرن الثامن عشر هاجر اليهود إليها مرة أخرى، واستقروا في (صفد) و(طبرية) تحت حكم (ضاهر العمر) الذي أعطاهم الحماية والأمن، وخلال الحكم العثماني لم تتخذ أية إجراءات ضد اليهود وضد حقوقهم الدينية وحكمهم الذاتي[1].

وقد شهد المؤرخون الغربيون واليهود أنفسُهم على التسامح الذي لاقاه اليهود في العالم الإسلامي وخاصة الدولة العثمانية إلى جانب العلماء والسياسيين، ومن أبرز هؤلاء الكاتب اليهودي الماركسي (أبراهام ليون) والكاتب اليهودي (الفريد ليلنتال)[2]. والصحفي الإسرائيلي (شموئيل سيجف) والكاتب اليهودي

---

(١) رفيق شاكر، مرجع سابق، ص٣١. نقلاً عن ج.هـ. جانسن، الصهيونية وإسرائيل وآسية، ص١٢٦، مركز الأبحاث - بيروت، ١٩٧٣م.

(٢) ولد الفريد ليلينتال في نيويورك عام ١٩١٣م لأبوين يهوديين، حصل على الدكتوراه في فقه القانون، وعمل ممثلاً لمنطقة واشنطن في المجلس الأمريكي لليهودية، لكنّه سرعان ما انسحبَ منه بسبب سياسة المجلس في مساندة إسرائيل، زار القاهرة عام ١٩٤٤م، نشر مقالاً في مجلة (ريدرز دايجست) بعنوان (العلم الإسرائيلي ليس علمي) وقد أثار هذا المقال غضب المنظمات اليهودية، ونظمت حملات ضده، وصلت إلى تأليب السفراء الأمريكيين من أصل يهودي لكتابة تقارير ضده، حيث كان يعمل في مجال الشؤون القانونية لدى وزارة الخارجية الأمريكية. في عام ١٩٥٤م أصدر كتابه الشهير (ثمن قيام إسرائيل) وكان لهذا الكتاب أثره الكبير في أمريكية، حيث جعلت (جون كنيدي) يرسل لألفريد رسالةً منه جاء فيها: «**إنني أوافق موافقة تامة على أنَّ الانحياز الأمريكي إلى أحد طرفي النزاع العربي - الإسرائيلي يشكِّلُ خطراً على كل من الولايات المتحدة والعالم الحر**».

أصدر ليلنيتال بعد ذلك عدداً من المؤلفات منها (الوجه الآخر للعملة) و(إلى حيث يمضي الشرق الأوسط) كما أصدر دورية شهرية بعنوان (وجهات نظر حول الشرق الأوسط) ظلت تصدر لمدة (١٧) عاماً، حتى قام متطرّفون يهود بإلقاء قنبلة على سيارته أثناء جولة له في الضفة الغربية. وقد تم إقصاءه عن الديانة اليهودية إثر احتجاجه على=

(ج. هـ. جانسن) وغيرهم. وقد عبر هؤلاء في كتاباتهم عن المعاملة الطيبة التي وجدوها بين المسلمين، الأمر الذي ساعدهم على العمل بحرية مطلقة. وقد شهدوا أنّه «في ظل الإمبراطورية الإسلامية والدويلات التي قامت على أشلائها، والتي احتفظت فيما بينها بصلات وثيقة، ازدهرت التجارة بين مناطق متباعدة، وتقدّم الإنتاج الزراعي، وراجت الصناعات اليدوية، وشارك اليهودُ كسائر عناصر السكان في هذا التقدم ومارس عددٌ كبير منهم التجارة»[١].

وقد وجد اليهود الذين كانوا يعانون الاضطهاد القاسي ملجأ لهم في البلدان المجاورة، وخاصة خارج البلدان المسيحية في العالم الإسلامي الذي فتحَ لهم صدره[٢].

ويقول المؤرخون: «إنّ العصر الذهبي لليهود امتدّ على القرون البادئة منذ عام ٧١١م عندما كان اليهود يعيشون متمتعين بالنفوذ والاحترام تحت السلطة الإسلامية في إسبانيا والبرتغال، وحين اضطر اليهود إلى الفرار من وجه محاكم التفتيش المسيحية، وجدوا في شمال أفريقيا والشرق الأوسط ملجأً لهم»[٣].

= غزو إسرائيل للبنان عام ١٩٨٢م وحينما سُئِلَ أما تزال يهودياً؟ أجاب: (ليست لدي رغبة في العودة إلى تلك الحظيرة)، وفي تشرين أول ـ أكتوبر ١٩٩٩م نظمت حفلة لتكريم ليلينتال باعتباره من أبرز المناهضين للصهيونية، وذلك بمناسبة بلوغه سن الـ(٨٥) أشرفَ على تنظيم الحفل جيمس أبو رزق أول أمريكي عربي يحظى بعضوية مجلس الشيوخ الأمريكي (مجلة الوسط، العدد ٤٠٤، تشرين أول ـ أكتوبر ١٩٩٩م، ص٣٦ ـ ٣٨).

(١) رفيق شاكر، مرجع سابق، ص٢٦، نقلاً عن أبراهام ليون (المفهوم المادي للمسألة اليهودية).

(٢) انظر رفيق شاكر، مرجع سابق، ص٢٦. نقلاً عن الفرد ليلنتال، (هكذا يضيع الشرق الأوسط).

(٣) انظر رفيق شاكر، مرجع سابق، ص٢٦. على حد قول الكاتب والمؤلف اليهودي (الفرد ليلينتال) تذكر المراجع أوضاع اليهود في إيران في العصر الحديث أنه من بين (٨٠٠٠٠) (ثمانين ألف) يهودي كانوا يعيشون في إيران عام ١٩٧٨م نسبة (١٠٪) أثرياء جداً و(٨٠٪) من الأثرياء العاديين، أو من الطبقة المتوسطة، و(١٠٪) فقط كانوا فقراء يحتاجون إلى مساعدة الجالية اليهودية. وظهر التحسن الذي طرأ على وضع اليهود في إيران في مجال التعليم، حيث أصبح منهم الطلبة الجامعيون والأساتذة والمحاضرون في الجامعات، =

لقد كانت فترة الاستقرار الأولى لليهود في القرن السابع عندما وضعت الفتوحات الإسلامية في إسبانيا حداً للاضطهاد المسيحي لليهود هناك. ومنذ القرن العاشر فصاعداً أخذ الضغط على اليهود في أوروبا الغربية في الازدياد ببطء، حتى إذا ما أطلّ القرن السادس عشر، كانت تلك المنطقة بكاملها قد أُفرغت من اليهود، ما عدا بعض الجيوب الصغيرة والمبعثرة. في ذلك الوقت انتقلت الجاليات اليهودية نحو الشرق، حيث وجدت في الإمبراطورية العثمانية الأمان، وانتقلت أيضاً إلى بولندا وروسيا حيث تجمّعَ القسم الأكبر منهم في المقاطعات الغربية من روسيا وبولندا، وهي التي عرفت فيما بعد بمناطق الاستيطان، فلم تكن هناك أي مشكلة يهودية في أي قطر عربي أو إسلامي في العالم بسبب تسامح الإسلام معهم[1].

وحينما قامت الدولة العثمانية عام ١٢٩٩م شملت رقعةً واسعةً من العالم، امتدت في قارات آسيا وأفريقيا، وبعض أجزاء من أوروبا، تولد عالم جديد عرف بعالم الهيمنة الإسلامية مع احتفاظ أصحاب الديانات الأخرى بأحقيتهم الدينية، فعاشوا مع المسلمين جنباً إلى جنب في ظلّ التسامح الإسلامي، سواء كانوا يهوداً أو نصارى.

كان اليهود يعيشون في ظل الدولة العثمانية عهدَ أمان واستقرار، حيث طبقت الحكومة العثمانية عليهم أحكام الشريعة الإسلامية، فكان الحاخام اليهودي الذي يمثل جميعَ اليهود في الدولة أمام الحكومة العثمانية، عليه مهمة تحديد الضرائب للطائفة اليهودية التي تعيش هناك، وكان له الحق في اختيار الرؤساء المحليين، وكانت لهم مكانتهم الدينية الرسمية في الدولة، وكان لهم استقلالهم الذاتي في إدارة ممتلكاتهم، وفي التعليم، وفي إقامة الكُنُس والمعابد الخاصة بهم، مع الحفاظ على تراكيبهم الاجتماعية وعاداتهم وطقوسهم الدينية،

= وكان أكثر من نصف أولاد اليهود يدرسون في مدارس عبرية. رفيق شاكر، مرجع سابق، ص٣٥ ـ ٣٦. نقلاً عن كتاب شموئيل سيجف (المثلث الإيراني)، ص١٨٠ حديث للصحفي الإسرائيلي (شموئيل سيجف) عن أحوال اليهود في إيران.

(١) رفيق شاكر، مرجع سابق، ص٢٨. نقلاً عن ج هـ. جانسن، الصهيونية وإسرائيل وآسيا.

إلى جانب ممارستهم الحرة في المجالات الإدارية والاقتصادية، كما كانت لهم مدارسهم الخاصة بهم[(١)].

أما من ناحية السلاطين العثمانيين فقد عاملوا اليهود المعاملة الإسلامية الكريمة التي أمر بها الإسلام...

ففي عهد **أورخان بن عثمان** (١٣٢٦ ـ ١٣٥٩م/ ٧٢٧ ـ ٧٦١هـ) ثاني حكام العثمانيين سمح لليهود بإقامة حارة ومعبد خاص لهم في مدينة بروسة. وهو أول سلطان أعطى اليهود امتيازات خاصة. كما أذن لليهود ببناء صومعة كانت ما تزال تمارس نشاطها حتى الأربعينيات من القرن العشرين، وعند فتحه مدينة إزنيق سمح لأهلها بإقامة شعائرهم الدينية الخاصة بهم[(٢)].

وفي عهد مراد الأول (١٣٥٩ ـ ١٣٨٩م/ ٧٦١ ـ ٧٩٢هـ) عام ١٣٦٥م استولى السلطان مراد على أنقرة، وحوّلها إلى عاصمة بدلاً من بروسة، وأصبحت فيها أكبر الطوائف اليهودية لكونها أكبر مدن الدولة العثمانية في ذلك الوقت[(٣)].

وفي عهد مراد الثاني (١٤٢١ ـ ١٤٥١م/ ٨٢٤ ـ ٨٥٥هـ) أصبح من حق اليهود تملك الأراضي نتيجة لسياسة التسامح التي أولاهم بها السلاطين العثمانيون وخاصة السلطان مراد الثاني، الذي لقبه اليهود (بالرجل الإنساني الكبير)[(٤)].

وفي عهد السلطان مراد الثاني تقدم مجموعة من حاخامي اليهود في أوروبا بطلبٍ إليه بالسماح لهم بالهجرة إلى الدولة العثمانية، فلبى طلبهم دون قيد أوشرط، وجلب المهاجرون اليهود معهم خبراتهم في استخدام البنادق، وصناعة المدافع التي عرفوها، وعندما تم فتح أدرنة، أعطى رئيس حاخاماتها السيادةَ على كافة يهود الروملي[(٥)].

---

(١) انظر أحمد نوري النعيمي، ص١٨ ـ ٢١؛ ورفيق شاكر، مرجع سابق، ص٣١.
(٢) محمود شاكر، التاريخ الإسلامي، العهد العثماني، المكتب الإسلامي - بيروت، ١٩٨٧م: ٨/ ٦٤.
(٣) أحمد عثمان، مرجع سابق، ص١١.
(٤) عايدة العلي سري الدين، دول المثلث، مرجع سابق، ص٣٢٢.
(٥) أحمد نوري النعيمي، اليهود والدولة العثمانية، مرجع سابق: ٣٥/ ٣؛ Abdurrahman. 99.S.e.g. kücük

وحينما فتح السلطان محمد **الفاتح** (١٤٥١ ـ ١٤٨١م/ ٨٥٥ ـ ٨٨٦هـ) القسطنطينية (إستانبول) عام (١٤٥٣م/ ٨٥٧هـ) رحّبَ اليهود به، حيث زادت امتيازاتهم في عهده، وانتظموا تحت زعامة رئيس الحاخامات. وقد فتح السلطان الفاتح المجال للتواجد اليهودي بالدولة، وسمحَ لهم بالهجرة إليها من مناطق (أسكوب)، و(سلانيك) و(خاص كوي) وأسكنهم حياً خاصاً بهم في إستانبول، حيث كان في حاجةٍ إلى زيادة السكان في هذه المنطقة.

ومن أهم الامتيازات التي منحها الفاتح لليهود السماح لهم بإجراء طقوسهم الدينية بحرية مع المحافظة على كنسهم القديمة كما هي، وعدم منعهم من وضع الصور في الكنس والبيوت، وألا يُمنعوا من قراءة التوراة بشكل علني[(١)].

وفي هذا المجال أصدر السلطان محمد الفاتح إعلاناً لكل اليهود جاء فيه:

«ليرتقوا منزلة العرش العالي، ويستوطنوا أفضلَ أرض، تحت شجر الأعناب العائدة لهم مع الفضة والذهب مع الثروة والأنعام»[(٢)].

في ذلك الوقت برز الأطباء اليهود في البلاط العثماني، وأصبحت لهم شهرة واسعة، فكان من بينهم (الحكيم يعقوب) و(دانيال فونسيكا) و(جبريال).

وفي عهد الفاتح أيضاً قام رئيس طائفة اليهود ويدعى (إسحاق صفتي) بدعوة يهود العالم إلى الهجرة إلى الدولة العثمانية، مؤكداً لهم أنَّ الوضع في الدولة العثمانية يساعد اليهود على العيش فيها بأمان وحرية[(٣)].

يقول (دانشمند) تعليقاً على سياسة الفاتح مع اليهود: (يجب التحقيق بأي عقل وبأي فكر سلط الفاتح هؤلاء (اليهود) على رئاسة الدولة، كما أنَّه أحدث بدعاً لم نسمعها ولم نرها تُنسب إلى يهودي إيطالي يسمى (الحكيم يعقوب)[(٤)].

---

(١) 99.S.e.g. kucuk A.R, a.g.e.S.85,86.

(٢) انظر نوري النعيمي، اليهود والدولة والعثمانية، مرجع سابق، نقلاً عن Guleryuz Naim "The History of the Turkish Jeus" S.p.28.

(٣) أحمد نوري النعيمي، اليهود والدولة العثمانية، مرجع سابق: ٣٣/ ٢٨.

(٤) Ismail Hami Danismend, Izahli Osmanli Tarihi Kronolojist, 4.c. Istanbul, 972, 1/354.

وتؤكد المصادر، أنَّ اليهود هم الذين تسببوا في مقتل السلطان الفاتح بالسم، بالرغم من معاملة السلطان الفاتح الطيبة لهم، ويقول (بابانجر) الكاتب الفرنسي: إنّ البنادقة حاولوا قتل السلطان الفاتح بالسم أربعة عشر مرة، وفي النهاية تمَّ اختيار (ماستر ولكوب) وهو يهودي الأصل، الذي أسلم وسمّى نفسه (يعقوب) جاء إلى تركيا هرباً من إيطاليا، وكان قد عمل في قصر السلطان ثلاثين عاماً، وأصبحَ ضمن الأطباء المخصصين للسلطان الفاتح، وقد تم إقناع يعقوب بتسميم الفاتح مقابل رشوة كبيرة، لكنّ هناك مصادر أخرى تنفي موتَ السلطان الفاتح بالسم وإنّما مات بسبب مرض (النقرس) الذي يصيبُ معظم السلاطين، ومنهم (تكين داغ) و(دورسون بك) و(دي لامارتين) وكذلك (دانشمند).

ويقول (توتونجي رويات) (بودير) و(بابانجر): إنّ الفاتح سممه الطبيب اليهودي (يعقوب) عن طريق يهود الدونمة في مقابل رشوة بلغت (٢٤٠) مليون ليرة تركية.

قال (خير الله أفندي) عام ١٨٦٦م: «إنّ الطبيب اليهودي (يعقوب باشا) استمرّ لمدة طويلة في إعطاء الفاتح أدوية خاطئة بهدف قتله، لكنّه قتل في هذا الوقت بالذات، ويؤكد (خير الله) إنّ يعقوب باشا من يهود الدونمة، وقد مات في سن مبكرة، وكان ينوي جمع إمبراطوريات روما الشرق والغرب»[(١)].

أما السلطان **بايزيد الثاني** (١٤٨١ ـ ١٥١٢م) / (٨٨٦ـ٩١٨هـ) فقد شجع الوجود اليهودي في الدولة، وتحمّس لهم، وأسكن جزءاً منهم في سلانيك، وجزءاً آخر في ساقيز[(٢)].

وعبر عن هذا بقوله: «إنني مندهش من الذين يقولون: إنّ فرديناند ملك إسبانيا ذكي، فهو يضعف دولته ويغني أرضي»[(٣)].

---

(١) Abdurrahman Kucuk, a.g.e.s.90 - 97.

(٢) Abdurrahman Kucuk, a.g.e.s. 1.1

(٣) عايدة، دول المثلث، مرجع سابق، ص٣٢٢. نقلاً عن
Branard lewis Emergence of Modern Turkey london oxford p.207, 208.

وعلى الرغم من هذا، فقد كان أولُ عمل قام به اليهود الذين جاؤوا بعد عهد بايزيد الثاني أنّ قاموا بالاستيلاء على أموال الترك، الذين حموهم، الأمر الذي أدّى إلى زيادة ثروتهم[١].

حيث سُمِحَ لليهود بالهجرة إلى الدولـة العثمانية بدون قيد أو شـرط، وأعطاهم الحرية التامة، والإقامة في جزيرة (ساقيز).

وأما السلطان **سليم الأول** (١٥١٢ ـ ١٥٢٠م)(٩١٩ ـ ٩٢٧هـ) فعندما فتح مصر أقر لزعماء اليهود الدينيين كافة الصلاحيات، وربطهم بالعاصمة إستانبول، ولقب الواحد منهم بلقب (نجد) أو (ريس) أو(ربي) وأعطى كل جماعة يهودية حق حكم نفسها بنفسها تحت سلطة حاخامها المحلي[٢].

أما السلطان **سليمان القانوني** (١٥٢٠ ـ ١٥٦٦م) (٩٢٧ ـ ٩٧٤هـ) فقد تزوّجَ من فتاه يهودية أكرانية تدعى (روكسيلانة) وهي تدعي (خُرَمْ سُلْطَان) وذلك في القرن الخامس عشر، وكان لهذه السيدة نفوذٌ كبير في القصر السلطاني، حيث زوجت ابنتها (مهرماه) من (رستم باشا) الكرواتي الأصلي، واستطاعت بنفوذها قتل (إبراهيم باشا) ـ الصدر الأعظم ـ وتنصيب صهرها (رستم باشا) بدلاً منه، ومن ناحية أخرى دبرت هذه السيدة مؤامرة خنق ولي العهد (مصطفى بن سليمان القانوني) من زوجته الأولى، وتنصيب ابنها (سليماً) ولياً للعهد بدلاً منه[٣]. وكادت الدولة تصابُ بأزمات لولا وجود الوزير (محمد باشا الصوقلي) الذي لعب دوراً في تماسك الدولة، ومنعها من الانهيار[٤].

وفي عهد السلطان سليمان القانوني حاز الطبيب اليهودي (جوزيف ناسي)

---

(١) Abdurrahman Kucuk, a.g.e.S. 104.

(٢) انظر كمال حبيب، مرجع سابق: ٢/ ٣٥٠.

(٣) أحمد نوري النعيمي، يهود الدونمة، دار البشير، مؤسسة الرسالة ـ بيروت ١٩٩٥م: ١/٧. نقلاً عن نصطفى طوران، أسرار الانقلاب العثماني، ترجمة كمال خوجة، ط٢ دار السلام ـ بيروت ١٩٧٨، ص٢.

(٤) علي حسون، مرجع سابق، ص١٨٥.

مكانةً راقية وكان مقرباً للسلطان[١].

وبعد فتح السلطان سليمان القانوني جزيرة رودس عام ١٥٢٣ جاءَ اليهودُ الذين استقرّوا في جزيرة ساقيز إلى رودس، فمنحهم السلطان امتياز (حق صناعة معدن كبريت ـ اينجرلي، وأعطاهم إمكانية الإثراء[٢].

وفي عام ١٥٢٥م ـ ١٥٢٦م عندما فتح القانوني (بودابست) قام بتخصيص سفن لنقل اليهود الذين كانت حالتهم سيئة في (بودين) (بودابست) (استرجوت)، وأعلن أنّه لن يمس ضرر أموال وعيال الكافرين، وقام بنقل ما يقرب من ألف أسرة من الرعايا واليهود المستأمنين إلى دار الإسلام، وأسكنَ العديد منهم منطقة (يدي قوله) وأرسلت فرقة اليهود إلى سلانيك وسائر المملكة[٣].

وقام السلطان سليمان بإعادة بناء أسوار مدينة القدس، فسنحت الفرصة لليهود باستيطان بعض أجزاء من فلسطين عام (١٥٦١م) (٩٦٩هـ) ومنح السلطانُ سليمان مستشاره (جوزيف ناسي) الذي استنجدَ به عند فراره من البرتغال[٤].

---

(١) أحمد نوري النعيمي، مرجع سابق: ٣٣/ ٢٨.

(٢) نوري، اليهود والدولة، مرجع سابق، ص٢٨
Abdurrahman Kucuk, a.g.e Donmeler,.s. 102, 136 Tanyu, p.cit.,s. 148.

(٣) Abdurrahman Kucuk, Donmeler, a.g.e.s. 102, 103.

(٤) ولد (يوسف منده) الملقب بالناسي في البرتغال في بداية القرن (١٦)، ومات في إستانبول ١٥٧٩. وهو يهودي تنصّر، ثم صبأ عن النصرانية، استنجد بالسلطان سليمان القانوني، وكان لسليمان القانوني وتد يهودي هو طبيب السلطان، وكان اسمه موسى هامون، استنجد به يوسف وزوجته غراسيا، حيث كانا معتقلين في البندقية، فتوسط موسى هامون لدى السلطان بأن حَسّنَ من مركز يوسف ناسي لدى السلطان، فأرسل السلطان سفيراً إلى البندقية، وطلب إطلاق سراح المعتقلين، وردَّ أملاكهما إليهما، وعادا إلى الدولة العثمانية بعد عامين، وكانا يعتنقان المسيحية، فما إنْ وَطئا أرضَ البوسفور، حتى أعلنا ارتدادهما إلى اليهودية مرة أخرى، وعاش يوسف إلى جانب السلطان سليمان ثلاثة عشر عاماً، وأعطاه السلطان طبرية مع سبع قرى مجاورة، وملّكه كلَّ هذا الأقليم ليستغله، ويستعمره، ويستثمره لمصلحة اليهود. وكان ليوسف دورٌ في نقل اليهود المطرودين من إسبانيا والبرتغال إلى فلسطين عن طريق إيطاليا.
كان يوسف ناسي يعرف باسم (دون جوان ميغيز) يتعاطى الأعمال المالية =

امتيازاً على مدينة (طبرية) الواقعة على الساحل الغربي لبحيرة طبرية مقابل دفع مبلغ من المال سنوياً، واستطاع جوزيف استجلابَ اليهود، وتوطينهم، إلا أنَّ هذا المشروع فشل، لعدم إقبال اليهود على الحياة في فلسطين، حيث كانت المنطقة فقيرة.

وبعد استيلاء السلطان سليمان على المجر، جلب أغلبَ اليهود الذين كانوا هناك إلى تركيا، ووطنهم في (بلاونة) و(نيكبولي) و(أدرنة)، وقد استفاد هؤلاء من حقوق المواطنة في تركيا، وقد وصف اليهود معاملة سليمان القانوني لهم بقولهم: «لقد جاءَ المسيح المنقِذ وجلبَ لنا السعادة، وأوضحوا أنَّ الطريق إلى تركيا هو طريق الحياة بالنسبة لهم»[(١)].

ومع نهاية القرن (١٦) نزح غالبية اليهود من فلسطين، وأصبحت طبرية أطلالاً خلال القرن(١٧م)[(٢)]، وأقام السلطان سليمان أيضاً نظاماً ديبلوماسياً يعطي امتيازات لرعايا الدول الأجنبية المقيمين في الدولة ومنحهم الحماية[(٣)].

بـالإضافة إلى هذا قام السلطان سليمان بإرسال رسالة إلى البابـا (باول الرابع) في آذار ـ مارس سنة ١٥٥٦م طالباً منه إطلاق سراح بعض اليهود معلناً له أنهم مواطنون عثمانيون، فلم يكن لدى البابا خيارٌ سوى إطلاق سراحهم، لأنَّ

= والمصرفية، ويملك شركات تجارة بحرية، وكان صاحب ثروة ضخمة، وله اعتباره في الأوساط السياسية الأوروبية، وقدم إلى إستانبول ١٥٤٤م. وكان بفضل الشركات التي يملكها وعلاقاتـه بأوروبا يؤمن للسـلطنة العثمانيـة معلومات استخبارية، ويشارك في اجتماع الديوان بصفته مستشاراً، ويقدم تقارير عن الوضع المالي والاقتصادي للدول الأوروبيـة، وتشكيلاتها العسـكرية، ونظمها الحربية. (أحمد نوري النعيمي، اليهود والدولة العثمانية، مرجع سابق، ص٣٤ ـ ٣٥).

وانظر أيضاً برتوكولات حكماء صهيون، مرجع سابق، ص٥٤٢ ـ ٥٥٩، ومحمد نور الدين (تركيا في الزمن المتحول)، مرجع سابق، ص١٧٨؛ عايدة العلي (دول المثلث)، مرجع سابق، ص٣٢٥.

(١) A.R., Donmeler, a.g.e. S.103.

(٢) أحمد عثمان، مرجع سابق، ص١٤.

(٣) المرجع السابق نفسه.

الدولة العثمانية كانت في ذلك الوقت قوةً عظمى[١].

ثم لجأ اليهود الفارون من إسبانيا إلى (خير الدين باربروس) القبطان العثماني الذي قام بتهريبهم لإنقاذهم من المذابح التي تعرضوا لها في إسبانيا، وجلبهم إلى الدولة العثمانية، وأسكنهم في ثغورها[٢].

أما السلطان سليم الثاني فقد قام بمنح بعض اليهود ألقاباً جعلتهم في مكانة عالية في بلاطه. ففي عام ١٥٥٣م كان عدد اليهود في الدولة العثمانية ما يقارب خمسمئة شخص من أبرزهم (إبراهيم كاسترو) اليهودي الذي عينه السلطان سليم وزيراً للمالية، وكان مسؤولاً عن سكّ العملة في مصر، وكان ولاة مصر العثمانيون يختارون شخصيات يهودية للقيام بالأعمال المالية[٣].

ومن أهم الشخصيات اليهودية البارزة في تلك الفترة أيضاً كانت اليهودي (يوسف ناسي)[٤] الذي التجأ إلى تركيا بعد فراره من البندقية، وتمكن بأمواله من التقرب إلى (الملكة ماري) الهنغارية التي اتخذته أميناً سرياً لها، وفوضته بالقيام بعمل اتفاقيات مع الدولة بدلاً منها، حتى وصل الأمر إلى أنّ ملوك بولونيا وفرنسا فكانوا يقترضون منه الأموال، وهو الذي قام بكتابة صيغة المعاهدة التي وقعت بين فرنسا وتركيا عام ١٥٦٩م، وقد كتبت هذه المعاهدة باللغة العبرية[٥].

---

(١) أحمد نوري النعيمي، اليهود، مرجع سابق، ص٢٨.
(٢) المرجع السابق نفسه.
(٣) أحمد عثمان، مرجع سابق، ص١٣.
(٤) في عام ١٥٦٩م منح السلطان سليم يوسف ناسي حق مصادرة جميع السفن المارة في المياه العثمانية، وحق ارتهانها، فضبط يوسف السفن في الإسكندرية على الرغم من احتجاج السفير الفرنسي إلى السلطان سليم. وعندما توفي السلطان سليم (١٥٧٤) فقد يوسف ناسي نفوذه السياسي، وقضى بقية حياته في قصره، واستولى السلطان مراد على تركته بإيعاز من الصدر الأعظم محمد الصوقلي، كان يوسف ناسي سنداً لعلماء التلمود، وأسس مطبعة يهودية، وقد أخرجَ كتاباً أثبت فيه أنّ التوراة أصحّ من الفلسفة اليونانية، وكان الغرض من ذلك إعلاء شأن التوراة، انظر بروتوكولات حكماء صهيون، مرجع سابق، ص٥٤٢ـ٥٥٩.
(٥) س. ناجي، المفسدون في الأرض، مرجع سابق، ص٣٢٠ـ٣٢١.

كان ليوسف ناسي تأثيره الكبير على الدولة في الأمور الاقتصادية والمالية، وكان له دوره البارز في نشر فكرة تجمّع اليهود في مكان معين، وقد شجّعَ الهجرةَ إلى فلسطين، وتمكن من إعطاء اليهود بعض الأراضي في فلسطين(١) وانتقلت إلى أيدي اليهود أمورُ التجارة والجمرك والالتزام(٢).

في ذلك الوقت عاش اليهود بفائض الأراضي التركية، وسعوا إلى تحويل موارد حياة الترك إلى جيوبهم، كما أدّى تخزينُ وجمعُ اليهود للأموال في إستانبول إلى فساد العملة(٣).

كان السلطان سليم الثاني ذكياً ألمعياً، وكان هناك طرفان يتجاذبانه: الأول: **الصدر الأعظم محمد صوقلي** (١٥٦٠ ـ ١٥٧٩م) واتجاهه توطيد السلم مع البندقية، واستمرار الحرب مع إسبانيا.

والطرف الآخر يوسف ناسي، الذي منحه السلطان سليم لقب دوق دوناكسون صاحب البحر الأبيض، وزعيم اليهود المطرودين من إسبانيا وإيطاليا والمقيمين في الآستانة وسلانيك وأدرنة» وكانوا يعدون بعشرات الألوف كما رحب السلطان سليم الثاني باليهود، وأعطاهم الحرية الكاملة في زيارة أراضيهم المقدسة، كما جعل (الحاخام باشي) رئيساً لهم، وعين لهم (كخيا) ليمثّلَ مصالحهم لدى الحكومة(٤).

وفي عام ١٥٧٠م حرّضَ يوسف ناسي السلطان سليم على محاربة البندقية إثر رفضها التخلي عن قبرص، وكان ناسي يريدُ قبرص ليتخذها ملجأً لإخوانه اليهود المطرودين من إسبانيا، وتعهد للسلطان سليم بأن يقومَ بتمويل هذه الحملة والإنفاق عليها(٥).

---

(١) أحمد نوري النعيمي، اليهود والدولة العثمانية، مرجع سابق: ٣٥/ ٣٠. نقلاً عن تركيا والصهيونية:
Cecil, Roth, The House Nesi Dna Grecia, Green wood press, New York, 1984, S.88.

(٢) Abdurrahman Kucuk, a.g.e S. 104

(٣) Abdurrahman Kucuk, a.g.e Donmeler,.S. 105.

(٤) انظر كمال حبيب، مرجع سابق: ٢/ ٣٥٠.

(٥) س. ناجي المفسدون في الأرض، مرجع سابق، ص٣٢٢. Abdurrahman Kucuk,=

وبعد حروب وشدائد استطاع العثمانيون الحصول على قبرص سنة ١٥٧١م واستمرت تحت الحكم العثماني حتى عام ١٨٧٨م إلى أن تركها السلطان عبد الحميد لبريطانيا.

وكان السلطان سليم الثاني متزوّجاً من سيدة تدعى (نوربانو) اليهودية الأصل، وقد أنجبَ منها الأمير (مراد الثالث) وهذه السيدة هي التي فسحت المجالَ لليهود للتغلغل في قصر السلطان[1].

وعندما توفي السلطان سليم عام ١٥٧٤م وجاء السلطان (مراد الثالث) (١٥٧٤ ـ ١٥٩٥) في تلك الفترة انعقد الصلح بين الدولة العثمانية وإسبانيا. وبعد ذلك بدأت الدولة العثمانية في الانهيار، ووقف محمد صوقلي باشا في وجه (يوسف ناسي) إلا أنّ السلطان مراد أعرض عن نصائح (الصوقلي) الذي اغتيل بعد ذلك.

قام السلاطين والوزراء العثمانيون باستخدام عددٍ من الأطباء اليهود، الذين تعلّموا الطب في الأندلس، ونبغوا فيه، وقاموا باستثنائهم من دفع الضرائب للدولة أمثال (حسداي بن شبروط) و(يوسف ناسي) وغيرهم[2].

وفي عام ١٨٣٦م قام السلطان العثماني **محمود الثاني** بإصدار مرسومين خاصين بمعاملة أهل الذمة من اليهود والنصارى جاء فيهما:

= a.g.e.107 ذكر جالنتي أنه لما وقعت جزيرة قبرص في يد الترك عام ١٥٧٠م في عهد سليم الثاني أصدر أمراً بتوطين خمسمئة يهودي أرمني لتحقيق عنصر الأمن لمستقبل الجزيرة، ولهذا فقد جعل السلطان سليم الثاني الأقليات مصدرَ أمن للجزيرة بدلاً من الأتراك، ومن هنا استغلَّ اليهود هذا النفوذ كفرصة لتحقيق هدفهم الصهيوني.
(Abdurrahman Kucuk, a.g.e S. 108).

(١) أحمد نوري النعيمي، اليهود والدولة العثمانية، مرجع سابق: ٣٥/ ٣٠. يقول دانشمند: إن (نور بانو) سلطان هي التي فتحت باب للنفوذ اليهودي في القصر العثماني، وهي أم السلطان مراد الثالث، ومن يهود الدونمة، كما أنّه في عهد مراد الثالث كانت توجد نساء يهوديات يتحكمن في الوزراء العثمانيين. A.R.Kucuk,a.g.e.,.s.107.

(٢) أحمد عثمان، مرجع سابق، ص٥١.

الأول: تبعاً لأصول الشريعة الإسلامية صدر تصريحٌ يقضي بالمساواة في الحرية الدينية لكل المواطنين في تركيا، الذين يتبعون أصول الديانات الثلاث.

الثاني: ورد فيه (ولكي تستطيعَ كلُّ جماعةٍ دينية أن تمارسَ في حرية كاملةٍ تعاليمَ دينها دونَ تدخُّلٍ، نصرّحُ بأنَّ لكل مواطن أن يعبدَ الله تبعاً لأوامر دينه، وألا يجبرَ أيُّ شخصٍ على ترك دينه ومعتقده)[1].

وعلى الرغم من التسامح العثماني الذي وجده اليهود في حياتهم بين ربوع الدولة العثمانية، إلا أنَّ اليهود لم يندمجوا داخل المجتمعات التي تواجدوا فيها، فقد تكتلوا في أحياءَ معينةٍ خاصة بهم، وجاء تكتلهم هذا نتيجة لرواسب قديمة عايشوها في ظلّ الاضطهاد الذي عانوا منه في أوروبا، حيث عاشوا فيها حياة انعزالية مغلقة، حتى يستطيعوا الحفاظ على عاداتهم وتقاليدهم، فكوّنوا ما يعرف بالأحياء اليهودية أو (الجيتو)[2].

وكان اليهود يخافون من الشعوب التي يعيشون بينها، فتكونت لديهم

---

(١) أحمد نوري النعيمي، أثر الأقلية اليهودية في سياسة الدولة العثمانية، مرجع سابق، ص١٨.

(٢) الجيتو هو حي مقصور على إحدى الأقليات الدينية أو القومية، ويستخدم في الإشارة إلى أحياء اليهود في أوروبا، ويرجع اشتقاق كلمة (جيتو) من الكلمة الألمانية (جهكتر) التي تعني مكاناً محاطاً بالأسوار، أو الكلمة العبرية (جت) التي تعني الانفصال أو الطلاق الواردة في التلمود، أو أنها ترجع لكلمة (بورجيتو) الإيطالية التي تعني (قسماً صغيراً من المدينة).

وفي (الجيتو) كان اليهودي يهرب من العالم الخارجي إلى هذا الحي حيثُ يمارسُ فيه طقوسه الخاصة، والجيتوات هي التي أفرزت الصهيونية، فكان اليهوديُّ يعتبرُ العالم الخارج عن الجيتو عالمٌ غريب وشريرٌ، أما داخل الجيتو فهو يشعر بالأمن والطمأنينة.

ويمكن القول: إنّ معظم المفكرين الصهيونيين نشؤوا في هذا الجيتو. وقد كان إنشاء المستعمرات والمستوطنات في فلسطين على شكل جيتو حيث تحاط المستعمرة بسورٍ وبرج، ويتمثل هذا الشكل في خط بارليف، فكان يتكوّنُ من عدة أسوار وأبراج. ويظهر أثر الجيتو على اليهود في نظرتهم الانفصالية تجاه العالم. انظر عبد الوهاب المسيري، موسوعة المفاهيم والمصطلحات اليهودية، ص١٥٤ ـ ١٥٧؛ وسناء صبري، الجيتو اليهودي، ص١٧ ـ ٣٦، ط. دار القلم بدمشق.

كراهية هذه الشعوب، وحقدهم عليه، وتمنوا السيطرة على الشعب، وذلك نتيجة القيود التي فرضتها عليهم أوروبا باعتبارهم غرباء، حيث كان محظوراً عليهم تولّي المناصب، أو مزاولة المهن والحرف المختلفة.

وبالرغم من التسامح الذي وجدوه لدى الدولة العثمانية إلا أنّ ظروفهم السابقة وأحقادهم السابقة جعلتهم يتبعون نفس الأساليب التي كانوا يتبعونها في أوروبا، حيث قاموا بقتل بعض السلاطين مثلما فعلوا في قتل إسكندر قيصر روسيا عام ١٨٨١م[١].

ومن الأخطاء التي وقع فيها سلاطين الدولة العثمانية أنّهم لم يدركوا الشخصية اليهودية التي تواجههم، وما يمكن أن تؤدي به إلى هلاك الدولة والقضاء عليها. وقد اعترفَ اليهود أنفسهم بهذا الأمر حينما كتب أحدهم يقول: «لقد استيقظ ضميرُنا على معاملة هتلر لليهود، لقد شعرنا بالحاجة إلى خلق وطنٍ يستطيع أولئك المضطهَدون أن يلجؤوا إليه. أما الحقيقة التي أغفلناها فهي هذه: إننا اخترنا لهم منزل شخص آخر، إنّ معذّبي اليهود كانوا غربيين: الجرمان واللاسامية توجدُ في أمريكا وفي بريطانيا، كما توجد في كثير من البلدان الغربية، ولكنّها لم توجد في البلدان العربية قط. إنَّ العرب ساميون أيضاً، وهكذا فلكي ندفعَ دين ضميرنا نكره العرب ـ الذين لم ينزلوا باليهود أيَّ أذىً على تسديد الكمبيالة»[٢].

ثورة الشيخ بدر الدين السماونوي ودور اليهود فيها:

في عهد محمد جلبي (١٤١٣ ـ ١٤٢١م) حدثت حركة دينية يهودية انفصالية، اتّسمت بطابع اجتماعي واقتصادي هي حركة الشيخ بدر الدين ابن قاضي سماونة، وبمساعدة اليهودي (طورلاق كمال) فبعد وفاة بايزيد الأول (الصاعقة) دخلت الدولة العثمانية عصرَ انهيارٍ امتدّ إحدى عشرة سنة، وقد سمي

---

(١) رفيق شاكر، مرجع سابق، ص٢٠.

(٢) رفيق شاكر، مرجع سابق، ص٣٥. نقلاً عن الفرد ليلنتال، هكذا يضيع الشرق الأوسط، ص٣١٤. Stanford J. Show, Turkey and The Holocaust, Hong Kong, 1993. p. 14-26.

هذا العصر فاصلة السلطنة، وتقسّمت الدولةُ بين الأمراء أبناء بايزيد وهم عيسى، ومحمد، وموسى، وكان مِنْ بين جيش موسى عالم ديني يدعى (بدر الدين بن إسرائيل) وكان يشغلُ منصبَ (قاضي العسكر) أعلى المناصب في الدولة العثمانية في ذلك الوقت، وهو الذي قام بثورة من أجل الحصول على السلطة في الدولة بمساعدة يهودي يُدعى (طورلاق هود كمال)(١).

ولد بدر الدين عام ١٣٦٨م وقد اشتهر باسم قاضي سماونة نسبة إلى قلعة سماونة التي ولد فيها. وهي إحدى قرى أدرنة، التي تقع في الجزء الأوروبي من تركيا كان أبوه قاضياً، وكان أميراً على عسكر المسلمين فيها. وتذكر الروايات أنّ بدر الدين من نسل (علاء الدين كيقباد) سلطان سلاجقة الأناضول، وعبد العزيز جد بدر الدين شارك في احتلال العثمانيين للروملي، وسقط شهيداً في معركة ديموطيقة(٢).

أخذ بدر الدين العلم في صباه على يد والده، وحفظ القرآن الكريم، كما تعلم النحو والصرف وتلقى تعليمه في قونية، وفي مكة، والقاهرة، أشهر المراكز العلمية في ذلك الوقت(٣).

تقول المصادر: إنّ بدر الدين كان على صلة بالسلطان برقوق في مصر، وتيمورلنك، وعدد من السلاطين العثمانيين، وقد نال شهرةً في مجال الفقه والتصوف والسياسة(٤).

أدركت الشيخ بدر الدين الجذبة الإلٰهية، وأصبحَ مريداً للشيخ سعيد الأخلاطي، الساكن بمصر وقتئذ، ثم أرسله الشيخ الأخلاطي إلى بلدة (تبريز) لإلقاء الإرشاد الصوفي هناك، وقد أسلم رئيس جزيرة (ساقز) على يديه بعد أن كان نصرانياً(٥).

---

(١) محمد حرب، العثمانيون في التاريخ والحضارة، المركز المصري للدراسات العثمانية وبحوث العالم التركي، ص١٠٣.

(٢) Abdurahman Kuc., Donmeler tarihi, Ankara.

(٣) Danismened a.g.e. 1\162; Adurrahman Kucuk S.75.

(٤) Abdurrahman Kucuk, a.g.e., S.75.

(٥) طاشكو بريلي زاده، الشقائق النعمانية، مرجع سابق.

سافر بدر الدين إلى إزنيق، واستقر بها، ومن إزنيق بدأ الشيخ بدر الدين دعوته، ذكر المؤرخون أنّ بدر الدين أراد الترقي من رتبة شيخ إلى رتبة ملك، فاختار واحداً من اليهود، حتى يكون ساعده الأيمن في ثورته الدينية، وهو (طورلاق هود كمال) وكان من مغنيسا، وتقول المصادر: إنّ ثورة بدر الدين الدينية كانت ثورة اجتماعية.

قام (طورلاق اليهودي) في مغنيسا بدعوة النصارى وتحريضهم على العصيان على الدولة العثمانية، وخلط أفكاره بأفكار بدر الدين، وكانت هذه الثورة تضمُّ الروم والمسيحيين والعلويين، وكان يساعدهم في هذه الثورة (بورقلوجه مصطفى) خادم الشيخ بدر الدين، الذي عينه بدر الدين كتخذا (وكيل). وقد وصف إسماعيل حامي دانشمند هذه الثورة بأنها كانت ثورة شيوعية، الغرض منها توريط الدولة العثمانية التي تخلّصت من عهد الفترور لأزمة أشدّ من سابقتها[1].

يقول (دوكاس) في معرض كلامه عن ثورة الشيخ بدر الدين: إنّ أحد أعوانه وهو (بورقلوجه مصطفى) كان يعظُ الأتراك أنَّ تكون كافة الأشياء - مثل الأكل والملبس والحيوانات والأراضي - مشتركة بين عموم الناس باستثناء النساء[2].

روّجَ بدر الدين أفكاره التي نادت بإحلال تقسيم الأراضي والأموال بلا فرق بين الإسلام والمسيحية واليهودية، كما أحلَّ المحرمات في الدين الإسلامي، وأشاع أنَّ الدنيا ملك مشترك لبني الإنسان[3].

وقد اجتمع في هذه الثورة آلاف المؤيدين لطورلاق كمال اليهودي، كما وصفت هذه الثورة بأنّها ثورة اجتماعية ودينية وفلسفية سعت لإيجاد دين جديد، أرادوا إحلال المادية فيه، وتثبيت أفكارهم بمبادئ فلسفية تهدف لإضعاف الدولة العثمانية من الداخل أثناء دخولها عهد الارتقاء[4].

---

(١) Abdurrahman Kucuk, a.g.e., S.77.

(٢) محمد حرب، العثمانيون في التاريخ والحضارة، مرجع سابق، ص١٠٩.

(٣) Abdurrahman Kucuk, a.g.e., S.80.

(٤) Abdurrahman Kucuk, a.g.e., S.81.

كان الشيخ بدر الدين لا يهتم بفروق الدين أو المذهب، وكان العلويون أكثر المجتمعات قبولاً لأفكار بدر الدين، ومُساعده اليهودي (طورلاق كمال).

ينقل صاحب كتاب (هشت بهشت) عن الشيخ بدر الدين قوله يبين فيه في الهدف من ثورتـه على الدولة العثمانية: «إني سـأثورُ من أجل امتلاك العالم، وباعتقاداتي ذات الإشارات الغيبية سأقسّم العالم بين مريديَّ بقوة العلم وسر التوحيد، وسأبطل قوانين أهل التقليد ومذهبهم، وسأحلل ـ باتساع مشاربي ـ بعض المحرمات»[١].

وقد تمّ قمعُ هذه الثورة وقتل (طورلاق كمال) حيث أرسل إليه السلطان محمد الأول جيشاً بقيادة بايزيد باشا، وكان بصحبته ولي العهد الأمير (مراد) لقتال اليهودي (طورلاق كمال) وقدر عددهم آنذاك بثلاثة آلاف رجل في مغنيسا حيث ظفروا به وصلبوه[٢].

وتم اعتقـال بدر الدين عن طريق هيئة من العلماء، وتمت محاكمتـه، وأقيمت منـاظرة علمية كما أقيمت محكمة شرعية، تركَ فيها القضاءُ الكلمـة الأخيرة للشيخ بدر الدين ليحكم على نفسه، وأصدرَ الشيخ بدر الدين الحكم على نفسِه بالإعدام[٣].

جمع الشيخ (بدر الدين) آراءه في الفقه في كتاب (جامع الفصولين) أما آراؤه في الفلسفة والتصوف فقد جمعها في كتابه (واردات) وله كتب في الصرف والنحو والتفسير، منها كتاب (لطائف الإشارات) وكتاب (التسهيل) في الفقه، وله في التصوف كتاب (حاشية على مطلع خصوص الكلم في معاني فصوص الحكم) و(مسرة القلوب) وله في التفسير كتاب (نور القلوب) وفي الصرف والنحو (عقود الجواهر) و(جراغ الفتوح)[٤].

---

(١) محمد حرب، العثمانيون في التاريخ والحضارة، مرجع سابق، ص١٠٩ ـ ١١٠.

(٢) المرجع السابق، ص١١١.

(٣) Abdurrahman Kucuk, a.g.e., S.78. ؛ ومحمـد حـرب، العثمـانيـون فـي التـاريـخ والحضارة، مرجع سابق، ص١١١ ـ ١١٢.

(٤) محمد حرب، العثمانيون في التاريخ والحضارة، مرجع سابق، ص١٠٧ ـ ١٠٨؛ وانظر=

وفي كتاب (واردات) قدّم الشيخ بدر الدين نظريةَ وحدة الوجود، وقام بنشرها بين أتباعه.

ومن أفكارِه قصر الشهادة على نصفها الأول، بمعنى أن تقتصر الشهادة على قول: «لا إلـٰه إلا الله» وحذف نصفها الثاني «محمد رسول الله» وكان ذلك طمعاً في ضمّ اليهود والنصارى إلى الحركة.

يقول شكر الله صاحب (بهجة التواريخ) وهو مؤرخ معاصر لحركة بدر الدين:

«هؤلاء الصوفيون الذين شهدوا بأن «لا إلـٰه إلا الله، وأصروا على عدم ذكر بقية الشهادة، وهي «محمد رسول الله»، هؤلاء المتصوفة قد خصوا شيخهم (أي بدر الدين) بمرتبة النبوة».

يقول الأستاذ محمد شرف الدين أستاذ الفلسفة وعلم الكلام بكلية الإلـٰهيات بدار الفنون (جامعة إستانبول) في كتابه، (سماونة قاضي سي أوغلي شيخ بدر الدين) (إستانبول ١٩٢٤م):

«إنّ أتباع الشيخ بدر الدين كانوا يخصّون شيخَهم بالنبوة، حيث لم يكن هناك طريق مختصر لجمع المسلمين تحت رايته إلا التضحية بدرجة النبوة في الشهادة»[١].

ومن أفكاره أيضاً: الدعوة إلى الزهد المطلق، وذلك بأن يتجرّد الفردُ من فاخر الثياب، ويكتفي بقطعة من الملابس، واحدة تستره، وأن يسير عاري الرأس، وله أن يتخلّص من شعره تماماً ويسير حافي القدمين!.

والواقع أن الشيخ بدر الدين جعل تركَ الدنيا وعدمَ الاشتغال بأمورها من أهم ما نادى به، ويعبر الشيخ نفسُه عن نظرته هذه بالعبارات التالية:

ـ ترك الاشتغال بالدنيا من أعظم أصول الوصول إلى الحق.

= أيضاً Abdurrahman Kucuk, a.g.e., S.78.

(١) محمد حرب، العثمانيون في التاريخ والحضارة، مرجع سابق، ص١٠٧.

ـ اعلم أنّ العبدَ ينبغي أن ينظرَ إلى القرآن وما جاء فيه مما يتعلّق بأمور الدنيا ومعاشه، وماجاء فيه مما يتعلق بعلوم الآخرة وعلوم الدنيا على تلك النسبة.

والقرآن ثلاثون جزءاً، وما يتعلّق بمعاش الدنيا يكون جزءاً من ثلاثين، أو أكثر قليلاً أو أقل، والباقي تسعة وعشرون جزءاً بالتقريب كلها للآخرة.

وتنزيلُ القرآن على هذه النسبة للتنبيه على العباد على أنّ اشتغالهم بالدنيا والآخرة وكذا اشتغال العلماء بعلوم الدنيا والآخرة ينبغي أن يكون على هذه النسبة والله أعلم.

ـ إنكار الجنة والنار: ويوم القيامة والملائكة والشياطين: وللشيخ بدر الدين مفهومه الخاص للآخرة وللثواب والعقاب، سجّلها في وارداته، فيقول عن الآخرة: «اعلم أنَّ الكون والفساد أزليان أبديان، والدنيا والآخرة اعتباريان، فالظاهر دنيا فانية، والباطن عقبى باقية، فهما موجودان أزلاً وأبداً، ولكنّ الاعتبار بالأغلب».

ـ وعن الجنة والنار: «اعلم أنّ الجنة يصحُ أن تطلَقَ على كلِّ حالٍ ورتبةٍ ومقامٍ شريفٍ دنيا وآخرة، وكذلك النار والحيات والعقارب، والزقوم يطلق على كل حال، ومقام خسيس ودنيء الذي يوصف في الكتب ويسمع من الحور والقصور وغيرهما صورة ما قلنا».

ـ عيسى عليه السلام حي بروحه، ميت بجسده العنصرية، ولمّا كان روحُ الله الروحانية غالبة ولا موت على الروح، لأنّه لم يمت سوى جسده العنصرية، وهو محالٌ فافهم[1].

ـ عن الجنة والحور والقصور والأشجار والفواكه والأنهار والعذاب والنار وما شابه ذلك ليس واضح المعنى، فإنّ هذه الأشياء لها معانٍ أخرى لا يفهمها إلا المختارون من الأشخاص.

---

(١) محمد حرب، العثمانيون في التاريخ والحضارة، مرجع سابق، ص١٠٥ ـ ١٠٧.

ـ العالم المادي أزلي وأبدي. ولا يقبل معتقد الحشر والآخرة، كما هو في الفقه الإسلامي[١].

كانت تلك (ثورة الشيخ بدر الدين) مع مساعده اليهودي (طورلاق كمال) التي حاولت بثَّ روح الشيوعية في الدولة العثمانية، والتي تم قمعها بيد الدولة بقتل (طورلاق اليهودي) وإعدام الشيخ بدر الدين.

استفادة اليهود من نظام الامتيازات الأجنبية في الدولة العثمانية:

كان التفسير لمنح السلاطين العثمانيين امتيازات للدول الكبرى يكمن في بناء اقتصاد قوي للدولة، مثل الإعفاء من الضرائب والجمارك وقوانين الملاحة، وأضيفت إليها امتيازات أخرى مثل حرية العمل والسفر والإقامة وشراء الأراضي والحصانة القضائية، وقد ترتَّبَ على هذه الامتيازات أن استغلتها الدول في اكتساب حقوق لها، جعلتها تمارِسُ سلطاتها في السياسة الداخلية للدولة لصالحها[٢].

كان لنظام الامتيازات الذي أعطته الدولة العثمانية للأجانب تأثيرٌ عكسي على الدولة، حيث تمتع الأجانب في الدولة بحصانة قوية، جعلتهم لا يخضعون لسلطة الدولة، وكانوا يشكلون حكومة داخل الحكومة العثمانية[٣].

وقد حصل اليهود على العديد من الامتيازات، والتي جاءت من خلال المعاهدات التي وقَّعتها الدولة العثمانية مع الدول المختلفة، والخاصة بحقوق الأقليات، الذين يقيمون بالدولة، والتي تكفل لهم الحماية في الدولة، وحرية التنقل والتجارة.

---

(١) Abdurrahman Kucuk, a.g.e., S.79.

(٢) ميم كامل أوكي، السلطان عبد الحميد الثاني بين الصهيونية العالمية والمشكلة الفلسطينية، ترجمة إسماعيل صادق، الزهراء للإعلام العربي ـ القاهرة، ١٩٩٢م، ص٥٥.

(٣) عبد العزيز محمد الشناوي، الدولة العثمانية، دولة إسلامية مفترى عليها، مكتبة الأنجلو المصرية ـ القاهرة، بدون تاريخ: ٢/ ٧٥٠.

وقد راعت الدولة العثمانية العادات المتبعة في البلاد التي قامت بفتحها، فكان يسمح لليهود بالقيام بشعائر ملتهم بقيادة الحاخام الأكبر في العاصمة، كما منحوا الاستقلال الذاتي، وتحسن وضعهم كمهاجرين للدولة[1].

ومن هذه المعاهدات (معاهدة البندقية) التي تمت عام ١٥١٧م بناءً على طلب التجار الأجانب، وخاصة البنادقة من السلطان سليم من أجل استمرار القواعد التي كانوا يتبعونها قبل دخولها تحت الحكم العثماني، وقد كفلت لهم هذه المعاهدة حريةَ التغلغل داخل البلاد الإسلامية[2].

كما كانت المعاهدات التي أبرمتها الدولة العثمانية مع الدول الأجنبية على شكل اتفاقيات قد اتخذت الشكل الرسمي للمعاهدة، وظهر ذلك في عهد السلطان سليمان القانوني، حيث ضمنت هذه المعاهدات حرية التجارة للأقليات إلى جانب حرية تأمين إقامتهم في الدولة، وقد أوجبت هذه المعاهدات حق القنصل في الحكم بين رعايا دولته، واللجوء إلى السلطان في تنفيذ أحكامه إذا ما اعترضه عارض، وكان هذا يعني وجودَ سلطة أخرى موازية لسلطة الدولة، ومنفصلة عن ولايتها، فنتج عن هذه الحرية في الامتيازات التي أعطتها الدولة العثمانية لأقليتها أن أثرت على الأمن العام للدولة[3].

وقد تهافتت الدول الغربية في الحصول على العديد من الامتيازات داخل الدولة من أجل إرساء قواعدها الاقتصادية والتجارية في المنطقة، الأمر الذي أدى في النهاية إلى هيمنة وسيطرة تلك الدول على الدولة.

ومن هذه المعاهدات التي أعطت للأجانب امتيازات كبيرة في الدولة معاهدة سنة ١٥٣٥م مع فرنسا، ثم معاهدة سنة ١٥٧٩م مع إنجلترا، ثم معاهدة سنة ١٥٩٨م مع هولندا، ثم معاهدة سنة ١٦١٥م مع المجر، ثم معاهدة سنة ١٧٠٠م مع روسيا، ثم معاهدة سنة ١٧٤٠م مع نابولي، ثم معاهدة سنة ١٧٥٦م

---

(١) ميم كامل، مرجع سابق، ص٥٦.

(٢) عبد العزيز الشناوي: ٢/ ٧٠٨؛ وكمال حبيب، مرجع سابق: ٢/ ٣٨٦.

(٣) عبد العزيز الشناوي: ٢/ ٧٥٠ـ ٧٥١.

مع الدانمارك، ثم معاهدة ١٨٧٢م مع إسبانيا، ثم معاهدة ١٨٣٠م مع أمريكا، ومعاهدة هامة أخرى مع فرنسا سنة ١٧٤٠م.

وأهم ما ورد في تلك المعاهدات، كما تشير المصادر ـ حرية التجارة والملاحة للأجانب، وحرية الدين، وحرية العبادة في الكنائس والمحلات المقدسة، واحترام مساكن الأجانب، وغير ذلك من الامتيازات التي جعلت الأجنبيَّ في بلاد الدولة العثمانية متميزاً عن العثمانيين أنفسهم[١].

وقد استفاد اليهود في الدولة من هذه الامتيازات، وخاصة التجار منهم كلٌّ حسب البلد الذي ينتمي إليه من حيث تمتعهم بحماية هذه الدول لهم.

ولم يكن للدولة العثمانية صلاحية في طرد الأجانب اليهود من حيث إنها كانت مضطرة للرجوع إلى قناصل الدول الأجنبية التي ينتمون إليها[٢] وبصدور مرسوم الإصلاح عام ١٨٥٦م وضع المجتمعات غير المسلمة على قدم المساواة مع المسلمين أمام القانون، وقد تصوّرت الدولة أنّه بهذا النظام الديمقراطي سوف تتجنب محاولات الاستقلال عنها.

وفي ظلِّ هذا النظام أعلن (هرتزل) للسلطان عبد الحميد أنَّ المهاجرين اليهود سيصبحون رعايا جلالته، في الوقت الذي أعلنت فيه بريطانيا أنّ القنصل البريطاني في فلسطين مخوّلٌ أن يتدخل لصالح اليهود بصفة عامة، ووجد اليهود في هذه الحماية وسيلة لزيادة نفوذهم في الدولة العثمانية على حساب الحكومات الأخرى، كما قامت الدول الأخرى في إصدار شهادات حماية لليهود المقيمين في الدولة[٣].

وفي عام ١٨٨٣م أصدر الباب العالي قانوناً يضع حدّاً لحصول المستوطنين

---

(١) كمال حبيب، مرجع سابق، ص٣٨٦؛ انظر نص المعاهدات في الشناوي: ٢/ ٧٠٠ـ ٧٠٦.

(٢) خيرية قاسمية، النشاط الصهيوني في الشرق العربي وصداه ـ بيروت، ١٩٧٣م، ص٢٥ ـ٢٦.

(٣) ميم كامل، مرجع سابق، ص٥٧.

اليهود الذين حصلوا على جنسيات دول أخرى على الأرض في سوريا، فينصُّ القانون على أنَّ (الأشخاص الذين غيّروا جنسيتهم ـ دونَ حصول على تفويض رسمي من حكومة الإمبراطورية ـ والذين أُلغيت جنسيتهم العثمانية يحرمون من حقوق امتلاك الأرض في تركيا.

أما بالنسبة للأراضي التي كان يمتلكها الأفراد، فكان من الصعب وضع ضوابط لها، حيث إنَّ اليهود كانوا يدفعون ثلاثة أضعاف ثمنها من أجل شرائها منهم، وحتى يستطيعَ السلطان أن يوقِفَ هذا كان يشتري الأراضي في فلسطين من جيبه الخاص[١].

وفي عام ١٨٨٧م أبلغ السلطان العثماني عبد الحميد استياءَه واستياءَ الحكومة العثمانية من عدم اتخاذ موقف من جهة القنصليات الأجنبية في القدس للعمل على إخراج اليهود الذين امتدت إقامتهم فيها عن المدة المسموحة[٢].

من ناحية أخرى فإن نظام الامتيازات الأجنبية كان له تأثيره في الدولة، حيث كانت المنشورات المضادة للدولة تطبع في الخارج، وتدخل الدولة عن طريق الدوائر الأجنبية، وتوزع بمعرفة التنظيمات السرية لجمعية (الاتحاد والترقي).

وكان نفوذ الامتيازات الأجنبية يظهر في تفوق بريد القنصلية النمساوية في القدس، الذي كان يديره يهودي، فقد أخذَ شهرةً ورواجاً كبيراً فاق البريد العثماني[٣].

وقد حاولت الدولة العثمانية إلغاء تلك الامتيازات، إلا أنَّ حكومات الدول الأوروبية عارضت فكرة إلغائها بشدة[٤] ولم يتم إلغاء هذا النظام إلا بعد

---

(١) ميم كامل، مرجع سابق، ص٧٤ ـ ٧٥.

(٢) رفيق شاكر، مرجع سابق، ص١٦٩.

(٣) حسان علي حلاق، مرجع سابق، ص٢٨٩، نقلاً عن يوسف الحكيم، سوريا في العهد العثماني، ص٢٠٠.

(٤) بخصوص إلغاء نظام الامتيازات يقول السلطان عبد الحميد في مذكراته: أردنا إلغاء الامتيازات في قبرص فقامت الصحف الأوروبية بالصياح والعويل على غرار الصحف=

عام ١٩١٤م لكنه عاد مرة أخرى بعد هزيمة الدولة في الحرب العالمية الأولى عندما قامت بريطانيا بتوقيع معاهدة سيفر عام ١٩٢٠م وبعد نجاح الحركة الكمالية وقعت معاهدة لوزان عام ١٩٢٣م التي تقرّرَ فيها إلغاء نظام الامتيازات الأجنبية، وكان لتلك المعاهدتين أثرهما في تقرير حق الأقليات في الدولة[1].

* * *

= اليونانية. إنّهم يريدون إظهارنا بمظهر المعتدي على حقوق الآخرين. في حين يدرك المحايد جيداً أنّ هذه الامتيازات هي التي هضمت حقوقنا، وألحقت الحيفَ بنا. (السلطان عبدالحميد، مذكراتي السياسية، مؤسسة الرسالة-بيروت، ١٩٨٦م، ص٧٠).

(١) انظر عبد العزيز الشناوي، مرجع سابق: ٢/ ٧٥٢.

الفصل الثاني

التواجد اليهودي في البلدان العثمانية

ينقسم الوجود اليهودي في الدولة العثمانية إلى قسمين:

القسم الأول: هو الجماعات اليهودية التي كانت تنتمي إلى الإمبراطورية البيزنطية، وكانت تعيشُ في الأراضي العثمانية قبل وصولهم إليها، وكانوا يتواجدون في مناطق صاروخان، والقرم، وغاليبولي، وسلانيك، والقسطنطينية.

والقسم الثاني: هم اليهود الذين هاجروا من العالم الغربي من مناطق بولندا والنمسا وألمانيا وإيطاليا إثر الاضطهادات التي لاقوها هناك، وخاصة من إسبانيا[(١)].

وتشير الإحصاءات أنَّ الدولة العثمانية فتحت أبوابها لآلاف الأسر المتعددة الأديان والثقافات والقوميات، ففي عام ١٤٧٨م كان يعيش في إستانبول (٩٥١٧) أسرة مسلمة مقابل (٥١٦٢) أسرة مسيحية، و(١٦٤٧) أسرة يهودية، فكان اليهود يمثلون نسبة (٠٨ , ١٠٪) من عدد السكان الأصلي[(٢)].

اليهود في إستانبول:

عند لجوء اليهود إلى الدولة العثمانية وفتحها أبوابها لهم، انتشر اليهود في كافة المناطق العثمانية التي كانت داخل ملكيتها، فقد ذكر الرحالة (أوليا جلبي) خلال رحلته الشهيرة أنّ في حي غَلَطَة كان يسكن (١٠٠٠) يهودي، ولاحظ أنَّ اليهود يخافون من المسيحيين، ولا يخافون من المسلمين، ويقول: إنّ السبب في هذا أنّ المسلمين يعاملون اليهود معاملة طيبة عكس المسيحيين، وقد سجل

---

(١) انظر كمال حبيب، مرجع سابق، ص٣٤٨.

(٢) المرجع سابق: ٢/٣٢٩.

(أوليا جلبي) نتائجَ رحلته ونتائجَ تعداد عام ١٦٣٨م أنه كان يوجد في إستانبول (٦٧٥) شارعاً يهودياً[١].

وفي عام ١٨٣٨م قامت السلطات العثمانية بتعيين الحاخام (أبراهام هاليفي) رئيساً لكل يهود الدولة. وقد صدر هذا القرار من قبل الحكومة العثمانية بتعيين رئيس للحاخامات بناءً على طلب اليهود[٢].

قدر تعداد اليهود في إستانبول عام ١٨٤٤م بحوالي (٤٠٠٠٠) نسمة وفقاً لما ورد في كتاب (إلى القدس) للمؤلف (أ. فرنكل)[٣] وكان التعداد الكلي لسكان إستانبول في ذلك الوقت حوالي (٧٢٠٠٠٠) نسمة، وبهذا يكون عدد اليهود هناك يقدر بنحو (٦٪) من عدد السكان الأصليين[٤].

وفي إحصاء عام ١٩٠٦م كان عدد يهود إستانبول (٤٧٧٧٩) نسمة، وكان التعداد الكلي لليهود في الدولة يقدر بـ(٢٥٦٠٠٠) نسمة. وقدر الوجود اليهودي في إستانبول في بداية القرن العشرين بنحو (٦٥٠٠٠) نسمة[٥].

وكان التعداد الكلي ليهود الدولة يقدر بـ(٢٥٦٠٠٠) نسمة، والمعطيات التي قدمتها(الإليانس) تفيد أنَّ الوجود اليهودي في إستانبول في بدايات القرن العشرين قدر بـ(٦٥٠٠٠) نسمة[٦].

---

(١) محمد حرب، العثمانيون في التاريخ والحضارة، مرجع سابق، ص٢٨٥، قام أوليا جلبي برحلة شهيرة في القرن ١٧م واستمرت (٤٤) سنة، وقد بدأ رحلته من إستانبول، وشملت (٢٣) دولة منها تركيا وروسيا وألبانيا وبلغاريا واليونان ورومانيا ويوغسلافيا والمجر، وغيرها من البلاد الأجنبية، ومن البلاد العربية مصر وسوريا ولبنان والأردن وفلسطين والسعودية والسودان والحبشة وغيرها.

(٢) المصدر السابق، ص١٩٧ ـ ١٩٨.

(٣) صموئيل إتينجر، اليهود في البلدان الإسلامية، ترجمة جمال أحمد الرفاعي، عالم المعرفة (١٩٧) ـ الكويت، ص١٥٨ ـ ١٥٩. جاء هذا الإحصاء وفقا لما جاء في كتاب (إلى القدس) لـ(أ. فرنكل).

(٤) المصدر السابق نفسه.

(٥) صموئيل إتينجر، اليهود في البلدان الإسلامية، مرجع سابق، ص١٥٩.

(٦) صموئيل إتينجر، مرجع سابق، ص١٥٩.

وفي عام ١٩٢٧م قدر عدد اليهود في إستانبول بحوالي (٤٧٠٣٥) نسمة، وقد شهد هذا العصر زيادة في عدد اليهود في هذه المدينة.

أما الإحصاء الذي أجري في تركيا عام ١٩٦٥م فقد قدر عدد اليهود في إستانبول بـ(٣٠٠٠٠) نسمة[١] وفي عام ١٩٨٥م قدر عدد اليهود بـ (١٨٠٠٠) نسمة[٢].

هؤلاء اليهود الذين هاجروا إلى إستانبول، واستقرّوا فيها، كانوا من نسل العائلات اليهودية التي طردت من شبه جزيرة إيبرية، حيث اندمجوا سريعاً مع يهود القسطنطينية.

أما غالبية اليهود فكانوا من اليهود السفارديم، وكانوا يمثّلون أكبرَ نسبةٍ من اليهود هناك.

وفي عقد العشرينيات من القرن التاسع عشر تزايدت أعداد اليهود المهاجرين إلى إستانبول، وكان معظمهم من يهود الدونمة، ومن أبرز قادة الطائفة اليهودية في إستانبول الذين ظهروا خلال القرن ١٩م (أفراهام كاموندو) وكان من أثرياء اليهود في إستانبول، الذين قدموا مساعدات مالية ضخمة إلى المستوطنين اليهود في فلسطين، وكان من بين أنشطة هذه العائلة قيامها بتحويل الأموال من شرق أوروبا إلى اليهود الأشكناز في فلسطين[٣].

انتشر اليهود في إستانبول في أحياء (نيشان طاشي) (شيشلي سعادية) (بورغاز) (هيبلي) و(بويوك) وأضنة، ويعتبر حي (باي أوغلو) في إستانبول المركز الرئيس للنشاط اليهودي التجاري[٤].

---

(١) P. Alford Andrewes, Turkiye de Etnik Grvuplar. Turkcesi, Mustaf Kupus Oglu, Istanbul, 1992, S.222.

(٢) P. Alford Andrews, a.g.e, S.222.

(٣) صموئيل إتينجر، اليهود في البلدان الإسلامية، مرجع سابق، ص٢١٧.

(٤) انظر، محمد نور الدين، مجلة الدفاع الوطني اللبناني، ص٨٠، عدد (٢٤) نيسان ـ إبريل ١٩٩٨م.

كما عاشوا في أحياء (خاسكوي) Haskoy و(غلطة سراي) Ialata Saray [1] و(بيري باشا) Piri Pasa ، و(أورطه كوي) Orta Koy .

وبموجب سياسة التنظيمات في الدولة العثمانية أصدرت الحكومة قراراً في القرن التاسع عشر يقضي بمساواة اليهود بالمسيحيين الذين كانوا يلاقون تأييداً من الدول الأوروبية، واستفادت أعدادٌ كبيرة من اليهود من الامتيازات الأجنبية، وخاصة التجار اليهود في إيطاليا، وأكد الصدر الأعظم العثماني خلال الأعوام (١٨٣٤م - ١٨٤٦م) أنّ السلطة تتعهّدُ بالحفاظ على حقوق اليهود، وبناءً على ذلك أصدرت الحكومة العثمانية عام ١٨٥٤م بياناً بمناسبة زيارة مندوب (عائلة روتشـيلد) الأراضي العثمانية ورد فيه أنّ السلطة العثمانية تحافظ على حقوق اليهود.

وقد وصلت هذه السياسة إلى أوج قوتها عام ١٨٥٦م وقت صدور دستور الإصلاحات الذي يعرف (بخطي همايون) وكان مضمونه أن الفرمان العثماني يحافظ على أرواح وممتلكـات كل الرعايا وأبناء كل الديانات دون أي تمييـز بينهم [2].

وفي عام ١٨٦٥م صدر قانون خاص باليهود من قبل الدولة العثمانية، حيث منحهم هذا الدستور أيضاً حقّ الأقليات في التمثيل بمؤسسات الدولة، وجاء فيه أنَّ ممتلكات أبناء الأقليات لن تتعرض لأيِ ضرر، ويحق لهم العمل في الوظائف الحكومية، والالتحاق بالمدارس الحكومية سواء كانت عسكرية أو مدنية، ويحقُّ لهم تأسيس مدارس خاصة بهم، وتكتفي الحكومة بالإشراف على مضمون المناهج التعليمية فقط. كما تم إلغاء ضريبة الجزية عن غير المسلمين [3]، وبناء

---

(١) غلطة حي في إستانبول كان يسكن به (٢٠٠٠٠٠) مسيحي، و(١٠٠٠) يهودي مقابل (٦٠٠٠٠) مسلم. (محمد حرب، العثمانيون في التاريخ والحضارة، مرجع سابق، ص٢٨٤ - ٢٨٥).

(٢) انظر روبير مانتران، تاريخ الدولة العثمانية، ترجمة بشير السباعي، دار الفكر للدراسات - القاهرة - باريس ١٩٨٩م: ٢/ ٦٣؛ وصموئيل إتينجر، مرجع سابق، ص١٩٩.

(٣) صموئيل إتينجر، مرجع سابق، ص١٩٦ - ١٩٩.

على هذا الفرمان اشتغل اليهود في الأجهزة الحكومية والمدارس والجيش في الدولة.

ومن أبرز التغييرات القانونية التي أحدثها دستور ١٨٦٥م أنَّ الدولة منحت رعاياها من غير المسلمين وغير العثمانيين حقَّ شراء الأراضي في الدولة العثمانية، وكان اليهود يسجّلون أراضيهم وممتلكاتهم في المحاكم الشرعية الإسلامية، ويسجّلونها على أنها أوقاف مقدسة لهم، وكان نتيجة هذه القوانين أيضاً أن فتحت المجال أمام اليهود لشراء أراضٍ في فلسطين(١).

وكان جد (كاموندو) قد اضطر في نهايات القرن الثامن عشر للهروب من القسطنطينية إلى النمسا التي نعم فيها باللجوء السياسي، وكانت لهذه العائلة علاقات تجارية متشعبة في كلٍّ من إيطاليا ووسط أوروبا، واشتهر يهود إستانبول بالعمل في تجارة التوابل(٢).

تأثر (كاموندو) في مرحلة مبكرة من عمره إبّان الفترة التي قضاها في النمسا بفكر حركة التنوير الأوروبية، فأسس بعد عودته إلى تركيا عِدّة مدارس في إستانبول، كما دعا آنذاك إلى إعادة تنظيم الطائفة اليهودية، مما أثار غضب الحاخام، وتمكن (كاموندو) بفضل المساعدة التي حصل عليها من عائلة (روتشيلد) اليهودية من أن يؤسس أول مدرسة يهودية حديثة في إستانبول عام ١٨٥٤م، وقد رأسها (ألبرت كوهين) كما قدم كاموندو أيضاً تبرعات مالية ضخمة من أجل إنشاء مدرسة (مكفية يسرائيل) في فلسطين؛ ولذلك أطلق البعض عليه اسم (روتشيلد الشرق)(٣).

---

(١) جاء في خطاب بعث به أحد قادة الطائفة اليهودية السفاردية في القدس عام ١٩١٤م إلى الحاخام (حاييم ناحوم) الذي كان يشغل منصب كبير الحاخامات اليهود في إستانبول جاء فيه: «كنا سنشعر بسعادة بالغة إذا ما طبقت قوانين ١٨٦٥م على كل يهود الدولة العثمانية، وليس فقط في القسطنطينية»، صموئيل إتينجر، مرجع سابق، ص٢٠٢.

(٢) صموئيل إتينجر، مرجع سابق، ص٢١٧.

(٣) صموئيل إتينجر، مرجع سابق، ص٢٣٧، (مكفية يسرائيل) هي المستعمرة التي قابل فيها زعيم الحركة الصهيونية هرتزل الإمبراطور الألماني حينما كان الأخير في زيارة=

وقد شهدت إستانبول خلافاً شديداً بعد أنّ أسس بها (أفراهام كاموندو) مدرسة حديثة، وكان الحاخام (إسحاق أكريش) من أشد معارضي هذه المدرسة، فعقد اجتماعاً ضخماً ضمَّ حاخامات إستانبول، وقرروا في نهاية الاجتماع مقاطعة كاموندو وعدم التعامل معه.

ولكن بعد أن تدخّلَ رؤساء الطائفة لدى السلطات قامت السلطات باعتقال الحاخام أكريش وأوقفت أنشطته، ولكن سرعان ما أطلق سراحه بعد أن أعرب يهودُ إستانبول عن تذمرهم من هذا الإجراء. وقد شكّل هذا الخلاف بداية الخلافات التي دامت بين الاتجاه الداعي إلى الحداثة، والاتجاه الداعي إلى التمسك بالتقاليد طيلة النصف الثاني من القرن التاسع عشر[١].

أيضاً تسببت المدرسة الحديثة التي أسسها (كاموندو) صراعاً بين الحاخامات المحافظين، والعلمانيين، وقد تدخّلَ السلطان عبد العزيز لتهدئة هذا الصراع عام ١٨٦٤م[٢].

اليهود في إزمير:

بلغ عدد اليهود في إزمير في الفترة من (١٨٨٢م-١٨٩٣م) حوالي (١٤٣٥٠) يهودياً، وفي إحصاءٍ آخر أُجري عام ١٨٩٤م كان عدد اليهود الموجودين بمنطقة إزمير (١٦٤٥٠) يهودياً، وتلك الإحصاءات ليست على مستوى عال من الدقة، حيث إنّ الجاليات الأجنبية التي كانت تعيش في الدولة في ذلك الوقت كثيرة، وكان اليهود يشكّلون نسبة من هؤلاء الجاليات[٣].

= للقدس، حاول فيها هرتزل استدرارَ عطف الإمبراطور الألماني من أجل تأييد قضية اليهود واستيطانهم فلسطين (محمود ثابت الشاذلي، المسألة مرجع سابق، ص١٥٦).

(١) صموئيل إتينجر، مرجع سابق، ص٢٤٥.

(٢) أحمد نوري النعيمي، اليهود والدولة العثمانية، مرجع سابق، ص٤٢.

(٣) صموئيل إتينجر، مرجع سابق، ص١٦٢؛ وإزمير مدينة في غربي تركيا على بحر إيجة، بها أقليات من اليونان واليهود، ولد فيها (ساباتاي زفي) الذي ينتسب إليه يهود الدونمة عام ١٠٣٥ هـ، هاجر إليها عدد كبير من اليهود الذين تعرّضوا للاضطهاد في الأندلس وروسيا هرباً من محاكم التفتيش، وكان أول ظهوره في مدينة إزمير.

وفي عام ١٨٨٥م قدر عدد يهود إزمير (١٦٠٠٠) نسمة وفي عام ١٩٢٢م قدر عددهم بـ(١٠٠٠١) نسمة[١].

أمّا الإحصاء الذي أجري في تركيا عام ١٩٢٧م فقد قدر عدد اليهود المتواجدين في إزمير بنحو (١٦٥٠٠) يهودي، ويفيدُ الإحصاء أنَّ اليهودَ شكلوا نسبة بين (٨٪) و(١٠٪) من عدد السكان الكلي في إزمير[٢].

وتروي المصادر أنَّ العمال اليهود في إزمير كانوا من الطبقة الفقيرة، وقد أنشؤوا معابد خاصة بهم، وكان هؤلاء العمال يشتغلون في صناعة السجاد، ويشتغلون في الوساطة بين المزارعين في الأناضول وبين تجار المدينة، وعمل بعضهم باعة جوّالين، وعاشت هناك حوالي (٥٠٠) عائلة يهودية تملك محلات تجارية[٣].

كان المسيحيون يقومون بالاعتداء على اليهود والتنكيل بهم في القرن التاسع عشر، حيث انتشرت شائعات مفادها أنَّ اليهود يخطفون أطفال المسيحيين لشرب دمائهم، وحدثت مذابح في إزمير عام ١٨٧٢م، وكانت من أشهر هذه المذابح تلك التي قام بها المسيحيون بتدمير أحد المعابد اليهودية، وأطلقوا النار على السكان اليهود، وقد تدخّلت السلطات العثمانية لإنقاذ اليهود منهم حيث أدانت هذه المذابح[٤].

وقد شهدت منطقة إزمير كثيراً من الصراعات الطائفية والاجتماعية بين الأتراك واليونان من ناحية، واليهود والمسيحيين من ناحية أخرى، حيث تزايد الصراعُ بين اليهود واليونان في النصف الثاني من القرن التاسع عشر، مما سبب تدهوراً ملحوظاً في أوضاع اليهود هناك سواء من الناحية الاجتماعية أو الاقتصادية[٥].

---

(١) P. Alford Andrews a.g.e.s.222.

(٢) صموئيل إتينجر، مرجع سابق، ص١٦٢.

(٣) محمد نور الدين، اليهود في تركيا: أرقام ومعطيات، شؤون تركيا، عدد (٣)، نوفمبر ١٩٩٢م، ومركز الدراسات الاستراتيجية والبحوث والتوثيق ـ بيروت، ص٤٨.

(٤) صموئيل إتينجر، اليهود في البلدان الإسلامية، مرجع سابق، ص٢١٠.

(٥) المرجع السابق، ص١٦٢ ـ ١٦٣.

تعرّضت إزمير للدمار إبان الحرب التي قامت بين تركيا واليونان في الفترة من (١٩١٨ ـ ١٩٢٢م) وكانت نتيجة ذلك هو هجرة أعداد كبيرة من اليهود خارج هذه المدينة.

ومن أشهر الشخصيات اليهودية التي برزت في إزمير: (رفائيل عوزيال) ويعدُّ رائدَ الصحافة اليهودية الصادرة بلغة (اللادينو) في الشرق، أصدر عام ١٨٤٢م صحيفة (الأمل الطيب) كما أصدر عام ١٨٤٦م صحيفة (أبواب الشرق) ولا نعرف عن عوزيال سوى أنه كان من عائلة دينية ترجع أصولها إلى يهود الأندلس، وعاش أبناءُ هذه العائلة في أماكن شتى شملت المغرب وإيطاليا وهولندا وتركيا، وأقامت هذه العائلة في إزمير منذ فترة قديمة للغاية.

وقد أوضح (رفائيل عوزيال) في العدد الأول من صحيفة (أبواب الشرق) أهدافَ جريدته، فجاء فيها: «إنَّ الصحيفة ستؤدي إلى إحياء العديد من الأشياء الجميلة في مدينتنا، وستنشر مقالات جيدة ومفيدة للشعب اليهودي، وستفتح ليهود تركيا أبواب الضياء، وبهذا سنصبح مثل إخواننا اليهود في أوروبا الذين يصدرون صحفاً باللغة العبرية وباللغات الأخرى»[(١)].

وفي عام ١٨٦٤م تأسست في إزمير أول مدرسة محلية لليهود، وقد ساهمت الإليانس في تأسيسها بالرغم من أنها لم تكن تابعة لها، كما أقيمت في إزمير عام ١٨٧٣م أول مدرسة تابعة للإليانس، وأنشئت فيها بعد ذلك خمس مدارس أخرى، وتفيد معطيات الإليانس أنَّ ألف تلميذ يهودي درسوا في مدارسها في نهاية القرن التاسع عشر، وأنّ حوالي ألفي تلميذ يهودي تلقوا تعليمهم في مؤسسات (تلمود توراة) الدينية، وفي المدارس المسيحية والحكومية. ولا شك في أنَّ تزايد عدد التلاميذ اليهود الدارسين في المدارس الأجنبية قد أثر في الوعي الثقافي ليهود المدينة، وأدّى إلى ظهور جيلٍ جديدٍ من اليهود يعرف شيئاً عن تعاليم الديانة اليهودية. كما سعت (الإليانس) أيضاً إلى تأسيس مدرسة زراعية لليهود في إزمير[(٢)].

---

(١) صموئيل إتينجر، اليهود في البلدان الإسلامية، مرجع سابق، ص٢٣٨.

(٢) المرجع السابق، ص٢٤٣.

اليهود في أدرنة:

شهدت منطقة أدرنة وجوداً يهودياً كبيراً بها، فقد قدر عدد اليهود فيها عامي (١٤٨٨ ـ ١٤٨٩م) بـ(٢٠١) أسرة يهودية[١].

وفي بداية القرن التاسع عشر قُدّر عددهم بنحو (٣٠٠) نسمة، وفي عقد الثلاثينيات من القرن التاسع عشر ارتفع عدد اليهود الموجودين بأدرنة إلى (٦٠٠) نسمة، وكان التعداد الكلي لها (٥٠٠) نسمة، وقد اختلف التقدير الحقيقي لأعداد اليهود في أدرنة طبقاً للإحصاء الذي أجري في الفترة من (١٨٨٢ ـ ١٨٩٣م) حيث قدر عدد اليهود الموجودين في أدرنة (٨٩١٨) نسمة[٢].

جاء تقرير (الإليانس) الذي أجري عام ١٨٨٠م بتقدير عدد يهود أدرنة بـ(٥٠٠) نسمة. وبعد هجرة يهود بلغارية إليها وصل تعداد اليهود فيها حسب تقرير (الإليانس) (١٧٠٠٠) يهودي، وكان ذلك فترة الحرب العالمية الأولى. إلا أنَّ هناك تقارير أخرى تشير إلى أن أعداد اليهود المهاجرين إلى أدرنة وصلت إلى (٢٨٠٠٠) نسمة من العدد الكلي للسكان الذي قدر بنحو (٨٠٠٠٠) نسمة وقتذاك[٣].

ولكنّ نسبة أعداد اليهود في تلك المنطقة بدأت تنخفض بسبب الحصار البلغاري الذي حدث في المنطقة عام ١٩١٣م.

وفي الإحصاء الذي أجري عام ١٩٢٧م قدرت أعداد اليهود الموجودين بمنطقة أدرنة إلى (٥٧١٢) نسمة، وفي عام ١٩٣٤م تعرّضَ اليهود في هذه المدينة إلى بعض الاضطهادات التي أدّت بهم إلى الهجرة منها، فأصبح العدد الموجود

---

(١) (كمال حبيب، مرجع سابق، ص٣٢٩). كانت أدرنة تحت سيطرة العثمانيين عام ٧٦٣هـ في عهد السلطان مراد الأول وكانت عاصمة الدولة حتى تم فتح إستانبول؛ (انظر حسن ظاظا، ص١٤٨ ـ ١٤٩).

(٢) صموئيل إتينجر، مرجع سابق، ص١٦٤.

(٣) المرجع السابق، ص١٦٤.

بأدرنة عشية الحرب العالمية الثانية ضئيلاً، فلم يبلغ سوى (٥٠٠٠) يهودي فقط[(١)].

وجدير بالذكر أنّ منطقة أدرنة التي كانت مقرّ الحكومة العثمانية في ذلك الوقت شهدت محاكمة (ساباتاي زفي) مؤسس يهود الدونمة أمام السلطان محمد الرابع، وكانت تلك المحاكمة يوم ١٦/٩/١٦٦٦م، وفي هذه المحاكمة أعلن ساباتاي دخوله الإسلام، وأعلن أنّه تم إلحاقه بنسل إسماعيل (أي بالعرب) وكان إسلامُه هذا ستاراً لنواياه الصهيونية التي ذكرناها من قبلُ في البابِ السابق.

نشطت في أدرنة بعض الشخصيات اليهودية التي مارست الأنشطة القومية في الدولة في القرن التاسع عشر، ومن أبرز هذه الشخصيات، (باروخ ميتراني) وهو من قادة حركة التنوير اليهودية في تركيا، والذي أسس هناك مدارس يهودية حديثة، ودعى لإحياء اللغة العبرية، كما قام (يوسف ليفي) بتأسيس أول المدارس الحديثة هناك، إلا أنه اضطر للهجرة إلى باريس بعد هجوم الحاخامات عليه، حيث اتُّهم بتشجيع اليهود لاعتناق المسيحية[(٢)].

اليهود في سلانيك:

سلانيك هي ميناء في اليونان يبعد عن إستانبول بـ(٢٥٠) كم، دخلت في حوزة الدولة العثمانية عام ١٤٣٠م في عهد السلطان مراد الأول (١٣٢٦ ـ ١٣٨٩م) وقد كانت محل نزاع بين العثمانيين والبيزنطيين، وظلّت تحت سيطرة العثمانيين حتى حرب البلقان، ثم تنازلت عنها الدولة العثمانية بموجب معاهدة بوخارست[(٣)].

قدرت الإحصائيات أنه فيما بين عامي (١٤٧٨م ـ ١٤٧٩م) كان يسكن منطقة سلانيك (٢٦٤٥) أسرة يهودية[(٤)].

---

(١) المرجع السابق، ص١٦٤ ـ ١٦٥.

(٢) المرجع السابق، ص٢٤٦.

(٣) مذكرات السلطان عبد الحميد الثاني، محمد حرب، مرجع سابق، ص١٣٥، ١٩٧٨م.

(٤) انظر كمال حبيب، مرجع سابق، ص٣٣٠.

يصف اليهود ولاية سلانيك بأنّها مدينة وثام لإسرائيل[1]. حيث عاش اليهود فيها في سلام مع الأتراك حتى دخلت سلانيك تحت السيطرة اليونانية عام ١٩١٢م.

قدر عدد اليهود في سلانيك عام ١٧٠٠م ببضع مئات، وكان معظمهم من يهود الدونمة ارتفع هذا العدد عام ١٩٠٠م إلى (١٠٠٠٠)[2].

وفي تقرير لقنصل فرنسي كان يعمل في إستانبول في الفترة من (١٧٩٢ ـ ١٧٩٦م) أنه كان يعيش بالمدينة سلانيك (١٢٠٠٠) يهودي، و(٣٠٠٠٠) تركي، و(١٦٠٠٠) يوناني، و(٢٠٠٠) من يهود الدونمة، وعدد من اليهود من أصل إيطالي.

وفي تقرير آخر قدر عدد اليهود في القرن التاسع عشر عام ١٨٦٨م في منطقة سلانيك بنحو (٢٥٠٠٠) يهودي، وهذا التقدير ليس على درجة كبيرة من الصحة، جاء أيضاً في تقرير القنصل الفرنسي في الإحصاء الذي أجراه عام ١٨٦٨م حيث قدّر عدد سكان اليهود في القسطنطينية (٢٦٠٠٠) يهودي[3].

إلا أنّه حدث تضاربٌ في إحصاء نسبة اليهود الموجودين بالمنطقة سلانيك نظراً للانخفاض الذي حدث في تعداد اليهود بإستانبول في نهاية القرن الثامن عشر.

وكان السبب الحقيقي في تضارب أقوال الباحثين في تعداد اليهود في المدن التي يقيمون فيها داخل الدولة العثمانية يظهر لنا من التقرير الذي أرسله أحد رؤساء الطائفة اليهودية الذين يعيشون في سلانيك ـ وذلك في منتصف القرن التاسع عشر ـ إلى (أ. فرانكل) حيث جاء فيه:

«يخفي اليهود دائماً ـ لتخوّفهم من النهب والسرقة ـ تعدادهم الحقيقي عن أعين الحكومة، ومن هنا ليس من الممكن أن يعتمد المرءُ على ما يرد في الدفاتر الحكومية عن اليهود، وليس بوسعي أن أخبرك بالتعداد الدقيق لليهود في

---

(١) أحمد نوري النعيمي، اليهود في الدولة العثمانية، مرجع سابق، ص٣٠.
(٢) أحمد نوري النعيمي، يهود الدونمة، مرجع سابق، ص٤٤.
(٣) صموئيل إتينجر، مرجع سابق، ص١٦٥.

سلانيك، ولكن عدد العائلات اليهودية فيها يقدّر بثلاثة آلاف وخمسمئة عائلة، وأنّ التعداد الكليّ لليهود يقدّر بستة عشر ألف نسمة»[١].

وأشار هذا التقرير إلى وجود عدد من يهود الدونمة هناك، إلا أنّه لم يفصح عن عددهم، ويذكر المؤلف أنّ ما وردَ في هذا التقرير من أرقام لتعداد اليهود يُعَدُّ أقل بكثير مما أورده الرحالة والباحثون في هذا الموضوع، وتلك هي عادة اليهود دائماً، ونزعتهم في إخفاء الحقيقة[٢].

أمّا الإحصاء العثماني الذي تمّ إجراؤه في الثمانينيات من القرن التاسع عشر فقد قدر عدد اليهود في سلانيك (٣٤٥٢٣) نسمة من التعداد الكلي للمدينة الذي وصل إلى (١٠٠٠٠٠) نسمة، وكان تقدير هيئة (الإليانس) في نهاية القرن التاسع عشر أنَّ تعداد اليهود في مدينة سلانيك قدر بـ (٥٠٠٠٠) نسمة من نسبة العدد الكلي لها، والذي بلغ تسعين ألف نسمة[٣].

وجاء في أحد المصادر التركية عام ١٩٠٦م (أنّ التركيبة السكانية في سلانيك تكونت من (٤٧٣١٢) يهودياً، و(٣١٠٠٠) تركياً (كان من بينهم (١٠٠٠٠) من يهود الدونمة (١٥٧٠٠) بلغاري، وعاش مئاتٌ من اليهود من أصل إيطالي أيضاً في سلانيك).

وفي عام ١٩٠٨م وبعد ثورة تركيا الفتاة قدر عدد اليهود الذين عاشوا في سلانيك في تلك الفترة (٧٥٠٠٠) يهودي.

وفي تقرير وثيقة بريطانية سرية أرسلها السفير البريطاني عام ١٩١٠م إلى وزارة الخارجية البريطانية جاء فيها: «إنّ عدد سكان سلانيك (١٤٠٠٠٠) منهم (٨٠٠٠٠) يهودي من أصل إسباني و(٢٠٠٠) من فرقة (ساباتاي زفي) أو اليهود الباطنيين الذين تظاهروا بالإسلام»[٤].

---

(١) المرجع السابق، ص١٦٦.
(٢) المرجع السابق، ص١٦٨.
(٣) المرجع السابق، ص١٦٦.
(٤) أحمد نوري النعيمي، يهود الدونمة، مرجع سابق، ص٤٤.

في عام ١٩١٢م أشار مكتب الإحصاء اليهودي في برلين أنّ عدد اليهود في سلانيك قدر بتسعين ألف يهودي من العدد الكلي للسكان الذي قدر بـ(١٧٠٠٠٠) نسمة. ونلحظ من تلك الإحصاءات الأخيرة أنّه حدث تزايدٌ كبيرٌ في نسبة التواجد اليهودي بمنطقة سلانيك، حيث تزايدت هجرة اليهود من تركيا واليونان ومن بلاد البلقان إلى سلانيك.

وفي عام ١٩٣٥م قدر عدد اليهود في سلانيك بـ(٥٣٠٠٠) يهودي، فكان اليهود يشكّلون نسبة (٢٤٪) من التعداد الكلّي للسكان[١].

وجميع هذه الإحصاءات التي قَدّرت عدد اليهود بولاية سلانيك لم تشمل اليهود الأجانب الذين كانوا من رعايا الدول الأوروبية، ويقيمون بالدولة[٢].

وكان يهود الدونمة يسيطرون على محفل سلانيك الماسوني، وكان يضمُّ أشهرَ رجال الحكومة العثمانية من الأتراك أيضاً، وعندما أدرك السلطان عبد الحميد الثاني خطر المحافل الماسونية قام بإغلاقها جميعها فيما عدا محفل

---

(١) صموئيل إتينجر، مرجع سابق، ص١٦٧.

(٢) إن المدن الكبرى في تركيا كان يوجد بها تواجد يهودي، ففي (جنه قلعة) كان يوجد بها عشر أسر، وفي أدرنة خمس أسر وكانوا يسكنون في الأماكن الكبيرة من إستانبول، مثل مناطق (شيشلي) و(سعادية) كما كان هناك نسبة كبيرة من اليهود في المناطق (بوغاز) و(هيبة لي) و(بيوك اده) أما في التجارة فتمركزوا في مناطق كبيرة وراقية مثل (باي أوغلو) وبعد عام ١٩٦٥م تناقص عدد السكان اليهود في تركيا حيث بلغ (٣٧٧١٦) أما اليهود الذين عاشوا قديماً في (أدرنة) و(دياربكر) و(ماردين) و(وان) وهم الذين أظهروا ميلاً للثقافة الكردية، بدؤوا بالهجرة إلى إسرائيل في بدايات عام ١٩٥٠م، وقد عاشوا في (نصيبين) وبدؤوا بالهجرة في بدايات ١٩٤٠م واليهود الذين عاشوا في (وان) هاجروا إلى إستانبول فيما بين عام (١٩٦٠ ـ ١٩٦٧م). فاليهود الذين عاشوا في الأناضول هاجر نصفهم إلى إستانبول والنصف الآخر إلى إسرائيل، وقد حدث نفس الشيء في طراقية، كما أنّ اليهود بعد حرب الاستقلال تراجعوا بعد أن كان عددهم (٢١٠٠٠) نسمة بحيث لم يبق إلا عائلة واحدة عام ١٩٧٩م واليهود القرائين تشتتوا بعد الحريق الذي هدم أحياءهم القديمة في (خاص كوي) عام ١٩١٨م وكانوا يعيشون في (قره كوي) أقدم منطقة توطنوا فيها واليوم يعيش القرائيين في (غلطة) و(إستانبول القديمة) أما الجزء الأكبر منهم فيعيش في إسرائيل (٣٤٠٠٠). .(Alford Andrews, a.g.e.S 223,224).

سلانيك، وذلك لارتباطه مع قادة دولة أوروبا ومحافلها، وقد قام يهود سلانيك بدور كبير من أجل التخلّص من السلطان عبد الحميد، وكان لهم نشاطهم السياسي الملحوظ في الدولة العثمانية، حيث كانت سلانيك مقرّاً ومركزاً أميناً لليهود للعمل في النشاط السياسي والعسكري هناك.

كان أيضاً للمحافل الأوروبية، وخاصة الفرنسية والإيطالية، دورها الكبير في تقديم العون المالي والسياسي والإعلامي ليهود سلانيك، وذلك من أجل استمرارهم في محاولة القضاء على السلطان عبد الحميد، والقضاء على دولة الخلافة الإسلامية أيضاً[١].

تحدثنا أيضاً من قبلُ عن دور يهود سلانيك في تنفيذ خطط (مؤتمر كاتوفيج)[٢] الذي عقد عام ١٨٨٤م وتبنيه العدد من القضايا؛ منها قضية النعرات الطائفية، وتقليب السلطات على الأقليات، وتدمير الوحدة الوطنية، وتنفيذ الخطط لصالح الصهيونية العالمية، وقد نتج عن مقررات هذا المؤتمر الإضرار بالعلاقات العثمانية للطوائف المسيحية، وكذلك ضرب نفوذ الأرمن أيضاً[٣].

---

(١) انظر محمد محمد إبراهيم زغروت، مرجع سابق، ص٢٩ـ٣١.

(٢) مؤتمر كاتوفيج ضمّ أعضاء جمعيات أحباء صهيون في تشرين الثاني ـ نوفمبر عام ١٨٨٤م، ألقى بنسكر زعيم جماعة أحباء صهيون فيه خطاب الافتتاح (انظر عبد الوهاب المسيري ـ موسوعة المفاهيم والمصطلحات الصهيونية، ص٣٠٥) عقد هذا المؤتمر في مدينة يسنك، وحضر هذا المؤتمر أربعة وثلاثون عضواً ورأسه (ليون بنسكر) وكان افتتاح المؤتمر في العيد المئوي لسير (موسى مونتيفيور).(Sir Moses Monterfiore) وقرر المؤتمر إنشاء (اتحاد مونتيفيور) لترقية الزراعة بين اليهود، وخاصة لمعاونة المستعمرات اليهودية في فلسطين. وأعلن رئيس المؤتمر أنَّ الأرض الوحيدة التي تصلح لهدف اليهود وتحقيق آمالهم هي فلسطين.. واتفق على مساعدة المستعمرات بالأموال، وعلى إيفاد مندوبين إلى إستانبول لأخذ تصاريح بالعمل في المستعمرات اليهودية دون أن تقامَ في وجه سكانها عقبات من السلطات الحاكمة في فلسطين. وانتخب (بنسكر) رئيساً للاتحاد الجديد. وأنشىء المركز الرئيس في (أودسا) حيث كان (بنسكر) رئيساً لجماعة محبي صهيون المحلية أيضاً (عبد العزيز محمد الشناوي، الدولة العثمانية، مرجع سابق: ٢/ ٩٧٧).

(٣) محمد سرحان، مرجع سابق، ص١٨ـ١٩.

وكان يهود الدونمة على وجه الخصوص الذين تمركزوا في سلانيك هم الأداة المنفذة لمخططات الصهيونية العالمية في تركيا الإسلامية[1].

ظهرت أيضاً في سلانيك حركة اشتراكية يهودية كانت لها صلات قوية بالجالية اليهودية في أوروبا الشرقية، وقام بتأسيس هذه الحركة جماعة من الشباب اليهودي بزعامة (أبراهام بن أرويه) الذي وصل من بلغاريا إلى سلانيك عام ١٩٠٠م، وحاول نشر الأفكار الاشتراكية، وقد ساعدته حركة تركيا الفتاة ١٩٠٨م على ممارسة نشاطه، وقد نجحت هذه الحركة كثيراً بين أوساط العمال وأصحاب المهن اليهود. كما أقيم عام ١٩٠٩م منتدى عمالي في سلانيك قام بإصدار صحيفة لانسيون (الأمة) وكان من أهم أنشطته تنظيم مظاهرات تؤلّب الأتراك على الدولة، وقد تخوّفت الحكومة العثمانية منهم، فعملت على محاصرتهم[2].

كان ليهود سلانيك ثقلهم الاقتصادي الكبير، وكانوا يسيطرون على الحركة الاقتصادية هناك، وكانوا يعملون في مجالات التجارة والصناعة.

وفي عام ١٩١٢م احتلّت اليونان سلانيك، وحدثت تغيّرات في المنطقة، حيث سنت الحكومة اليونانية قوانين وتشريعات في المدينة أثّرت على الحياة اليهودية فيها، منها قرار إغلاق محلات اليهود يوم الأحد، وهذا يعني إغلاق اليهودي محله يومين متتاليين، وذلك لأنّ السبت مقدس عند اليهودي.

وفي نفس هذا العام (١٩١٢م) تطوّع بعض يهود سلانيك في الجيش التركي إبّان حرب البلقان التي نشبت خلال فترة (١٩١٢م - ١٩١٣م) وتبرّعوا بالأموال لدعم تركيا في حربها، وصدرت الصحف اليهودية تدعو اليهود للاندماج في الإمبراطورية العثمانية وكان (أبراهام جالانتي) (آورام غالانتي) من أبرز الداعيين للاندماج في تركيا[3]. وفي نفس الوقت ظهرت صحيفة (مقدونيا) المعادية

---

(١) محمد إبراهيم زغروت، مرجع سابق، ص١٩.
(٢) صموئيل إيتنجر، مرجع سابق، ص٢٢١ - ٢٢٢.
(٣) صموئيل إتينجر، مرجع سابق، ص٢٢٣. و(أورام غالانت) كاتب يهودي من يهود الدولة العثمانية، كان مرجعاً لحكومة (الاتحاد والترقي) وخاصة طلعت باشا. أشهر =

لليهـود، وقد تولّى أحد القساوسة رئاسة تحريرها، وفي عام ١٩١٣م حـدث العديد من المذابح لليهود في سلانيك، فهاجر آلاف من اليهود من هذه المدينة إلى فلسطين وأمريكا وأوروبا ومصر.

وفي عام ١٩١٧م شهدت المدينة حريقاً كبيراً تسبب في تدمير أحياء كاملة، وتم تشريد الآلاف من السكان. وفي عام ١٩١٨م تشكل في اليونان اتحاد ضمَّ كل المنظمات الصهيونيـة كان مقره سـلانيك، وصدرت الكثير من الصحف منها (صحيفة المستقبل) كما تشكّلت رابطة نشر اللغة العبرية ورابطة مكابي الرياضية.

وقد تزايدت قوة الحركة الصهيونية في سلانيك بعد الاحتلال اليوناني لها عام ١٩١٨م فعقد قادة الصهيونية في سلانيك المؤتمر الصهيوني ليهود تركيا عام ١٩١٩م شارك فيه (٤٩) مندوباً مثّلوا يهود تركيا، ورأس هذا الاجتماع كبير الحاخامات، تحدّثوا فيه عن ضرورة حصول اليهود على الحكم الذاتي[١].

ولأن معظم المهاجرين كانوا من العمال الذين اشتغلوا في ميناء سلانيك، فقد ساهموا في تأسيس ميناء تل أبيب لدى هجرتهم إلى فلسطين.

وفي عام ١٩٤١م سـقطت سـلانيك تحت احتلال الألمان الذيـن اتخذوا الكثير من الإجراءات المعادية لليهود، فمنعتهم من إصدار أي صحف خاصة بهم، وصادرت ممتلكاتهم ودمرت مقابرهم.

وفـي عـام ١٩٤٢م حشـدت القوات الألمانيـة يهود سـلانيك في أحـد المعسكرات، وأرسلتهم إلى معسكرات الإبادة الألمانية[٢]. كما هاجر عشرات الآلاف من يهود سلانيك إلى إسرائيل بعد عام ١٩٤٨م.

وقد شجعت الحكومة العثمانية يهود سلانيك في نهاية القرن التاسع عشر

= كتبه (الأتراك واليهود) الذي كشف منه عن علاقة الجمعية الإسرائيلية في القاهرة بجمعية الاتحاد والترقي. مذكرات السلطان عبد الحميد، محمد حرب، دار القلم، مرجع سابق، التراجم، ص٢٧٣.

(١) صموئيل إتينجر، مرجع سابق، ص٢٣١.

(٢) المرجع السابق، ص٢٠٨.

على نظم البنوك، وشاركت العائلات اليهودية الثرية هناك في تأسيس البنوك الحكومية والخاصة، ومن أبرز هذه العائلات عائلات (الأطليني) و(مزراحي) وكانوا يعملون في البنوك[1].

كما عمل يهود سلانيك في مجال خدمة الموانئ والصيد، وهؤلاء اليهود كانوا يعدّون من الطبقات الفقيرة هناك، وقد أسس هؤلاء اليهود معبداً لهم سمي (معبد الصيادين).

أمّا في مجال التجارة الخارجية فقد عمل يهود سلانيك في استيراد البن والسكر من الخارج، وكانت لهم مخازن خاصة بهم.

وكانوا يموّلون عمليات الاستيراد كما عملوا أيضاً في صناعة الغزل والنسيج واشتغلوا أيضاً في تجارة النبيذ والفواكه والخردوات، ولم تفرض تركيا عليهم أيَّ قيود باعتبارهم رعايا الدولة[2].

وفي المجال التعليمي تأسست في سلانيك العديد من المدارس اليهودية لتعليم أبنائها، وقد تأسست فيها مدارس مهنية لأبناء اليهود التي ساهم العديد من الشخصيات البارزة في تأسيسها والعمل على إحياء اللغة العبرية فيها. وتعدُّ المدرسة الدينية المحافظة في سلانيك من أشهر المدارس في كافة أنحاء الدولة، وكانت الدراسة في هذه المدرسة تقتصر على تدريس كتب الصلوات وكتاب العهد القديم، إلا أنّ الدراسة في هذه المدرسة كانت بالغةَ الصعوبة، وكان مستوى المدرسين اليهود فيها ضعيفاً[3].

وأقيمت في سلانيك عام ١٨٧٣م مدرسة للبنين، وفي العام التالي افتتحت (الإليانس) مدرسة للبنات، كان عدد البنين في المدرسة التابعة للإليانس يقدر بـ (٢١٠) طالب، أمّا عدد الفتيات فقدر بـ (١٥٠) طالبة. وقد وصل عدد التلاميذ الدارسين في هذه المدارس عام ١٩٠٩م إلى (٢٣٠٠) طالب، وقد شهدت

---

(١) المرجع السابق، ص١٨٤.
(٢) المرجع السابق، ص١٨٧.
(٣) المرجع السابق، ص٢٣٩ـ٢٤٠.

سلانيك تأييداً كبيراً من حاخامات المدينة لقادة (الإليانس) التي بادرت بفتح المدارس اليهودية الحديثة في تركيا، كما عبّروا عن تأييدهم للشخصيات اليهودية المستنيرة التي تدعو لإقامة المدارس هناك. في الوقت نفسه تزايد عدد المدارس اليهودية التابعة لهيئة (الإليانس) وكان أغلب يهود سلانيك من أصول سفاردية، والقليل منهم من أصول إيطاليا أو إشكنازية، وقد موّل هذه المدارس أغنياء اليهود أمثال البارون (هيرش) و(أبراهام كاموندو) وغيرهم[1].

وفي الوقت نفسه أثارت هيئة (الإليانس) غضب بعض الحاخامات المحافظين على التقاليد اليهودية القديمة، وانتقد الحاخام (أشير كوفو) حاخام سلانيك حركةَ الإصلاح الديني التي تزعّمها يهود الشرق من أصل إيطالي على إدخال بعض التعديلات على نظم العبادة، حيث أدخلوا الآلات الموسيقية في أحد المعابد، فكتب عام ١٨٤٠م يقول: «حدثت بعضُ الانشقاقات في صفوف شعبنا، فقد ظهر الحاخامات الذين يحاولون الإساءة إلينا، ويحاولون حالياً السماح لنا بممارسة المحرمات، فيدعون نساءنا إلى ارتداء ملابس الفرنجة، ويدعوننا إلى عدم احترام قداسة يوم السبت»[2].

الشخصيات اليهودية البارزة في سلانيك:

كان كلٌّ من الحاخام (يهودا نحما) و(موشيه آلاتيني) من أبرز الشخصيات اليهودية في سلانيك.

١ - الحاخام يهودا نحما (١٨٢٦ - ١٨٩٩م):

يرجع أصله إلى مدينة سلانيك، وهو أحد روّاد الصحافة اليهودية، قام بإصدار صحيفة (اللونار) عام ١٨٦٤م كما قام بتطوير نظام التعليم اليهودي في سلانيك، وأسس أيضاً مدارس يهودية تتبع النظم التعليمية المتطورة، كما دعا (نحما) إلى تغيير نظم حياة اليهود، ودعا لإقامة مؤسسات خيرية من أجل تحقيق

---

(١) المرجع السابق، ص٢٤١.

(٢) المرجع السابق، ص٢٤٥.

أهداف النظم التعليمية الحديثة[١].

وكان الحاخام (نحما) شديدَ الاهتمام بالكتب اليهودية القديمة والمخطوطات، وكان له إنتاج غزير موجه ليهود سلانيك، ويعد (نحما) إحدى حلقات الوصل بين الثقافة الغربية ويهود سلانيك وتركيا، وكانت له اتصالاته بقادة حركة التنوير اليهودية في أوروبا، وتعود اليه حركة نقل ثقافة يهود الشرق إلى أوروبا.

أسس (نحما) في سلانيك مدارس مهنية لتعليم أبناء اليهود هناك المهن المختلفة، كما أسس أيضاً العديدَ من الملاجئ والمؤسسات الخيرية لمساعدة اليهود المحتاجين ومدارس أخرى لتعليم اللغات ومدارس للأطفال. كان أيضاً له دوره البارز في الدعوة لإحياء اللغة العبرية.

٢ ـ موشيه آلاتيني (١٨٠٩ ـ ١٨٨٢م):

تولّى (موشيه آلاتيني) رئاسةَ الطائفة اليهودية في سلانيك من أجل نشر فكر حركة التنوير بين اليهود هناك، ساهم أيضاً في تأسيس كثير من المؤسسات التعليمية والاقتصادية الخاصة بيهود سلانيك.

قدّم (موشيه آلاتيني) تقريراً إلى الطوائف اليهودية في إنجلترا يصف فيها العوامل التي تسببت في تدهور المستوى الثقافي ليهود الشرق، وأرجع هذه الأسباب إلى تعليم اليهود في المدارس المسيحية والحكومية هناك، إلى جانب حالة الفقر التي يعانون منها. كما أرجع أسباب تدهور اليهود أنهم يتحدّثون بلغة (اللادينو) وهي مزيج من التركية واليونانية والعبرية، وذكر أيضاً أنّ الأحياء التي يعيشون فيها ضاقت بهم. وفي نهاية تقريره قام بتشجيع يهود أوروبا على الاهتمام بيهود الشرق وتقديم كافة المساعدات الممكنة لهم[٢].

ويجدر بنا هنا ذكر أنّ سلانيك كانت المركز الرئيس للاتحاديين الذين

---

(١) صموئيل إتينجر، مرجع سابق، ص٢٣٤ ـ ٢٣٥.
(٢) المرجع السابق، ص٢٣٦ ـ ٢٣٧.

ينتمـون لجمعيـة الاتحاد والترقي، وكـان أعضاء المركـز اليهودي ـ الدونمي الماسوني الاتحادي ـ الدولي هم الذين تسببوا في خلع السلطان عبد الحميد، ونقلـه إلى سـلانيك حيث تمّ سجنه هناك سنة ١٩٠٩م في قصر (آلاتيني) أحـد أصحاب البنوك اليهود في جمعية الاتحاد والترقي، وكان السلطان تحت حراسة شقيق رمزي بك الدونمي الماسوني[١].

* * *

---

(١) رفيق شاكر، مرجع سابق، ص١٢٨ ـ ١٢٩. محمد حرب، السلطان عبد الحميد الثاني، ١٩٩٠م، مرجع سابق، ص٤٨ ـ ٤٩؛ انظر في هذا أيضاً، خيرية قاسمية، مرجع سابق، ص٤٤.

الفصل الثالث

محاولات اليهود استيطان فلسطين

من خلال الدولة العثمانية

التواجد اليهودي في فلسطين قبل هجرتهم إلى الدولة العثمانية:

قبل أن نستعرضَ وضع اليهود في فلسطين بالنسبة للدولة العثمانية نستعرض باختصار بدايةَ تاريخ اليهود في فلسطين وبداية التواجد اليهودي فيها.

فتاريخ اليهود حتى خراب أورشليم مأخوذٌ عن التوراة. والتوراة تشمل تاريخهم حيث إنّها تحكى ما حلّ بهم من عصور العبودية والظلم، وهو كتاب يتضمّنُ معتقداتهم وشرائعهم الدينية والأدبية[١].

والمعروف أنّ اليهود ينتسبون إلى سيدنا إبراهيم (أفرام بن تارح) من نسل سام كما يسمّيه اليهود، وقد جاء من بلاده قاصداً أرضَ كنعان المعروفة بفلسطين حالياً بأمر من الله، كما جاء في نصّ (التوراة): «اذهب من أرضك ومن عشيرتك وبيت أبيك إلى الأرض التي أريك، فأجعلك أمةً عظيمةً، وأباركك وأعظّم اسمك، وتكون بركة»[٢].

أخذ إبراهيم ـ عليه السلام ـ زوجته سارة وأبوه تارح، وبعض عشيرته، ونزل منطقة حاران[٣] وبعد موت أبيه تارح توجّه إبراهيم بعشيرته إلى منطقة شكيم[٤] وهي أقدمُ مدن فلسطين. وحدث جوعٌ شديد في المنطقة، فاضطر

(١) انظر شاهين مكاريوس، مرجع سابق، ص٥٦١ ـ ٥٦٣.
(٢) سفر التكوين، إصحاح: ١٢/ ١ ـ ٢.
(٣) حاران تقع في الشمال الشرقي بين الفرات وخابور.
(٤) شكيم هي نابلس حالياً.

إبراهيم أن يتركَ الأرض، ويذهبَ إلى مصر، لكنّه عاد مرّةً أخرى إلى أرض كنعان واستقرّ في حبرون[١] وبعد موت إبراهيم ورثه ابنه إسحاق، وإسحاق هو الجد الثاني لليهود.

وإسحاق اسم عبراني معناه (يضحك) عاش في أرض كنعان، وولد له توأمان هما (عيسو) و(يعقوب).

و(يعقوب) هو الجدّ الثالث لليهود، ولقبه (إسرائيل) وإليه ينتسب اليهود. ومن أولاده يعقوب يوسف عليه السلام صاحب القصة الشهيرة في القرآن الكريم، وقد تحدّثتْ عنه التوراة، وهو الذي نقم عليه إخوته، وباعوه لتجّار مصريين، وما حدث له من أمر سجنه ظلماً، ثم عمله في خدمة فرعون مصر، وكان له من المركز والسلطة الذي جعله يأتي بأبيه يعقوب وأهله ليسكنوا معه في مصر، حيث نعموا فيها بحياة مستقرة[٢].

ثم تغيّرت الأسرة الحاكمة في مصر، فكرهوا اليهودَ، وعذّبوهم، وأمروا بقتل أولادهم الذكور، وفي هذه الأثناء ولد (موسى عليه السلام) وعاش في مصر، وعندما وجد (موسى) ما يحيق بأهله من ظلمٍ حيث رأى يوماً مصرياً يضرِبُ أحدَ الإسرائيليين من أهل جنسه، فانتصر للإسرائيلي وقتلَ المصري، وسارت الأحداث المعروفة في قصة سيدنا موسى، وأمر الله له بإنقاذ بني إسرائيل كما جاء في التوراة فقام (موسى عليه السلام) وأخوه (هارون) بإقناع فرعون أن يأذن لليهود بالخروج من بلاده، فخرجوا منها وعبروا البحر بعد أن شقَّ لهم، وعبروه على اليابسة مثلما جاء الحديث عنهم في التوراة وفي القرآن الكريم[٣].

---

(١) حبرون هي مدينة الخليل حالياً.

(٢) انظر شاهين مكاريوس، تاريخ الإسرائيليين، مرجع سابق، ص٥٦٧.

(٣) وردت قصة موسى عليه السلام في القرآن الكريم في أكثر من (٢٠) سورة، حيث جاءت في سور: البقرة، والأعراف، وطه، والشعراء، والقصص، وفي سورة القصص أكثر من (٤٠) آية تحدثت عن الظروف التي ولد خلالها موسى عليه السلام، فتحدثت عما فعلته أمه بعد مولده، وعن حاله بعد أن بلغ أشده، وعن هجرته إلى أرض مدين، وعن تشريفه بالنبوة، وهو في طريقه من أرض مدين إلى مصر؛ (انظر محمد سيد طنطاوي، =

وتاريخ الإسرائيليين حتى خروجهم من مصر قاصدين فلسطين كان لا يتعدّى تاريخ قصة أسرة صغيرة لكنّها صارت بعد ذلك قبيلةً كبيرةً، لا كيانَ لها ولا حكومة.

بعد الخروج أخذت هذه القبيلةُ تتماسك وتتآلف من أجل تكوين أمة خاصة بهم، وحاولوا الالتفاف حول موسى باعتباره قائداً لهم، ولكن سرعان ما انقلبوا ضده عندما لم يجدوا ماءً في الأماكن التي خرجوا إليها، فعصوا موسى في الوقت الذي كان يتلقى فيه الأمر من الله بالصعود إلى جبل الطور، وهو في طريقه بهم إلى فلسطين، وقد جاء نصُّ ذلك في التوراة في حديثهم لموسى، وهم يقولون: «ليتنا متنا في مصر إذ كنا جالسين عند قدور اللحم نأكلُ خبزاً للشبع، فإنكما أخرجتمانا إلى هذا القفر لكي تميتا كلَّ هذا الجمهور بالجوع»(١).

بعد هذا صورت لنا التوراة معصيةَ اليهود لموسى، وما كان من أمر صنع العجل وعبادته، وغضب موسى عليهم، وما ترتب على هذا الغضب من عقاب التيه الذي حدث لهم مدة أربعين عاماً، وهم في طريقهم إلى فلسطين وقد جاء في (التوراة):

«فقال الربُّ لموسى اذهب لأنه قد فسد شعبك الذي أصعدته من أرض مصر، زاغوا سريعاً عن الطريق الذي أوصيتهم به، صنعوا لهم عجلاً مسبوكاً، وسجدوا له وذبحوا»(٢).

وجاء في القرآن الكريم: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ لِمَ تُؤْذُونَنِى وَقَد تَّعْلَمُونَ أَنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ ۖ فَلَمَّا زَاغُوٓا۟ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ [الصف: ٥].

وقد شكا موسى قومه لله عز وجل كما جاء في القرآن الكريم قوله: ﴿رَبِّ إِنِّى لَآ أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِى وَأَخِى ۖ فَٱفْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ [المائدة: ٢٥].

= القصة في القرآن الكريم، دار المعارف ـ القاهرة، ١٩٩٥م، ص٣٦١). وفي التوراة جاء ذكر قصة موسى عليه السلام في أسفار الخروج واللاويين والعدد والتثنية.

(١) سفر الخروج ١٦: ٢ ـ ٣.

(٢) سفر الخروج ٣٢: ١ ـ ٨.

ورد الله عزّ وجلّ عليه بقوله: ﴿فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي الْأَرْضِ فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ﴾ [المائدة: ٢٦].

وبعد أن مات هارون وموسى في فترة التيه تولّى (يوشع بن نون) قيادةَ بني إسرائيل، وقد اختاره موسى على حدّ قول التوراة[١].

قام يوشع بالاتجاه بهم نحو فلسطين، واستولى على منطقة أريحا بعد أن دمرها، وكان هذا هو أول عهد لليهود في فلسطين[٢].

وتنقسم حياةُ اليهود في فلسطين في تلك الفترة إلى ثلاثة عهود:

١ ـ عهد القضاة (١١٢٥ ـ ١٠٢٥) ق.م:

وكان حكام اليهود في هذه الفترة قضاة من الكهنة ينتخبهم الشعب، وكان بعض القضاة من النساء في هذا العهد، في هذا الوقت تمّ وضع أساس الحياة اليهودية، فانتقلوا من حياة البدو إلى حياة الاستقرار، وبدؤوا في تلك الفترة يعرفون الزراعة إلى جانب الرعي الذي كان أساس عملهم، فأخذوا عن الكنعانيين أصول التقدم في الصناعة وتطوير الأسلحة وصنع آلات الزراعة[٣].

وتؤكد التوراة أنّ اليهود في هذا العهد سكنوا بين أهل البلاد الأصليين كلاجئين[٤].

---

(١) سفر العدد ٢٧: ١٥ ـ ٢٠.

(٢) يقول ويل ديورانت في هذه المناسبة (قتل العبرانيون من الكنعانيين أكثر من استطاعوا قتلهم منهم، وسبوا من بقي من نسائهم، وجرت دماء القتلى أنهاراً، وكان هذا القتل ـ كما تقول نصوص الكتاب المقدس ـ فريضة الشريعة التي أمر بها الرب موسى وزكاة الرب، ولسنا نعرف في تاريخ الحروب مثل هذا الإسراف في القتل والاستمتاع به، وقد كان موسى من رجال السياسة المتصفين بالصبر والأناة، أما يوشع فلم يكن إلا جندياً فظاً أقام حكمه على قانون الطبيعة الذي يقول: «إنّ أكثر الناس قتلاً هو الذي يبقى حياً، وبهذه الطريقة الواقعية التي لا أثر فيها للعواطف استولى اليهود على الأرض الموعودة»). (ويل ديورانت، قصة الحضارة: ٢/ ٢٢٦ ـ ٣٣٢).

(٣) انظر أحمد شلبي، اليهودية، مرجع سابق، ص٨٠ ـ ٨١.

(٤) انظر عهد القضاة، أحمد سوسة، مرجع سابق، ص٦٢٠ ـ ٦٢٥.

٢ ـ عهد الملوك (١٠٢٥ ـ ٩٣١) ق.م:

ويحكي الإصحاح الثامن من سفر صموئيل الأول قصّةَ الانتقال من عهد الملـوك، فبعد انهيار عهد القضاة بسبب ما شاع عنهم من الفسق والرشوة طلب بنو إسرائيل من صموئيل أن يجعل لهم ملكاً مثل سائر الشعوب، فاختار لهم (شاؤول) ليكونَ أول ملك عليهم، وقد حكم (١٥) عاماً بين (١٠٢٥ ـ ١٠١٠) ق.م، ويسمّى في القرآن الكريم (طالوت).

قام شاؤول بقيادة بني إسرائيل، وكان (داود) أحد رجاله، ويحكي سفر صموئيل تاريخ بني إسرائيل في تلك الفترة وظهور (جليات) الذي هو (جالوت) في القرآن الكريم، ومبارزته لداود، وانتصار داود عليه، وقد أثار انتصار داود حقد شاؤول، ولجوء داود إلى فلسطين، وقيام بعض المعارك هناك.

ثم يحكي بعد ذلك موت شاؤول، واستقر داود على عرش بني إسرائيل، واعتباره الملك الثاني لهم بعد شاؤول.

ومن أبرز أعمال داود أنّه استولى على مدينة أورشليم، وشيد عليها الهيكل المقدس وكانت فترة تولي داود فترة رخاء لليهود[١].

ويذكر سفر الملوك أنّ داود حكم أربعين سنة من (١٠١٠ ـ ٩٧١) ق.م منها سبع سنوات في حبرون، والباقي في بيت المقدس[٢].

وتولّى بعد داود ابنه سليمان، وقد أسهب سفر الملوك الأول في تصوير مجد سليمان، حيث قسّم البلاد إلى اثني عشرة قسماً إدارياً، وبموت سليمان عام ٩٣١ ق.م بدأ عهد الانقسام والخلاف بين أولاده.

٣ ـ عهد الانقسام (٩٣١ ـ ٥٨٦) ق.م:

وبعد وفاة سليمان سنة ٩٣١ ق.م أعلن (رحبعام) نفسه ملكاً على اليهود،

---

(١) أحمد شلبي، مرجع سابق، ص٨٣ ـ ٨٦.

(٢) الملوك الأول: ٢/ ٢١؛ انظر أحمد سوسة، ص٦٢٥ ـ ٦٣٦.

إلا أنّه حدث خلاف بينه وبين أخوه (يربعام)، وانقسمت المملكة إلى مملكتين جنوبية اسمها (يهوذا) وعاصمتها (أورشليم)، وشمالية (إسرائيل) وعاصمتها (شكيم)[١].

وقد كان عهد الانقسام عهد دماءٍ تسيلُ، وأرواحٍ تزهق[٢].

بعد هذا التاريخ سقطت مملكة (إسرائيل) على يد (سرجون) الآشوري، وسقطت (يهوذا) على يد فرعون مصر، وحدث التدمير الأول للمدينة والمعبد، وقد عُرفت هذه الفترة بالأسر البابلي. وبعد سقوط مملكتي يهوذا وإسرائيل خلت فلسطين تقريباً من اليهود.

في عام ٥٣٨ ق.م احتلَّ (قورش) ملك الفرس بلاد بابل، وسمح لليهود بالعودة إلى فلسطين، ورحل إليها عدد قليل من اليهود الذين أعادوا بناء المدينة المقدسة، وبنو معبداً صغيراً بدلاً من الهيكل بعد موافقة الملك (قورش) وكانت هذه العودة عودةَ أشخاصٍ وليست عودة دولة.

اليهود في ظل الحكم الروماني لفلسطين:

في عام ٦٣ ق.م استولت الدولة الرومانية على القدس وأقام (هيردوس) هيكلاً لليهود على نسق (هيكل سليمان) كان ذلك عام ٢٠ ق.م، وظلّ هذا الهيكل قائماً حتى دمر مرة أخرى على يد (تيطس) الروماني عام ٧٠م الذي أحرقه ودمّر مدينة أورشليم، وكان هذا هو التدمير الثاني للمدينة والمعبد، وقد أزال معالمه تماماً (هادريان) عام ١٣٥م حيث تخلّص من اليهود تماماً، وكان عام ١٣٥م نهاية وجود اليهود في فلسطين في تلك الفترة[٣]. وبداية عهد تفرّقهم وتشتتهم في البلاد، ومنذ أن طردهم إمبراطور الدولة الرومانية هادريان عام ١٣٥م وإصداره قراراً بمنع اليهود من السكن في (إيليا) القدس، ومنعهم من ممارسة طقوسهم الدينية، عاش اليهود في فلسطين حقبة كبيرة، ثم انتشروا خارجها، وظلّوا

---

(١) انظر سفر الملوك الأول: ١١ ـ ١٢.
(٢) انظر أحمد شلبي، مرجع سابق، ص٨٩ ـ ٩١.
(٣) المرجع السابق، ص٩٥.

متفرقين طوال فترة ثمانية عشر قرناً[١].

في ذلك الوقت حُرِّمت القدس على اليهود، ودمّرت، وأقيم مكانها مستعمرة للجنود الرومان.

وفي عام ١٣٨م ورث (أنطونين) (هادريان) وأعاد لليهود حقَّ ممارسة شعائرهم الدينية، فشكلوا ما يعرف (بالسنهدرين) وهو مجلسهم الروحي الأعلى، واهتمّوا بالتجارة والدين في هذه الأثناء، وابتعدوا عن أي نشاط سياسي أو حربي، وتدخّلوا في نصوص كتابهم المسمى بالتوراة[٢].

ظلّ اضطهاد المسيحية لليهود شديداً حتى أصيبت المسيحيةُ بنكسةٍ حينما اعتلى (جوليان) العرش حيث إنّه كان يشجّعُ الوثنية ويقاوم المسيحية.

قام (جوليان) بجلب جالية يهودية إلى القدس لمقاومة المسيحية، وأعاد بناء الهيكل، ثم توقّفَ هذا العمل بسبب موت (جوليان).

بعد ذلك اندلعت حروب بين البيزنطيين والساسانيين ثم قام العرب بفتح فلسطين، وتسلّم عمر بن الخطاب القدس، وكتب أماناً لأهلها، وكان ذلك عام ٦٣٨م[٣] وقد سبقَ لنا القول في الفصل الخاص بسماحة الإسلام لأهل الذمة أنَّ عمر بن الخطاب رضي الله عنه حينما تم له فتح فلسطين ودخلها سمح لليهود بالعودة إلى بيت المقدس لممارسة شعائرهم الدينية[٤] كما منحهم قطعة أرض على جبل الزيتون لإقامة صلواتهم فيها[٥].

اليهود في ظل حكم الصليبيين في فلسطين:

في عام ١٠٩٩م وقعت فلسطين تحت حكم الصليبيين، وكان هؤلاء

---

(١) يوسف سامي اليوسف، وتاريخ فلسطين عبر العصور، الأهالي-دمشق، ١٩٨٩، ص١٠١

(٢) المرجع السابق نفسه.

(٣) المرجع سابق، ص١١٥.

(٤) نصت العهدة العمرية أن لا يسكن بيت المقدس أحد من اليهود؛ انظر ص١٥٥ من هذا الكتاب. (الناشر)

(٥) رفيق شاكر، مرجع سابق، ص٢٥.

يضطهدون اليهود ويعادونهم مثلما اضطهدوا المسلمين.

في عام ١١٠١م قام الصليبيون بأعمال وحشية في مدينة القدس، حتى إنّهم قضوا على أهلها دون تمييز بين مسلم و مسيحي، فقاموا بإشعال النار، وإحراق الكنيس التي كان يتجمّع فيها اليهود، وقيل: إن (٧٠٠٠٠) قتلوا في القدس في ذلك الوقت على حد قول (ابن الأثير)[١]. حتى لم يبق فيها سوى شخص يهودي واحد في (اللد) وآخر في (حيفا)، واثنين في (بيت لحم)، وأربعة في (القدس) يعملون صبّاغين بموافقة ملك الصليبيين، وكان ذلك عام ١١٧٠م[٢].

ويرى السلطان العثماني عبد الحميد الثاني أنّ الحملات الصليبية ظلت مستمرة على الدولة العثمانية، عن طريق اليهود، لكنّ تحت أسماءَ وعناوين مختلفة[٣].

اليهود في ظل حكم الأيوبيين في فلسطين:

استمرَ الاضطهاد الصليبي لليهود في فلسطين حتى هزمهم (صلاح الدين الأيوبي) عام ١١٨٧م واستولى على فلسطين بعد هزيمة الصليبيين في موقعة حطين.

في هذه الأثناء سمح (صلاح الدين الأيوبي) لليهود بالعودة إلى فلسطين بعد الاضطهاد الذي تعرضوا له على أيدي الصليبيين، وبعد وفاة (صلاح الدين الأيوبي) ظلّت الحروب الصليبية مستمرة.

في عام ١٢٤٠م تسلّم (الصالح نجم الدين) منصب السلطنة الأيوبية، فقام باسترداد القدس مرة أخرى من أيدي الصليبيين واحتلها عام ١٢٤٤م[٤].

بعد ذلك دارت الأحداث في فلسطين حيث استولى عليها المغول، ثم

---

(١) انظر يوسف سامي اليوسف، مرجع سابق، ص١٣٣.
(٢) انظر حسان علي حلاق، ص٧٦؛ وانظر أيضاً: شاهين مكاريوس: تاريخ الإسرائيليين، ص١٩٥ (مصر ١٩٠٤).
(٣) السلطان عبد الحميد الثاني، مذكراتي السياسية، مرجع سابق، ص١١٧.
(٤) انظر يوسف سامي اليوسف، مرجع سابق، ص١٣٨.

استردها المماليك، ودارت المعارك بين المماليك والصليبيين، وفي أواخر القرن الثالث عشر الميلادي أصبحت مدن الساحل الفلسطيني خراباً إلا أنها بدأت في العمران بعد انتهاء الحروب الصليبية منها تماماً، وكان ذلك عام ١٢٩١م.

وازدهرت فلسطين أيام (الظاهر بيبرس) في القرن الرابع عشر، وفي أيام الناصر (محمد بن قلاوون)[١].

اليهود في فلسطين أثناء الحكم العثماني المبكر:

يرجع أصل اليهود الذين كانوا متواجدين في فلسطين إلى اليهود القدامى الذين كان يُطلَق عليهم اسم (المستعربين)، ثم جاء يهود إسبانيا، الذين أطلق عليهم اسم (السفارديم) وقد وجدوا الأمانَ والملجأ في الدولة العثمانية، وانضمَّ إليهم في القرن التاسع عشر يهود ألمانيا وشرقي أوروبا، الذين كان يطلق عليهم اسم (الإشكنازيم)[٢]. وقد كان يتمتع اليهود الذين لجؤوا إلى الدولة العثمانية في ذلك الوقت بالاستقلال الذاتي والإداري والطائفي، كما تمتّعوا بكافة الامتيازات التي مُنحت للرعايا الأجانب.

في عام ١٥١٦م زحف السلطان العثماني سليم الأول (١٥١٢ ـ ١٥٢٠) على سوريا، وانتصر على المماليك في موقعة مرج دابق الشهيرة التي دارت بينه وبين السلطان المملوكي (قانصوه الغوري) في ذلك الوقت قام السلطان سليم بضم فلسطين إلى ولاية دمشق، وقسم فلسطين إلى سناجق: (صفد) و(يافا) و(غزة) و(نابلس) و(القدس) وظلّت فلسطين تابعة للدولة العثمانية زهاءَ أربعة قرون، وذلك منذ عام ١٥١٦م حتى عام ١٩١٨م[٣].

في تلك الفترة ازدهرت فلسطين، وراجت فيها حركة التجارة، وحلّ السّلام في ربوعها، وقام السلطان سليم بفتح البلاد أمامَ اليهود مرّةً أخرى، حيث قام بتطبيق أحكام الشريعة الإسلامية مع هؤلاء اليهود، ومعاملتهم المعاملةَ

---

(١) انظر يوسف سامي اليوسف، مرجع سابق، ص١٤٥ ـ ١٤٦.
(٢) خيرية قاسمية، مرجع سابق، ص١٠ ـ ١١.
(٣) انظر يوسف سامي اليوسف، مرجع سابق، ص١٤٨.

الطيبة، حتى إنّ بعضهم تولّى مراكزَ مرموقة في الدولة مثل (جوزيف ناسي) اليهودي، الذي كان مقرّباً من السلطان سليم، وكان يعمل دوقاً (لناكسوس) كما كان هذا الرجل يعمل في الأعمال المالية والمصرفية، ويملك شركات تجارية وبحرية، وكان بفضل هذه الشركات وعلاقاته مع الأوروبيين، يعطي للحكومة العثمانية معلومات استخبارية، ويشارك في اجتماع الديوان، ويقدّم تقارير عن الوضع المالي والاقتصادي للدول الأوروبية وتشكيلاتها العسكرية ونظمها الحربية[١].

في هذه الفترة أيضاً سُمحَ لرئيس الحاخاميين بممارسة سلطاته في الشؤون الدينية، وأصبح لليهود قانونٌ خاص بهم، وأعطي للحاخام صلاحيةَ تحديدِ الضرائب للطائفة اليهودية، والمصادقة على اختيار الرؤساء المحليين[٢].

وفي عهد كلٍّ من السلطان سليمان القانوني (١٥٢٠ ـ ١٥٦٦) والسلطان سليم الثاني (١٥٦٦ ـ ١٥٧٤) تألّقَ اليهودُ في الدولة العثمانية إلى حد كبير[٣].

قام السلطان سليمان القانوني بإصدار فرمان يسمح بإسكان حوالي (٥٠٠٠) يهودي بالقرب من (بحيرة طبريا) وقد استغلّ اليهودي (يوسف ناسي) علاقته بالسلطان سليمان لإصدار هذا الفرمان، وذلك بعد فتح قبرص عام ١٥٣٥[٤].

قامت حركات معارضة من قبل عرب فلسطين ضدّ الهجرة اليهودية إليها، وكانت تلك الحركات سابقة على ظهور الصهيونية المنظمة، ففي عامي ١٥٦٧م، و١٥٨٧م قامت العديد من الاحتجاجات والمظاهرات ضد اليهود، وصلت إلى حد الهجوم عليهم في منطقة (صفد) في فلسطين، الأمر الذي أدى باليهود إلى الهروب إلى بيروت ودمشق ومصر، خوفاً من هجمات الفلسطينيين.

وظلت حياة اليهود في فلسطين غير مستقرة، حيث كانوا مشتتين في معظم

---

(١) انظر محمد نور الدين، تركيا في الزمن المتحول، مرجع سابق، ص١٧٨.
(٢) أحمد نوري النعيمي، اليهود والدولة العثمانية، مرجع سابق، ص٣٧ ـ ٣٨.
(٣) انظر عايدة العلي، دول المثلث، مرجع سابق، ص٢٢٣.
(٤) انظر أحمد نوري النعيمي، اليهود والدولة العثمانية، مرجع سابق، ص٦٢.

البلاد، على الرغم من أنَّ أمل الاستقرار في فلسطين لم ينقطع لديهم.

وظهر هذا الأملُ في محاولات ادعاءات بعض اليهود أنه المسيح الذي سوف يعيدهم إلى أرضهم المقدسة فلسطين، ويسوّدهم على العالم. وكانت من أهم هذه الادعاءات دعوة ساباتاي زفي الذي اعتقد أنّه سوف يقود العالم كله من فلسطين، وكان يدّعي هذا بقوله: «أنا سليلُ سليمان بن داود حاكم البشر، أعتبر القدسُ قصراً لي»[1].

وفي تلك الفترة دخل اليهود مرحلة انحطاط في علاقاتهم بالدولة العثمانية، وذلك بعد ظهور حركات تحرير يهودية تدعو للهجرة إلى فلسطين، فقد أحدثت هذه الحركاتُ توتراً في العلاقات العثمانية اليهودية، الأمر الذي أدّى بالسلطان (مراد الثالث) أن يقول جملته الشهيرة: «ما الذي يحصلُ فيما لو قَطَعْتُ رؤوسَ جميع هؤلاء»[2].

علاقة فرنسا بيهود الدولة العثمانية تجاه استيطان اليهود فلسطين خلال أعوام (١٧٩١ ـ ١٨٠٠):

في عام ١٧٩١ أصدر حكّام فرنسا قوانينَ تنصُّ على مساواة اليهود بالفرنسيين أمام القانون، وقد كانت علاقة فرنسا بيهود الدولة العثمانية لها أثرُها الواضح في وضع اليهود الذين كانوا تحت سلطة العثمانيين، وترجِعُ علاقة فرنسا بفلسطين إلى وقت حكم (فرانسيس الأول) باعتبارها أقدم دولة أوروبية تهتم بشؤون فلسطين حصلت على امتيازات من قبل السلطان العثماني (١٥٢٠ ـ ١٥٦٦) حيث إنها كانت تحتكر رعاية المقدسات وحماية رجال الدين المقيمين بالدولة العثمانية.

كانت فرنسا تعتبر مناطق الشرق العربي وشمال أفريقيا وسوريا وفلسطين بصفة خاصة مناطق نفوذ لها من خلال علاقاتها القوية بالدولة العثمانية، وكان

---

(١) انظر نوري النعيمي، أثر الأقلية اليهودية في سياسة الدولة العثمانية تجاه فلسطين، مرجع سابق، ص٢٦.
(٢) محمد نور الدين، تركيا في الزمن المتحول، مرجع سابق، ص١٧٨.

لفرنسـة ثلاث قواعـد بحرية على البحر الأبيض المتوسـط في الجزائر وتونس والمغرب[١].

ويرى السلطان العثماني عبد الحميد الثاني أنَّ عهد الصداقة بين الدولـة العثمانية وفرنسا يعود إلى عهد (لويس الرابع عشر) الذي أعلنَ أنّه لن يتحالف مع أية دولة أجنبية تعادي العثمانيين، ويرى أيضاً أنَّ الدولة العثمانية مَدينةٌ في إصلاح جيشـها إلى الضباط الفرنسيين[٢]، وكان اشتراك فرنسا في حرب القرم رمـزاً للتحالف العثماني الفرنسي، كما يؤكد أنَّ الإصلاحات التي نُفِّذت في عهدي السلطان عبد المجيد والسلطان عبد العزيز هي إصلاحاتٌ مستمدَّةٌ من فرنسا، وكانت المدارس والمعاهد العسكرية تحت تأثير النظام الفرنسي.

ويذكر في هذا أنَّ تدهور العلاقات مع الأصدقاء القدماء أمر يدعـو إلى الأسـف[٣]. وقد كان السببُ في توتر العلاقات مع فرنسا هو صداقة الدولـة العثمانية لألمانيا، فكان السلطان العثماني يرى أنَّ الألمان قومٌ شرفاء صادقون، مخلصون في عملهم، أما الفرنسيون فسياستهم غيرُ مستقرة على قرار، ولا يثبتون ثباتَ الألمان.

ومن ناحية أخرى فإنّ استيلاء فرنسا على تونس كان له تأثيرٌ في التباعد بينها وبين الدولة العثمانية[٤].

وفي عام ١٧٩٨م تلقّى يهود فرنسا خطاباً موجهاً من يهود العالـم، مقترِحاً فيه إنشـاء مجلـس يهودي، ويطالبون فيه إعادة (الدولة اليهودية) إلى (شعبها التقليدي) وجاء في هذا المنشور ما يلي: «إنّ البلاد التي نطالِبُ بأن نحتلّها ستضم ـ وهذا مرهون بتلك الاتفاقات التي تراها فرنسا مقبولة ـ مصر السفلى، بإضافة منطقة تكونُ حدودها خطاً يجري من عكا إلى البحر الميت، ومن الطرف الجنوبي

---

(١) انظر ميم كامل، السلطان عبد الحميد، مرجع سابق، ص٢٩ ـ ٣١.
(٢) كـان نابليون بونابرت من جملـة الضباط الذين دربوا الجيش العثماني، وأقام فترة في إستانبول قبل أن يقوم بحملته المشؤومة إلى مصر. (الناشر)
(٣) السلطان عبد الحميد الثاني، مذكراتي السياسية، مرجع سابق، ص١٣٨ ـ ١٣٩.
(٤) المرجع السابق، ص١٢٤ ـ ١٢٥.

لهذه البحيرة حتى البحر الأحمر»[١] وعندما غزا نابليون البلاد عام ١٧٩٩م كان عدد اليهود في ذلك الوقت (٥٠٠٠) نسمة[٢].

في هذا العام وجّه الحاخام الأكبر للقدس (أرون ليفي) دعوةً إلى اليهود يطلب منهم إعادة بناء أسوار مدينة القدس وبناء معبد الرب.

دور نابليون في دعوة اليهود لاحتلال فلسطين:

قام نابليون بدعوة اليهود إلى احتلال فلسطين عن طريق القوة، وكانت فرنسا في تلك الفترة في حاجةٍ إلى التمويل اليهودي، فجاءت دعوةُ نابليون لليهود على النحو التالي:

«إنّ العناية الإلـٰهية التي أرسلتني على رأس هذا الجيش إلى هنا.. جعلتْ من القدس مقري العام»، ومن ثَمَّ أخذَ يحثُّ اليهود على القدوم إلى فلسطين بقوله: «ليجتمعَ كلُّ رجال الشعب اليهودي القادرين على حمل السلاح، وليأتوا إلى فلسطين»[٣].

وكان نابليون يصف اليهود بقوله: إنهم (ورثة فلسطين الشرعيين). ويعتقد بعضهم أنَّ حملة نابليون على مصر عام ١٧٩٨م كانت فاتحةَ التطلّع الصهيوني نحو فلسطين، وقد ظلت الدعاية اليهودية تشيرُ إلى دعوة نابليون هذه على أنها اعتراف أوروبي بحقوق اليهود في فلسطين، كما أنّها تعدُّ بدايةَ التعاون بين الحكومات الأوروبية واليهود على حساب العرب[٤].

ويبدو أنّ نابليون قد أصدرَ هذا النداء من أجل كسب اليهود بغرض استغلال

---

(١) انظر حسان، مرجع سابق، ص٤٣؛ وأيضاً هنري لورنس (بونابرت والإسلام بونابرت والدولة اليهودية) ترجمة بشير السباعي، ص٤٦. نقلاً عن جعفريز: فلسطين، إليكم الحقيقة، ص٧٨، ترجمة أحمد خليل الحاج.

(٢) حسان، مرجع سابق، ص٧٧.

(٣) المرجع السابق، ص٤٦.

(٤) عمر عبد العزيز عمر، تاريخ المشرق العربي، دار النهضة العربية ـ بيروت، ١٩٩٥، ص٤٧٥.

نفوذهم في أقطار الدولة العثمانية ومعاونتهم له في تحقيق أغراضه[1].

وجّه نابليون أيضاً نداءً إلى اليهود في آسيا وأفريقيا أن يتعاونوا من أجل تحقيق إعادة مملكة القدس القديمة، وجنّد الكثير منهم في جيشه، وكان ينوي الزحف على إستانبول والاستيلاء عليها، وكانت فكرة إعادة القدس لليهود هي بداية الخطط التي كان ينوي تنفيذها فيما بعد[2]. في تلك الفترة تبلور بوضوح التعاون العسكري الفرنسي اليهودي من أجل إعادة فلسطين التي كانت في حوزة الدولة العثمانية لليهود، إلا أنَّ محاولة نابليون في استمالة اليهود لإعادتهم إلى القدس فشلت بسبب هزيمة بريطانيا لفرنسا. ومن ناحية أخرى فإنّ اهتمام اليهود في هذه الفترة كان يرتكز على تثبيت أوضاعهم الاقتصادية والاجتماعية في البلاد التي كانوا يعيشون فيها دون الانسياق وراء مغامرات قد تعرّض وجودهم في البلاد التي يقيمون فيها للخطر، كما أنَّ التفكير اليهودي باستيطان فلسطين لم يكن قد اتضح بعد[3].

---

(١) أحمد سوسة، مرجع سابق، ص٧١٨.

(٢) انظر أحمد سوسة، مرجع سابق، ص٧١٨ ـ ٧٢٠، وقد كتب هنري لورنس في هذا النداء قوله: وَجه نابليون نداءه في ٢٧/ ٦/ ١٧٩٩م بـ «الفتح الوشيك للإمبراطورية العثمانية من جانب بونابرت»، وسوف تتحقق يوماً ما، إنّ نابليون لم يفتح بلاد الشام لمجرد أن يردَّ لليهود أورشليم، كانت هذه هي الوثيقة التي نشرها ج. بيتشينو في كتابه (عودة اليهود) وكانت هذه الرسالة عبارة عن برنامج صهيوني يتحدَّثُ عن إنشاء مجلس نيابي لليهود الملايين الستة المشتتين في العالم. كما قدّم (ناحوم سوكولوف) في كتابه (تاريخ الصهيونية) وثيقتين:

ـ الوثيقة الأولى: دعوة يهود آسيا وأفريقيا من أجل إحياء أورشليم القديمة.

ـ والثانية: فتح إستانبول.

أوضح سوكولوف فيهما أنّهما شهادتين تظهران تعاطفَ بونابرت مع اليهود؛ (انظر هنري لورنس، بونابرت والإسلام بونابرت والدولة اليهودية، ترجمة بشير السباعي دار مصر العربية للنشر والتوزيع ـ القاهرة، ١٩٩٧م، ص٤٦).

(٣) أمين عبد الله محمود، مشاريع الاستيطان اليهودي، منذ قيام الثورة الفرنسية حتى نهاية الحرب العالمية الأولى المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، عالم المعرفة، عدد ٧٤، فبراير ١٩٨٤م ـ الكويت، ص١٦.

ويعزو المؤرّخون أسباب إصدار نابليون النداء باحتلال اليهود لفلسطين إلى رغبته في استقطاب الجاليات اليهودية في الشرق، وجمعها تحت لواءه لتحارب معه، وتكون عوناً له في دعم نفوذه وتثبيت سلطانه. وبالإضافة إلى ذلك، فإنّ نابليون كان يهمه من وراء هذه الدعوة كسب ثقة يهود فرنسا، ودعمهم المادي في صراعه الذي بات وشيكَ الوقوع مع حكومة الإدارة الفرنسية.

ويضيف بعض المؤرخين إلى أنّ نداء نابليون كان له هدف آخر، وهو تشجيع اليهود على الاستيطان في فلسطين بغيةَ إيجادِ حاجزٍ مادي بشري، يفصل ما بين مصر وسوريا. واستغلال ذلك في تسهيل وتدعيم الاحتلال الفرنسي لكلٍّ منهما.

كما كان نابليون يهدف إلى تهديد مصالح بريطانيا من خلال إغلاق طريق مواصلاتها المؤدي إلى الهند، وهناك إشارات أخرى في بعض المصادر تقول: إنّ نابليون كان يهمه كسب رضا وتأييد (حاييم فارحي) اليهودي، وكان يشغل منصب وزير الشؤون المالية في إدارة (أحمد باشا الجزار) الذي كان يتمتع بنفوذ مالي في عكا، ويتولّى مسؤولية تزويدها بالمؤن الغذائية[(١)].

في عام ١٨٥٦م تمّ عقد معاهدة بين روسيا القيصرية والدولة العثمانية بوساطة فرنسا وبريطانيا وقد نصّت على منح الأقليات القاطنة في الدولة العثمانية حقَّ حرية العمل، واستغل اليهودُ هذه المعاهدة لتشكيل الجمعيات التابعة لهم[(٢)].

ظهرت في تلك الفترة مطامع فرنسا في الحصول على امتيازات خاصة لها، عن طريق تأييد اليهود وتشجيعهم على استيطان فلسطين، فقد دعا (أرنست لاهران) السكرتير الخاص لنابليون الثالث إلى إعادة بناء الدول اليهودية بقوله: (أي قوة في أوروبا ستعترض على الخطة الداعية إلى اتحاد اليهود من أجل شراء

---

(١) أمين عبد الله محمود، مشاريع الاستيطان اليهودي، مرجع سابق، ص١٥ ـ ١٦؛ وأيضاً هنري لورنس، ص٤٦، صوَّر نابليون نفسه أنّه المهدي الذي ينتظره المسلمون، أما البروتستانت الإنجليز فقد رأوا فيه المسيح الدجال عدو المسيح، واعتبره اليهود أداة للمشيئة الإلـهية لهم (هنري لورنس، مرجع سابق، ص٦٥).

(٢) أحمد نوري النعيمي، اليهود والدولة العثمانية، مرجع سابق، ص٦٣؛ وانظر روبير مانتران، تاريخ الدولة العثمانية، مرجع سابق: ٢/ ١٣٢ ـ ١٣٩.

أراضي أجدادهم القديمة؟ ومَنْ ذا الذي سيعترض إذا عمد اليهود إلى إلقاء بضع حفنات من الذهب إلى تركيا العاجزة المتهالكة. وقالوا لها: «أعيدي لنا أرضنا واستخدمي هذا المال في تعزيز الأجزاء الباقية من إمبراطوريتك المتداعية. . . ؟» ولن تثار أي اعتراضات على تحقيق هذه الخطة، وسيسمح لليهودية أن تمد حدودها من السويس إلى ميناء إزمير، بما في ذلك كامل المنطقة غربي جبال لبنان. . . وستسعى الصناعة الأوروبية يومياً إلى البحث عن أسواق جديدة تصرف فيها منتجاتها. والوقت أمامنا قصير، فقد آن الأوان لأن ندعو الأمم القديمة إلى الحياة من جديد كي تفتح طريقاً جديدة ومعابر للحضارة الأوروبية)[١].

قام (أيرنست) أيضاً بدعوة اليهود أن يكونوا قناة الاتصال الحية بين القارات الثلاث، وأن يكونوا حملة الحضارة إلى شعوب ما زالت بدائية، فيقوموا بدور الوسيط بين أوروبا وأقاصي آسيا، ويفتحوا الطرق المؤدية إلى الهند والصين التي اعتبرها على حَدّ قوله: «المجاهل التي ينبغي فتح أبوابها للحضارة»[٢]. وقام أيضاً بتشجيعهم للعودة إلى فلسطين بقوله: «سيروا قدماً، إنّ انبعاثكم سيجعل قلوبنا تختلِجُ (أي قلوب الطبقة الحاكمة الفرنسية) وستقفُ جيوشنا إلى جانبكم مستعدةً لتقديم المعونة. سيروا إلى الأمام أيها اليهود في كل أرض! إنّ وطنكم القديم يناديكم، وسيكون من دواعي افتخارنا أن نفتحَ لكم أبوابه»[٣].

ويظهر أيضاً من مواقف (لاهران) تجاه اليهود ودعوته لاستعمار فلسطين، وإنكاره الوجود العربي التأثير الواضح على أفكار (موسى هس) والتي أثارها كتابه (روما والقدس)[٤].

---

(١) أمين عبد الله محمود، مشاريع الاستيطان اليهودي، مرجع سابق، ص٣٠ ـ ٣١. نقلاً عن (أيرنست لاهران) من كتابه (المسألة الشرقية الجديدة ـ الإمبراطورية المصرية والعربية وإعادة إحياء القومية اليهودية).

(٢) المرجع السابق، ص٣١.

(٣) المرجع السابق، ص٣١.

(٤) وقد ظهر الآن كتاب (روما والقدس)، وموسى هس (١٨١٢ ـ ١٨١٥)، ولد في ألمانيا، وتلقى تعليماً دينياً على أيد جده لأمه الذي كان حاخاماً، كان مهتماً بدراسة التاريخ والفلسفة، قضى معظم حياته في باريس، وكان على اتصال بالأوساط والمجالات =

وفي عام ١٨٦٢م طالب (موسى هس) بالعمل على إيجاد قومية يهودية تحرِّرُ القدس، وتكون بداية عهد الانبثاق الجديد على غرار (المدينة الخالدة روما)، كما طالبت فرنسا بإقامة شبه جزيرة سيناء.

كما دعا (هس) الشعب اليهودي إلى استيطان فلسطين، باعتبارها مهدهم الأصلي بقوله: «إنّ الشعب اليهودي حين يعي رسالته التاريخية، ويشعر بقوميته، ويستولي على فلسطين، سوف يدشّنُ ثورةَ الأجناس المضطهدة ضد سلطان الشعوب المستبدة».

ورأى أيضاً أنّ اندماج اليهود في المجتمعات الأوروبية لا يشكل حلاً عملياً للمشكلة اليهودية، ونادى بالجنس اليهوديِّ باعتبارِه أقدم وأعرق الأجناس البشرية، وإليه ترجع وحدة اليهود؛ لأن الجنس اليهودي حفظ صفاءه عبر مئات السنين، وعلى ذلك فيجب أن يكون اليهود أحراراً، ولا يتحقق ذلك إلا في فلسطين (الأرض الموعودة).

إلا أنّ كتابه (روما والقدس) لقي معارضةً شديدةً من جانب الإصلاحيين اليهود في ألمانيا في الوقت الذي لم يهتم به الاشتراكيون، فوصفه (أبراهام جايغر) اليهودي الاشتراكي بأنّه ليس ولادة عهد جديد، بل القبر المفتوح لعهد مضى؛ ولذلك لم يقيض لدعوة (هس) النجاح بسبب اندماج يهود ألمانيا في مجتمعاتهم، ويضيف المؤرخ اليهودي (إسرائيل كوهين) (Israel Cohen) مبرراً

= الاشتراكية، كان عضواً في أحد المحافل الماسونية، ساهم بمقالات في المجلات الماسونية، وكان متأثراً بأفكار (روسو) و(سبينوزا) و(هيجل) نشر عام ١٨٦٢ كتاب (روما والقدس) وعنوانه الأصلي (إحياء إسرائيل)، رحّبَ هس بكتابات (كاليشر) وباليهودية الأرثوذكية، كان يؤمن أنّ فرنسا ستساعد في تشييد بعض المستعمرات التي قد تمتد من السويس إلى القدس، وعلى ضفتي نهر الأردن. و(هس) مفكر صهيوني، ثقافته يهودية علمانية، وهو أيضاً الذي اقترح نقل جماهير شرقي أوروبا إلى الشرق لتنفيذ رؤى العهد القديم من خلال دولة استيطانية احتلالية، تستخدم المنهج الاشتراكي، وقد ساهم (هس) في الأعمال التمهيدية للاستيطان في فلسطين، واشترك في تحقيق مشروع المدرسة الزراعية قرب يافا. (عبد الوهاب المسيري، موسوعة المفاهيم والمصطلحات اليهودية، ص٤١٧ ـ ٤١٨).

عدم نجاح دعوة (هس): بأنَّ العوائق اللغوية حالت دون اطلاع اليهود في البلاد الأخرى على كتابات (هس)[1].

في عام ١٨٦٨م حصل (أودلف كريمييه) النائب اليهودي في البرلمان الفرنسي على فرمان من السلطان العثماني باستئجار (٢٦٠٠) دونم (Donum) من الأراضي بالقرب من يافا لمدة (٩٩) عاماً[2].

وفي عام ١٨٧٠م قامت (الإليانس) بتأسيس أول مدرسة زراعية يهودية في فلسطين أطلق عليها مدرسة (مكفية يسرائيل) الزراعية بتمويل من البارون (إدموند روتشيلد) والبارون (موريس دي هيرش) وقامت هذه المدرسة بوضع دراسات استكشافية عن فلسطين، كما قامت بتدريب اليهود المهاجرين على أعمال الزراعة، وأقامت لها عدة فروع في دول أوروبا[3].

في عهد السلطان عبد الحميد انتهزت فرنسا فرصة انعقاد مؤتمر برلين عام ١٨٧٨ من أجل التخطيط لاحتلال تونس. وفي نيسان ـ إبريل ١٨٨١م أرسلت فرنسة قوة قوامها (٢٠٠٠٠) جندي إلى تونس بحجة ضمان أمن الحدود، وتقدّمت نحو الأراضي التونسية، وأجبرت والي تونس العثماني (الباي محمد الصادق) على توقيع معاهدة (باردو) في ١٢/ ٥/ ١٨٨١م واضطرته إلى الاعتراف بالحماية الفرنسية على بلاده، وقد احتجت الحكومة العثمانية على ذلك الاحتلال بشدة[4].

---

(١) حسان علي حلاق، مرجع سابق، ص٣٦.

(٢) الدونم كلمة تركيا تساوي (٩٤) متراً مربعاً (قاموس المعجم التركي): ١/ ٥٠٩ تشير إلى وحدة قياس المساحات في فلسطين قبل وأثناء الانتداب البريطاني، حوالي ربع فدان، باعتبار أنَّ الفدان يساوي (٤٢٠٠) متر مربع. (عبد الوهاب المسيري، موسوعة المفاهيم والمصطلحات اليهودية، مرجع سابق، ص١٩١). وكان أودلف كريمييه هو رئيس الإليانس.

(٣) أمين عبد الله، مرجع سابق، ص٦٣ . ورفيق شاكر، مرجع سابق، ص١٠١، نقلاً عن جورج ماكاه (دولة إسرائيل والصهيونية)، ص٥١ ـ ٥٢، ترجمه عن المجرية أسد محمد قاسم.

(٤) محمد حرب، السلطان عبد الحميد، آخر السلاطين العثمانيين الكبار، دار القلم ـ =

في ذلك الحين بدأ اليهود يوجّهون نداءهم إلى بريطانيا في أواخر القرن الثامن عشر وأوائل القرن التاسع عشر يطالبونهم بمساعدتهم في العودة إلى فلسطين[(١)].

موقف بريطانيا تجاه محاولات يهود الدولة العثمانية استيطان فلسطين:

قبل أن نتحدث عن تأييد بريطانيا لليهود، ومساعداتها القوية لهم من أجل تمكينهم من الحصول على أرض فلسطين، وقد استطاعت بالفعل أن تمكنهم منها، لابد لنا أن نلقي الضوء في لمحة سريعة عن معاملة بريطانيا لليهود المقيمين فيها، والتي وصفها أحد وزراء الحكومة الإنجليزية (مونتاجو) وهو في الأصل يهودي فيقول: «إنّ الحياة التي عاشها اليهود البريطانيون، والأهداف التي وضعوها نصب أعينهم، والدور الذي لعبوه في حياتنا العامة ومؤسساتنا، يجعل من حقهم أن يُعتبروا بريطانيين يهوداً أكثر منهم يهوداً بريطانيين، إنني على استعداد لحرمان كل صهيوني من الحقوق المدنية، بل إنني أجد دافعاً لتحريم المنظمة الصهيونية باعتبارها غير قانونية وضارة بالمصالح الإنجليزية»[(٢)].

وأكد (مونتاجو) أيضاً أنّ الحكومة البريطانية تسعى لتوطين اليهود في فلسطين بهدف التخلّص منهم، وذلك لأنّ الأمة الجديدة التي سوف تتكون في فلسطين سيكون قوامها اليهود الروس والإنجليز والرومانيون وغيرهم.

ويعبر عن الصهيونية بقوله: «لقد بدت الصهيونية لي دائماً عقيدة سياسية، لا يمكن أن يؤمِنَ بها أيُّ مواطنٍ مخلصٍ للمملكة المتحدة، ذلك أنَّ اليهودي الإنجليزي الذي يتطلّع إلى جبل الزيتون، ويتوق إلى اليوم الذي يستطيع فيه أن

= دمشق، ١٩٩٠م، ص١٤٦ ـ ١٤٧.

(١) في المحاضرة التي ألقاها (فيليب جوادالا) ١٩٢٥م أمام الجمعية التاريخية اليهودية في إنجلترا، وكان من بين الحاضرين (وايزمن) و(لويد جورج) حيث أعلن (إسرائيل زانجويل) أنّ مشروع الدولة اليهودية ينسَبُ إلى بونابرت، وأنّه جاء قبلَ تصريح بلفور بمئة عام، وأنّ إنجلترا تحذو حذو نابليون (انظر هنري لورنس، مرجع سابق، ص٤٧).

(٢) أحمد سوسة، مرجع سابق، ص٧٦٥.

ينفضَ عن حذائه التراب البريطاني، ويعود إلى نشاطه الزراعي في فلسطين، إنما يعترف بـأنّه لا يصلح للاشـتراك في الحياة العامة في بريطانيا العظمى... بل ولا يصلحُ لأن يعامل كمواطن إنجليزي. لقد كان اعتقادي دائماً أنّ الذين عكفوا على هذه العقيدة كانوا مدفوعين إلى ذلك بسبب القيود المفروضة على حرية اليهود في روسيا، ولكن بعد أن تمَّ الاعتراف بهؤلاء اليهود، باعتبارهم يهود روس، ومُنِحوا كافّةَ حرياتهم، يبدو من غير المفهوم أن تقدم الحكومة البريطانية على الاعتراف الرسمي بالصهيونية، وأن يخوّل مستر بلفور التصريح بأنّه يجب أن يُعاد تأسيس فلسطين (كوطن قومي للشعب اليهودي). وأنا لا أعلم على وجه التحديد ما ينطوي عليه هذا... وإن كنتُ استنتج أنّه يعني أنّ على المسلمين والمسيحيين في فلسطين أن يخلوا السبيل لليهود، الذين سوف يتمتعون بالأفضلية، ويصبحون مرتبطين بفلسطين ارتباطَ الإنجليز بإنجلترا أو الفرنسيين بفرنسا.

كما يعني ذلك أنّ الأتراك يعتبرون أجانب مثلهم في ذلك مثل اليهود، الذين سوف يعاملون منذ الآن كأجانب في كل بلد آخر غير فلسطين[١].

في عام ١٨٠٠م ظهر كتاب (إرجاع اليهود ـ أزمة جميع الأمم) لجيمس بتشيمو (James Bichemo) حيث طالب البريطانيين باستخدام نفوذهم لدى الباب العالي، لكي يتخلّى الأتراك عن فلسطين.[٢] وفي سبيل تحقيق هذا الغرض عُقد اجتماع يهودي في بريطانيا برئاسة حاخام لندن و(موسى مونتفيوري)[٣] تمّ فيه

---

(١) أحمد سوسة، مرجع سابق، ص٧٦٤.

(٢) انظر حسان علي حلاق، مرجع سابق، ص٤٦.

(٣) موسى مونتفيوري يهودي، بريطاني الجنسية، كان من أشد المتحمسين لمشروع استعمار فلسطين، كان يحظى برعاية خاصة من الملكة فيكتوريا، زار فلسطين عدة مرات، وأقام في مصر فترة، قابل عام ١٨٣٨ محمد علي باشا والي مصر، وذلك خلال فترة حكمه على فلسطين في الفترة من ١٨٣١ ـ ١٨٤١م وتدخّل في حوادث القتل والفتن التي ارتكبها اليهود في سوريا وفلسطين في الفترة من ١٨٤٠ ـ ١٨٦٠م لتبرئتهم منها؛ حسان علي حلاق، ص٤٦ ـ ٤٧، وعرض عليه أن يؤجر لليهود مئة أو مئتي قرية لمدة خمسين عاماً، وقد تعهد له محمد علي بالترخيص لليهود في شراء أية مساحة يجدونها=

جمع (١٣٠) ألف جنيه إسترليني من أجل تنفيذ مشروع عودة اليهود إلى فلسطين إلا أنّ هذا المشروع قوبل بالرفض.

وفي عام ١٨٣٨م أعلنت بريطانية حمايتها لليهود في فلسطين، وفي سبيل تحقيق هذا الأمر افتتحت قنصليةً لها في القدس، ونتج عن هذه الحماية أن ازداد عدد اليهود في القدس، حيث تمتعوا بالحماية الأجنبية، كما أوفدت بعثات أوروبية إلى الأراضي العثمانية - إنجلترا وألمانيا - ادّعت البحثَ عن الآثار التاريخية، بينما كان هدفها البحث عن البترول في المنطقة[1].

كانت بريطانية ترى في اليهود أقليةً يمكن أن تعتمدَ عليها في فلسطين، فبرز العديد من الشخصيات البريطانية الذين تحمّسوا لفكرة توطين اليهود في فلسطين، وكانوا يعتقدون أنّ بعث الأمة اليهودية سوف يعطي القوة للسياسة الإنجليزية.

في عام ١٨٤٠م أرسل الوزير البريطاني مذكرةً إلى السفير البريطاني في إستانبول، يطلب فيها التوسط لدى الباب العالي للسماح لليهود بالهجرة إلى فلسطين كما طالب بطرد سكان فلسطين المسلمين، وإسكان اليهود مكانهم.

من ناحية أخرى قام السياسي البريطاني (شافتسبري) بكتابة رسالة موجهة إلى وزير خارجية بريطانيا يقول فيها: «إنّه لا بدّ من تحويل سوريا إلى محمية بريطانية، ويتطلّب هذا رأسمالاً وقوة بشرية»، أمّا الرأسمال فهو بطبيعته يتوجه من تلقاء نفسه إلى أي بلدٍ يتوفر فيه الأمان على المال والحياة، وفي الختام يقول (شافتسبري): ولو فكرنا جيداً في موضوع إعادة توطين اليهود في فلسطين

= في ربوع سوريا، وقد ظلّ تأييد محمد علي حتى عادت سوريا بما فيها فلسطين إلى الأتراك طبقاً لشروط الصلح التي فُرضت على محمد علي بالتنازل عن سوريا عام ١٨٤٠م، وكان هذا الصلح ضربةً قويةً لمشروع مونتفيوري (أحمد سوسة، مرجع سابق، ص٧٢٠ - ٧٢١).

(١) رفيق شاكر، مرجع سابق، ص٨٤؛ وحسان علي حلاق، مرجع سابق، ص٢٧٧؛ وفي هذه المناسبة يعلّق السلطان عبد الحميد بقوله: إنني كنت سأوافق على التنقيب عن البترول بشرط مصارحتي بذلك، ولكن أن يأتوني كجواسيس فهذا ما لم أرضه أبداً. (انظر مذكرات السلطان عبد الحميد، تقديم وترجمة محمد حرب، دار القلم، مرجع سابق، ص١٥٧).

لو جدنا أنّ هذه أرخص وأضمن وسيلة لتوفير كافة الإمكانات في هذه المنطقة غير المكتظة بالسكان، ومن هنا كانت المصلحة السياسية العالمية والصهيونية تهدف إلى السعي نحو توطين اليهود في فلسطين[١].

وكانت وجهة النظر الصهيونية حيال الأطماع الدولية في فلسطين - كما عبّر عنها كاتب يهودي سنة ١٩٠٧م - هي: «.. إنّ منح فلسطين لليهود هو الحلّ الوحيد لهذا التنافس، والعداء بين الدول الكبرى على النفوذ في الأراضي المقدسة، على الأقل لكي تتوصل هذه الدول إلى تسوية للمشكلة اليهودية عندها، وتبعد الهجرة اليهودية عن شواطئها...»[٢].

ومن أبرز العناصر الإنجليزية الذين أيدوا الاستيطان اليهودي في فلسطين اللورد (بالمرستون) واللورد (شافتيوري) وكان شافتيوري متأثراً بآراء (جيمس بتشيمو) التي ضمنها في كتابه (The Restoration of Jews) وقد دعا فيه اليهود إلى التجمع من جميع أنحاء العالم في فلسطين من أجل التوصل إلى «حل الأزمات التي تجتاح الدول المسيحية والدول العثمانية»[٣].

---

(١) رفيق شاكر، مرجع سابق، ص٨٦؛ وأحمد سوسة، مرجع سابق، ص٧٢١ - ٧٢٢؛ في ذلك الوقت وجه (بالمرستون) وزير خارجية بريطانيا رسالة إلى نائب القنصل الإنجليزي في القدس جاء فيها: «كن حامياً لليهود بصورة عامة». وفي سنة ١٨٤٠م كتب (بالمرستون) أيضاً إلى سفير جلالة الملك في إستانبول رسالةً يقول فيها: «من الواضح أنّه سيكون للسلطان مصلحة كبيرة في أن يشجع اليهود على أن يعودوا إلى فلسطين، وأن يستقروا فيها.. احمل هذه الفكرة سِرّاً إلى الحاكم التركي، واطلب منه في صراحة تامة أن يشجع يهود أوروبا على العودة إلى فلسطين. (أحمد سوسة، ص٧٢١) في هذا الصدد جاء على لسان الكاتب اليهودي البريطاني (زانغويل) تأكيدٌ للسعي نحو هذا الهدف قوله: «الآن، وليس في وقت آخر، هو فرصة إسرائيل.. فهناك تغييرات كثيرة.. لن ننتظر لا اليهودي ولا فلسطين بعد أن حملت قناة السويس العالم إلى أبواب فلسطين.. لقد كان وقوع فلسطين على الشاطئ الشرقي للبحر المتوسط عند نقطة الالتقاء بين الشرق والغرب، ذا أهمية قصوى، استراتيجية وتجارية بالنسبة إلى أي دولة أوروبية، تدفعها للسعي إلى امتلاكها.

(٢) خيرية قاسمية، مرجع سابق، ص١٨.

(٣) أمين عبد الله، مرجع سابق، ص١٧ - ٢١.

أيضاً كان من أشد المتحمّسين لإنشاء دولة يهودية في فلسطين (شارك هنري تشرشل) حيث قام بمطالبة بلاده باحتلال سوريا وفلسطين فكتب يقول: «إنْ كنّا نريدُ الإسراع في تقدم المدنية وتوطيد سياسة إنجلترا في الشرق، فمن الواجب أن تقعَ سوريا ومصر تحت سيطرتها ونفوذها بهذا الشكل أو ذاك»[1].

ومن هؤلاء البريطانيين المتحمسين لإنشاء وطن قومي لليهود في فلسطين أيضاً (إدوارد ميتفورد) الذي قدم مذكرة إلى المحكمة البريطانية عام ١٨٤٥م يطلبُ فيها «إعادة توطين اليهود في فلسطين بأي ثمن، وإقامة دولة خاصة بهم تحت الحماية البريطانية» وجاء في المذكرة: «إنّ إقامة مثل هذه الدولة يحقق فوائد لبريطانية.. حيث تصبح الممرات المائية لمواصلاتنا البخارية المتجهة نحو الشرق بين أيدينا كلياً... كما سيحقق لنا مكانة قوية نستطيع من خلالها العمل على وقف ودحر أية محاولة من أعدائنا للتحكم في منطقة الشرق»[2].

ثم ظهر الحاخام (بيباس) الذي قدم المشاريع لاستيطان فلسطين، وكان هذا الحاخام هو كبير الحاخامات في جزيرة (كوربو) الواقعة ببحر إيجة[3].

في هذه الأثناء ظهر دور العديد من العائلات الكبيرة اليهودية في العمل على تمويل اليهود ومساعدتهم في الهجرة إلى فلسطين، مثل عائلة (كاموندو) التي ساهمت في الارتقاء بالأوضاع الاقتصادية في فلسطين، وبعض الشخصيات اليهودية أمثال (موشيه مونتفيوري) وعائلة (روتشليد) والأخوين (بريرة) و(دي بيجوتو) وغيرهم، كما ساهم أيضاً يهود تركيا وأوروبا وشمال أفريقيا في سبيل تحقيق الهجرة إلى فلسطين[4].

في نفس هذا العام ١٨٤٠م وقعت حادثة دمشق التي اعتبرها المؤوخون

---

(١) أمين عبد الله، مرجع سابق، ص٢٣؛ نقلاً عن شارك هنري تشرشل ـ جبل لبنان، ١٨٥٣م.

(٢) المرجع السابق، ص٢٤ ـ ٢٥.

(٣) انظر، صموئيل إتينجر، مرجع سابق، ص٢٢٦.

(٤) المرجع السابق، ص١٩١.

نقطة تحول في تاريخ اليهود في العصر الحديث، إذ أظهرت هذه الحادثة العلاقة بين يهود الشرق والغرب ومضمون هذه الحادثة هو اختفاء القسيس (توما الكبوشي) وخادمه المسلم، حيث وجهت تهمة اختفائهما إلى اليهود، حيث اتهموا بقتل القسيس بغرض شرب دمه في عيد الفصح(١)، وقد هبَّ يهود أوروبا بتقديم كل وسائل المساعدة إلى يهود الشرق، كما قامت الدول العظمى (بريطانيا وفرنسا) بتكثيف وجودها في المنطقة حيث كانت علاقة التوتر تسود العلاقات الإنجليزية الفرنسية، فقامت فرنسا بإدانة اليهود في هذه الحادثة، وقام مندوبو فرنسا في دمشق باعتقال قادة اليهود في دمشق، ثم قامت لجنة مبعوثي الطوائف اليهودية في إنجلترا بتنظيم أنشطة مناهضة لتلك الحادثة، وقام اليهود في نفس الوقت بتنظيم حملة دبلوماسية لإدانة الحادثة، وتوجّه وفد من يهود أوروبا برئاسة (كرمييه) و(منتيفيوري) وقد التقى هذا الوفد بالمسؤولين الأتراك الذين أصدروا فرماناً تركياً يدين المذبحة، وأمر بإطلاق سراح المتهمين اليهود(٢).

كانت هذه الحادثة هي نقطة التحول التي وجهت اهتمام الغرب بيهود الشرق، وتقديم كافة المساعدات الاقتصادية والسياسية والعلمية لهم، كما قاموا بتقديم تقاريرهم واقتراحاتهم بشأن حلّ المشكلات التي يواجهونها في الشرق، وطالبت تقاريرُها يهودَ أوروبا بمساعدة يهود الشرق، والعمل على نشر الفكر الغربي الحديث بينهم، الأمر الذي أدى إلى احتجاج حاخامات اليهود من ظهور هذه الأفكار الغربية عليهم، معلنين تمسكهم ومحافظتهم على تقاليدهم وعاداتهم الدينية وملابسهم المألوفة لديهم، رافضين الملابس الأوروبية والعادات الخارجة عن الشرق(٣).

أدى هذا إلى التأثير في فكر الدولة العثمانية إلى إنشاء الصحف وخطوط

---

(١) انظر الكنز المرصود في قواعد التلمود، ص١١٥، ط. دار القلم بدمشق. (الناشر)

(٢) صموئيل إتينجر، مرجع سابق، ص٢١١ يقول الكاتب: إنّ هذه الحادثة كانت مكيدة دبرها لهم المبشرون الفرنسيون في المدينة، (رفيق شاكر، مرجع سابق، ص٩٥، نقلاً عن جورج أنطونيوس؛ يقظة العرب، ص١٧٥ - ١٧٦، دار العلم للملايين - بيروت).

(٣) صموئيل إتينجر، ص٢١٤.

التليفون والتلغراف، ولعب الدبلوماسيون الأجانب والقوى العظمى دوراً في تغيير الأوضاع بالدولة، كما قامت الإرساليات التبشيرية بتأسيس المؤسسات التعليمية والصحية والخيرية، وتوزيع نسخ من العهد الجديد، ومنح المساعدات الاقتصادية لهم[(١)].

وفي عام ١٨٤١م كتب (بالمرستون) إلى سفير بريطانية في إستانبول يطلب منه الاتصال بالحكومة العثمانية لإقناعها بتغيير موقفها تجاه الهجرة اليهودية، والسماح لهم بالإقامة في فلسطين ولو لفترة محدودة كعشرين سنة مثلاً[(٢)].

وفي النصف الثاني من القرن التاسع عشر توالت مشروعات إعادة توطين اليهود في فلسطين من إنجلترا وفرنسا وإيطاليا وألمانيا وروسيا وأمريكا، وكلّها تعبّر عن الأهمية السياسية والاستراتيجية للأراضي المقدسة.

وفي عام ١٨٤٥م أكد حاكم جنوب أستراليا رأياً يقول فيه: إن استقرار الأوضاع في آسيا العثمانية لن يتحقق إلا بإنشاء مستعمرات لليهود في المنطقة[(٣)].

وفي عام ١٨٤٩م نجح (موشيه مونتفيوري) اليهودي البريطاني في الحصول على فرمان من السلطان عبد المجيد بشراء بعض الأراضي في فلسطين.

وفي عام ١٨٥٥م تمكن (مونتفيوري) من شراء أول قطعة أرض في القدس كان من المفترض أن يبنى عليها مستشفى، إلا أنّه أقام بدلاً منها حياً سكنياً لليهود، وكان ذلك أوّلَ حي يهودي يقام في القدس وعُرف باسم (حي مونتفيوري)[(٤)].

قال (جيمس نيل) في كتابه (النزوح إلى فلسطين) أو (جمع شمل إسرائيل

---

(١) صموئيل إتينجر، مرجع سابق، ص٢١٤ـ٢١٧.

(٢) محمد الخير عبد القادر، مرجع سابق، ص٨٨.

(٣) عمر عبد العزيز، مرجع سابق، ص٤٧٩.

(٤) انظر رفيق شاكر، مرجع سابق، ص٩٧، نقلاً عن حسن صبري الخولي؛ سياسة الاستعمار والصهيونية تجاه فلسطين في النصف الأول من القرن العشرين. م. ١، ص٨٣؛ وحسان حلاق، مرجع سابق، ص٤٧.

المشردة) سنة ١٨٧٧م: «إنّ احتمال إمكانية استيطان الإنجليز أرضَ فلسطين بنفس النجاح الذي استوطنوا به أمريكا الشمالية بعيدٌ جداً، وذلك بسبب حرارة الجو، والصعوبات التي يقيمها العرب، والافتقار إلى حماية فعالة وكثير غير ذلك. لهذا فهو يقترح أن يستخدم اليهود لتحقيق هذا الهدف»[١].

وبين سنوات (١٨٥٩م و ١٨٦٩م) كان لإنشاء قناة السويس أثر كبير في توجيه سياسة بريطانيا نحو فلسطين بهدف اتخاذها قاعدةً لحماية القناة، فقاموا بتشجيع وتأييد اليهود نحو استعمارها[٢].

وفي عام ١٨٦٤م أسس الحاخام (هيرش) جمعية استعمار أرض إسرائيل بالتعاون مع (الإليانس الإسرائيلي العالمي)[٣].

أقامت هذه الجمعية عام ١٨٧٠م أول مدرسة زراعية يهودية في فلسطين تدعى (مدرسة نيتر) عند مدخل مدينة يافا، وقد قامت هذه الجمعية على أسس

---

(١) أحمد سوسة، مرجع سابق، ص٧٢٣، نقلاً عن يوري إيفانوف في كتابه (حذار من الصهيونية) ترجمة محمد كامل عارف، ص٤٥ـ٤٦.

(٢) جاء في (مذكرات تشرشل) في هذه المناسبة قوله: «إذا أتيحَ لنا في حياتنا، وهو ما سيقع حتماً، أن نشهدَ مولد دولة يهودية، لا في فلسطين وحدها، بل على ضفتي نهر الأردن معاً، تقوم تحت حماية التاج البريطاني، وتضم نحواً من ثلاثة أو أربعة ملايين من اليهود، فإننا سنشهد وقوعَ حادث يتفق تمام الاتفاق مع المصالح الحيوية للإمبراطورية البريطانية» أحمد سوسة، مرجع سابق، ٧٢٤.

(٣) موريس دي هيرش ١٨٣١ـ١٨٩٦م مليونير ألماني يهودي، تلقّى في صباه دراسةً دينيةً، وتعلّم العبرية، وساهم في تمويل عملية بناء سكك حديدية في تركيا وروسيا بلغت ثروته عام ١٨٩٠م عشرة ملايين جنيه، تبرّع للإليانس بمبلغ (٢٠٠) ألف جنيه، أسس جماعات للمساهمة في تحويل اليهود إلى قطاع اقتصادي منتج عن طريق تعليمهم الزراعة والحرب وتهجيرهم إلى الولايات المتحدة وكندا والبرازيل والأرجنتين، حاول أحباء صهيون وهرتزل أن يطلبوا منه تمويلاً لمشاريعهم، وبعد موته عبّر هرتزل عن حزنه لفقدانه، إلا أنّ جمعية الاستيطان اليهودي التي أسسها ظلت مستمرة، وفي عام ١٩٢٣م تم دمجها مع مؤسسة روتشيلد، وكانت تمتلك هذه الجمعية في فترة ١٩٢٢ـ١٩٤٨م مساحة (٤٥) ألف دونم؛ (عبد الوهاب المسيري، موسوعة المفاهيم والمصطلحات الصهيونية، مرجع سابق، ص٤٢٤).

دينية علمية، وهذا الشخص (هيرش) هو الذي تدخل لدى السلطات العثمانية من أجل إطلاق سراح (٤٠٠) مهاجر يهودي كانوا في السجن لاتهامهم بدخول فلسطين بطرق غير شرعية[١].

وعندما مات البارون اليهودي (هيرش) أوصى بمئتين وخمسين مليون فرنك من أجل إقامة وطن لليهود، وقد كان اليهود مضطهدين آنذاك في كل من أوروبا الشرقية وروسيا. وكان (هيرش) قد تصور الأرجنتين مكاناً لهذا الوطن، لأنّها كانت تقبل المهاجرين من كل أنحاء العالم. فتكوّنت جمعية لتنفيذ وصية هيرش، لكنّ الجمعية لم تجد الأرجنتين صالحة للغرض المطلوب، وخاصة بعد أن تدخّل (تيودور هرتزل) في المسألة اليهودية، واستُبْعِدَتِ الأرجنتين تماماً. وبذلك لم تعد المسألة إقامة وطن لليهود الشرقيين فقط، بل وطن يهودي لكلّ يهود العالم. وطُرحت فلسطين مقراً لذلك الوطن. وانطلاقاً من هذا، قام اليهود باللجوء إلى السلطان عبد الحميد طالبين منه السماح لليهود بإقامة وطن لهم في القدس، باعتبارها جزءاً من الدولة العثمانية، وكان (روتشيلد) خلف هذا التحرك[٢].

وفي عام ١٨٦٥م أُنشِئَ صندوق استكشاف فلسطين برعاية (الملكة فكتوريا) قام هذا الصندوق بتزويد العسكريين البريطانيين بمعلومات هامة في مختلف النواحي الجغرافية والتاريخية والسياسية بغرض مدّ النفوذ الاستعماري البريطاني في المنطقة التي كانت تطمع فيها قوى أوروبية أخرى مثل فرنسا وروسيا، وقد أعلن السياسيون الإنجليز المشرفون على هذا الصندوق أنّ طابع هذا الصندوق ديني علمي، لكنّ الحقيقة الخافية أنّه كان يلعب دوراً رئيساً في الاستعمار البريطاني للمنطقة من ناحية، والاستيطان اليهودي في فلسطين من ناحية أخرى[٣].

---

(١) حسان علي حلاق، مرجع سابق، ص٣٥ وص١٢٤؛ ورفيق شاكر، مرجع سابق، ص١٠٥.

(٢) مذكرات السلطان عبد الحميد، محمد حرب، دار الوثائق، مرجع سابق، ص٨٦ ـ ٨٧.

(٣) أمين عبد الله، مرجع سابق، ص٣٧.

كانت تقارير هذا الصندوق تتضمّنُ دراسات عن ضرورة عودة اليهود إلى فلسطين، وكان من أهم هذه الدراسات (إحياء القدس) ومذكرات (عملية مسح فلسطين) وكتاب (أرض الميعاد) الذي نشر عام ١٨٧٥م والذي دعا إلى تولّي شركة الهند الشرقية تنميةَ موارد فلسطين، وخاصة مواردها الزراعية والتجارية، وتدريب المستوطنين اليهود على إدارة شؤونهم تمهيداً لتسلمهم حكم فلسطين وإدارة شؤونها[١].

وفي عام ١٨٧٥م زاد النشاط الصهيوني البريطاني نتيجة شراء بريطانية أسهم قناة السويس، وكانت أموالُ هذه الصفقة أموالاً يهودية وليست بريطانية حيث تمت عملية الشراء من قبل (دزرائيلي) رئيس الوزراء البريطاني اليهودي وأموال عائلة (روتشيلد) اليهودية أيضاً[٢].

في تلك الفترة ظهرت المعارضة العربية نتيجة لاستئجار اليهود أراضي في فلسطين فتأسست عام ١٨٧٥م أول حركة قومية ضد النشاط الصهيوني، وكانت هذه الحركة سرية، وكان شعارها (تنبهوا واستفيقوا أيها العرب) وكان نشاطها يتمثل في الدعـوة للتحرر من الصهيونيـة عن طريق عقد الاجتماعات وتوزيـع المنشورات.

وفي عام ١٨٧٧م نشر (دزرائيلي) مذكرةً جاء فيها: «أليس محتملٌ أن ينمو في تلك الأرض خلال نصف قرن مثلاً شعبٌ يهودي متراص، قوامُه مليون إنسان بكامل عدتهم، يتكلّمون لغةً واحدةً ـ لغة حاميتهم إنجلترا ـ وتحرّكهم روحٌ واحدة ـ الروح القومية النموذجية، والرغبة في تحقيق الحكم الذاتي والاستقلالي؟»[٣].

وفي عام ١٨٧٨م تأسست الجمعية الخيرية في دمشق، وكانت تدار بها حلقات سياسية، وكانت تجري اتصالات مع أعضاء (تركيا الفتاة) فبرزت أسماء منها: الشيخ (طاهر الجزائري)، و(رفيق العظم)، والشيخ (سليم البخاري)،

---

(١) أمين عبد الله، مرجع سابق، ص٣٨.
(٢) حسان حلاق، مرجع سابق، ص٣٤١.
(٣) أمين عبد الله، مرجع سابق، ص٣٣.

والشيخ (جمال الدين القاسمي)، و(عطا الكيلاني)، والأمير (شكيب أرسلان) و(محمد كرد علي) وغيرهم. أما أعضاء تركيا الفتاة فبرز كل من: (أسعد بك درويش الطرابلسي)، و(سليم بك الجزائري)، و(شكري العسلي)، و(فارس الخوري)، ومن الأتراك الذين كانوا يتعاونون معهم: (بدري بك)، و(حسن عوني بك)، وقد كان الهدف من هذه الحلقات هو العمل على نشر الدستور العثماني، بعد ذلك تحولت هذه الجمعيات إلى مراكز للماسونية، وأصبح اليهود من خلالها يخططون لأجل تحقيق هدفهم نحو إقامة الدولة اليهودية في فلسطين. ومن ناحية أخرى استطاع اليهودُ في ذلك الوقت شراءَ أراضٍ في قرية تسمى (ملبس) كما قاموا بإنشاء مستوطنة (بتاح تكفا) التي أطلق عليها اسم أم المستوطنات[١].

ومن أهم الشخصيات البريطانية أيضاً التي تعاطفت مع اليهود، ورأت ضرورة استيطانهم فلسطين (لورنس أوليفانت) الذي كان يعمل في السلك الدبلوماسي البريطاني، وكان مراسلاً لصحيفة (التايمز) اللندنية، حيث دعا بريطانيا لدعم وتأييد مشروعه الرامي لـ(إنقاذ الدولة العثمانية من مشاكلها المستعصية عن طريق ضخ عناصر اقتصادية نشطة في جسمها المتهاوي) وكان العنصر المقصود بالطبع هو العنصر اليهودي، وقد طلب وساطة السفير الأمريكي في تدعيم مشروعه هذا[٢].

وتوجه (لورنس أوليفانت) إلى إستانبول، وقابل السلطان عبد الحميد، وطالب السلطان بإنشاء شركة استيطان يهودية، وقد جاء قوله في هذا الصدد: «إنّ الأمة التي تقف إلى جانب اليهود، وتدعم مسألة عودتهم إلى فلسطين ستكسب دعمهم في المجالات المالية، وتأييدهم على الصعيد الإعلامي في مختلف بلدان العالم، وبالإضافة إلى ذلك فإنّ اليهود يقدّمون لهذه الأمة كلّ دعمٍ ممكن في المجال السياسي، ويعاضدونها ضدّ أية دولة معادية»[٣].

---

(١) أمين عبد الله، مرجع سابق، ص٦٣.

(٢) المرجع السابق، ص٣٤؛ ورفيق شاكر، مرجع سابق، ص١٠١.

(٣) أمين عبد الله، مرجع سابق، ص٣٤ ـ ٣٥. يقول السلطان عبد الحميد في مذكراته بخصوص مساعدات الإنجليز لليهود والتي أدت في النهاية إلى عزله عن الحكم: =

ودعا (أوليفانت) إلى طرد العرب من فلسطين، ليعودوا رعاةً (كما كانوا في الواحات الصحراوية، وهم ليسوا بحاجة (إلى أكثر من إبلهم ومواشيهم لتسدَّ أَوَدَهُم). وقد صدم من موقف السلطان الذي رفض مشروعه، فراح ينشر الدعايات ضده، فما كان من السلطان إلا أن طرده من إستانبول ومنعه من دخولها[1].

قام (إدموند روتشيلد) وهو من أشهر الممولين اليهود في عام ١٨٨٢م بتأسيس (منظمة الاستعمار اليهودي) بهدف تقديم الأموال لليهود الراغبين في الهجرة إلى فلسطين وشراء الأراضي وإقامة المستعمرات فيها، وتمكن من إنشاء اثنتين وأربعين مستعمرة في فلسطين، وقد تمَّ الإعلانُ عن هذه المنظمة رسمياً عام ١٩٠٠م[2].

وقد شرح القنصلُ البريطانيُّ في القدس من خلال رسالته إلى السفير (أوكونر) في إستانبول موقف الدولة العثمانية من تدفق اليهود إلى فلسطين بقوله: إنّه حين اضطهد اليهود في روسيا سنة (١٨٨١م - ١٨٨٢م) لم يكن للسكان اليهود في فلسطين أية أهمية... ولكن منذ ١٨٨٢م بدأ تيار الهجرة يتدفق... ومرت خمس سنوات قبل أن تتحقق الحكومة التركية من أنّ هناك خطراً ينجم عن استيطان اليهود الأجانب بأعداد كبيرة داخل إقليمها. وتأسست عام ١٨٨٢م في أورشليم مدرسةً كبيرةً بمساعدة جمعية (المنتاجو) في لندن، وتعدّ في مقدمة مدارس الاتحاد الإسرائيلي، وكان غرضها تعليم الشباب الإسرائيلي[3].

وفي عام ١٨٨٤م اشتدّ تأييد بريطانية لليهود من أجل توطينهم في فلسطين، فظهر (ويليام هشلر) وهو من كبار رجال الدين في إنجلترا، حيث كان يغلب عليه الطابع الصوفي، وقد أوفدته إنجلترا لمقابلة السلطان عبد الحميد، لإقناعه بعودة

= «أسقطني اتحاديو سلانيك عن العرش، وتوصلوا إلى اتفاقية مع الإنجليز، ودخلوا الحرب كحليف مع دولة تسود البحار (ألمانيا) وكأنّ المسألة حلم»، (مذكرات السلطان عبد الحميد، تقديم وترجمة محمد حرب، دار القلم، مرجع سابق، ص١٥١.

(١) أمين عبد الله، مرجع سابق، ص٣٥؛ وحسان علي، مرجع سابق، ص١٢٢.
(٢) عبد العزيز الشناوي، مرجع سابق: ٢/ ٩٩٣.
(٣) شاهين مكاريوس، تاريخ الإسرائيليين، مرجع سابق، ص٧٠٨ - ٧١٠.

اليهود إلى فلسطين، وقد نشرت له دراسة في هذا الصدد[١].

وفي عام ١٨٨٧م أصدرت الحكومة العثمانية الأوامر الأولى بشأن هجرة اليهود إلى فلسطين، وكانت هذه الأوامر موجهة إلى حكّام (القدس) و(يافا) حيث سمحت لليهود بالدخول إلى البلاد كحجاج أو زوّار فقط، وكان على كلّ يهودي أن يصل إلى يافا أن يدفع (٥٠) ليرة تركية كتعهد بترك البلاد خلال (٣١) يوماً. وقد بررت الدولة العثمانية هذا المنع لما يلحق بالبلاد من ضرر على الأحوال الصحية وعلى أحوال الأمن العام.

وفي تعليق للسفير البريطاني في إستانبول (أُوكُونُر) حول هذا الموضوع، والتي تضمنها في رسالته إلى وزير الخارجية البريطانية جاء فيها في «إنّ السلطات التركية لها بعض العذر في ذلك. . . فغالبية اليهود الذين يصلون فلسطين هم من الطبقة المهاجرة والمعدمة، والمؤسسات الخيرية المتعددة لإيواء وإعاشة مثل هؤلاء اليهود هي برهانٌ واضح على ذلك، ونظام (التسول الديني) الذي تشجعه الحاخامية لجمع التبرعات في كل أنحاء العالم بهدف إعاشة اليهود الفقراء، هو تأكيد أبعد عن الحالة العامة للمجتمع اليهودي في فلسطين، هذا النظام المعروف باسم (حالوقاه)[٢] هو أكثر المؤسسات ضرراً لكونها تشجّع على النهب والكسل. . .»[٣].

---

(١) أمين عبد الله، مرجع سابق، ص٣٦ ـ ٣٧؛ كتب (ويليام هشلر) كتاباً ينادي فيه بعودة اليهود إلى وطنهم الأصلي، وكان هذا الكتاب بعنوان (إرجاع اليهود إلى فلسطين حسبما ورد في أسفار الأنبياء)، وقد ظهر هذا الكتاب عام ١٨٨٤م. دعا فيه إلى عودة اليهود إلى فلسطين، وقدم خريطة لفلسطين وصفها هرتزل أنها (خريطة عسكرية متداخلة) واقترح هشلر على هرتزل أن تتسع (الدولة اليهودية) المقترحة لتصل حدودها إلى (قبادوكيا) (الواقعة في شرق آسيا الصغرى) شمالاً، وقناة السويس جنوباً بالإضافة إلى الضفة الشرقية لنهر الأردن لتتاخم حدودها الشرقية الحدود العراقية، وكان البحر الأبيض المتوسط يشكل حدودها الغربية.

(٢) (الحالوقاه) هي كلمة عبرية بمعنى توزيع، وهي المساعدة المالية التي كان يرسلها اليهود لإخوانهم الذين استوطنوا فلسطين ليكرسوا حياتهم للتعبد، ودراسة التلمود، وهي تعني الصدقة (عبدالوهاب المسيري، موسوعة المصطلحات الصهيونية، ص١٦٤).

(٣) خيرية قاسمية، مرجع سابق، ص٢٣ ـ ٢٤.

والجدير بالذكر أن هجرة اليهـود إلى فلسطين التي استمرت بين سنتي (١٨٨٢ و١٩٠٣م) بلغت (٢٠) ألف مهاجر سكنوا مناطق القدس والخليل وصفد وطبريا[١].

وفي عام ١٨٩٢م أصدر صندوق استكشاف فلسطين الذي كان تحت رعاية الملكة فيكتوريا عدداً من الكتب والدراسات التي تعمل على تشجيع اليهود للعودة إلى فلسطين[٢].

---

(١) انظر مجلة الشراع، عدد (٢٨٦) تاريخ ١٤/٩/١٩٨٧، ص٥٦، نقلاً عن كتاب جهاد صالح؛ الطورانية التركية بين الأصولية والفاشية، دار الصداقة.

(٢) من إصدارات هـذا الصندوق (كتاب المدينـة والأرض) جـاء فيه: «كنا نستعيد مجد فلسطين في عهد هيرودس، كنا نستعيد بلاد داود، ونرد إلى الخارطة أسماء المدن التي دمرها القائد العظيم يوشع. لقد أعدنا إلى القدس مكانتها ومجدها وفخامتها، لقد أعدنا البلاد (فلسطين) إلى العالم بالخارطة والأسماء والأماكن المذكورة في التوراة. عندما وضعت الأسماء في أماكنها أصبح في وسعنا تتبع سير الجيوش في زحفها». (انظر أمين عبد الله، مرجع سابق، ص٣٩؛ وكتاب (مستقبل فلسطين) الذي جاء فيه: «إنّ عدد اليهود في مدينة القدس عام ١٧٩٣م لم يكن يتجاوز بضع مئات، أما في عام ١٨٩٢م فقد بلغ عددهم أربعين ألفاً، وأصبحوا يسيطرون على التجارة في المدينة، ولم يعد اليهود أقلية مضطهدة وجبانة، وإنما يبدو أنهم سادة المدينة الآن»، ثم انتقل كوندر في حديثه إلى مستقبل فلسطين قائلاً: «إنّ الذي نتوقع أن نراه في فلسطين - إذا كان مستقبلها سليماً - هو زيادة تدريجية في عدد السكان المزارعين وانتشار (المستوطنات) المزدهرة. ولن يحول وجود الأتراك دون هذا التقدم وإن كان من الممكن أن يحدّ من سرعته. وكلما ازداد رأس المال الأوروبي والمستعمرون الأوروبيون في البلاد، ازداد دخولها في دائرة الدول التي تنبثق من جسم الترك (الإمبراطورية العثمانية). وإنّ أية محاولة عنيفة للتدخل في تطور بلد - يستطيع إعالة شعب كبير مزدهر - تطوراً سليماً، ستؤدي حتماً إلى حدوث (مشكلة فلسطينية) هائلة ينبغي حلها في كركميش ومجدو. وفي الوقت نفسه لا تعتمد عودة اليهود على أي عرق سوى عرقهم، وقد بدؤوا يعودون وينوون العودة بأعداد كبيرة، لأنّ معارضة الحكومات لا يمكن أن تعوق مثل هذه الحركة، وإنما قد تنظمها على نحو يكون فيه صلاحها. إنّ نتيجة أي مشروع مهما بدا صغيراً في مظهره، لا يمكن حسابها حتى تظهر جليةً للعيان. لقد بدأ صندوق استكشاف فلسطين عمله، وهدفه الوحيد إلقاء ضوء أجد وأدق على التوراة، ومع ذلك فقد أصبح أداة رئيسة لمساعدة =

وعلى صعيدٍ آخر فقد حاول هرتزل استغلال تأييد الإنجليز لاستعمار العريش كخطوة لاستعمار فلسطين، فأخذ موافقة (جوزيف تشمبرلين) وزير المستعمرات البريطاني، وحصل على موافقة اللورد كرومر مندوب بريطانيا السامي في مصر، الذي قرر بدوره إيفاد بعثة من الخبراء لدراسة هذا المشروع، وقد تعرقل هذا المشروع بسبب صعوبة ري الصحراء من مياه النيل.

وبعد فشل هذا المشروع اقترحت إنجلترا مشروعَ استيطان اليهود (أوغندا) في أفريقيا وبعض أجزاء من (الكونغو)، لكنّ رُفِضَ هذا المشروعُ من قبل (هرتزل) لأنّ آماله كانت منعقدة على فلسطين.

تطور علاقة بريطانية باليهود من أجل تمكينهم من استعمار فلسطين بعد القضاء على الخلافة العثمانية: خلال الفترة (١٩٠٧-١٩٤٨م):

سعت بريطانيا منذ عام ١٩٠٧م للقضاء على عروبة فلسطين، لتقيم عليها دولة إسرائيل، فكانت تقوم بالتنسيق مع الصهيونية من أجل تحقيق هذا الغرض، وساعدت الصهيونية في القضاء على الخلافة الإسلامية في الدولة العثمانية، وذلك بهدف تقسيم أملاكها، وتحقيق أهدافها الاستعمارية، وفي سبيل تنفيذ هذه الأهداف عقدت الاتفاقات مع غيرها من الدول الأوروبية لتمزيق الدولة العثمانية وتقسيمها.

١-اتفاقية (سايكس بيكو) وأثرها على اليهود في تركيا:

في عامي (١٩١٥م-١٩١٦م) حدثت محادثات سرية بين بريطانيا وفرنسا وروسيا أدت إلى توقيع اتفاقية بين ممثل بريطانيا سايكس وممثل فرنسا بيكو، وكان ذلك عام ١٩١٦م ذلك الاتفاق الذي قام على تصفية الدولة العثمانية، وتقسيم البلاد العربية بين بريطانيا وفرنسا، والذي عُرِفَ باسم (معاهدة سايكس

= أولئك الذين سيكونون سكان البلاد في المستقبل في الحصول على الحقائق الثابتة عن طاقات وإمكانات البلاد. وهكذا قدم خدمة جليلة للعمل السلمي المخلص لتحقيق الازدهار وإزالة الفقر من البلاد. (انظر أمين عبد الله، مرجع سابق، ص٣٩-٤٠).

بيكو)[1] وقضت هذه الاتفاقية بالآتي:

١ ـ أن تستولي فرنسا على غربي سوريا ولبنان.

٢ ـ تستولي بريطانيا على جنوب ووسط العراق والمناطق الفلسطينية.

٣ ـ جعل القسم الشرقي من سوريا وولاية الموصل العراقية منطقة نفوذ لفرنسا.

٤ ـ أن تصبحَ منطقة شرقي الأردن والقسم الشمالي من ولاية بغداد منطقة نفوذ بريطانيا[٢]. وقد استهدفت هذه الاتفاقية شراء الشركات التركية في كل مكان، وكانت (اتفاقية سايكس بيكو) هي إحدى الاتفاقيات التي كان لها تأثيرها على اليهود في الدولة حيث قامت الأوساط الصهيونية بتنشيط الهجرة اليهودية إلى فلسطين[٣].

إلا أن هذه المعاهدة لم تطبق بسبب التنافس بين الدول الاستعمارية على ممتلكات الدولة العثمانية، وبعد عدد من المفاوضات بين إنجلترا وفرنسا، تنازلت فرنسا عن الموصل، ووافقت على تصريح بلفور والانتداب البريطاني على فلسطين، وفي المقابل وافقت بريطانيا على سيطرة فرنسا على سوريا بأكملها، مع منحها ربع نفط الموصل، ونتيجةً لتلك الاتفاقات، وضعت خطوط معاهدة (سيفر)، وتم انتدابُ بريطانيا على فلسطين (بموجب تصريح بلفور) والعراق، وانتداب فرنسا على سوريا ولبنان[٤].

٢ ـ وعد بلفور وأثره على اليهود في تركيا:

في عام ١٩١٧م صدر وعد بلفور، وهو كتابٌ موجه من (آرثر بلفور) وزير

---

(١) محمد سرحان، النظام العثماني، ص١٢٠.
(٢) المرجع السابق، ص٩٣.
(٣) المرجع السابق، ص٩٧.
(٤) فلسطين تاريخُها وقضيتها، مؤسسة الدراسات الفلسطينية، ط١، ١٩٨٣م ـ قبرص ـ ص٤٣.

خارجية بريطانيا نيابةً عن حكومته(١)، إلى (لورد روتشيلد) وقد جاء فيه:

عزيزي لورد روتشيلد:

«إنّ حكومة جلالة الملك تنظر بعين العطف إلى تأسيس وطن قومي للشعب اليهودي في فلسطين، وستبذلُ جهدها لتسهيل تحقيق هذه الغاية، على أن يفهمَ جليّاً إنه لن يؤتى بعمل من شأنه أن يغيّر الحقوقَ المدنية والدينية التي تتمتع بها الطوائف غير اليهودية المقيمة الآن في فلسطين، ولا الحقوق أو الوضع السياسي الذي يستمتع به اليهود في البلدان الأخرى»(٢).

لقد كان إصدار وعد بلفور تتويجاً لجهود قادة الحركة الصهيونية في لندن بقيادة (حاييم وايزمان) وكان التمهيد لوعد بلفور بدأ من شهر نوفمبر سنة ١٩١٤م في رسالة (C.P.scott) إلى (لويد جورج) التي ربطت بين مصلحة الصهيونية والمصالح البريطانية ممثلة في حماية قناة السويس، ولكنّ النشاط الحقيقي لقادة الصهيونية في سبيل الحصول على وعد رسمي بدأ منذ مطلع عام ١٩١٦م عندما كُوِّنت أولُ لجنة رسمية في يناير في ذلك العام من (وايزمان) و(سوكولوف) و(جوزيف كوين) و(دكتور جاستر) و(هربرت ينتوتش) بالتعاون الوثيق مع أسرة (روتشيلد) اليهودية و(هربرت صمويل) و(آحاد هاعام) وتلا ذلك نشاط صهيوني على كافّة المستويات، امتد إلى بداية سنة ١٩١٧م، وكان من نتائجه مذكرة اللجنة الصهيونية التي قدمها وايزمان إلى السير (مارك سايكس) للحصول على اعتراف رسمي من الحكومة البريطانية بالجالية اليهودية في فلسطين، مع إيضاح أنّ

---

(١) صدر بيان مثير بشأن هذا الوعد حيث كشفت جريدة الأهرام المصرية أنّ الذي وضع صيغة هذا الوعد لإقامة وطن قومي لليهود في فلسطين هو من أصل يهودي، لكنّه أخفى هذه الحقيقة طوال حياته، وقد كتب في مذكراته التي نشرت عام ١٩٥٥م أن أسرته هاجرت إلى بريطانيا من دولة غربية، ويدعى هذا اليهودي (ليوبولد إيمري) حيث إنّه كان يشغل منصب مساعد وزير الحرب البريطاني عام ١٩١٧م وفي ذلك الوقت كتب الوعد، وقدمه إلى لورد بلفور وزير الخارجية البريطاني، والذي عرف الوعد باسمه، وقد كشف عن هذه الحقيقة مؤرخٌ بريطاني معروف. (جريدة الأهرام المصرية، ١١/ ١/ ١٩٩٩م).

(٢) فلسطين تاريخها وقضيتها، مرجع سابق، ص٣٧؛ وعمر عبد العزيز عمر، تاريخ المشرق العربي، ١٥٦٦ ـ ١٩٢٢م، دار النهضة العربية ـ القاهرة، ١٩٩٥م، ص٥٠٤.

المقصود بالجالية هم السكان اليهود المقيمون في ذلك الوقت، والمهاجرون الذين يلحقون بهم في المستقبل.

ثم توالت الاتصالات مع المسؤولين البريطانيين وحكومات أوروبا والولايات المتحدة الأمريكية لإصدار وعد بلفور، وهكذا وجدت الأمة العربية نفسها بين شقي الرحى في عام ١٩١٩م، بين زحف فرنسي مسلّح يوشِكُ أن يبدأ لاحتلال سوريا تنفيذاً لاتفاق (سايكس ـ بيكو) وزحف صهيوني محسوبُ الخطى باحتلال فلسطين في المدى البعيد، تنفيذاً لوعد بلفور[١].

وينبغي هنا الإشارة إلى أنّ نصّ هذا الوعد قد عُرض على الرئيس الأمريكي ولسن، ووافق عليه قبل أن ينشر، ووافقت على هذا النص رسمياً كل من فرنسا وإيطاليا عام ١٩١٨م، ثم وافق عليه الرئيس الأمريكي ولسن رسمياً عام ١٩١٩م.

وفي عام ١٩٢٠م وافق عليه (مؤتمر سان ريمو) الذي عقده الحلفاء لوضع خريطة جديدة للعالم بعد الحرب.

وفي نفس هذا العام ١٩٢٠م دخل هذا النص ضمن معاهدة (سيفر) حيث تضمنته المادة رقم (٩٥) من هذه المعاهدة[٢].

وقد عزا البعض صدور هذا التصريح إلى رغبة بريطانيا في دفع الولايات المتحدة الأمريكية إلى دخول الحرب إلى جانبها، وذلك لأنّ اليهود يسيطرون على الرأي العام الأمريكي، وكان هناك نوع من التنافس على كسب ود اليهودية العالمية، وفي الوقت نفسه تجنب عداوتها[٣].

أما شعب فلسطين فقد أطلق عليه في التصريح اسم (الطوائف غير اليهودية) التي لن تضارَّ حقوقها المدنية والدينية، وهذا يعني أنّه لا مجال للحديث عن الحقوق السياسية للشعب العربي في فلسطين، وهو صاحب الكثرة العددية الساحقة آنذاك، وصاحب الأرض التي يُراد انتزاعها لتنتقل ملكيتها إلى القلة

---

(١) محمد الخير عبد القادر، مرجع سابق، ص١٢٣ ـ ١٢٤.
(٢) فلسطين تاريخها وقضيتها، مرجع سابق، ص٣٧.
(٣) عمر عبد العزيز عمر، مرجع سابق، ص٥٠٤ ـ ٥٠٥.

الوافدة من اليهود[١] . في ذلك الوقت تم إطلاقُ يد بريطانيا في فلسطين[٢] .

وقد بلغت نسبة المهاجرين اليهود إلى فلسطين بين سنتي ١٩٠٤ و١٩١٣م من ثلاثين إلى أربعين ألف، معظمهم من اليهود الروس، ووصل عدد المستعمرات إلى (٣٩) مستعمرة يسكنها (١٢) ألف مستوطن[٣] .

وفي عام ١٩١٨م تأسست في فلسطين لجنة صهيونية قامت بعقد مؤتمر سري في يافا، تمّ فيه المطالبة بتغيير اسم فلسطين إلى إسرائيل، واستبدال العلم اليهودي بالعلم الفلسطيني[٤] .

وفي عام ١٩١٩م قدّم المسؤولون في لندن تقريراً جاء فيه: إنّ شعب فلسطين يرفض الانتداب البريطاني إذا كانت بريطانيا ترى أنّه لا مناص من اقتران البرنامج الصهيوني بالانتداب، لأنّ الفلسطينيين يريدون بلادهم لأنفسهم، وأنّهم سيقاومون الهجرة اليهودية إلى فلسطين بكلّ ما يملكون من وسائل بما في ذلك المقاومة المسلحة.

في تلك الفترة قامت الخارجية البريطانية بطلب إلى هربرت صمويل بتوجيهٍ من بلفور طلبت منه إبداءَ رأيه فيما يمكن أن يُتخذَ من تدابير لتخفيف روح العداء التي تواجهها الصهيونية في فلسطين، وذلك بوصفه ـ أي صمويل ـ رئيساً للجنة الإنماء الاقتصادي لفلسطين، وقام صمويل بدوره باستشارة (وايزمان) و(سوكولوف) وهما في باريس، ثم رد على وزارة الخارجية في ٥/٦/١٩١٩م ردّاً يبدو أنَّ إعداده تم برضاه وموافقة الوفد الصهيوني في باريس، وقد نصح صمويل وزارةَ الخارجية أن تؤكد للسلطات الإدارية في فلسطين أنَّ وعد بلفور أصبح جزءاً من السياسة البريطانية المقررة، وأنَّ سياسة بريطانيا تتجه نحو وضع

---

(١) محمد الخير عبد القادر، مرجع سابق، ص١٢٣ ـ ١٢٥؛ وفلسطين وتاريخها وقضيتها، مؤسسة الدراسات الفلسطينية ـ قبرص، ١٩٨٣م، ص٣٨.

(٢) محمد الخير عبد القادر، مرجع سابق، ص١٢٧ .

(٣) مجلة الشراع، عدد (٢٨٦) تاريخ ١٤/٩/١٩٨٧م، ص٥٦. نقلاً عن جهاد صالح؛ الطورانية التركية بين الأصولية والفاشية، دار الصداقة ـ بيروت.

(٤) محمد سرحان، النظام العثماني، مرجع سابق، ص٩٢ .

فلسطين تحت الانتداب البريطاني، وأنّ شروط الانتداب سوف تشمل إعلان ١٩١٧/١١/٢ ـ أي وعد بلفور ـ وأنّ العرب لن يجردوا من أراضيهم أو يطلب منهم مغادرة البلاد، وأنّه لن يكونَ هناك مجال في فلسطين لإخضاع الكثرة من السكان لحكم القلة، وأنّ البرنامج الصهيوني لا يحتوي على مثل هذه الأفكار.

كذلك نصح صمويل لندن أن تصدرَ توجيهاتها إلى المسؤولين لتحذير العرب من إثارة الاضطرابات، لأنّها ليست في مصلحتهم، ولن تحقق لهم غرضاً، وأنّ أموالاً طائلة سوف تتدفق إلى فلسطين تحت الإدارة الجديدة لتنميتها وستجني كافة الطبقات والأجناس ثمرةَ إنفاقِ تلك الثروة[١].

ويرى (آحاد هاعام)[٢] أشهر دعاة الفكرة الصهيونية أنّ الصيغة التي ظهر بها الوعد مخيبة للآمال، لأنها اكتفت بذكر إنشاء (وطن قومي لليهود في فلسطين) بدلاً من النصّ الذي اقترحتْه المنظمة الصهيونية بإعادة بناء الوطن القومي القديم لليهود، والنص الأول في رأي (آحاد هاعام) غير مقبول لأنه يجعل من فلسطين

---

(١) محمد الخير عبد القادر، مرجع سابق، ص١٩٢ ـ ١٩٣.

(٢) (آحاد هاعام) واسمه الحقيقي (أشر جنزبرج) من أشهر دعاة الفكرة الصهيونية في جيله. ولد في روسيا عام ١٨٥٦م، ونشأ في عائلة حسيدية، تلقى تعليماً يهودياً، وتعلّم كثير من اللغات الأوروبية، ومات في تل أبيب سنة ١٩٢٧م، تميّزَ بين أقرانه بالتعمق في دراسة اليهودية، ووضوح الفكر، انضم إلى جمعية أحباء صهيون، ثم أصبح ناقداً للحركة الصهيونية، واختلف مع قادتها في أهدافهم ووسائلهم. وكان له رأي خاص في حركة استيطان فلسطين على عهد البارون (أدموند روتشيلد) في نهاية القرن التاسع عشر. كان يرى أن أسلوب هرتزل في العمل لا يحقق أهداف الصهيونية، وكان يوجه اهتمامه الأكبر إلى تعبئة الجهود المادية والعقلية والتربية الروحية بين اليهود، وهذا في رأيه يتطلب جهداً وصبراً وأناةً، ويتحقق عن طريق تنمية صهيونية ثقافية مبنية على أسس أخلاقية. أسس (آحاد هاعام) جماعة (بني موسى) لنشر المثل القومية اليهودية، وفي عام ١٩١٦م أصدر مجلة عن الأدب العبري الحديث، استقر في لندن عام ١٩٠٨م وكان له دور هام في تحقيق وعد بلفور، لكنّه أدخل على برنامجه الأخذَ بالحقوق القومية لعرب فلسطين. في عام ١٩٢٢م ذهبَ إلى تل أبيب، وبقي هناك حتى وفاته (عبد الوهاب المسيري، موسوعة المفاهيم والمصطلحات الصهيونية، مرجع سابق، ص٥٨ ـ ٥٩)؛ ومحمد الخير عبد القادر، مرجع سابق، ص١٧٧.

وطناً لليهود والعرب على السواء!! ومع ذلك فإنّه رحب بتأييد مؤتمر الصلح في باريس ١٩١٩م لوعد بلفور، واعتبر هذا التأييد بمثابة التزام دولي.

وجدير بالذكر أنّ فلسطين وقت صدور هذا الوعد كانت لا تزالُ تحت السيادة العثمانية، ولم تكن لإنجلترا أية سلطة عليها، سواء كانت قانونية أو تاريخية حتى تتصرّفَ في مصير هذا الإقليم، كما أنَّ عدد عرب فلسطين الذين كانوا يعيشون فيها وقتَ صدور هذا الوعد يصل إلى (٩١٪) من مجموع السكان. أمّا نسبة اليهودِ في ذلك الوقت فكانت (٩٪)، وعلى الرغم من هذا فقد وصف الوعدُ العربَ المقيمين في فلسطين بأنّهم (طوائف غيرُ يهودية) وكأنّ الأصل في سكان فلسطين هم اليهود.

وهناك نقطة أخيرة وهي أنّ هذا التصريح ظهر في الوقت الذي ارتبطت فيه بريطانيا مع الشريف حسين في اتفاقية تنصُّ على مساندة الشريف حسين في إقامة دولة عربية مستقلة تضم فلسطين، وعلى ضوءِ هذا ثار العربُ على الدولة العثمانية من أجلِ نصرة دول الحلفاء عليها، في الوقت الذي أخفت فيه بريطانيا هذا التصريحَ عن العرب[١].

وطبقاً لردود الفعل العربية الضعيفة ضِدَّ هذا التصريح قامت القيادة العسكرية البريطانية بتوزيع بيان في تشرين الثاني ـ نوفمبر ١٩١٨م جاء فيه:

«إنّ هدف بريطانيا وفرنسا من الحرب في الشرق الأدنى هو تحرير الشعوب من نير الأتراك، وحق السكان في إقامة حكومات وطنية»[٢].

من ناحية أخرى كانت بريطانيا تريدُ أن تقيمَ حاجزاً بينها وبين النفوذ الفرنسي لحماية قناة السويس من خطر اقتراب أي قوة كبيرة منها نتيجة لما حدث في الحرب العالمية الأولى من نجاح القوات التركية في اختراق صحراء سيناء إلى قناة السويس.

---

(١) عمر عبد العزيز عمر، تاريخ المشرق العربي، مرجع سابق، ص٥٠٩ ـ ٥١١.
(٢) فلسطين تاريخها وقضيتها، مرجع سابق، ص٣٩.

وهناك مصادر تقول: إنّ الخطر الحقيقي على قناة السويس لا يجيءُ من الغرب، بل من الشرق، فيجيء الخطر من ناحية فلسطين، ومن وراء فلسطين سوريا، ومن وراء سوريا الأتراك، ومن وراء الأتراك أية دولة قد تكون معادية لبريطانيا، فكانت ألمانيا في الماضي، أو روسيا في المستقبل[١].

٣ ـ معاهدة سيفر وأثرها على اليهود لاستيطان فلسطين:

وفي عام ١٩١٩م قامت بريطانيا بتوقيع معاهدة (سيفر) بينها وبين تركيا وقد نصّت هذه المعاهدة على تنفيذ وعد بلفور وقد تضمنت هذه المعاهدة البنود التالية:

أولاً ـ العمل على تشكيل مجلس يهودي دائم في فلسطين وفروع له في (إستانبول) والبلدان الاستعمارية الأخرى.

ثانياً ـ تسهيل الهجرة للاستيطان في فلسطين بعد أن رفضَ السلطان عبد الحميد الهجرة إلا بشروط كانت في الأساس لصالح الحركة الصهيونية وخدمة لها.

ثالثاً ـ جعل اللغة العبرية اللغة الرسمية في البلاد، وفتح الجامعة العبرية.

رابعاً ـ تنازل السلطان النهائي عن الأراضي العربية للحركة الصهيونية وبريطانية وفرنسا.

خامساً ـ طالبت الولايات المتحدة عملياً أن توضع بعض مناطق آسيا الوسطى (باكو) تحت الانتداب البريطاني (والخليج العربي)[٢]. وقد عارضت

---

(١) عمر عبد العزيز، ص٥٠٧، نقلاً عن محمد عوض محمد؛ الاستعمار والمذاهب الاستعمارية، دار المعارف ـ القاهرة، ١٩٥٧م، ص٧٢؛ خيرية قاسمية، مرجع سابق ص٢٩١ ـ ٢٩٢.

(٢) مصطفى الزين، ذئب الأناضول، رياض الريس للكتب والنشر ـ لندن ـ قبرص، ١٩٩١م، ص١٥٩؛ انظر معاهدة (سيفر) في محمد عزة دروزة، تركيا الحديثة، مطبعة الكشاف، بيروت، ١٩٤٦، ص٤٠؛ ومحمد سرحان، النظام العثماني، مرجع سابق، ص٩١.

الحركة الوطنية التركية هذه المعاهدة.

وحول الفكرة التي اعتنقها الصهاينة، وعملوا من أجلها في سبيل استعمار فلسطين، فقد اعترض عليها (أرنولد توينبي) حيث أكّدَ أنَّ هذه الفكرةُ لا تتفقُ مع فكرة العودة إلى جبل صهيون وفقاً لعقيدتهم الدينية، الأمر الذي أثار وزير خارجية إسرائيل (أبا إيبان) فردّ عليه بمقالة تحمل عنوان (هرطقة توينبي) فيقول: إنّ فكرة (العودة) تعتبر في المصادر الإسرائيلية إرادة إلـهية وواجباً بشرياً، إنّ توينبي لم ينفِ أنَّ لليهود حقاً في العودة إلى فلسطين لأداء شعائرهم الدينية ـ وهذا حق ظلوا يمارسونه طوال حياتهم دون أن يعترضَ طريقهم أحد ـ ولكنّه أنكرَ على الصهيونيةَ احتلالها فلسطين بقوة السلاح وإخراج أهلها منها بغير حق، ونهب ممتلكاتهم على نحو ما حدث في واقع الأمر. وذلك تحت ستار (العودة)[١].

وفي عام ١٩٢٢م أصدرت الحكومة البريطانية بياناً (لتشرشل) أكد فيه عزم الحكومة البريطانية على السير في سياستها في فلسطين معلناً في بيانه: «أن التوتر الذي ساد فلسطين من حين إلى آخر يُعزى معظمه إلى مخاوف أخذت تساوِرُ بعضَ طبقات السكان العرب واليهود. أما مخاوف العرب فبعضها مبني على تفاسير مبالغ فيها لمعنى التصريح الذي يحبذ إنشاء وطن قومي لليهود في فلسطين. بالإضافة إلى هذا فقد نشرت بيانات غير رسمية بأن الغاية المنشودة هي جعل فلسطين يهودية برمتها واستعملت عبارات قيل فيها: «إن فلسطين ستصبح يهودية كما أن إنجلترا إنجليزية، وهذه الآمال غير قابلة للتحقيق، والحكومة تعلن بأنها لا ترمي إلى مثل هذه الغاية» ثم يمضي البيانُ مؤكداً التزامَ الحكومة البريطانية بوعد بلفور، وزيادة عدد الطائفة اليهودية في فلسطين بالهجرة إليها»[٢].

وفي عام ١٩٢٩م تشكلت في دمشق جماعةٌ من الصهاينة بهدف تشجيع هجرة اليهود إلى فلسطين، وكان من أبرز أعضاء هذه الجماعة (مناحيم لوريا) الذي استطاع مساعدة يهود سوريا في هجرتهم إلى فلسطين سرا[٣].

---

(١) محمد الخير عبد القادر، مرجع سابق، ص١٣٤، ١٧٧، ١٧٨.

(٢) المرجع السابق، ص١٩٩.

(٣) صموئيل إتينجر، مرجع سابق، ص٢٣١.

يجدر بنا الآن أن نستخلصَ مما سبق أنه خلال السنوات ١٩١٨م ـ ١٩٣٠م كانت أهم أهداف السياسة الصهونية في فلسطين هو شراءُ أكبر قدر ممكن من الأراضي في فلسطين، إلى جانب الاهتمام بالمشروعات الاقتصادية، وكانت المساعدات المالية اليهودية تأتي إليهم من كافة أنحاء العالم(١).

ومن ناحية أخرى توجه (هربرت أسكويت) رئيس وزارة بريطانيا ببيانٍ بعد زيارة له في فلسطين عام ١٩٢٤م وكان ردّاً على بيان تشرشل السابق، جاء فيه: «إنّ العرب يمثلون ثلاثة أرباع سكان فلسطين، ويبلغ عدد اليهود نحو عُشْر السكان، وأعربَ في بيانه أنّ مسألة تحويل فلسطين إلى وطن قومي لليهود لا يعدو أن يكون خيالاً جامحاً كما كان دائماً».

ويمكننا القول في وصف الفترة من ١٩١٩م ـ ١٩٢٥م بأنها كانت فترة حاسمة في تاريخ القضية العربية، لأنها شهدت تقنين الاحتلال البريطاني في العراق، والاحتلال الفرنسي في سوريا ولبنان باسم الانتداب تارةً، وباسم الحماية والوصاية ومعاهدات التحالف تارة أخرى، بل كانت هذه الفترة ـ بحق ـ فترة التمكين للصهيونية في فلسطين وإحاطتها بضمانات وصِفَتْ بأنّها دولية تمثلت في الاعتراف بوعد بلفور على نطاق عالمي، وإدراجه في وثيقة الانتداب على فلسطين، وقد حُدّدت تسويات الحلفاء خلال الفترة بين عامي ١٩١٩ ـ ١٩٢٠م معالمَ المعركة بين الأمة العربية والعرب من ناحية وبينها وبين الصهيونية العالمية من ناحية أخرى طوال النصف الأول من القرن العشرين، وكسبت الأمة المعركة ضد الاحتلال البريطاني والفرنسي، ولكن معركتها مع الصهيونية ما زالت قائمة، وقد تمتد أجيالاً بل قروناً، لأنّ طبيعة المعركة اليوم تختلف عنها بالأمس. لقد كانت الأمة العربية بالأمس تواجه احتلالاً بريطانياً وفرنسياً موقوتاً مهما طال مداه، لكنها اليوم تواجه قوةً فُرِضَتْ عليها بحدّ السلاح، لتهيئ وطناً في قلب العالم العربي لملايين اليهود الذين ظلّوا هائمين على وجوههم زهاء ألفي عام، يعلنون التشرد والاضطهاد وعداء السامية في الغرب والشرق الأوروبي.

---

(١) مذكرات غلوب باشا، جندي مع العرب، تعريب نخبة من الجامعيين، دار النشر للجامعيين، ط٢، ١٩٦٣م، ص٣٨.

ومنذ أن حرر (صلاح الدين الأيوبي) بيتَ المقدس وقضى على آخر الدويلات الصليبية فيما يسمّى (العصور الوسطى) ليعيدَ إلى هذه المنطقة وحدتها العربية الإسلامية. ومما يزيد الأمرَ خطورةً، أنّه عندما تغيّرت موازين القوى في النصف الأول من القرن العشرين عقب حربين عالميتين طاحنتين، واتخذت الصهيونية طريقَها إلى مواقع النفوذ في العالم الأوروبي شرقية وغربية، لم يجد هذا العالم ما يكفرّ به عن المظالم التي ارتكبها في حقّ اليهود عبر القرون إلا على حساب الأمة العربية التي كان تسامحها مع اليهود مضربَ الأمثال بشهادة مؤرخي اليهود أنفسهم[١].

وعلى الرغم من ذلك فإنّ الصهيونية أثبتت قدرتها على ربط مصلحتها في فلسطين بمصالح الإمبراطورية البريطانية، واستغلال ظروف الحرب العالمية الأولى وضعف مركز الحلفاء في عامي ١٩١٦ ـ ١٩١٧م لتحقيق مآربها حتى استطاعت في أقل من ست سنوات ١٩١٤ ـ ١٩٢٠م أن تسترد أنفاسها وتدعم مواقعها في وجه معارضة يهودية عاتية. فحصلت على وعد بلفور، وأَمْلَتْ شروطَ الانتداب على فلسطين، وأمنت ظهرها بوضع (هربرت صمويل) على رأس حكومة الانتداب، وأخذت حقوق الشرعية والالتزام الدولي بإدراجهما في ميثاق عصبة الأمم، ومعاهدة (سيفر) التي تم التوقيع عليها في ١٠/ ٨/ ١٩٢٠م[٢].

وقد أدرك العرب الخداع الذي كانت تمارسه بريطانيا معهم، بهذه المناسبة تحدث الشريف حسين بقوله: **«لقد تجاهلتُ النقدَ الذي تلقيتُه من مسلمي تركيا بشأن علاقاتي مع بريطانيا، وقد وجدت في الاستجابة لدعوة بريطانيا لي لإعلان الثورة تجديداً لمجد العرب، وإرضاء لمشاعر المسلمين، وكانت نتيجة ذلك نهاية العرب ونهاية تركيا على السواء»**[٣].

وبعد أن تمّ وضعُ العراق وفلسطين وشرقي الأردن تحت الانتداب البريطاني

---

(١) محمد الخير عبد القادر، مرجع سابق، ص٢١٤ ـ ٢١٥.
(٢) المرجع السابق، ص٢٠١.
(٣) المرجع السابق، ص٢١٣.

مع الالتزام بإنشاء الوطن القومي لليهود في فلسطين، في هذه الأثناء تمّ تعيين (هربرت صمويل) حاكماً عاماً على فلسطين، حيث إنه كان ملتزماً بتحقيق الأهداف الصهيونية.

بهذه المناسبة نقلَ (اللنبي) رأيَ الشعب العربي في (هربرت صمويل) إلى الجهات المسؤولة في لندن، حيث إنّ تعيين أحد اليهود ليكونَ أول حاكم عام على فلسطين أمرٌ بالغ الخطورة في نظر سكان هذه البلاد. وقد عارض السكان المسلمون وعدَ بلفور، وأنه سوفَ يدرج في معاهدة الصلح، وأنّ المسلمين يعتبرون تعيين أول حاكم عام لفلسطين من اليهود ـ حتى لو كان بريطانيَّ الجنسية ـ بمثابة تسليم البلاد فوراً لإدارة صهيونية دائمة[1].

وقبل بدء تنفيذ الانتداب كان (هربرت صمويل) يمارس سلطاته بعد تعيينه مندوباً سامياً على فلسطين، وقد تسلّم إدارة البلاد رسمياً في ١/٧/١٩٢٠م ليواجه شعبَ فلسطين الثائر بعد أن استنفد كافة الوسائل السلمية لاسترداد حقه المشروع، وأخذت الثورات تتفجر الواحدة تلو الأخرى، وشرع صُنّاع وعد بلفور في حصاد ما غرست أيديهم، وكلّما اندلعت ثورة عربية في فلسطين هبت الحكومة البريطانية لتقصي الحقائق، وتشكيل لجان للتحقيق فيما كانت تسميه الاضطراب وحوادث الشغب[2].

نتيجة لتلك الأعمال قامت المقاومة الفلسطينية بمواجهتها، وعلى رأس هذه المعارضة كان (المؤتمر الفلسطيني العربي) الذي عقد عام ١٩٢٠م لتصعيد المعارضة العربية والإسلامية ضد الاستيطان اليهودي، ورداً على هذه المعارضة قامت بريطانيا بمساعدة الصهاينة، فقامت بتسليح اليهود وتدريبهم عسكرياً[3].

وبعد الحرب العالمية الأولى فرضت بريطانيا سيطرتها على فلسطين، فكانت خيرَ حليف لليهود، حيث تمكنت الصهيونية بمساعدة الصندوق القومي

---

(١) محمد الخير عبد القادر، مرجع سابق، ص١٥٩ ـ ١٦٠.

(٢) المرجع السابق، ص٣٦ ـ ٣٧؛ وفلسطين تاريخها وقضيتها، مرجع سابق، ص١٩٦ ـ ١٩٧.

(٣) محمد سرحان، النظام العثماني، مرجع سابق، ص١٠١ ـ ١٠٢.

اليهودي من بناء منطقة سكنية جديدة لها في فلسطين عام ١٩٠٩م بحيث أصبحت نواة لها في تل أبيب، وتمكنوا أيضاً من شراء الأراضي وإنشاء المدارس المهنية، وبعدَ انتهاء الحرب العالمية الأولى تمَّ عقد المؤتمر الصهيوني في لندن عام ١٩١٩م والذي تضمّن قيامَ أول تنظيم للحركة الصهيونية داخل فلسطين، والذي تحوّل إلى الوكالة اليهودية بدوائرها السياسية والتنظيمية، وبعد ذلك تأسس الصندوق القومي الجديد للإسكان والاستعمار، وذلك تنفيذاً لمقررات مؤتمر لندن عام ١٩٢٠م ومنذ ذلك الوقت أصبح الباب مفتوحاً أمام الصهيونية لتنفيذ استعمارها لفلسطين، وارتفعَ عدد اليهود في فلسطين من (٤٠) ألف قبل الحرب العالمية إلى (٥٥٠) ألف عام ١٩٤٨م حيث تمّ في هذا العام قيام دولة إسرائيل في فلسطين[١].

علاقة يهود روسيا بالدولة العثمانية ورغبتهم في استيطان فلسطين في الفترة (١٨٨١ـ١٨٨٧م):

في الفترة ١٨٨١ ـ ١٨٨٢م كان يهود روسيا أكثر يهود العالم ميلاً إلى الهجرة إلى فلسطين حتى يتخلّصوا من الاضطهادات التي كانوا يواجهونها هناك، وخاصة بعد اتهامهم باغتيال قيصر روسيا (إسكندر الثاني)، وقامت بعض الشخصيات اليهودية وأعضاء حركة أحباء صهيون[٢] بتقديم طلب إلى القنصل

---

(١) أحمد سوسة، مرجع سابق، ص٧٤٣.

(٢) وأحباء صهيون تأسست عام ١٨٨٧م تكوّنت من خمسة وعشرين طالباً من روسيا عرفت باسم (بيلو) وأصدرت هذه الحركة منشورات تؤكد على الهجرة إلى فلسطين، وقد تزعّم هذه الحركة (ليون بنسكر) صاحب كتاب (التحرر الذاتي) الذي دعا لتجميع اليهود في دولة خاصة بهم، وقد أكد في هذا الكتاب أنّ اليهود ليسوا جماعة دينية، بل هم أمة مستقلة بذاتها، وخلاصهم من الاضطهاد لا يكون إلا بتحرير أنفسهم بأنفسهم باستقلالهم في أرض يعيشون فيها عيشة قومية حرة، ولم تكن هذه الأرض بالضرورة فلسطين، نشر هذا الكتاب بالألمانية عام ١٨٨٢م ثم بالعبرية والروسية، وقد وقفت الدولة العثمانية ضد هذه الحركة، (انظر نوري النعيمي، اليهود والدولة العثمانية، مرجع سابق، ص٧٢ـ٧٧.

وهي هيئة تكونت في(أودسا) باسم(Chibbath Zion) أي محبي صهيون ومن (أودسا)=

العثماني يمنحُ اليهودَ تصريحاً بدخول فلسطين[١]. وتمت هجرة اليهود من روسيا القيصرية إلى الدولة العثمانية، في ذلك الوقت سمحت الدولة العثمانية لليهود بالهجرة إلى أي جزء من الدولة العثمانية ما عدا فلسطين شرط أن يستبدل المهاجرون اليهود جنسيتهم إلى العثمانية[٢].

وفي عام ١٨٨٢م نشأت حركة (عشاق صهيون) في روسيا، التي دعت إلى

= انتشرت فروع لها في معظم المدن الروسية وفي دول شرقي أوروبا مثل رومانيا وبلغاريا ثم في غربي وشمالي أوروبا مثل فرنسا وإنجلترا ولتوانيا، واستهدفت هذه الهيئة تشجيع الهجرة إلى فلسطين، وإنشاء مستعمرات زراعية فيها تكون في الوقت ذاته مراكز للإشعاع الثقافي اليهودي عن طريق تعلم اللغة العبرية، وجعلها لغة حية، ونشر التاريخ اليهودي والأدب اليهودي، وكان أعضاء هذه الهيئة يجتمعون برئاسة شخصيات متحمسة قوية من بين رجال العلم والزعماء الاشتراكيين والحاخامات. وكان من بين هذه الشخصيات (لون بنسكر)(Lon Pinsker) و(آحاد هاعام) (Achad Ha- am). وقد نجحت جماعة محبي صهيون في إنشاء المستعمرات الصهيونية الأولى في فلسطين ومهدت الطريق أمام الحركة الصهيونية لتواصل السيرَ في نفس الاتجاه، وإذا كانت حركة محبي صهيون قد أفسحت الطريق للحركة الصهيونية بعد مؤتمر بال الأول، فلم يكن هناك تعارض بين الحركتين، لأنّ أهداف حركة محبي صهيون كانت أهدافاً إقليمية تتعلّق بالتوطن غير الرسمي في فلسطين، وأهدافاً ثقافية بجعل فلسطين مركزاً ثقافياً لليهود، وأهدافاً اقتصادية بإنشاء مستعمرات زراعية في فلسطين. وهذه الأهداف تقترب إلى حد كبير من الأهداف الصهيونية وتعتبر مقدمة لها.

انظر محمد حافظ غانم: المشكلة الفلسطينية على ضوء أحكام القانون الدولي ـ القاهرة، ١٩٦٥م، من مطبوعات معهد الدراسات العربية العالية، ص٢٠ ـ ٢٢؛ وعبد العزيز الشناوي، مرجع سابق: ٢/ ٩٧٤ ـ ٩٧٥؛ وانقسمت هذه الحركة في البداية قسمين، واحد عملي وآخر ثقافي، تزعم الأول (ليلينبلوم)، والثاني تزعمه (آحاد هاعام) وقد ظهر خلاف في صفوف الحركة بين الدينيين واللادينيين، وقد عارض هرتزل هذه الجمعيات، لأنّها تتجاهل العلاقات الدولية والسلطان العثماني، ولم تنجح هذه الجمعية إلا في تهجير بضع مئات من اليهود بمعونات ضخمة من المليونير اليهودي روتشيلد وغيره. (عبد الوهاب المسيري، موسوعة المفاهيم والمصطلحات اليهودية، مرجع سابق، ص٥٩ ـ ٦٠).

(١) عبد العزيز الشناوي، مرجع سابق: ٢/ ٩٧٤.

(٢) ميم كامل، مرجع سابق، ص١٧.

إحياء اللغة العبرية واستيطان فلسطين[١] وفي نفس هذا العام تم إنشاء أول مستعمرة يهودية في فلسطين تدعى (ريشون لوزيون) وقد أنشأها يهود روسيا[٢]

وفي عام ١٨٨٢م أيضاً بدأ تدفق يهود أوروبا إلى فلسطين على شكل جماعات للعمل في الزراعة، وقد قدر عدد السكان في فلسطين في ذلك الوقت بـ (٣٠٠٠٠٠) نسمة منهم (٣٥٠٠٠) يهودي[٣].

وكان من أشهر المموّلين اليهود البارون (أدموند روتشيلد) وقد بلغ عدد المستعمرات التي موّلها أربعة أضعاف ما أسسه اليهود الآخرون بجهودهم الخاصة، واستطاع اليهود خلال أعوام ١٨٨٢ ـ ١٨٨٤م تأسيس تسع مستوطنات بين القدس ويافا في فلسطين[٤].

في عام ١٨٨٣م أصدر مجلس الوزراء العثماني قراراً بمنع استيطان اليهود الروس في فلسطين، إلا أنّه أمامَ ضغط الدول الأوروبية تراجعَ الباب العالي عن قراره، وأرسل تعليمات جديدة عام ١٨٨٤م تفيد بالسماح لليهود دخول فلسطين من أجل زيارة الأماكن المقدسة سواء كانوا حجاجاً أوسياحاً، بشرط ألا تزيدَ فترةُ إقامتهم عن ثلاثين يوماً، لكنّ الدول الأوروبية طلبت مرة أخرى زيادة فترة إقامة اليهود في فلسطين إلى ثلاثة شهور بدلاً من ثلاثين يوماً، ووافقت الحكومة العثمانية على هذا الطلب عام ١٨٨٧م[٥].

وفي ذلك العام أيضاً ١٨٨٣م وضع (هوليوبنسكر) كتاب (التحرر الذاتي) ذكر فيه أنّ تحرر اليهود لا يتمُّ إلا بالاعتماد على أنفسهم، وطالبَ فيه بالحل القومي (للمشكلة اليهودية عن طريق خروج اليهود من البلاد التي يعيشون فيها مضطهدين إلى أيّ بلدٍ دون أن يحدد فلسطين بالذات، على أن يكون بلداً يهودياً

---

(١) محمد الخير عبد القادر، مرجع سابق، ص٩٢.
(٢) انظر عبد العزيز الشناوي، مرجع سابق: ٢/ ٩٨٠.
(٣) انظر خيرية قاسمية، مرجع سابق، ص١٠.
(٤) المرجع السابق، ص١٨.
(٥) أحمد نوري النعيمي، اليهود والدولة العثمانية، مرجع سابق، ص٦٤ ـ ٦٥؛ وعبد العزيز الشناوي، مرجع سابق: ٢/ ٩٧٦ ـ ٩٧٧.

مستقلاً، يعيشُ فيه اليهود بعيدين عن الاضطهاد، وأن يكونوا أمة واحدة، تجمع بينهم لغة وعادات مشتركة).

وذكر «بأن اليهود أينما وجدوا ينظر إليهم على أنهم غرباء، ومن أجل ذلك كانوا يُحتقرون. . وأنّ التحرر الحقيقي هو في خلق قومية يهودية للشعب اليهودي ليعيشَ هذا الشعبُ على أرض موحدة ومحددة».

وأضاف قائلاً: «ويجب أن يكون لهم مأوى وإن لم يكن لهم بلد خاص بهم. . . » على غرار شعوب العرب والرومان.

وذكر أيضاً: «أنّ ما ينقص اليهود ليس العبقرية بل احترام النفس، والإحساس بالكرامة الإنسانية التي سلبتموها إياها».

ووضع (بنسكر) آراءه على الصعيد العملي، وطالب بعقد مؤتمر يهودي. . هدفه شراء أرض تستوعب عدة ملايين من اليهود[1].

وخلاصةُ القول: إننا نستطيع أن نستخلصَ تطور الهجرة اليهودية إلى فلسطين وإسرائيل كالتالي:

● سبقت قيامَ دولة إسرائيل خمسُ موجات أساسية من الهجرة اليهودية إلى فلسطين خلال الفترة من ١٨٨١م وحتى ١٩٤٨م فقد زاد عدد اليهود المهاجرين هذه الفترة من (٢٤٠٠٠) عام ١٨٨١م إلى (٦٥٠٠٠٠) عام ١٩٤٨م.

الهجرة	الفترة	عدد المهاجرين
الهجرة الأولى	١٨٨١ـ١٤٠٩	٢٠٠٠٠ـ٣٠٠٠٠
الهجرة الثانية	١٩٠٤ـ١٩١٤	٣٥٠٠٠ـ٤٠٠٠٠
الهجرة الثالثة	١٩١٤ـ١٩٢٣	٢٩٠٠٠
الهجرة الرابعة	١٩٢٤ـ١٩٢٨	٦٢٠٠٠
الهجرة الخامسة	١٩٢٩ـ١٩٣٩	٢٥٠٠٠٠
الهجرة غير الشرعية	١٩٣٣ـ١٩٤٨	٧٦٠٠٠

---

(١) حسان حلاق، مرجع سابق، ص٣٧ـ٣٨. نقلاً عن I., Pinsker, op. cit., p.38.

• اشتغل أفراد الهجرة الأولى بتأمين معيشتهم عن طريق القيام بمشروعات فردية خاصة في المجال الزراعي دون دخولهم أية تنظيمات سياسية.

• أما أفراد الهجرة الثانية فقد تأثروا بالحركات الاشتراكية المتقدمة في روسيا وأوروبا الشرقية فقاموا بعمل تنظيمات سياسية تجمع بين فكرهم الاشتراكي ومبادئهم الصهيونية.

في تلك الفترة تأسس ما يعرف بـ (الكيبوتس) وهو عبارة عن مجموعات صغيرة تشارِكُ في العمل اليهودي في المجال الزراعي، ثم توسعت هذه المجموعات، وظهر نشاطها في المجال الزراعي والصناعي والسياحي، وأصبحت تعيشُ في مستوطنات تعاونية.

أما (الهستدروت) فقد تأسست عام ١٩٢٠م بغَرضِ الدفاع عن حقوق العمال اليهود في فلسطين، وتشجيع الهجرة، والاستيطان اليهودي.

وقد لعبَ الهستدروت دوراً كبيراً في تطوير الاقتصاد اليهودي في فلسطين، وقد ضم (٩٠٪) من مجموع العمال إلى جانب سيطرته على بنك العمال وعلى صندوق التأمين الصحي، وقد ساهم الهستدروت في جميع مراحل عملية استيطان المهاجرين، إلى جانب تشجيع اليهود على العمل المنتج، وتشغيل الأيدي العاملة اليهودية[١].

وقد عبر (بن غوريون) عن الهستدروت بقوله: «ليس الهستدروت نقابة عمالية، ولا هو حزب سياسي، ولا هو تعاونية أو جمعية، إنه أكثر من ذلك. الهستدروت هو اتحادُ شعبٍ يقوم ببناء موطن جديد، ودولةٍ جديدة، وشعبٍ جديد، ومشاريع ومستوطنات جديدة، وحضارة جديدة، إنّه اتحادٌ للمصلحين الاجتماعيين. و(الهستدروت) هو المؤسسة التي تشرف على معظم النشاطات،

---

(١) إيمان حمدي، الأحزاب السياسية الإسرائيلية واستيعاب المهاجرين، ندوة الأحزاب والتنمية في الوطن العربي، مركز دراسات وبحوث الدول النامية، ديسمبر ١٩٩٦م، ص٣ـ٩.

وتتحرك داخلها كل الأحزاب، ويمكن القول أيضاً: إن (الهستدروت) هو تنظيم اقتصادي يأخذ شكلاً جماعياً لمساعدة التجمع الاستيطاني[1].

ومن خلال ما جاء بجريدة (أوتا دوغو) التركية لدى شعور اليهود تجاه تركيا فتذكر أنّه: «من سمات الشعب الإسرائيلي أنّه يحب تركيا والأتراك. فالذين هاجروا منهم والذين لم يهاجروا يعرفون قيمة تركيا حقّ المعرفة، فأثناء التجول في إسرائيل يعرفون أنّك تركي، ويقابلونك بترحيب لن تجده في أي دولة أجنبية، فإسرائيل تعلم أنّ تركيا دولةٌ مهمة جداً في الشرق الأوسط، وأنها لا بدّ أن تقيم معها أواصر الصداقة، ويفهمون أنَّ مياه تركيا أهم من البترول. وتقول الجريدة أيضاً في معرض حديثها عن القدس:

«إن القدس هي جرح المنطقة، ومدينة مضطربة، وبرغم أنها مركز للعبادات، وتوجد بها كلُّ الأديان السماوية، فهي منطقة إرهاب ـ للأسف ـ حيث يتم الدخول من حائط المبكى إلى المسجد الأقصى بالعبور من الأبواب الإلكترونية التي يتحكم فيها (البوليس الإسرائيلي).

وإذا دخلت سيدةٌ مرتديةٌ غطاءَ الرأس (الحجاب) وعرف البوليس الإسرائيلي أنها مسلمة، فيجب أن تدفع نقوداً للرجال، وتقول كلمة الشهادة حتى يُسْمَحَ لها بدخول المسجد.

وفي المنطقة التي تخصُّ إسرائيل نجد (٤٠٠) ألف إسرائيلي و(١٠) آلاف عربي. وتصادفنا الآثار التركية هنا أيضاً مثلما تصادفنا في كل مكان في إسرائيل، فالجوامع والأسواق والمنازل من صنع العثمانيين، بخلاف هذا يوجد بها المعابد اليهودية والكنائس منذ مئات السنين دليلٌ على عظمة الترك.

نعم إنّ إسرائيل بعضُها عربي وبعضها أوروبي وبعضها في البحر الأبيض.

والقدس في عهد العرب كانت وحدة واحدة مع المسيحيين، فلو لم يخون

---

(١) عبد الوهاب المسيري، موسوعة المفاهيم والمصطلحات اليهودية، مرجع سابق، ص٤١٩ ـ ٤٢١.

العرب العثمانيين، وتمسكوا بأراضيهم التي في أيديهم، ولم يبيعوها لليهود الذين جاؤوا إلى هناك كانوا سينجون من تدابير الإرهاب في كل العالم، ولصاروا أصحاب الوطن الذي يسكنونه وتمسكوا به، ولما أجبر المسلمون اليوم على الدخول إلى مسجد سيدنا عمر تحت رقابة البوليس الإسرائيلي[(١)].

* * *

(١) Oytun H. Sahin, Milli gorus Israil, Orta Dogu, Eylul 1998.

الباب الثالث

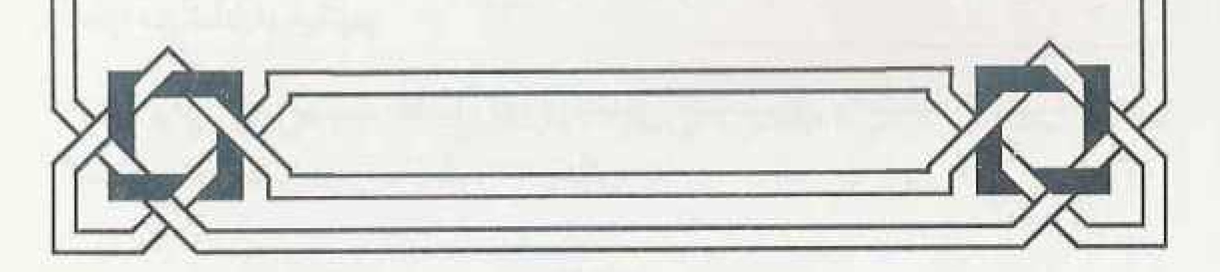
العلاقات اليهودية العثمانية

في النصف الثاني من القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين

الفصل الأول: دور اليهود في قيام وانتشار الفكرين الماسوني والقومي في تركيا.

الفصل الثاني: دور اليهود المحلي العثماني والدولي العالمي في فلسطين.

الفصل الثالث: اليهود والسلطان العثماني عبد الحميد الثاني.



تمهيد

كان ضَعْفُ الدولة العثمانية سبباً لاتجاهها نحو أوروبا لأخذ الأسباب لاستعادة قوتها مرةً أخرى، حيث قامت بإرسال السفراء العثمانيين إلى العواصم الأوروبية المختلفة مثل باريس وفيينا ولندن، كما أرسلت الدولةُ شبابها لتعلُّم العلوم العملية الغربية، إلا أنَّ الشباب العثماني في أثناء بحثه عن استكمال نقاط الضعف في دولتهم إذا بهم يلتقون بالثقافات والأفكار الغربية التي كانت تعجُّ بها أوروبا إثر قيام الثورة الفرنسية (١٧٩٨م) الديمقراطية، وانبثاق الفكر القومي، وبالتالي كان لهذا الاتجاه تأثيرُه في مفهوم الدولة الدينية التي كانت سائدةً في ما قبل قيام الثورة الفرنسية.

ولقد لعب الفكر الماسوني المنتشر على أشدِّه في أوروبا في ذلك الوقت دوراً كبيراً عن طريق محافله القوية في السياسة العثمانية من خلال تسرُّبه إلى الدولة العثمانية وتمجيده لكبار الموجهين في الدولة على مستوى الصدور العظام والوزراء، بل واستطاعت الماسونية أن تجنِّدَ أحد أفراد البيت الحاكم العثماني، وهو الأمير (مراد) الذي أصبح سلطاناً فيما بعدُ، ومهَّدت الماسونية لأفكارها بين المثقفين الأتراك والعثمانيين وبين ضباط الجيش.

كما لعبت اليهوديةُ دوراً كبيراً في نشر الفكر القومي التركي المتعصِّب، الذي أدىٰ انتشارُه إلى إفساد العلاقات بين الترك والعرب، مما حدا بالعرب إلى البحث عن ذاتهم بالقومية، ولم يفعل العرب فقط هذا بل كذلك العناصر الأخرى في الدولة التي حُكمت بالإسلام من قبلُ مثل الأكراد والألبان والأرمن الذين أعلوا من شأن قومياتهم.

وفي هذا الباب تفصيلٌ لهذا التغلغل الماسوني والسيطرة اليهودية على المجتمع العثماني ودراسة تطوراته ونتائجه:

الفصل الأول

دور اليهود في قيام وانتشار الفكرين الماسوني والقومي في تركيا

الماسونية هي جمهورٌ كبير من مذاهب مختلفة، يعملون لغايةٍ واحدة، هي إعادة الهيكل الذي هو رمزُ دولة إسرائيل، والماسونيةُ تضمُّ الملوكَ والحكام والقضاة والزعماء والقادة والمثقفين[١].

وفي تعريفٍ آخرَ للماسونية على لسان (عبد الحليم إلياس الخوري) القطب الماسوني: «إنَّ الماسونية الملوكية، مبدؤها وتعاليمُها ودرجاتها وغاياتها، ترمي إلى تقديس ما ورد في التوراة، وإعادة هيكل سليمان، ويفسِّرون الرموزَ بما يروق لهم»[٢].

اجتهدَ اليهود في إقامة محافلَ لهم على مستوى عواصم الدول الكبرى، وذلك من أجل تحقيق هدفهم في السيطرة على العالم، وذلك نتيجةً للمعاناة التي عايشوها على امتداد تاريخهم من اضطهادٍ وتشريدٍ في مختلف بلدان العالم.

العلاقة بين الماسونية والصهيونية:

ترتبط الماسونية بالصهيونية ارتباطاً وثيقاً، وتؤكِّد هذه المقولة الوثائقُ الصهيونية التي خرجت من مؤتمر بال الأول عام ١٨٩٧م، فتذكر أنَّ الحركة الصهيونية عمدت إلى ابتداع الحركة الماسونية الحديثة منذ فترة مبكرة، من أجل أن يتخلَّى الإنسانُ عن كل ما يؤمن به ليصبحَ كما يسمُّونه (كوزمو بوليتيني)

---

(١) محمد علي الزعبي، الماسونية في العراء، دار الجيل، بيروت، ص١٨.

(٢) المرجع السابق، ص٥٥.

(cosmo - politini)، ومن أجل أن تكون محافلُها وسيلةً للصهيونية في تحقيق أهدافها، والتغلغل في الأوساط الحاكمة، وكسب الطبقة العليا من الحكام والوزراء، وأصحاب النفوذ في أيِّ مجتمع، لاستغلالهم في خدمة الأهداف الصهيونية، ولذلك فإننا نرىٰ أنَّ نشاط هذه الحركة يكادُ ينحصِرُ في الأوساط الحاكمة وليس في الأوساط الجماهيرية[١].

والماسونية هي: «جمعية سياسية نشأت في أوروبا لإزالة سلطة رؤساء الدين والدنيا كالبابوات والملوك؛ ولذلك كانت سرّيةً، وكان أهلُها على خطرٍ من سلطة الأقوياء الذين تعمل الجمعية لسلب السلطة منهم، وجعلها في يد الشعب، والاستغناء عن الشرع بالقوانين»[٢].

وتعلن الماسونية ـ إزالةَ الاستبداد وإزالةَ السلطة الدينية من حكومات الأرض[٣]. وقد كان رؤوس الثوريين والعثمانيين أعضاءً في المحافل الماسونية، وهم الذين نادوا بعزل السلطان العثماني، والقضاء على الخلافة، والقضاء على الدولة العثمانية.

وكان لهذه الجمعية الأثر العظيم في الانقلابات السياسية التي حصلت في أوروبا، وقد أسَّسَ هؤلاء الماسون محفلاً شرقياً عثمانياً أستاذُه الأعظم (طلعت بك) ناظر الداخلية وأركانه زعماء (جمعية الاتحاد والترقّي)[٤].

وتؤكِّد الوثائق أنَّ الماسونية من إفرازات الحركة الصهيونية، وهذا ما تثبته دائرة المعارف الأمريكية عام ١٩٠٦م ودائرة المعارف اليهودية، وبعض الصحف اليهودية الصادرة في فتراتٍ وسنوات متفاوتة والتي تؤكِّد هذا الارتباط الوثيق.

أما الصهيونية فقد استمدَّت اسمَها من قلعةٍ في مدينة القدس القديمة كانت تُعرَفُ باسم (جبل صهيون) وهو من المعالم الشهيرة في تاريخ اليهودية حيث ارتبط في أذهان اليهود بتاريخ عقيدتهم، وتحقيق أحلامهم في العودة إلى أرضهم

---

(١) حسان علي حلاق، مرجع سابق، ص٢٩١.
(٢) رشيد رضا، المنار، م١٥: ١/ ٣٢.
(٣) انظر رشيد رضا، المنار، وقائع الدولة العثمانية، م١٤: ١/ ٨٠.
(٤) المرجع السابق، ج٣، م١٤.

الموعودة عن طريق العمل السياسي والاقتصادي والغزو الحربي، ويرجع منشأ الصهيونية إلى أقطاب ثلاثة هم:

(موسى هس) (١٨١٢ ـ ١٨٧٥م) وهو أول من حدَّدَ معالم الطريق للصهيونية، وكان يتصوَّر إمكانية إقامة مستعمرات لليهود تمتدُّ من السويس إلى القدس ومن ضفاف الأردن إلى ساحل البحر المتوسط[١].

وثانيهم (هوليو بنسكر) (١٨٢١ ـ ١٨٩١م) الذي نادىٰ في كتابه (التحرُّر الذاتي) بحلٍّ إقليمي للمسألة اليهودية وربطهم في رحاب دولة واحدة، كما حَثَّ اليهود على القومية اليهودية ونبذ الفكرة الخيالية التي تجعلهم يقبلون الاستكانة في دول الشتات، واعتباره قدرهم.

أما ثالث هؤلاء الذين تولَّدت الفكرة الصهيونية منهم هو (تيودور هرتزل) (١٨٦٠ ـ ١٩٠٤) الذي أصدر كتاب (الدولة اليهودية) ومن خلال هذا الكتاب تبلورت لدى اليهود فكرة تحقيق إقامة دولة لهم عن طريق العمل السياسي والنشاط الديبلوماسي[٢]. فدعىٰ لعقد المؤتمر الصهيوني الأول في مدينة بال في ٢٩/٨/١٨٩٧م والذي كان يهدف إلى إنشاء وطن لليهود في فلسطين تحت حماية القانون العام[٣].

وقد كان هذا المشروع ضد الدولة العثمانية، وضد تطورات العثمنة الإصلاحية وللأماني النهضوية العربية. ونجح في إسقاط الدولة، وتشريح جثتها، وتقطيع أوصالها، والوقوف ضد التوحد القومي ـ العربي، ومشاريع الوحدة العربية.

---

(١) انظر محمد الخير عبد القادر، مرجع سابق، ص١٧١.

(٢) قام يهود الدونمة في سلانيك بعمل أساس من أجل تحقيق عودتهم إلى فلسطين، وفي سبيل هذا قام (دافيد فلورنتين) رئيس تحرير جريدة المستقبل في سلانيك بزيارة فلسطين، ونقلَ لإخوانه اليهود نجاحَ الحركة الصهيونية في إقامة المستعمرات الزراعية هناك، كما قام بدورٍ إعلامي كبير في هذا المجال. (صالح زهر الدين، الشوف، مرجع سابق، ص٢٧).

(٣) انظر محمد الخير عبد القادر، مرجع سابق، ص١٧٤ ـ ١٧٥.

ومن أبـرز دعاة الصهيونيـة بعد ذلك كانـوا (حاييم وايزمن)، و(ناحوم سوكولوف) و(آحاد هاعام)، و(لدي برانديس)[1].

كان الفكر الماسوني (وهو فكر ثوري، بمعنىٰ الثورة على أوضاع الدولة العثمانية المستقرة) أسبقَ من الفكر القومي في الدولة. إذ يؤرَّخُ للماسونية في البلدان التركية بالسفير (يكرمي سكز محمد جلبي) في عهد السلطان أحمد الثالث (١٧٠٣ ـ ١٧٣٠م) لذلك سنتناول الفكر الماسوني على اعتبار ارتباطه الوثيق باليهود واليهودية، ثم نتبعُ ذلك بدراسة الفكر القومي التركي وتطوُّراته من خلال وضع اليهود في الدولة.

والماسونية حركة تنظيمية خفية، قام بها على الأرجح حاخامات التلمود من أجل إقامة تنظيم يهودي سري يهدف إلى إقامة مملكة صهيون العالمية، وهي

---

(١) ذكرت المجلة اليهودية (لافيريه إسرائيليت) عام ١٨٦١م «إنَّ روح الماسونية الأوروبية هي روح اليهودية». وذكر الحاخام إسحاق وايز (Lsaac Wise) ١٨١٩ ـ ١٩٠٠ في ٣/ ٨/ ١٨٦٦م في مجلة (إسرائيليي أمريكا)(Israelite of America) إنَّ «الماسونية مؤسسة يهودية في تاريخها، ودرجاتها، وتعاليمها، وكلمات السر فيها، وتوضيحاتها. إنها يهوديةٌ من البداية حتى النهاية».

وتوضح مجلة (المشرق) الارتباط العملي بين الماسونية والصهيونية فتقول: إنه لو أردنا بيان الرابطة الوثقىٰ التي بين الماسونية واليهودية فنورد هذه الملحوظات: . . . قال أحد كتبة العصر السابق المسيو (دي لا بينوا)(Lepinois) في مجلة (المباحث التاريخية) في نيسان ـ إبريل ١٨٨٢م: «ليست بعلاقةٍ أوثق من علاقة الماسونية واليهودية، فإنَّ ذوي النظر لدىٰ مشاهدتها لا يتمالكون عن هذا الحكم، أو أنَّ الماسونية تحوَّلت إلى اليهودية أو بالأحرىٰ فإنَّ اليهود «تمسينوا» لإدراك غاياتهم الخبيثة». وكان اشتراكُ اليهود الأتراك في المحافل الماسونية تمثِّل مظاهرَ متناقضة، فهم يهودٌ في أعماقهم، مسلمون في ظاهرهم، ماسون في المحافل. (انظر حسان علي حلاق، مرجع سابق، ص٢٩٢).

ويؤكد (يوسف الحاج) ـ الحائز على رتبة الأستاذية العظمىٰ في الماسونية ـ المبادئ الماسونية ومعتقداتها فيقول: «إنَّ مبدأ هذه الفرقة وتعاليمها ودرجاتها وغايتها ترمي كلُّها إلى تقديس ما ورد في التوراة، واحترام الدين اليهودي، والعمل على تجديد المملكة اليهودية في فلسطين باسم (الوطن القومي اليهودي)». (المرجع السابق نفسه).

عند مؤسسيها حركةٌ ذات هدفٍ يهودي بحت، وذات طابع عالمي[(١)]، ودستور الماسونية هو (الحرية، والمساواة، والإخاء) وهدفها هو تكوين جمهورية لا دينية عالمية، ويتبلور هذا في محاربتها للأديان، وصيانتها للدول العلمانية[(٢)].

سياسة التتريك في الدولة العثمانية ودور الماسونية فيها:

مع بداية عهد التنظيمات في الدولة العثمانية والذي بدأه السلطان (محمود) وأعطاه صفة الشرعية ابنه السلطان (عبد المجيد) صدر فرمانُ التنظيمات عامي ١٨٥٤ و١٨٥٦م، حيث نتج عنهما استبعادُ العمل بالشريعة الإسلامية، واستلهام روح الغرب في الدولة، وكان الماسون وراء إصدار هذه الفرمانات.

وقد وجد (رشيد باشا) الصدر الأعظم في عهد السلطان عبد المجيد في الماسونية مثلَه وفلسفتَه وروحَه، وهو الذي أعدَّ الجيل التالي له من الوزراء ورجال الدولة للقيام بدفع عملية التغريب في الدولة العثمانية إلى الأمام[(٣)].

بعد ذلك أصبح بعض الولاة العثمانيون يشجِّعون حركات الانفصال عن الدولة، ومنهم (مدحت باشا) ففي فترة ولايته على (الطونة) أمر بإضافة الصليب على العلم العثماني ذي الهلال والنجمة، وأنشأ المحافل الماسونية، وعمل على تضخيم المشاكل في سوريا حتى تقوىٰ الروح الانفصالية لدىٰ الشعب ضد الدولة.

وكان رجال الماسون يعدّون (مدحت باشا) مثلَهم الأعلىٰ، الذي تعاون معهم في إزاحة السلطان (عبد العزيز) عن العرش عام ١٨٧٦م، وانتهى الأمر باغتياله، واتُّهم (مدحت باشا) في أمر الاغتيال، فاحتمىٰ بالقنصلية الإنجليزية والفرنسية.

وهكذا أعلن الأحرار العثمانيون عن دورهم الفاضح في الدولة في الوقت

---

(١) صابر طعيمة، الماسونية ذلك العالم المجهول، دار الجيل، بيروت، ١٩٧٥م، ص١٥.

(٢) جواد رفعت أتلخان، أسرار الماسونية، ترجمة نور الدين رضا، وسليمان محمد أمين القابلي، المختار الإسلامي، القاهرة ص١٧ ـ ٢٧.

(٣) انظر محمد حرب، مذكرات السلطان عبد الحميد؛ المقدمة، مرجع سابق، ص٣.

الذي تقاضىٰ فيه (حسين عوني) شريك (مدحت) في المؤامرة مبلغاً من المال من قِبَل الإنجليز، ويقول السلطان العثماني في هذه المناسبة: «لم يهزّني شيءٌ في حياتي قدر شخصٍ يرتفع إلى مقام قيادة الجيش، أو إلى مقام الصدارة العظمىٰ، ويقبل نقوداً من دولةٍ أجنبية. هذا شيءٌ أكثر من احتمالي»(١).

وعندما اعتلى السلطان عبد الحميد عرشَ الدولة، كانت النخبة المثقفة والمسيطرة على الإدارة والإعلام أعضاء في المحافل الماسونية، وعلى الأخصّ محفل (سر) الذي أنشأه الأرمن في إستانبول عام ١٨٦١م من هؤلاء: (مدحت باشا) و(أحمد وفيق باشا) و(خير الدين باشا التونسي) وأبرز الإعلاميين في ذلك الوقت أمثال: (نامق كمال) و(ضياء باشا) و(إبراهيم شناسي)(٢).

معاداة الماسونية لآل عثمان:

كان الماسونيون يعادون آل عثمان، كما كانوا يرغبون في تأسيس نظامٍ أوروبي يحلُّ محلَّ الخلافة العثمانية، وقد لعبوا دوراً بارزاً في الإطاحة بحكم (السلطان عبد العزيز) ثم (السلطان عبد الحميد) ونتيجة للتعاون الصهيوني ـ الماسوني قرر محفل (الشرق الأعظم) الفرنسي عام ١٩٠٠م إزاحة (السلطان عبد الحميد)، وبدأ العمل لهذا الغرض عن طريق حركة (تركيا الفتاة) منذ بداية تكوينها. والواقع أنَّ المبادئ اليهودية والماسونية أثَّرتا كثيراً على منتسبي جمعية الاتحاد والترقي، الذين حافظوا على تلك المبادئ والتقاليد حتى بعد الثورة. وهناك مسألةٌ جديرةٌ بالتدقيق والتأمل وهي أنَّ اليهود المنتسبين لفرقة الاتحاد والترقي، أصبحوا أصحابَ الكلمة العليا والنفوذ في هذه الجمعية(٣).

وعن طريق محفلي (ريزورتا) و(فريتاس) الماسونيين كان رؤوس الماسون أعضاء الاتحاد والترقي أمثال (طلعت باشا) و(مدحت شكري) و(كاظم باشا) و(ميناس زاده) و(عمانويل قره صو) و(جمال باشا) و(إسماعيل جانبولاد) أعضاء

---

(١) مذكرات السلطان عبد الحميد، محمد حرب، مرجع سابق، ص٤١.
(٢) محمد حرب، السلطان عبد الحميد، مرجع سابق، ص٨٤.
(٣) حسان علي حلاق، مرجع سابق، ص٣٠٠.

في محفل (فريتاس) الماسوني[١].

وكان هؤلاء يتمتعون بامتيازاتٍ من الحكومة عن طريقها يستطيعون حمايةَ أعضاء الجمعية في نقل مطبوعاتهم ومنشوراتهم من مكانٍ إلى مكان، ومساعدتهم في إخفائها، وفتح منازلهم لاجتماعاتهم[٢].

المحافل الماسونية في الدولة العثمانية:

أقيمَ أوّل محفل ماسوني لليهود في إنجلترا عام ١٧١٧م[٣] ثم تلاه محفل باريس الذي أقيم عام ١٧٢٥م ثم محفل مدريد عام ١٧٢٨م ثم تبعه محفل لاهاي الذي أقيم عام ١٧٣٣م بعد ذلك تعدَّدت محافلهم على مختلف البلاد.

بعد ذلك استمرَّ تأسيسُ هذه الجمعيات الماسونية والتابعة للجمعيات الفرنسية والإيطالية والبولونية. وكان مؤسسو هذه الجمعيات أجانب.

وقد أقيمَ أوّلُ محفلٍ ماسوني بالدولة العثمانية في ولاية سلانيك، وكان ذلك عام ١٦٨٣م، وبهذا يكون محفل تركيا قد سبق محفل إنجلترا بحوالي أربعةٍ وثلاثين عاماً، وبعده انتشرت المحافل في أرجاء الدولة العثمانية[٤].

وجديرٌ بالذكر فإنَّ أول جمعية ماسونية تمَّ افتتاحها في تركيا كانت في عهد السلطان (أحمد الثالث) (١٧٠٣ ـ ١٧٣٠م) في هذه الأيام كان المجتمع التركي يواجِهُ مشاكلَ عديدة وكانت هذه الجمعية تتبع ماسون فرنسا، وتوجد هذه

---

(١) أحمد نوري النعيمي، اليهود والدولة العثمانية، مرجع سابق، ص١٧٧ ـ ١٧٨؛ ومذكرات السلطان عبد الحميد، محمد حرب، دار القلم، مرجع سابق، ص١١٦ ـ ١/١١٧. يقول السلطان عبد الحميد: إنَّ الماسونية الدولية كانت له بالمرصاد، منذ أن واجهها السلطان ونفىٰ من البلاد رئيسَ وزرائه مدحت باشا.

(٢) مذكرات السلطان عبد الحميد، محمد حرب، مرجع سابق، ص٣٠.

(٣) تسمَّىٰ فروع الجمعية الماسونية محفلاً، وكل محفل يضم (٣٠) عضواً ويسمَّىٰ (أخاً) وقد بلغ عدد المحافل في تركيا عام ١٩٩٤م حوالي المئة، أما عدد الماسونيين الأتراك فقد بلغ ثمانية آلاف رجل، ولا يسمح للنساء بالانضمام إليهم، وفي ذلك الوقت خرجت الماسونية عن كونها سريةً إلى العلنية.

(٤) محمد زغروت، دور يهود الدونمة، مرجع سابق، ص٢٣.

الجمعية في (غَلَطة) في إستانبول، وكان أول أعضائها (إبراهيم متفرقة) و(سعيد جلبي بن يكرمي ساكيز محمد جلبي).

وفي مدينة إزمير تأسَّس محفلٌ ماسوني في عام ١٧٣٣م، كما تأسَّس محفلٌ آخر في منطقة (غَلَطة) بإستانبول، وكان ذلك عام ١٧٣٨م.

كما أسس (عزيز حسن باشا) في مصر أيضاً عام ١٩٠٩م محفلاً كبيراً سُمِّي (مشرقي أعظمي عثماني)(١).

وكان ليهود الدونمة النصيب الأكبر في التغلغل في حياة الدولة العثمانية عن طريق هذه المحافل، فكان لهم المراكز القوية في الدولة، وكان منهم الوزراء والنواب وقادة الجيش وكبار الموظفين والمسؤولين في الدولة.

وكان اختيارُ ولاية سلانيك كمحفلٍ أول لليهود باعتبارها ثغراً تجارياً هاماً في تركيا، وكان اليهود هناك يمثّلون أكثرية سكان هذه الولاية، حيث بلغت هذه النسبة (٧٠٠٠٠) يهودي من مجموع (١٠٠٠٠٠) من سكانها، ومن ناحيةٍ أخرى فكانت سلانيك هي المنطقة التي سمح فيها السلطان عبد الحميد ببقاء الدونمة المرتدين فيها لكي يتجنَّبَ تحرُّكاتهم خارجها(٢).

---

(١) محمد نور الدين، شؤون تركيا، مركز الدراسات الاستراتيجية والبحوث والتوثيق، بيروت، عدد(١١)، ربيع ١٩٩٤م، ص٢٨؛ كتاب محمد علي الزعبي (الماسونية، منشئة ملك إسرائيل) المكتبة الثقافية، بيروت، لبنان، ص١٠١؛ وصالح زهر الدين (اليهود في تركيا)، مرجع سابق، ص٢٢.

(٢) نوري النعيمي، اليهود والدولة العثمانية، مرجع سابق، ص١٨٩؛ ويتحدث رشيد رضا في مجلة المنار عن السلطان عبد الحميد وسياسته أمام الماسونية ورؤيته في هذا الخصوص: «كان السلطان عبد الحميد عدواً للجمعية الماسونية، لاعتقاده أنها جمعيةٌ سرية، وهو يخاف من كل اجتماع، وكل سر، وأنَّ غرضها إزالة الاستبداد، وإزالة السلطة الدينية من حكومات الأرض كلها، وهو يفتخر بالخلافة الإسلامية، ويحرص عليها، وقد تنفَّس زعماء الماسون بعد الانقلاب الذي كان لهم فيه أصابع معروفة الصعداء، فأسَّسوا محفلاً شرقياً عثمانياً أستاذه الأعظم (طلعت) ناظر الداخلية وأركانه زعماء (جمعية الاتحاد والترقي) وأنصارها من اليهود وغيرهم، ولأجل هذا نرىٰ (طلعت) لا يبالي بسخط الأمة، ولا يرضىٰ في إدارته التي استغاثت منها المملكة بألسنة ولاياتها كلها إلا ولاية =

ويذكُر في هذه المناسبة القائد التركي (جواد رفعت أتلخان) الارتباط الوثيق بين الصهيونية والماسونية واليهودية والدونمة، فهم الذين قاموا بحوادث ١٩٠٨م، وأصبحت سلانيك وكراً يهودياً دونمياً، لها دورٌ فعّال في الحوادث التي أدت للقضاء على السلطنة العثمانية[١].

أما أول جمعية ماسونية في مصر فقد تأسست عام ١٨١٦م وقد أسسها (حليم باشا) حاكم مصر باسم (شورى عالي عثماني) واستمرت حتى عام ١٩٠٩م. بالإضافة إلى (مشرقي أعظم عثماني) الذي أسسه الأمير (عزيز حسن باشا)[٢].

ومع هذا المحفل تأسّس في الدولة العثمانية حوالي (٦٥) محفلاً ماسونياً، وبعد الحرب العالمية الأولى تناقص عدد الجمعيات الماسونية في تركيا، وتغيَّر اسم (مشرقي أعظم عثماني) إلى (الجمعية التركية العليا)[٣].

وعن طريق أثرياء اليهود استطاعوا تمويل الحركات المعادية للسلطان

= سلانيك، وكذا أدرنة فيما أظن، وألسنة مبعوثيها حتى بعض الاتحاديين. وسلانيك هي الآن ـ في وقت كتابة هذا المقال ـ مركز السلطة الحقيقية في السياسة، والآستانة مركز التنفيذ.

كان حظُّ عبد الحميد أن تكون السلطة الحقيقية حيث يكون ما دام حياً، وإن لم تكن في يده الخاطئة، وإنا نتمنىٰ ألا يكون تصرُّف طلعت في الماسونية كتصرُّفه في نظارة الداخلية. فإني والله لم أسمع من أحدٍ في الآستانة، ولا في غيرها، شهادةً له بحسن التصرف، ولا أحصي عدد الشهادات التي سمعتُها عن سوء تصرفه، الذي أثَّره في اضطراب أكثر ولايات المملكة، فسوء تصرفه في مسألة الأرناؤوط قد عرف الآن، وإن لم تظهر عواقبه السيئة كلها. وأما سوء تصرفه في مسألة اليمن فقد ظهرت بوادره، ونعوذ بالله من أواخره. نتمنى أن يكون تصرفه في الماسونية أحسن، حتى لا يجند عليها ولا على الملة والدولة، فإنَّ الفرق بيننا وبين فرنسا والبرتغال بعيدٌ جداً، وإن كان يراه هو والدكتور ناظم وبعض الزعماء قريباً فليتدبروا، ولا يغتروا بقوة الجمعية ولا بغيرها.

صالح زهر الدين، اليهود في تركيا، مرجع سابق، ص٢٣.

(١) صالح زهر الدين، اليهود في تركيا، مرجع سابق، ص٢٣ ـ ٢٤.

(٢) المرجع السابق، ص٢٢ ـ ٢٣.

(٣) شؤون تركيا، مرجع سابق، عدد(١١)، ربيع ١٩٩٤م، ص١٩.

عبد الحميد، ومحاولات قلب حكمه، وقد سبق لنا القولُ: إنَّ يهود سلانيك كانوا عقبةً أمام السلطان عبد الحميد.

وقد ارتبط يهود سلانيك بالصهيونية العالمية، وذلك لخدمة أغراضهم حتى إنَّ سلانيك أصبحت في أواخر القرن الثامن عشر مركزاً كبيراً لنشاط يهود الدونمة السياسي والعسكري، واستطاع يهود الدونمة في ذلك الوقت الاتصال بعناصرهم في العواصم الأوروبية المختلفة، وخاصةً (جماعة الاتحاد والترقي) التي برزت كقوةٍ مؤثرة على النظام الأساس للدولة، وقامت المحافل الأوروبية بتقديم عونها المالي والسياسي والإعلامي في العمل على هدم حكم السلطان عبد الحميد.

وقام يهود الدونمة من جانبهم بنشر الجاسوسية، واستغلال أشخاص لتحقيق أغراضها، فكان اليهود يحملون جنسياتٍ مختلفة، بحيث يفدون إلى الدولة العثمانية في شكل ممثّلين دبلوماسيين، أو مفاوضين، أو فنيين، أو مستشارين، ويَحْتَمُونَ بالسفارات الأجنبية التي ينتمون إليها، فيعملون على كشف أسرار الدولة، وإضرام العداوة والفتنة بين الطوائف المختلفة، وذلك بهدف العمل على القضاء على الخلافة العثمانية، وعزل السلطان عبد الحميد بحيث يتولّىٰ الاتحاديون حكم البلاد[١].

ومن ناحيةٍ أخرى اتصل الماسونيون عن طريق حزب تركيا الفتاة ببعض الموظفين الكبار، والضباط، وبعض مشايخ الطرق، والعلماء، والسفراء، ووزراء، وكتّاب، ومحامين، كما اتصلوا بالثوار الأرناؤوط، وعصابات البلغار، وفكّروا في تفجير (جسر غَلَطَة) أثناء مرور السلطان عبد الحميد عليه، وهو في طريقه إلى زيارة الآثار النبوية الشريفة في قصر (طوب قابو)، كمافكّروا في نسف (قصر يلدز)وقاموا بتوزيع منشورات حرّضت على تبنّي دستور (مدحت باشا) بقصد زرع الاضطرابات[٢].

وفي مذكرات السلطان عبد الحميد تحدّث السلطان عن الكوارث التي

---

(١) محمد زغروت، مرجع سابق، ص٢٩ ـ ٣٠.
(٢) علي حسون، مرجع سابق، ص١٩٣.

حلَّت بدولة الخلافة عن طريق المكايد التي كانت تدبِّرها الدول الأوروبية بالتعاون مع يهود الدونمة[١].

يقول السلطان عبد الحميد في مذكراته: «إنَّ العمل الوحيد الذي استطاع الماسونيون القيامَ به في الدولة العثمانية؛ هو نشر الشقاق والتمرد في البلد وبين صفوف الجيش، دون أن يعلموا أنهم يعملون لحساب إنجلترا التي تدَّعي نشر الأفكار المتحرِّرة في إمبراطوريتنا. وأشدُّ ما يؤلمني أن يتعاونَ هؤلاء الضالُّون الأتراك مع اليونانيين والبلغاريين في سبيل إزاحة المستبد! عن الحكم»[٢].

وبالإضافة إلى هذا تأسست محافِلُ ماسونية عديدة في إستانبول وإزمير، بعضها تابعٌ للشرق الإنجليزي وبعضها للفرنسي أو الإيطالي، حتى أصبح عدد الماسون الأتراك المسلمين عام ١٨٨٢م نحو عشرة آلاف شخص، من بينهم الوزراء والنواب وقادة الجيش وكبار المسؤولين.

إلا أنَّ السلطان عبد الحميد استطاع في عام ١٨٩٤م إغلاقَ جميع المحافل الماسونية ما عدا محافل سلانيك لارتباطاتها الدولية مع دول ومحافل أوروبا مثل: إنجلترا وفرنسا وإيطاليا وألمانيا والنمسا[٣]. وكان محفل سلانيك تحت إدارة: (المشرق الأعظم الإيطالي) وكان انتماء أعضائه إلى الجنسية الإيطالية يعطيهم الحماية من التفتيش أو المحاكمة بحكم المعاهدات، وكانوا يعقدون

---

(١) مذكرات السلطان عبد الحميد، محمد حرب، مرجع سابق، ص٤٣ ـ ٤٤. وفي هذا المجال يذكر السلطان عبد الحميد في مذكراته أيضاً أنَّ إنجلترا كانت دائبةً على تسيير الفتن عن طريق الماسونية، وكان (مدحت باشا) لم يكتفِ بإثارة ما أثاره من مشاكل، فهو من ناحيةٍ يريد خلق أزمة في السراي، ومن ناحيةٍ أخرى يريد الزجَّ بالبلاد في أتون الحرب. أعمالٌ كهذه يمكن أن تؤدي ـ معاذ الله ـ إلى تقويض الدولة من أساسها. كان المُلك العثماني يهتزُّ من أساسه بناءً على هذا كله. كنت أرى أنَّ الصدر الأعظم يؤيد الإنجليز ويتعاون معهم، سواء بدافع من ماسونيته، أو بدافعٍ من أسباب أخرى خاصةً جداً به، ولم أعد أحتمل، فاستندت إلى صلاحياتي في القانون الأساسي وعزلتُه ـ أي مدحت باشا ـ من الصدارة العظمىٰ، وأبعدته خارج الحدود. انظر المرجع ذاته.

(٢) حسان علي حلاق، مرجع سابق، ص٢٩٠.

(٣) المرجع السابق نفسه.

اجتماعاتهم في سريةٍ تامة[1].

ونظراً لسيطرة الماسونيين على مجلس إدارة سلانيك، الأمر الذي سبَّب خطراً على الحكم العثماني، أصدر السلطان عبد الحميد أوامره عام ١٨٩٥م بضرورة تعيين أعضاء لمجلس إدارة ولاية سلانيك زيادةً عن الموجودين[2]. الذي انتخب رئيساً لمحفل المشرق الأعظم العثماني[3].

---

(١) صالح زهر الدين، اليهود في تركيا، مرجع سابق، ص٢٥؛ حسان علي حلاق، مرجع سابق، ص٢٩٠.

(٢) حسان علي حلاق، مرجع سابق، ص٢٩٠.

(٣) يقول الأديب والمؤرخ الفرنسي (جان بروان) في مقالةٍ له في صحيفة (المحراب) نشرت عام ١٩٢٤م مشيراً إلى طائفة الدونمة جاء فيها: «أصحاب المصيدة هم أذكى الأقوام والأجيال التي تعيش في سلانيك، انتسب معظمهم إلى (جمعية الاتحاد والترقي)».

وعلى صعيدٍ آخر يجدر بنا أن نعرضَ تفصيلاً سريعاً لما جاء في وثائق رسمية نشرتها مجلة المجتمع الكويتية عدد (٤٢٥) تاريخ ٢٥/١٢/١٩٧٨م عن الدور الذي لعبه اليهود في تدمير الخلافة العثمانية، وقد جاءت في وثيقةٍ هامة بعثها السفير البريطاني السير (ج. لاوثر) إلى وزير خارجية بلاده (سيبرش. هارونغ) عام ١٩١٠م. يقول فيها: «إنَّ حركة تركيا الفتاة في باريس كانت مستقلةً عن حركة تركيا الفتاة في سلانيك، وإنها كانت تجهل تنظيماتها وإجراءاتها الداخلية، حيث إنها كانت حركةً سرية وسياسية إلى حدٍّ كبير. ففي سلانيك كان يسكن حوالي مئة وأربعين ألف نسمة، منهم ثمانون ألف يهودي من أصل إسباني، وعشرون ألف من سبط لاوي، أو اليهود المتظاهرين بالإسلام، وإنَّ معظم اليهود الإسبان حصلوا في الماضي على الجنسية الإيطالية. فاليهودي (عمانويل قره صو) هو يهودي من (يهود الدونمة) ماسوني، وهو الذي كوَّن محفلاً في سلانيك سمي محفل (ماكدونيا رزورتا).

قام (قره صو) هذا بإقناع رجال تركيا الفتاة ضباطاً ومدنيين بالانتماء إلى الماسونية، وكان هدفه هو فرض النفوذ اليهودي على الأوضاع الجديدة في تركيا. وكان يتظاهر بأنه يريد مساعدة رجال تركيا الفتاة في تضليل جواسيس السلطان عبد الحميد، ومنحهم الأمن في محفله الماسوني، لأنَّ هذا المحفل يتمتع بحصانةٍ ممنوحة للأجانب في الدولة العثمانية ضد الملاحقة والتفتيش، وقد استطاع (قره صو) السيطرة على فرع (جمعية الاتحاد والترقي) في البلقان. وقد عبَّر أحدُ الأتراك أنَّ كلَّ يهودي أصبح جاسوساً للجمعية بالقوة (حكماً) وبدأ الناس يقولون: إنَّ الحركةَ إنما هي حركةٌ يهودية أكثر مما هي ثورةٌ تركيا. ويقول وزير الخارجية البريطانية في وثيقته: لقد استطاع العقيد رمزي بك اليهودي الدونمي أن يصبح رئيساً لأركان حرب (السلطان محمد الخامس)=

ومن أهم الشخصيات اليهودية الماسونية كان (جاويد بك) نائب سلانيك قد عين وزيراً للمالية، وهو يهودي من الدونمة وماسوني[1].

= بدلاً من أن يحاكم أمام المحكمة العسكرية بسبب تصرف العساكر الذين كانوا تحت إمرته، وبعد خلع (السلطان عبد الحميد) نقل إلى سلانيك، وعين أخ رمزي بك هذا مشرفاً على السلطان.

ويقول أيضاً بعد أن تمَّ (خلع السلطان عبد الحميد) أخذت الصحف اليهودية في سلانيك تزفُّ البشائر بالخلاص من (مضطهد إسرائيل) الذي رفضَ مرتين أن يستجيبَ لطلب الزعيم الصهيوني (هرتزل) والذي وضع جواز السفر الأحمر الذي يقابل عندنا (في بريطانيا) قانون الأجانب ضد المهاجرين البولونيين اليهود، وغير ذلك من الأعمال التي حالت دون تحقيق الحلم الصهيوني في فلسطين.

(١) جاويد بك يهودي من يهود الدونمة، وماسوني بدرجة (٣٣)، اقتصادي لعبَ دوراً كبيراً في الثورة على (السلطان عبد الحميد) انتُخِبَ نائباً عن مدينة سلانيك (مذكرات السلطان عبد الحميد، محمد حرب، دار القلم، مرجع سابق، ص٢٧٣)، شغل وزارة المالية أكثر من ثلاث مرات حتى عام ١٩١٨م، وقد كتب عدة كتب أهمها كتابه (علم الاقتصاد) في أربعة مجلدات. . وقد أُعدِمَ في عام ١٩٢٦م متَّهماً بالتآمر على كمال أتاتورك.

وقد جاء في دائرة المعارف الإسلامية ما يلي: «إنَّ طلعت بك، وزير الداخلية الذي هو من أصلٍ غجري من مقاطعة أدرنة، و(جاويد بك) وزير المالية الذي هو يهودي باطني، هما التجسيد الرسمي للقوة الخفية للجمعية، وهما فقط الوزيران اللذان يُحسَبُ لهما حسابٌ حقيقي، وهما أيضاً يمثّلان قمة الماسونية في تركيا. . . (طلعت بك) و(جاويد بك) الوزيران اللذان يسيطران على أقدار الإمبراطورية بصورةٍ عامة من الطبيعي أن يستاءا من الرفض الإنجليزي».

ويعلق رشيد رضا على (جاويد بك) قائلاً: «. . . ولو أرادوا ذلك لكانوا أقدر الناس عليه بمساندة أساتذتهم وإخوانهم من اليهود الأصليين والدونمة (الذين منهم (جاويد بك) الذي جعلوه ناظراً للمالية، وفوَّضوا إليه عقد القروض) ولكنهم اغتنموا فرصة ما سمّوه (حركة الارتجاع) فعزلوا السلطان عبد الحميد الثاني، ونهبوا من أمواله وجواهره وتحفه. . .» راجع: رشيد رضا، مختارات سياسية من مجلة المنار، دار الطليعة، بيروت، ١٩٨٠م، ص٢٢٤.

أما (برنارد لويس) وهو كاتب يهودي فيقول عن (جاويد بك): «. . . هناك شخصٌ في سلانيك أكثر قوةً من (قره صو) أدّى دوراً في ثورة عام ١٩٠٨م، وخدم مرات عديدة وزيراً للمالية في حكومات تركيا الفتاة، لم يكن يهودياً، بل كان من يهود الدونمة».

ومن جانبٍ آخر يذكر (برنارد لويس): «. . . إنَّ اليهود لم يكن لهم دورٌ يذكر، وإنَّ=

(طلعت بك) أيضاً يهودي ماسوني، وكان وزيراً للداخلية. ومنذ أن أصبحَ وزيراً للداخلية قام بنشر شبكة الماسونية التابعة للجمعية في جميع مناطق الدولة،

= (قره صو) كان دوره ثانوياً، في حين أنَّ (جاويد بك) أدى دوراً كبيراً، إنه كان العضو الوحيد من (طائفة الدونمة) الذي وصل إلى المرتبة المتقدمة». نوري النعيمي، يهود الدونمة، مرجع سابق، ص٧٨ ـ ٧٩.

وتذكر المصادر أنَّ سبب نهوض حركة تركيا الفتاة وسقوطها هو عدم اعتدال الأتراك، سواء أكانوا مسلمين أم بقوا يهوداً أحراراً، فهم يحاولون أن يحصلوا على نفوذٍ كبير من غير أن يفكِّروا بأنَّ سعيهم هذا يثير غيرةَ الأتراك وحسدهم، وأعظم غلطةٍ ارتكبوها أنهم رضوا بأنَّ يكون (قره صو) الماسوني اليهودي من الوفد الذي حمل الفتوىٰ إلى عبد الحميد بخلعه. وقد ارتكبوا بعدها عدة أخطاء، والآن صارت الأخطاء تبدو وتظهر. . .». راجع نوري النعيمي، اليهود والدولة العثمانية، مرجع سابق، ص١٩٨.

وأضافت الجريدة: «تخلَّقت (جمعية الاتحاد والترقي) بعد خلع عبد الحميد بأخلاق الماسونية واليهودية، ولبست ثوبهما. ولمَّا قامت ثورة نيسان ـ إبريل ١٩٠٩م نالت العناصر اليهودية أهميةً أكبر. فـ(جاويد بك) وزير المالية و(طلعت بك) وزير الداخلية السابق ورئيس الجمعية و(جاهد بك) محرر طنين ومستشار جاويد بك الخصوصي كلُّهم ماسون، وأولهم من سلالةٍ يهودية، فاستاء ضباط الجيش والأتراك كثيراً لتفوُّق بعض الأفراد الذين ليسوا أتراكاً حقيقيين، والذي تحسب علاقتهم مع يهود أوروبا سهلةً لنشر الجامعة الصهيونية، ويعتقد الأتراك أنَّ الغرض من الجامعة الصهيونية هو تأليف مملكة يهودية في آسيا الصغرىٰ، ويتوجَّسون من المستعمرات اليهودية المنشأة في سوريا، ويخافون أن تكون مراكزاً لنفوذ الأجانب، ولا سيما الألمان منهم. ذلك لأنَّ الأتراك لاحظوا منذ أمدٍ طويل أنَّ اليهود ولا سيما الإشكنازيين منهم أي اليهود البولونيون والروس والألمان إنما هم من محبي الدولة الألمانية. . .».

وقد قام جاويد بك مع الحركة الصهيونية والبنوك من أجل تحقيق مطامع اليهود في فلسطين، إذ استطاع عقد صفقة تجارية مع بيوتاتٍ مالية قدِّرت قيمتها بستة ملايين ليرة عثمانية في باريس، وهذه البيوتات هي: (كريدي موبيلين) و(برنادر) و(دريفوس) و(جاريسلويكي) والأكثر من هذا، أراد جاويد بك الاتفاق مع الاتحاديين على بيع ثلاثة ملايين دونم من الأراضي في فلسطين وسوريا بجمعيات الاستعمار الصهيوني، وقامت ضجةٌ حول هذا المشروع في الصحف، ونتيجةً لذلك فقد أخفق هذا المشروع. وجديرٌ بالإشارة أنَّ جاويد بك مع طلعت بك، كانا الصورة الحية للسلطة الحقيقية الخفية في الدولة العثمانية. (راجع: حسان علي حلاق، مرجع سابق، ص٢٣٠).

وذلك أنه أخذَ يُسْنِدُ الوظائف الكبرى في الأقاليم إلى ولاةٍ ومتصرفين . . إلخ من الماسونيين، أو إلى رجالٍ تثقُ بهم جمعية الاتحاد والترقي، أو من كلا هذين الصنفين من الرجال[1].

وكان هدف هذين الرجلين من ذلك أنه في حالة قيام الأكثرية في البرلمان صدفة، أو بالرغم من الإرهاب المنتشر بسبب حالة الطوارئ، بالمعارضة إلى حدٍّ يهدِّد وزارتي (طلعت) و(جاويد) فإنَّ هذين الأخيرين سيردَّان بانقلابٍ معاكس،

---

(١) ينحدر (طلعت بك) من أصلٍ غجري، ومن عائلةٍ فقيرة من أدرنة في قيرجالي حيث ولد في عام ١٨٧٤م، وقد تعلّم الفرنسية في (مدرسة الاتحاد اليهودي) وأصبح رئيساً للكتاب في ولاية سلانيك، كما أصبح مأموراً للبريد، حيث كان يقبض ثلاث ليرات في الشهر، كما أصبحَ عضواً في الخزانة العامة، وأصبحَ أيضاً وزيراً للداخلية، وقد عمل جاهداً إلى أن وصل إلى منصب الصدر الأعظم. وقد انتمىٰ (طلعت بك) إلى (محفل الشرق الأعظم الماسوني) إذ أحسَّ المحفل الماسوني في سلانيك بأنَّ طلعت سيكون له مستقبلٌ في الدولة العثمانية، فاتصلوا به، وسجلوه في عداد الماسونيين، ورقِّي طلعت إلى عدة درجات في المحفل الماسوني، وأصبح يتقاضىٰ منه راتباً شهرياً مقداره عشر ليرات إنجليزية.

وعمل طلعت دوراً بارزاً منذ أن كان موزعاً للبريد والبرق في أدرنة.

ثم قدم (طلعت) و(قره صو) إلى إستانبول لتوثيق العلاقة مع تنظيم إستانبول لحزب الاتحاد والترقي، فألقي القبضُ عليهما، واستجوبا أمام لجنةٍ خاصة شكِّلت بقصر يلدز بصورةٍ مستعجلة. واستطاع (قره صو) بدهائه أن ينقذَ نفسه، وينقذَ (الاتحاد والترقي) بنقل الرسائل السرية من وإلى سلانيك ومناستر.

عمل طلعت بك جاهداً منذ أن كان وزيراً للداخلية على نشر المحافل الماسونية، وقام بإسناد الوظائف الرئيسة في الدولة إلى ولاةٍ ومتصرفين من الماسونيين. وقد فرَّ (طلعت) هارباً إلى برلين أثناء الحرب العالمية الأولى، وكان عقب فراره حدثت ثورةٌ بين الطلبة الأتراك في برلين، والتمس هؤلاء من الألمان تسليمه إلى الدولة العثمانية، واختفىٰ (طلعت) عن الأنظار مدةً من الزمن، حيث ذهبَ إلى هولندا، وقد رافقه في هذه الزيارة (نسيم مازلياح) وهو من الاتحاديين اليهود الذي كان مبعوثاً عن إزمير.

وتجدر الإشارة إلى أنَّ (طلعت) مالَ في بداية الأمر إلى البولشفيك الروس ضد سياسة الحلفاء. وفي نهاية حياته، اختلف (طلعت) مع الماسونيين، الأمر الذي أدىٰ إلى اغتياله من قبل المحافل الماسونية، حيث اغتاله رجلٌ أرمني في برلين في ١٥/ ٣/ ١٩٢١م. (مذكرات السلطان عبد الحميد، محمد حرب، دار القلم، مرجع سابق، ص٢٧٦).

وذلك بأن يحلاً مجلسَ النواب، ويجريا انتخاباتٍ جديدة، توجهها نوادي (جمعية الاتحاد والترقي) والمحافل الماسونية في الأقاليم، وتأتي بنوابٍ أكثر طاعةً للحكومة، وأشدّ مسايرةً لرغباتها. ونستطيع القول: الماسونية أصبحت الحكومة الحقيقية في تركيا.

يتبيّن من هذا أنَّ الحكومة الخفيّة لتركية إنما هي (محفل الشرق الأعظم الماسوني) وعلى رأسه (طلعت بك)(١).

كما عيَّن رجلٌ يهودي وماسوني من سلانيك مديراً للمطبوعات، وكانت له سلطاتٌ واسعة بحيث أنه كان يستطيعُ إيقافَ أية صحيفة عن الصدور إذا وجَّهت للنظام الجديد أيَّ انتقاد، فكان صاحب الجريدة يقدَّمُ إلى المحاكم العسكرية، ويتَّهَم بالرجعية، أما الفرع الرئيس لجمعية الاتحاد والترقي في إستانبول فكان يرأسُه رجلٌ يهوديُّ الأصل من سلانيك(٢).

كما سيطر على الأمن العام بالدولة رجلٌ يهودي من سلانيك أيضاً، وكان

---

(١) يقول (رفيق بك) وهو أحد الشخصيات الهامة في (جمعية الاتحاد والترقي) عن دور هذه المحافل: «حقاً إننا وجدنا سَنَداً معنوياً من الماسونية، وخاصةً الماسونية الإيطالية. فالمحفلان الإيطاليان (macedonia risorta) و(labor et lux) قدَّما لنا خدمةً حقيقية، ووفَّرا لنا الملاجئ. فَكُنَّا نجتمع فيها كماسونيين، لأنَّ كثيراً منا كانوا ماسونيين فعلاً». صالح زهر الدين، مرجع سابق، ص٢٦ (نقلاً عن جواد رفعت أتلخان، الخطر المحيط بالإسلام، ص١٥٠ ـ ١٥١). ويقدَّرُ عددُ الماسونيين الأتراك بثمانية آلاف رجل، ويكشف أحدُ الماسونيين الأتراك علاقةَ الماسونيين الأتراك بإسرائيل، وهو (قاطرجي أوغلو) بقوله: إنَّ الماسونيين الأتراكَ يُقسِمون يمينَ الولاء لإسرائيل.

(قاطرجي أوغلو) الذي أتمَّ عامه العشرين في الماسونية، ودرجته هي الرابعة عشرة، يقول: إنَّ بعض الماسونيين الأتراك هم في نفس الوقت أعضاء في محافل إسرائيل الماسونية. ويعتقد (قاطرجي أوغلو)، مستنداً إلى إحدى الصور أنَّ (جاك كمحي) زعيم يهود تركيا (البالغ عددهم حوالي ٢٦ ألفاً) والذي تعرَّض في كانون الثاني ١٩٩٣م، إلى محاولة اغتيال في إستانبول، هو في نفس الوقت رئيس لمحفل (نور) في تل أبيب، وهو، بهذه الصفة، يُقسِم يمينَ الولاء للدولة الإسرائيلية، وفي ذلك مخالفةٌ لقانون الجمعيات التركية. شؤون تركيا، عدد(١١)، ١٩٩٤م، ص٣٠ـ٣١.

(٢) وثائق في الماسونية، مخطوط غير منشور، مركز بحوث العالم التركي.

لجمعية الاتحاد والترقي الحقُّ في حلِّ جميع الجمعيات المماثلة لها في أيِّ دولةٍ أخرى[(١)].

كما تمَّ إنشاءُ وكالة أخبارٍ تلغرافية لتقدِّم رأيَ جمعية الاتحاد والترقي في الأحداث الداخلية والخارجية.

أمَّا الموظفون ذوو المناصب الهامة في الدولة، فكانت ترقياتهم تتوقَّفُ على دخولهم المحافل الماسونية، وأخبر بعضَهم أنَّهم إذا ما أصبحوا ماسونيين فإنَّ قضية مصر وكريت وغيرها من القضايا التي تؤثِّر في عظمة البلاد القومية ستُحَلُّ لصالح تركيا، وأنهم سيصبحون إخوان ملك إنجلترا، وبإمكانهم أن يصافحوه، ويتبادلوا معه الرموزَ عندما يزور إستانبول، وكان هدفهم في هذا استثارة الثقة التي تقترن باسم إنجلترا في نفوس طبقات العثمانيين كافة[(٢)].

الصدور العظام الماسونيون:

سيطر عددٌ من الماسون في الدولة العثمانية على أهمِّ المناصب، وعلى رأسها منصب الصدر الأعظم (رئيس الوزراء)، وكان هذا المنصب من أهم المناصب في الدولة والصدر الأعظم هو المستشار الأول للسلطان[(٣)].

وقد تحدَّثنا من قبلُ عن كيفية تغلغل الماسونية داخلَ الدولة العثمانية، ومحاولتهم الهيمنة على نظام الدولة الأساسي، حتى يستطيعوا خدمة أغراضهم، ومن أهمِّ هؤلاء الصدور، الصدر الأعظم (سعيد جلبي) والصدر الأعظم (مصطفى رشيد باشا) و(محمد أمين عالي باشا) وغيرهم[(٤)]. ونتيجةً للمساعي الماسونية

---

(١) يقول (جاويد بول غرنبيه) في كتابه (نهاية الإمبراطورية العثمانية): كان يهود سلانيك المنتمون إلى المحافل الماسونية باستطاعتهم أن يحدِّدوا بعزمِ العناصرَ الحكومية التي ستتولَّى الحكمَ في المستقبل، وأنَّ المبادئ الأساسية الموجهة للاتحاديين إنما ظهرت تحت تأثير الحركة الصهيونية المتخفية.

(٢) وثائق الماسونية: مرجع سابق.

(٣) عبد العزيز الشناوي، مرجع سابق: ١/ ٣٥٨.

(٤) انظر الصدور العظام الماسون الذين سيطروا على نظام الحكم في الدولة العثمانية ملحق رقم (٤)، القسم الثاني، ص٤٢٦.

التي قاموا بها في الدولة، فقد استطاعت أن تقودَ الجيش إلى اليمن، وبعد ذلك سلّمت طرابلس للمحتلين، حيث تمكّن الإيطاليون من احتلال طرابلس الغرب[1].

وكانت إنجلترا دائبةً على تسيير الفتن عن طريق كبار رجال الماسونية، ومنهم (فؤاد باشا) و(مدحت باشا) و(أحمد وفيق باشا) و(خير الدين التونسي باشا) و(إبراهيم حقي باشا) و(نامق كمال بك) و(ضياء باشا) وكانت أيضاً تتعاون مع (مدحت باشا) حيث إنهم كانوا يأملون من ورائه فوائد عظيمة، وكان لإنجلترا تأثيرٌ كبير على الدولة.

وقد أسس السفير الإنجليزي اللورد (ريدنج) محفلاً ماسونياً بجوار محفل (غَلَطَة) وكان (رشيد باشا) عضواً فيه، وقام الفرنسيون بتأسيس محفل في (بَيْ أوغلو) (beyoglu) في إستانبول، وضمُّوا إليهم فؤاد باشا، كما فتح السير (هنري بلفور) محفلاً في (بيوك دره)، كما فتح الألمان محفلاً آخر لهم، وكانت هذه المحافل بمثابة مراكز للخيانة والتجسس على الدولة. وكان من أبرز هذه المحافل محفل (سر)(ser) الذي أسَّسه الأرمن، وكان له دورٌ سياسي في تركيا، بالإضافة إلى هذا، فقد انضمَّ إلى سلك الماسونية ولي العهد (مراد أفندي) وأعطيت له الدرجة الثامنة عشرة[2].

ومن هنا يجب أن نقرِّرَ حقيقةً هامة، وهي أنَّ بعض العرب المقيمين في باريس، أو في المناطق العثمانية، إنما استُغِلُّوا من قبل الصهيونية والمتمولين

---

(١) انظر علي حسون، مرجع سابق، ص١٩٢. في عام ١٩٣٥م كانت توجد في تركيا (٣٥) جمعية ماسونية، في ذلك الوقت قام أتاتورك بالاتفاق مع هذه الجمعيات بوقف نشاطها، إلا أنَّ نشاط هذه الجمعيات عادَ مرةً أخرى بعد (١٣) عاماً بفضل جهود (ميم كمال أوكه) بنفس الدرجة التي كانت تعمل بها قبل عام ١٩٣٥م، وفي عام ١٩٥١م تأسس المحفل الأكبر لتركيا، وكان هذا المحفل يقدِّم مصالح الماسونية على مصالح تركيا، وكان الماسونيون الأتراك يُقسمون يمين الولاء لإسرائيل. (شؤون تركيا، عدد ١١). كان (جان أرباتش) رئيس المحفل الماسوني الكبير في تركيا قد تدرَّج في مراتب الماسونية منذ عام ١٩٥٩م حتى وصل إلى المرتبة العليا فيها، وقد لقِّب في ١٨/ ٤/ ١٩٩٢م بلقب أستاذ أكبر للمحفل الماسوني الكبير، (شؤون تركيا، عدد (١١)، ص٢٨).

(٢) Izzet Nurigun. Yalcin Celikler, Masonluk ve Masonlar Istanbul, 1968.s.17-21.

اليهـود، دون أن يدروا غاياتهم وأهدافهم الأساسـية المتمثلة في السيطرة على فلسطين. ولمّا تعاون العرب مع المنادين بخلع السلطان، إنما كانوا يهدفون وراء ذلك الوصول إلى الإصلاح السياسي والاجتماعي والاقتصادي للبلاد العربية، بينما لم يكن اليهود والصهاينة يطالبون بمطالب إصلاحية معينة، بل كان مطلبهم الأساسي إنشاء مملكة إسرائيل[1].

والماسونية فكرٌ علماني الوجهة، مخالف لتكوين الدولة الإسلامية والفكر الإسلامي، والدليل على ذلك هو قبول طلبة من الأروام النصارىٰ في المدرسة الحربية التي هي عماد الجيش العثماني، وهو جيشٌ اقتصر على المسلمين منذ نشأته[2]. وكان السر عسكر (أي وزير الحربية) (عوني باشا) يأخذُ أموالاً من الإنجليز، وكان ماسونياً، وتسبَّبَ في خلع السلطان (عبد العزيز)، وولّىٰ مكانه السلطان مراد.

أما (مدحت باشا) الذي كان صدراً أعظم، فقد كان ماسونياً أيضاً، وكانت إنجلترا تحرِّكُه ضد الدولة، وأثبتت بعضُ المراجع أنَّ (مدحت باشا) كان يهدف إلى أمرين:

الأول: خلق مشاكل داخلية في البلاد وفي السراي ذاتها.

والأمر الثاني: الزجّ بالبلاد في أتون الحرب[3].

وقد لعب الماسون دوراً في إشعال فتنة الأرمن ضد الدولة، وكان الأمير مراد الذي أصبحَ سلطاناً بعد السلطان عبد العزيز رئيساً للماسونيين

---

(١) حسان علي حلاق، مرجع سابق، ص٣٠٠ـ٣٠٢.

(٢) محمد حرب، السلطان عبد الحميد، مرجع سابق، ص٨٦؛ نقلاً عن إلهامي صوى صال، الماسونية والماسونيون في العالم وفي تركيا، ص٢٠٩ و٦٩ و٤٤.

(٣) فهمي الشناوي، مرجع سابق: ١/ ٧١ـ ٧٢؛ يقول السلطان عبد الحميد: إنَّ الصحف التي صدرت في أوروبا ومصر لم يخرّجوا للبلاد كاتباً جاداً واحداً. لكنَّ محافل الماسونية جعلت من هؤلاء المتسكّعين أعلاماً. عندما حرّكوا الضباط من أعضاء الاتحاد والترقي، وقد ثبت انتماء هؤلاء القادة مؤسسي (جمعية الاتحاد والترقي) جميعهم إلى الماسونية (مذكرات السلطان عبد الحميد، محمد حرب، ص١٣٤).

الأتراك[1] ومما يذكر أنَّ عددَ الماسون الأتراك المسلمين عام ١٨٨٢م كان يقدَّر بنحو عشرة آلاف شخص، من بينهم وزراء ونواب وقادة جيش. وكانت أكثر المحافل الماسونية منتشرةً في الآستانة وإزمير[2].

دور هرتزل في نشر الماسونية في تركيا:

قام هرتزل بعقد مؤتمر عام ١٩٠٣م ضمَّ كبار الماسونيين معلناً فيه حملته على الأديان الأخرى، التي تقودها الماسونية بجدارة، وهي ترفع شعار: «إنَّ اليهود أخذوا على عاتقهم انتزاع أديان الناس، وخاصةً الإسلام والمسيحية، حتى لا يبقىٰ غير اليهودية، فاليهودُ يقيمون دولتهم على الدين من حيث إنهم وكلاء أمناء عن المسيح. ويهدمون ما سواها. وجاءت بنود هذا المؤتمر كما يلي:

١ ـ إبادة البشرية والأجناس والأديان.

٢ ـ الإكثار من الجمعيات، التي تتفقُ مع الماسونية بالهدف، وإن اختلفت الأسماء.

٣ ـ حصر الأديان بالمعابد، تمهيداً لإزالتها حتى من المعابد.

٤ ـ يجب سحق عدونا الأزلي ـ الدين ـ مع إزالة رجاله.

٥ ـ لا بأس أن يدخل الماسون بين المتدينين، ويؤسسوا الجمعيات الدينية.

٦ ـ سوف نقضي على العقائد الباطلة»[3].

---

(١) يقول السلطان عبد الحميد في مذكراته: «لم أستطع أن أفهم كيف سادت رغبةُ إسقاطي من فوق عرشي وتنصيب أخي مراد مرةً أخرى. هل لأنَّ أخي السلطان مراد كان مثلهم ماسونياً؟ أم لأنَّ التفكيرَ أفضىٰ به إلى أنه من السهل عليه أن يضغطَ على أخي مراد ويجعله آلةً ينفِّذ كلَّ شيء؟. حتى الآن لا أستطيعُ تقدير هذا!». (مذكرات السلطان عبد الحميد، محمد حرب، دار القلم، مرجع سابق، ص١١٥).

(٢) حسان علي حلاق، مرجع سابق، ص٢٨٤؛ ومحمد علي الزعبي، مرجع سابق، ص١٧٤

(٣) محمد علي الزعبي، الماسونية في العراء، مرجع سابق، ص٧٤ ـ ٧٥.

وقد وقَّع على قرارات هذا المؤتمر مندوبون من جميع المحافل الماسونية اليهودية، وممثلو المحافل الماسونية الرمزية الحاصلون على درجة (٣٣). وجديرٌ بالذكر أنَّ وثائق هذا المؤتمر قد سُرقت من المكتب الصهيوني الأعظم من السراديب السرية التي كانت مخبئة بها تحت الأرض، وقد أعربَ هرتزل عن دهشته لهذا الحدث بقوله: إنه بالرغم من التوجيه فقد انكشفت لسوء الحظ بعض التعاليم السرية بسبب تعرُض هذه الوثائق للسرقة التي وصفها بأنها «قدس أقداس آمال إسرائيل وسر زعمائه».

وقد نشرت (مجلة فرنسا القديمة) جانباً من هذه الجلسات السرية لهذا المؤتمر، وبعض ما جاء من الوثائق المسروقة منها قول هرتزل:

«إنه عندما تخمد نيران الثورة التي نقومُ بها جميعاً في سائر البلدان، وينتج عنها حتماً سقوط الحكومات القائمة تحلُّ سلطتنا محلَّها.. عندئذٍ نأمرُ بحلِّ الجمعيات السرية القائمة حالياً، وهي كما تعلمون تضمُّ إلى جانب ما تضمُّه من جهابذة الماسونية رجالاً من الخوارج (يعني غير اليهود) وتصبح السلطة في قبضة أيدينا، وعندئذٍ نأمرُ بأن ننتزعَ من شعارنا الماسوني عبارة (الحرية والمساوة والإخاء) بعد أن بلغنا المرام، فلا تعود لنا حاجةٌ إلى مثل هذا الشعار، فقد أدّىٰ واجبه على ما يرام»[١].

وقد وصف أحدُ الأتراك عمليةَ انتشار الماسونية في الدولة بأنها: تخديرٌ للشعوب بالحشيش اليهودي[٢].

وبهذه المناسبة يتحدَّث السلطان عبد الحميد عن حقيقة الدور الذي قدمت به حركة تركيا الفتاة بمساندة الماسونية بقوله: لا بدَّ للتاريخ يوماً أن يفصحَ عن ماهية الذين سمّوا أنفسهم (الأتراك الشبان) أو (تركيا الفتاة) وعن ماسونيتهم. استطعتُ أن أعرفَ من تحقيقاتي أنَّ كلَّهم تقريباً من الماسون، وأنهم منتسبون إلى (المحفل الماسوني الإنجليزي) وكانوا يتلقَّون معونةً مادية من هذا المحفل،

---

(١) جواد رفعت أتلخان، مرجع سابق، ص١٠٨ ـ ١٠٩.

(٢) خيرية قاسمية، مرجع سابق، ص٤٤.

ولابـدَّ للتاريخ أن يفصحَ عن هذه المعونـات، وهل كانت معونـاتٍ إنسانية أم سياسية[١].

علاقة الماسونية بجمعية الاتحاد والترقي:

تقول المصادر: إنَّ ثورة الاتحاديين كانت ثورةً ماسونية يهودية أكثر منها تركيـة، فكانت في الشكل ثورةً تركيا تجاهدُ من أجل الحصول على الحريـة والعدالة والمساواة في ظلِّ الدستور، وفي جوهرها ثورةً يهودية تناضلُ من أجل تغيير نظام الدولة، وإثارة القلاقل من أجل تحقيق أغراضها الصهيونية، وإقامة دولتها المزعومة في فلسطين.

وقد أظهر النائب اليهودي الماسوني (قره صو) حماساً بالغاً في تأييد تقدُّم الثوريين من رجال جيش الحركة نحو العاصمة لخلع السلطان، وكانت الفرق الأربع المتجهة إلى العاصمة من سلانيك يقودها أحد الدونمة الماسونيين من سلانيك وهو (رمزي بك) الذي عُيِّنَ ـ بالقوة ـ رئيساً لمعاوني (السلطان محمد الخامس) وقد شعر الأتراك بدور اليهود الفعَّال في هذه الثورة[٢].

---

(١) مذكرات السلطان عبد الحميد، محمد حرب، دار القلم، مرجع سابق، ص١١٥؛ رفيق شاكر، مرجع سابق، ص١٣٥ ـ ١٣٦. وفي معرض حديث السلطان عبد الحميد عن هؤلاء الأتراك الشبان يقول: «إنَّ السبب في تردِّي الأمور إلى الحد الذي نراه في يومنا هذا، هو مبلغُ الطيش الذي بلغه الأتراك الشباب في عهد أخي المريض». السلطان عبد الحميد، مذكراتي السياسية، ص٢٦) «إنَّ الصحف التي صدرت في أوروبا ومصر بمختلف أسمائها، ورجال الجمعية الذين يتنزّهون في هذه البلاد، لم يخرّجوا للبلاد كاتباً جادًّا واحداً، ولكنَّ محافل الماسونية ـ رغم كلِّ تعقُّبنا لهم ـ جعلت من هؤلاء المتسكّعين أعلاماً، عندما حرّكوا الضباط من أعضاء (الاتحاد والترقي)، هاهي ذي قصة (تركية الفتاة) و(جمعية الاتحاد والترقي).

(٢) يقول الشيخ مصطفى صبري في كتابه (موقف العقل والعلم والعالم): كان من المصادفات التي لها مغزى أن يبلّغَ السلطانَ قرارَ البرلمان على خلعه (قره صو) نائب سلانيك، والذي سبقَ له مقابلة السلطان مندوباً عن اليهود الصهيونيين. ويقول (لوثر) حول هذا الموضوع: «إنه أصبح ملاحَظاً أنَّ اليهود من كلِّ الألوان مواطنين وأجانب كانوا مؤيدين ومتحمسين للحكم الجديد، وقد عبَّر عن ذلك أحدُ الأتراك بقوله: إنَّ كلَّ يهوديٍّ يبدو جاسوساً ممكناً للجمعية السرية، وبدأ الناسُ يعلّقون بقولهم: إنَّ الحركة كانت ثورةً يهودية أكثر=

وقد تحدثنا من قبلُ عن دور يهود الدونمة في تأليب الرأي العام ضد الدولة عن طريق الاتصال بالمحافل الماسونية داخل تركيا وخارجها، وإعمالها على إحياء النعرات الطائفية داخل الدولة، وإثارة الجنسيات المختلفة، ودورها أو دورها نشر الجاسوسية في الدولة، واستغلال ذوي النفوس الضعيفة لهدم الدولة[١].

وإلى جانب هذا تعاون يهودُ العالم مع المحافل الماسونية، وطلبوا مساعدتهم في إسكانهم فلسطين، وعرضوا على السلطان العثماني أموالاً، ولكنه لم يقبلها، ورفض ذلك المشروع.

كما أنَّ (هرتزل) لم يستطع إقناعَ السلطان بأفكاره حول إنشاء مزارع لليهود. في ذلك الوقت وصف السلطانُ هرتزلَ بأنه يريد إرضاءَ شعبه، ولكنَّه نسيَ أنَّ الذكاء وحدَه ليس كافياً[٢].

من ناحيةٍ أخرى قام (جمال باشا) الماسوني الذي كان في بلاد الشام قائداً عثمانياً بالاتفاق مع الحلفاء، على سلخ قطر الشام من الدولة العثمانية بغرض الاستيلاء على فلسطين[٣].

= منها ثورةً تركيا. (انظر حسان علي حلاق، مرجع سابق، ص٣١٠)؛ وفي هذه المناسبة يعلّق الكاتب التركي نجيب فاضل بقوله: أكان الضباط الاتحاديون في الجيش الثالث تحت إمرة الدولة يا ترئ، أم تحت إمرة وخدمة اليهودية؟! (أورخان محمد علي، السلطان عبد الحميد الثاني، دار الوثائق، الكويت، ١٩٨٦م، ص٢٨٧).

(١) انظر هدىٰ درويش، مرجع سابق، ص١٦٩ ـ ١٧٠.

(٢) جاء في تقريرٍ سري لهرتزل عن رأيه في موقف السلطان ضدهم بقوله: «أقرر على ضوء حديثي ـ في مقابلات السلطان ـ مع السلطان عبد الحميد الثاني ـ أنه لا يمكن الاستفادة من تركيا إلا إذا تغيَّرت حالتُها السياسية، إما عن طريق الزجّ بها في حروبٍ تنهزم فيها، أو عن طريق الزج بها في مشكلاتٍ دولية، أو بالطريقين معاً في آنٍ واحد» (انظر ليلى عبد اللطيف أحمد، موقف الدولة العثمانية من مطامع اليهود في فلسطين، دار الكتاب الجامعي، ١٩٨٧م، ص٤٢).

(٣) محمد علي الزعبي، مرجع سابق، ص١٠٢.

وقد تحدثت (جريدة عقد) التركية عن هؤلاء الماسون وتأثيراتهم في تركيا بقولها:

«يبذل الصهاينة والماسون جهداً كبيراً حتى يزيدوا من قوة تأثيرهم في تركيا، وذلك عن طريق فعاليات اللوبي اليهودي ومنشوراته واستثماراته من ناحية، وعن طريق الكتّاب والناشرين وتوجيه الرأي العام من ناحيةٍ أخرى».

وتضيف الجريدة أيضاً قولها:

«في تركيا عشرات الألوف من الماسون، وأربع تشكيلات ماسونية. فماذا يريد الإخوان المنسوبون إلى هذه التشكيلات!!؟ يريدون أن تخدم الماسونية النظامَ الجمهوري في تركيا، وأن يتحكّموا في الأمة والدولة. وهم يعملون لتحقيق هذا، وعلى الرغم من قلة عددهم فإنهم أصحاب قوة ونجاح كبيرين»[1].

وكانوا جميعاً يحكمهم مبدأ واحد، وهو إحداث فجوة بين العرب والترك تنفيذاً لمنهج هرتزل الذي يقول: (كل شعبين ينقسمان يصبحان في حوزتنا) وينتهي غرضهم عند سلخ الترك والعرب جميعاً عن الإسلام»[2].

وقد أعلن الماسون ابتهاجهم بنجاح الفكر الماسوني متمثلاً في جيش الاتحاديين، وسيطرتهم على السلطة، وساروا في مظاهراتٍ ابتهاجاً بخلع السلطان، وقاموا بطبع صورة هذه المظاهرات في بطاقاتٍ بريدية لتباعَ في الأسواق العثمانية[3].

---

(١) Abdulmelikotegen, Gundemi yonlendirmeye calisiyorlar, Akit, (18) Aralik 1998.

(٢) محمد علي الزعبي، مرجع سابق، ص١٠٣.

(٣) أحمد نوري النعيمي، اليهود والدولة العثمانية، ص٢٢١؛ يقول رشيد رضا: إنَّ مجلة (دين ومعيشت) الروسية ترجمت قولنا عن (طلعت بك) وتصرفه، فزادت عليه بسوء نيةٍ أو سوء فهم فقالت: إنَّ أركان الدولة والقائمين بأعمالها جميعاً من الغفير إلى السلطان ماسونيون، وإنَّ الماسونية هدمت الدولة الإسلامية، وإنها سوف تؤسس دولةً ماسونية. ويقول (رشيد رضا) رداً على ما ورد في هذه المجلة: «إنَّ هذه المجلة تهدف إلى تعويق إخواننا مسلمي التتار عن الترقي المدني والديني، كما أنَّ هذه المجلة: هي لسان حال أهل التفريط من مسلمي روسيا، وهي تدعو إلى اعتبار خير الأمور الوسط. وقد كان من سوء النية أن تكتبَ عنّا ما قيلَ، وقد كنا نعني في مقالنا التنبيهَ على بعضٍ منهم أمثال=

وبعد إسقاط السلطان العثماني عبد الحميد بدأ عهد اليهود الذهبي، وأرادت الماسونية أن تنتفعَ من إطلاق الحريات، فقام الدكتور اليهودي (جاك سهامي) باقتباس مبادئ الشرق الأعظم الفرنسي ومبادئ المحفل الأكبر الإنجليزي وكتب أسس الماسونية باللغة التركية، وأعقبها بكتاباتٍ كثيرة عن الماسونية![1].

وفي سبيل تطبيق أحكام الماسونية على المجتمع التركي قام كلٌّ من (رحمي) و(طلعت) بافتتاح العديد من المحافل الماسونية في إستانبول. وعلى أثر هذا قام كثيرٌ من الأتراك بتسجيل أنفسهم في هذه المحافل، وكان من هؤلاء عددٌ كبير من يهود الدونمة. وأصبح معنىٰ (جمعية الاتحاد والترقي) مساوياً لمعنىٰ (المحفل الماسوني) واستخدم الاتحاديون (المحافلَ الماسونية) لتقوية قبضتهم على شؤون الدولة.

اختلفت الآراء حول (جمعية الاتحاد والترقي) وكونها موضع شبهاتٍ باتهامها أنها (جمعية ماسونية) وأنَّ أعضاءها ليسوا أتراكاً ولا مسلمين، فقد دافعَ الكتَّاب اليهود عن هذا الاتهام مؤكدين: أنَّ كلَّ ما كُتِبَ باللغة التركية عن الشبان

= (طلعت بك) و(رحمي بك) و(ناظم بك) و(جاهد بك) و(جاويد بك)».

ويردُّ (رشيد رضا) على هذه المجلة بقوله: ألا يعلم أصحاب مجلة (دين ومعيشت) أنَّ صاحب المنار مسلمٌ قد ربَّىٰ نفسه على الصدق. (رشيد رضا، المنار، م١٤: ٣١٨/٤ـ٣١٩)؛ ذكر طلعت بك في مذكراته أنَّ (الاتحاد والترقي) أملُ اليهود، وأنَّ اليهود بدؤوا في عهد توليته وزارة الداخلية للمرة الأولى يتجمَّعون في فلسطين، خاصةً هؤلاء اليهود الذين أجبروا على الهجرة من روسيا، كما أخذ اليهود المهاجرون يشترون الأراضي في فلسطين بواسطة اليهود من التبعية العثمانية. (مذكرات السلطان عبد الحميد، دار القلم، ص١٤٣).

(١) مذكرات السلطان عبد الحميد، محمد حرب، دار القلم، ص١١٩. نقلاً عن الكاتب اليهودي (آورام غالنتي) في كتابه (الأتراك واليهود) يقول السلطان في مذكراته عن مسألة عزله: لم أستطع أن أفهم كيف سادت رغبة إسقاطي من فوق عرشي، وتنصيب أخي مراد مرةً أخرى. هل لأنَّ أخي السلطان مراد كان مثلهم ماسونياً؟ أم لأنَّ التفكير أفضىٰ به إلى أنه من السهل عليه أن يضغطَ على أخي مراد، ويجعله آلةً ينفِّذُ كلَّ شيء؟ حتى الآن لا أستطيع تقدير هذا.

الأتراك ـ بأنَّ اليهود لعبوا دوراً له أهمية في مجالس الاتحاديين قبلَ الثورة أو بعدها، وأنَّ دور الماسونية اقتصر على كونها أماكن استخدمها الضباطُ الاتحاديون من وقتٍ لآخر لعقد اجتماعاتهم السرية[1]. وقد اعتبروا أنَّ هذه الثورة ثورةٌ وطنية قام بها أتراكٌ مسلمون من أجل إنقاذ الإمبراطورية العثمانية[2]

---

(١) محمد الخير عبد القادر، مرجع سابق، ص٨٥.

(٢) من بين هؤلاء الكتاب الذين هبُّوا للدفاع عن أبناء جنسهم، وعن وجودهم في الجمعية، واتهامهم بالقيام بكلِّ أعمالها العالم اليهودي (برنارد لويس)، من ناحيةٍ أخرى فقد حذَّر بعض الكتاب من خطر اليهود على الدولة العثمانية، ومن أبرز هؤلاء (رشيد رضا) حيث جاء تحذيره للدولة العثمانية من الخطر القادم على الدولة من اليهود فيقول: «إنَّ اليهود يريدون أن يملكوا بيتَ المقدس وما حوله، ليقيموا فيه ملك إسرائيل، وكانت الحكومة العثمانية تعارِضُهم في امتلاك الأرض هناك، فلا يملكون شيئاً منها إلا بالحيلة والرشوة، ولهم مطامع أخرى مالية في هذه البلاد، فهم الآن يُظهرون المساعدة للحكومة العثمانية الجديدة، لتساعدهم على ما يبتغون، فإذا لم تتنبَّه الأمة العثمانية لكيدهم، وتوقف حكومتها عند حدود المصلحة العامة في مساعدتهم، فإنَّ الخطر من نفوذهم عظيم وقريب، فإنهم قومٌ اعتادوا الربا الفاحش، فلا يبذلون درهماً من المساعدة إلا لينالوا مثقالاً أو قنطاراً من الجزاء، إذا كانوا بكيدهم وأموالهم قد جعلوا الدولة الفرنسية ككرة اللاعب في أيديهم، فأزالوا منها سلطة الكنيسة، وكانت تدعىٰ بنت الكنيسة البكر، وحملوها على الظلم في الجزائر، وهي التي تفاخر الأمم والدول بالعدل والمساواة، وهي في الذروة العليا من العلم والمدنية والسياسة والثروة والقوة، أفلا يقدرون على أكثر من ذلك في الحكومة العثمانية، وهي على ما نعلمُ من الجهل والضعف والحاجة إلى المال، وطمعهم فيها أشد، وخطرهم أعظم؟!! فإنَّ بيت المقدس له شأنٌ عظيم عند المسلمين والنصارىٰ كافة، فإذا تغلَّبَ اليهود فيه ليقيموا فيه ملك إسرائيل، ويجعلوا المسجد الأقصى (هيكل سليمان) ـ وهو قبلتهم ـ معبداً خالصاً لهم، يوشك أن تشتعل نار الفتن، ويقع ما نتوقع من الخطر، وفي الأحاديث المنبئة عن فتن آخر الزمان ما هو صريحٌ في ذلك، فيجب أن تجتهدَ الأمة العثمانية في درء ذلك، ومدافعة سيله بقدر الاستطاعة، لئلا يقعَ في إبان ضعفها، فيكون قاضياً على سلطتها، ونسأل الله السلامة. (انظر رشيد رضا، وقائع وأخبار الدولة العثمانية، مجلة المنار، ص٧٢٥ ـ ٧٢٦).

ويعرض (رشيد رضا) على صفحات (المنار) رأي بعض علماء التتار في سبب خذلان الترك، ونصرتهم لعبد الحميد بقوله: «رأينا في مجلة (دين ومعيشت) التي تصدر ببلدة أورنبورغ في روسيا، ويتولىٰ تحريرها بعض علماء التتار الجامدين على التقاليد المألوفة=

= رأياً غريباً نشر فيها بإمضاء (زاري) تحت عنوان: «لماذا انهزم الأتراك؟» فأحببنا نشره لما فيه من العبرة بافتتان الناس بالملوك، وتأييدهم بنصوص الدين، وإن كانوا ظالمين، وهذه ترجمته: **انهزم العثمانيون لأنهم استوجبوا غضب الله تعالىٰ. فلم ينصرهم، وذلك أنهم خلعوا سلطانهم الذي خدمهم (٣٣) سنة خدمةً جليلة، وحفظهم من ذلك الخذلان بحكمه فيهم حكماً مطابقاً لرضاء الله تعالى.. وإنهم لم يعرفوا قدره، بل عزلوه عن منصبه، وأسقطوه من عرشه، وفرقوه من تاجه، فإنَّ الله تعالى حرمهم من الأراضي الأوروبية كلها، وتركهم أذلاء في العالم تصديقاً لما قاله نبيه المحبوب ﷺ لأمته وتفهيماً لعصيان الأتراك إياه،** رویٰ الإمام الترمذي في (باب ما جاء في الخلفاء) الحديث الآتي: «مَنْ أهانَ سلطانَ اللهِ في الأرضِ أهانَه الله». وهذا الحديث ليس مختصاً بالسلطان التركي، بل يشمل كل سلطان. إذا حقَّرَ الناسُ أيَّ سلطانٍ كان، فلا بدَّ أن تُهانَ أنفسهم ويجازوا عليه.

الشبان العثمانيون أهانوا السلطان عبد الحميد، فالله تعالى جازاهم على ذلك، وأهانَ أنفسَهم، وتركهم في ذلةٍ وشقاء.

نعم إنَّ الأتراك شبانهم وشيوخهم سواء في إهانة سلطانهم عبد الحميد، بل لم يخل عن هذه الإهانة العالم الإسلامي كله. **ولكن السبب فيها هم الذين تركوا دين الله وراء ظهورهم، وأبوا الشريعة الإسلامية، ولم يخافوا الله تعالى. إنَّ الذين أهانوا السلطان عبد الحميد ظهروا أولاً في سلانيك، فالله تعالى أخذ من أيديهم سلانيك أولاً وأعطاها للآخرين** (علماً بأن أكثرية سكان سلانيك من اليهود).

كان في مقدمة هؤلاء الناس الذين بغوا على السلطان عبد الحميد أنور بك، ونيازي بك، اللذان في قدمهما شؤم. فإنَّ أحدهما جاء إلى بلاد الأرناؤوط بقدمه النحسة، فذهبت تلك البلاد من أيديهم، وثانيهما قدم طرابلس الغرب، فذهبت إلى الطليان بشؤمه. هذا الرجل المشؤوم بعدما رجع من طرابلس الغرب، قدم البلاد الأوروبية العثمانية فذهبت تلك البقاع إلى الحلفاء البلقانيين. حفظ الله من قدوم هؤلاء الناس المشؤومين بلادَ الأناضول، فإذا وطئوها فلا شكَّ حينئذٍ في ذهاب الأناضول أيضاً.

إنَّ العثمانيين مع ظهور جزاء الله تعالى فيهم لا يتفكَّرون في شؤونهم، ولايبحثون عن إصلاح أحوالهم، بل يمشون على أعقاب هؤلاء الناس، **ويجعلونهم رؤساء، فيعرِّضون أنفسهم لغضب الله تعالى وقهره. إذا هم لم يفيقوا من غفلاتهم،** ولم يتوبوا من قبائحهم، ولم يطلبوا عفو السلطان عبد الحميد، مقبِّلين يديه ورجليه، فليس بعيداً أن يأخذ الله تعالى منهم الخلافة والسلطنة، بل هذا قريبٌ جداً. **تفكَّروا أي أمة من الأمم إذا سئمت الشريعة التي بها قوامها،** وسخرت من طالبي هذه الشريعة ولقَّبتهم بـ (شريعت أسترز)

وتقول المصادر: إنَّ كلَّ أعضاء (الاتحاد والترقي) في كلٍّ من: القاهرة وجنيف وباريس من الماسونيين. لكنَّ الاهتمام الرئيس العالمي الذي أولته الماسونية الدولية، انصبَّ على كادر الماسونيين في مقدونيا. ذلك لأنَّ حركة (الاتحاد والترقي) في سلانيك وهي مركزها، كانت الحركة العسكرية لهذه الجمعية، وكان كلُّ ضباط الجيش هناك باستثناء اثنين فقط، ماسون. والأربعة الكبار في (الاتحاد والترقي) في منطقة مقدونيا ماسون وهم: محمد طلعت بك

= بمعنى (نريد الشريعة) وكرهت الشريعة كما يُكره الارتداد، بل ظلمت فوق ذلك أهلَ الدين منهم، ولم تقف عند هذا الحد خوفاً من الله تعالى، بل خوفاً من أوروبا فقط، فماذا يفعل الله تعالى بهذه الأمة؟ أليس قليلاً لو جازاهم بأيِّ جزاء؟ لئن نسي الشبان العثمانيون ما فعلوا بعلماء الدين من الإهانة عند الانقلاب وبعده، فإنَّ الله تعالى لا ينساه، فإنه يعلم أنَّ قطرةً من دماء هؤلاء الفدائيين في سبيل الدين لا تقابلها دماء ألوفٍ من الناس المشؤومين. وردَّ على ذلك دم ناظم باشا الغازي في سبيل الله في الانقلاب الأخير أيمنعهم أيضاً عن التقدم إلى مدةٍ طويلة. ودموعُ السلطان عبد الحميد وأحزانه في حبسه يكفيهم لإطفاء نورهم. وقىٰ الله الأمةَ الإسلامية من شرورهم. اهـ. (انظر وقائع وأخبار الدولة العثمانية، مجلة المنار، م١٦: ٤/ ٤٧٦ ـ ٤٧٨). إن هذا الرأي الذي جاء على صفحات مجلة المنار على لسان بعض علماء التتار يعد ملخصاً وافياً وشاملاً لما حدث لدولة الخلافة وكان جراء تفريطها في دينها وشريعتها هو تجزئتها وسقوطها. (المؤلف) ويرى رشيد رضا في شأن النهوض بالدولة العثمانية والوسائل التي يجب أن تتخذها الدولة فيقول: «الدولة كائنٌ حيّ، يحفظ بها حياة سائر الأحياء، وهي سلامة مزاجها في نفسها، ووقايته مما يعدو عليه من الخارج. فأما سلامة مزاج دولتنا العثمانية في نفسه فإنما يكون بإقامة الشرع العادل في القضية، والمساواة في الحقوق بين الرعية، وبناء إدارة المملكة على أساس اللامركزية، وجعل السلطة فيها للعرب والترك ـ بحيث يكونان منها كالعنصرين اللذين يتكون منهما الماء أو الهواء. وأمّا وقايتها مما يعدو عليها من الخارج فهو الآن منوطٌ بدول أوروبا الكبرى، فهنَّ أصحاب المطامع فيها، ومطامعهنَّ متعارضة. وما دامت كذلك كانت الدولة آمنةً على نفسها من اقتسامهنَّ إياها بالقوة. فيجب أن تتَّقي استيلاءهنَّ على البلاد بقوة المال والسياسة، أي بالفتح السلمي، وأن تقوّي مزاجَ الأمة بالمال والعلم، وإعدادها للدفاع عن نفسها. فإذا هي فرطت في مرافقها وأملاكها فباعتها للأوروبيين، وبقيت على تبذيرها، وتوهُّمها أنها تستطيع أن تحمي نفسها منهنَّ بقوّتَي الدولة البرية والبحرية الرسميتين، ولم تجعل كلَّ اعتمادها على الأمة، فالخطرُ عليها من الفتح السلمي، أقربُ وأقوى من خطر الفتح الحربي». (انظر وقائع وأخبار الدولة العثمانية، مجلة المنار، ص٣٠٦).

(باشا)، ومانياسي زاده رفيق بك، ومدحت شكري، وإسماعيل جانبولاد. وكان الجميع في أول مركز عمومي للاتحاد والترقي ـ باستثناء واحد فقط ـ من الماسونيين. وفي المؤتمر الأول لحزب الاتحاد والترقي ـ (١٥٦) عضواً ـ كانت أهم شخصياته من الماسونيين، وكان عددهم (٧٣) شخصاً.

وفي اجتماع مجلس الشورىٰ الأعلىٰ للماسونيين في الدولة العثمانية، والذي عُقد في ٣/٦/١٩٠٩م في فندق (طوقاطليان) في حي (بك أوغلو) في إستانبول حضر أعضاؤه وهم (١٢) ماسونياً، كلٌّ منهم يحمل درجة (٣٣) في الماسونية وهم:

محمد طلعت ساعي، مدحت شكري بلدا، محمد جاويد، الدكتور رضا توفيق، محمد عارف، نسيم مازلياح، محمد غالب، ميشيل نورا دوق جيان، دافيد جي كوهين، عثمان عادل، فؤاد خلوصي، عاصم كبار[(١)].

أما الآتية أسماؤهم فقد كانوا يحملون درجة أستاذ أعظم في الماسونية في عهد (الاتحاد والترقي) وهم:

طلعت باشا، الأميرالاي الدكتور محمد علي باشا، فائق سليمان باشا، جاويد بك وزير المالية[(٢)].

وفي مذكرات (إبراهيم تيمو) مؤسس (الاتحاد والترقي) والعضو رقم (١) جاء فيها: «إنه ثبت انتماءُ جميع القادة والمؤسسين لجمعية الاتحاد والترقي إلى الماسونية»[(٣)].

بعد ذلك ازدادت المحافل الماسونية في الدولة، فأنشؤوا محفل (التآخي العثماني) ومحفل (أصدقاء الحرية) وخلال سنتي ١٩٠٩م و١٩١٠م تمَّ إنشاء

---

(١) مذكرات السلطان عبد الحميد، محمد حرب، مرجع سابق، ص١١٦ ـ ١١٧.

(٢) المرجع ذاته. نقلاً عن جمال قوطاي في تعليقه على مذكرات طلعت باشا: ٣/ ١٤٢٤ ـ ١٤٢٥.

(٣) مذكرات السلطان عبد الحميد، محمد حرب، مرجع سابق، ص١٣٤/١، وهذه المذكرات طبعت في رومانيا عام ١٩٣٩م وطبعت في إستانبول عام ١٩٨٧م.

العديد من المحافل الأخرى مثل (الوفاء الشرقي) و(الأصدقاء الحميمون للاتحاد والترقي) و(نهضة بيزنطة) و(الحقيقة) و(الوطن) و(النهضة) ومحفل (الفجر) وكان بعض أعضاء هذه المحافل من المصريين الذين كانوا يعارضون حكم الخديوي، فانضمُّوا إلى هذه الجمعية (الاتحاد والترقي) وقاموا بتقديم الكثير من المساعدات لها[1] وكان هدف اليهود المباشر الذي يسعون لتحقيقه هو السيطرة الاقتصادية على تركيا، وإقامة المشاريع فيها.

وفي عام ١٩٠٨م تفاقمَ خطر جمعية (الاتحاد والترقي) التي كان اليهود يسيطرون عليها، واستطاعت هذه الجمعية استغلالَ العرب والقوميات في الدولة العثمانية ضد الحكم السائد في البلاد، وكانوا يرفعون شعارات الماسونية.

وعند إعلان المشروطية (الدستور) في ٢٤/ ٧/ ١٩٠٨م دخل كثيرٌ من الدونمة إلى إستانبول، وبدؤوا يمارسون ضغطاً سياسياً واقتصادياً على الأتراك، حيث حَثُّوا الناسَ على الاحتجاج والإضراب أثناء التحاق البوسنة والهرسك بالنمسا، وهم الذين استغلوا الأتراك مالياً مستفيدين من تلك الظروف. وقد جرت أحداثٌ مشابهة قامت بها جمعية (الاتحاد والترقي) أثناء هجوم الجيش البلغاري على الدولة العثمانية، وذلك لإثارة الفوضى، وتعميق النقمة على السلطان الذي حاول أن يعقد هدنةً مع بلغاريا. فلما علم ضباط جماعة (الاتحاد والترقي) وعلى رأسهم (أنور بك) بطل الانقلاب في عام ١٩٠٨م ووزير الحربية وأحد القادة البارزين في انقلاب الدونمة والماسون، دفعوا طلاب الجامعة وسائر المدارس للقيام بمظاهراتٍ صاخبة هاجمت الباب العالي ـ مقر الصدر الأعظم ووزير الخارجية ـ وهم ينادون «حرب إيسترز» أي نريد الحرب[2].

وقد قام جيشٌ يسمَّىٰ جيش الحركة في سلانيك بالتحرك نحو إستانبول. وكان قائد هذا الجيش هو (حسني باشا). واستطاع الاتحاديون الذين تجمَّعوا في سلانيك أن يميلوا إليهم بعض الفرق العسكرية، اشترك مع هؤلاء في حركتهم هذه

---

(١) انظر أورخان محمد علي، مرجع سابق، ص٢٩٨ ـ ٢٩٩.

(٢) انظر حسان علي حلاق، مرجع سابق، ص٣١٤. نقلاً عن (خالد العظم) أحد المعاصرين لتلك الأحداث.

ثوريٌّ بلغاري يدعىٰ (ساندانسكي) مع فرقةٍ عسكرية من البلغاريين، كما أنَّ قسماً هاماً منهم أيضاً كان من يهود الدونمة. كما جاء كلٌّ من (كاظم قره بكير) (من أكبر معاوني أتاتورك فيما بعد) و(عصمت إينونو) (الذي خلف أتاتورك في رئاسة جمهورية تركيا فيما بعد) على رأس بعض الفرق، وانضمّا لهؤلاء في الطريق. ووصل هذا الجيش إلى إياستفانوس (وهو حي في أطراف إستانبول) وهناك أصبح (محمود شوكت باشا) قائداً لهذا الجيش. وكان عدد جيش الحركة هذا في ذلك الوقت يقدَّر بحوالي عشرة آلاف جندي وضابط، كان نصفهم نظامياً، والنصف الآخر غيرَ ذلك. وأرسلَ لهم مجلس المبعوثان وفداً لمقابلتهم[١].

وفي كانون الأول ـ ديسمبر ـ عام ١٩٠٨م مارست جمعية(الاتحاد والترقي) ضغطاً مكثَّفاً على السلطان لإجباره على إقصاء الذين اشتُهروا من النظام القديم من مجلس المبعوثان، كما أنَّ (عمانويل قره صو) المحامي الماسوني اليهودي من سلانيك، كان قد أسَّس محفلاً فيها، له صلةٌ بالماسونية الإيطالية، وقامت جماعة (تركيا الفتاة) من الضباط والمدنيين بتبنِّي الماسونية على أمل ممارسة نفوذٍ يهودي غير محسوس على الحكم الجديد في تركيا، رغم أنَّه ادَّعىٰ ظاهرياً أنه يهدف إلى خديعة جواسيس عبد الحميد فقط، فقدَّم لهم محفلَه ملجأً، وبالتقائهم في بيتٍ أجنبي تمتَّعوا بالحصانة الفائقة ضد أساليب التحقيق، وهكذا أتاحت سرية المحافل لجماعة (تركيا الفتاة) إمكانية تشكيل تنظيمهم للقضاء على نظام حكم السلطان عبد الحميد[٢].

لقد كان وحي الحركة في سلانيك يهودياً بصفةٍ رئيسة، وكانت كلمات (حرية ـ عدالة ـ مساواة) ـ شعار الأتراك الاتحاديين ـ هي من ابتكار الماسون الإيطاليين. وهذه الشعارات هي ذاتُها شعارات محفل (ماكدونيا ريزورتا) (macedonia risorta) وشعارات الجمعية اليهودية (بني برث)(beni brith) وهي إحدى فروع الماسونية المتعاونة مع (الإليانس الإسرائيلي العالمي). وقد ظهرت مجموعةٌ من شهادات الماسونية وشعارات جمعية الاتحاد والترقي تُثبتُ أنَّ

---

(١) من مذكرات رضا نور، مجلة المجتمع الكويتية، ١٩٨١م، مرجع سابق، ص٢٢.
(٢) حسان علي حلاق، مرجع سابق، ص٣١٥.

شعاراتهما وتعاليمهما واحدة، كما أنَّ مجموعةً من النقود التركية الاتحادية تثبت هذه الحقيقة(١).

ويجدر بنا القول: «إنَّ ثورة الاتحاديين كانت ثورةً يهودية أكثر منها تركيا، كما أنَّ النائب اليهودي الماسوني (قره صو) قد أظهر حماساً بالغاً في تأييد التقدم نحو العاصمة لخلع السلطان.

في ذلك الوقت شعر الأتراك بدور اليهود الفعال في هذه الثورة، وأصبح ملاحَظاً أنَّ اليهودَ من كل الألوان مواطنين وأجانب كانوا مؤيدين ومتحمسين للحكم الجديد، وقد عبَّر عن ذلك أحد الأتراك بقوله: «إنَّ كلَّ يهوديٍّ يبدو جاسوساً ممكناً للجمعية السرية، وبدأ الناسُ يعلِّقون بقولهم: إنَّ الحركة كانت ثورةً يهودية أكثر منها ثورةً تركيا»(٢).

وحينما تمَّ قرار عزل السلطان عبد الحميد عام ١٩٠٩م كان مِنْ بين الذين أبلغوا السلطانَ العزلَ واحدٌ من يهود الدونمة وهو (عمانويل قره صو) وقد ترك اشتراكُ (قره صو) في الوفد الذي أبلغَ السلطانَ قرارَ عزلِه أسوأَ الأثر في نفس السلطان.

وفي هذا يقول السلطان عبد الحميد: «إنَّ اللجنة الوطنية التي ضمَّت يونانيين وأرمن ويهود وكُلِّفت بتبليغ الخليفة حكمَ القدر الإلـٰهي بطريقةٍ ينعدِمُ منها الأدب لسلطانٍ وخليفة لم يسئ إليهم، بل وتحمل مساوئ صدرت منهم، فيقولون: «عزلَتْكَ الأمة» ألا فليخجل كثيراً العازلُ من المعزول؟»(٣).

---

(١) حسان علي حلاق، مرجع سابق، ص٣١٤ ـ ٣١٥، نقلاً عن مارلنغ ولوثر في رسائلهما إلى غراي في ٢٧/ ١٢/ ١٩٠٩م.

(٢) حسان علي حلاق، مرجع سابق، ص٣١٦.

(٣) مذكرات السلطان عبد الحميد، محمد حرب، دار القلم، مرجع سابق، ص٢٠١. وفي هذه المناسبة يقول السلطان: «لقد تأثَّرتُ جداً بالطريقة التي أبلغوني فيها قرارَ خلعي أكثر من الخلع نفسه، وجاء الوفد بضجةٍ وضجيج حتى وصلوا إلى غرفتي، واجهني واحدٌ منهم بتصرفٍ قبيح غير مهذب، وهو تيرانللي أسعد باشا، وقال لي: «عزلتْكَ الأمة» لقد كانوا في غاية السفالة عندما واجهوني بكلمة العزل، في الوقت الذي كان لا بدَّ أن=

وقد كان ليهود سلانيك دورٌ هام في تنفيذ خطط مؤتمر (كاتوفيج) إذ تمكّنوا من ضرب العلاقات العثمانية مع الطوائف المسيحية بما في ذلك ضرب نفوذ الأرمن[1].

دور الماسونية في ثورة ٢٧/٥/١٩٦٠م ومحاولة هدم الإسلام في تركيا:

لقد كانت الضغوط الدينية التي حدثت في تركيا في عهد الحزب الواحد، وتحريم التوجُّه للدين، كلُّ هذه الموانع تمَّ إلغاؤها بمجيئ الحزب الديمقراطي، وكان من أبرز رجاله (عدنان مندريس) الذي أصبح رئيساً للوزراء في عام ١٩٥٠م. **وكان أول الإجراءات التي قامت بها حكومة مندريس في شهرها الأول هو إعادة الأذان باللغة العربية بعد منعه (١٧) عام، وفي الشهر الثاني لسلطتها أعادت**

= يضعوا بدلاً منها كلمة الخلع، مسكينةٌ هذه الأمة! آه لو كانت تعلم النتيجة المرة التي تنتظرها». (مذكرات السلطان عبد الحميد، محمد حرب، دار القلم، مرجع سابق، ص٢٠١).

(١) محمد سرحان، مرجع سابق، ص١٩؛ وعن الأسلوب الذي يتبعه اليهود، والذي انتهجه يهود الدونمة كتبت مجلة البحوث اليهودية الفرنسية عام ١٨٨٠م مقالاً على شكل رسالة، كتبها حاخام يهودي إلى المجمع اليهودي في إستانبول (والذي كان يعدُّ مركزاً استشارياً ليهود أوروبا) فقد كتب (شامور) حاخام مدينة (أزال) من أعمال مقاطعة بروفانس إلى المجمع اليهودي في إستانبول يستشيره قائلاً: «إنَّ الفرنسيين في (إكس) و(أرل) و(مرسيليا) يهدُّون معابدنا، فماذا نعمل؟ فأشار المجمع عليهم أن يعتنقوا الدين المسيحي طالما أنَّ ملك فرنسا يجبرهم على ذلك مع احتفاظهم بشريعة موسىٰ، وأن يجعلوا أولادهم تجاراً وأطباءَ وصيادلة، وذلك ليجردوهم من أملاكهم، وليعدموا المسيحيين حياتهم، كما أنّه طلب منهم أن يجعلوا أولادهم وكلاء دعاوىٰ، وكتبه عدل، ليتدخَّلوا دائماً في مسائل الحكومة، وفي نهاية الرسالة يقول لهم: سيروا بموجب أمرنا هذا، فتتعلموا بالاختبار أنكم بهذا الذل وهذه الضعة التي أنتم فيها ستصلون إلى ذروة القوة والسلطة والحقيقة» توقيع أمير يهود القسطنطينية. (انظر محمد زغروت، مرجع سابق، ص٢٤)..! تلك هي الطريقة التي تسلَّل بها يهود الدونمة وأصبحوا مسلمين في الظاهر، مبطنين بهوديتهم. (المؤلف)

البرامج الدينية في الإذاعة، وتمَّ العمل بقراءة القرآن في الإذاعة يومين في الأسبوع، كما أزالت الحكومةُ الموانعَ التي امتدَّت إلى دروس القرآن، إلى جانب عدم الهجوم على حجاب المرأة، قامت الحكومة أيضاً بوضع الدروس الدينية في المناهج المدرسية، كما تمَّ إنشاء خمسة عشر ألف جامع في السبع سنين الأولى لحكومة مندريس، وزادت قيمة الميزانية المخصصة للجوامع، وقُدِّمت مساعداتٌ لتعمير الجوامع والمساجد، وارتفعَ عدد مدارس الأئمة والخطباء إلى تسعة عشر مدرسة، وافتتح لأول مرة في تاريخ الجمهورية المعهد الإسلامي العالي، وتمَّ إعلانُ حرية المنشورات الدينية، لقد كانت هذه القرارات نقطةَ تحوُّلٍ في حياة الأمة التركية المسلمة.

كان سلوك عدنان مندريس تجاه الدين والمتدينين سلوكاً تشجيعياً، ففي عام ١٩٥١م وعدَ الأمةَ أنَّ الحزب الديمقراطي سيراعي حرية الدين: و«أنَّ الأمة التركية مسلمة، وستظلُّ أمةً مسلمة، وأنَّ تعليمها وتعليم الأجيال التالية الأسسَ والقواعد الدينية شرطٌ لا يقبل النقاش فيه، حتى تبقىٰ مسلمةً إلى الأبد»[١].

وفي ٢٧/ ٥/ ١٩٦٠م قامت لجنة الاتحاد القومي بتنفيذ ثورة عسكرية، وأعلنت قيام حكومة (جمال كورسل) الأولى في ٣٠/ ٥/ ١٩٦٠م، وبدأت المحاكمات في (ياصي أضه) في ١٤/ ١٠/ ١٩٦٠م. وتمَّ إيقافُ عمل الحكومة في نهاية شهر أيار ـ مايو، وتمَّ تعذيبهم في شهري حزيران ـ يونيه، وتموز ـ يوليه، وجعلوا مندريس في حالةٍ لا يستطيعُ الدفاعَ فيها عن أعماله.

وقد أعلن (عدنان مندريس) «أنَّ الماسونية والصهيونية والرأسمالية تُظهِرُ نشاطها كمنظمة ثلاثية الأفرع.. لا أعرف أنَّ جلال بيار ماسونياً أم لا؟ ولكن أستطيع أن أحلفَ في كلِّ وقتٍ أنني لست ماسونياً». بعد ذلك سيقَ مندريس إلى السجن، وفي النهاية أُعدم، وأعلن هذا القرار على الشعب، والنقطة التي كان اليهود يتحرَّكون منها في إدارتهم تنبعُ من الفقرة الموجودة في التوراة المحرَّفة «لن ينفعَ أيُّ سلاحٍ يكون ضدك، وستجعلُ أيَّ لسانٍ يخرجُ في الحكم ضدك مذنباً»[٢].

---

(١) Harun Yahya, Yahudilik ve Mosonluk, Istanbul, tarihsiz, s.317-319.

(٢) التوراة، أشعيا باب (٥٥) الفقرة (١٧).

وفي عام ١٩٦٣م صار جمال كورسل رئيساً للجمهورية، وقام بتأسيس نوادي الليونز التي تُعدُّ إحدى المنظمات الماسونية في تركيا، ووقَّعَ القرار كرئيس جمهورية.

ويمكننا القول هنا: إن حكومة مندريس التي كانت ضدَّ الماسونية، والتي كانت تتحكَّم في بعض الماسون انتهت نهايةً حزينة، وهذا بسبب عدم احتياط مندريس، وعدم أخذِ حذرِه من سيطرة الماسون على الدولة.

وفي تركيا حالياً نجد جمعياتٍ ماسونية تقوم بعملها بشكلٍ مؤثرٍ وفعَّال داخل المجتمع من أبرزها أربع جمعيات ذكرها (مراد باشسجي أوغلو) وزير الداخلية التركي، وهي (المحفل الماسوني الكبير) و(الجمعية الماسونية) و(الأحرار) أما أقدم هذه المحافل فهو (الجمعية الماسونية) التي تأسست عام ١٩٤٨م، وقد ذكر (باشسجي) أنه توجد فروعٌ لهذه الجمعيات في المدن الكبيرة مثل أضنة، وإزمير، وأنطاليا، وبروسا، وأنقرة، وأسكي شهر(١).

تحكُم الماسونية في الاقتصاد التركي:

تركَّز تأثيرُ النشاط الماسوني في تركيا على الميدان الاقتصادي فيها، فأصبح الماسون يتحكَّمون في رأسمال الشركات الاقتصادية في تركيا، والتي يتمُّ تمويلها عن طريق اليهود، حيث يدير هذه الشركات يهود ماسون(٢).

وبالإضافة إلى هذه الشركات فقد هيمنوا على الصناعات الهامة في تركيا(٣).

---

(١) Turkiye de Dort Tane Mason Locasi var, Akit, 16 subat, 1998.
انظر الملاحق الخاصة بالماسونِ الذين هيمنوا على الوزارات بالدولة رقم (٤)، القسم الثاني، ص٤٢٦.

(٢) Harun Yahya, a.g.e s.214.
انظر قوائم الشركات اليهودية العملاقة في تركيا، والتي قامت باستثماراتٍ في تركيا، ويرأس إدارتها ماسون يهود في الملحق آخر الدراسة رقم (٢٢)، القسم الثاني، ص٤٧٧.

(٣) انظر قائمة الشركات التي تهيمن على الصناعات الوطنية في تركيا في الملاحق، القسم الثاني، ص٤٧٧.

وإلى جانب هذه الشركات فقد شغلت شخصياتٌ تركية ماسونية أهمَّ المناصب في الدولة وعلى رأسهم رئيس جمهورية تركيا الحالي (سليمان ديميريل)[١].

ظهور وانتشار القومية التركية:

كانت الدولة العثمانية حتى أوائل النصف الثاني من القرن التاسع عشر تعتمد على تراثها الإسلامي وقيمها الإسلامية في إدارة شؤون الدولة، إلا أنَّ التحالف الأوروبي الروسي ضد الدولة العثمانية نتجَ عنه اتجاه الغرب نحو محاربة الدولة من خلال بثّ الأفكار الغربية لشبابها، فتحوّلت الدولة في ذلك الوقت (١٨٣٩م ـ ١٨٦١م) إلى ما يُعرف بـ(**حركة التنظيمات**) التي قادها وزراء ماسون مثل رشيد باشا[٢].

دور اليهود في انبعاث القومية التركية:

عندما تولّى السلطان عبد المجيد حكم الدولة العثمانية (١٨٣٩ ـ ١٨٦١م) وجّهَ وزيرُه رشيد باشا (وكان أكبر شخصية ماسونية في وقته) إلى أجهزة الدولة إلى البعد عن التراث الإسلامي، والتوجه نحو أوروبا، وفي حماية رشيد باشا تطوّرت معارضة الفكرة الإسلامية، وتمَّ استحداث دستور على النمط الغربي سُمّي (التنظيمات) والمقصود بها إعادة تكوين الدولة العثمانية الإسلامية على أسسٍ غربية، ونصّت مواد هذا الدستور على تجنيد اليهود والنصارى في جيش الدولة.

وبعد موت عبد المجيد قام خلفه عبد العزيز باستوزار (مدحت باشا) أحد أعمدة الفكر الماسوني في الدولة العثمانية، ونادىٰ (مدحت باشا) بديمقراطيةٍ

---

(١) انظر أهم الشخصيات الماسونية في تركيا خلال فترة الستينيات في تركيا في الملحق رقم (٤)، القسم الثاني، ص٤٢٦.

(٢) محمد حرب، محمد علي إنمجا وظاهرة التمرد في المجتمع التركي المعاصر، المجتمع، عدد (٥٣٤).

على نظام الغرب وسمّي بالعثمانيين الجدد[1].

وفي عهد السلطان عبد الحميد أصبح هناك تناقضٌ بين طبقة المثقفين أصحاب النفوذ، وبين باقي أفراد الشعب، وبدأت الثقافة الأوروبية تتغلغل داخلَ الدولة، وبدأت المؤلفات الأجنبية تنتشر، وأخذ أبناء الطبقة الراقية يتَّجهون لتعلُّم اللغات الأوروبية، ثم ظهر التحدُّث عن ضرورة الديمقراطية بمفهومها الغربي، وظهر تيار القومية تتمثّل في دعامتين:

ـ التيار السياسي المتمثل في جماعة العثمانيين الجدد، وتركيا الفتاة، ثم الاتحاد والترقي.

ـ المحافل الماسونية التي كانت تحميها السفارات الأجنبية[2].

وقد شهدت الفترة التي قضاها السلطان عبد الحميد الثاني في الحكم (١٨٧٦ ـ ١٩٠٩) ظاهرةً فرضت وجودها على الصعيد الدولي، وهي (بعث القوميات) في أوروبا، والتي بدأت تتسلَّل إلى المحيط الإسلامي (العربي والتركي) آنذاك، وقد وجدت بعضَ العوامل التي ساعدت على بزوغ تلك الظاهرة في الدولة العثمانية ـ في الوقت الذي ظلَّت فيه الشعوب العربية تنظر إلى الخلافة العثمانية على أنها امتدادٌ للتاريخ الإسلامي، وكانت جميع الأنشطة السياسية للعرب الخاضعين للخلافة العثمانية مندمجةً في الحركات العامة لتلك الخلافة في صراعها العلني والسري الذي شغل عصر السلطان عبد الحميد. وكانت نظرةُ العرب للعثمانيين أنهم إخوةٌ في العقيدة، وحماة لديار الإسلام، وكانت حروبُ الدولة العثمانية في نظر المسلمين ـ عرباً أم تركاً ـ جهاداً في سبيل الله، وقد كان هذا هو الشعور السائد إلى نهاية القرن التاسع عشر، وحتى بداية القرن العشرين لم يكن العرب يلقون بالاً إلى أنَّ الدولة العثمانية تركية بقدر ما كان يهمُّهم أنها دولةٌ إسلامية[3].

---

(١) مرجع سابق: ٢/ ٦٣.

Yilmaz Oztuna, Buyuk Turkiye Tarihi, c,7, s.209.

(٢) محمد حرب، حزب السلامة الوطني، المجتمع الكويتية، العدد (٣١٠)، يوليو ١٩٧٦م.

(٣) محمد حرب، حزب السلامة الوطني، المجتمع الكويتية، العدد (٣١٠)، يوليو ١٩٧٦م.

انتشار الفكر الطوراني في تركيا والدور اليهودي:

بدأ الفكر القومي التركي ينشأ في تركيا مع ظهور الفكرة القومية الطورانية وكان من أبرز من ابتدع الفكر الطوراني في تركيا هو (لاملي دافيدز) و(ليون كاهون) و(فامبري) وكان لهؤلاء فضلُ تأييد (جمعية الاتحاد والترقي) وكان من أبرز المفكرين اليهود خارج البلاد (إميل دوركايم) اليهودي الفرنسي.

أما المفكرون داخل الدولة فكان من أبرزهم (موئيز كوهين) الصحفي المشهور، الذي كانت له إسهاماته في التخطيط للسياسة العنصرية الطورانية، والتي سارت عليها حكومة الاتحاد والترقي بعد خلع السلطان عبد الحميد[١].

وتتضمن هذه الفكرة ضرورةَ قيام دولةٍ تركية طورانية تجمع أتراك العالم في دولةٍ واحدة، والعمل على تتريك جميع البلدان التابعة للدولة العثمانية، وكانت هذه الفكرة من الأسباب الرئيسة لنفور العرب من الأتراك، فإنَّ مبتكري الطورانية ليسوا أتراكاً، بل كانوا صهاينةً، ينحدر معظمهم من أصلٍ يهودي، فلا عجبَ إذا تلاقت الطورانية مع الصهيونية، وتحالفت تركيا وإسرائيل ضد العرب والمسلمين[٢].

والطورانية هي الفكر القومي التركي، وهي حركةٌ تركية تهدف إلى تتريك الدولة العثمانية بما فيها من عناصر غير تركية، واشتُقَّت كلمة الطورانية من طوران موطن القبائل التركية الذين كانوا يعيشون في منطقة جنوبي شرقي إيران، وقد تأسست في تركيا العديد من الجمعيات من أجل نشر فكرة الطورانية، والدعوة لتخليص اللغة التركية من مفرداتها العربية، وقد قامت هذه الحركة بهدف بناء مجتمع جديد، وتؤكد المصادر أنَّ هذه الحركة حركةٌ أجنبية، وليست تركية، فتقول (دائرة المعارف البريطانية): «إنَّ نشأة الطورانية موحاةٌ من الأوروبيين، أدخلها الصهاينة على الإمبراطورية العثمانية، وكان معظم قادة الاتحاد والترقي من الماسونيين الطورانيين، وكانوا يهدفون إلى قيام وحدةٍ قومية تركية بديلة عن الوحدة الإسلامية».

---

(١) محمد حرب، السلطان عبد الحميد، مرجع سابق، ص٢٣١ ـ ٢٣٢.

(٢) عايدة العلي سري الدين، دول المثلث بين فكَّي الكماشة، مرجع سابق، ص٣٢١.

وكان من أبرز دعاة الطورانية (تكين ألب) ويُسمَّىٰ (البيرت كوهين) الذي وضع نظريةً تهدفُ إلى تحوُّل الاقتصاد العثماني بعد الحرب العالمية الأولى إلى الاعتماد على الأموال اليهودية، إلى جانب الاعتماد على الشخصيات اليهودية لإدارة الاقتصاد العثماني[١]. ومن يهود الداخل أيضاً المفكر والكاتب اليهودي (أورام غالانتي) والكاتب (موئيز كوهين) اللذان كانا يقومان بالدعاية لجمعية الاتحاد والترقي في الصحف الأوروبية، والماسوني الشهير (عمانويل قره صو)[٢].

وفي القرن العشرين خلال الفترة بين ١٩٠٨م-١٩١٨م كان العرب يطالبون بالإصلاح، وكان هدفهم الاستقلال الذاتي للولايات العربية، لكن في إطار الإمبراطورية العثمانية. في ذلك الوقت كانت (جمعية تركيا الفتاة) تنادي بالمساواة بين جميع الرعايا العثمانيين، دون تمييزٍ في الدين أو العرق.

وبعد إعلان الدستور عام ١٩٠٨م وجدت (الاتحاد والترقي) أنَّ سياسةَ تتريك الدولة هي الوسيلةُ الوحيدة للوصول إلى أهدافها المطلوبة[٣].

وكانت الدول الاستعمارية تقيمُ علاقاتٍ فكرية وثقافية قوية مع هؤلاء الشخصيات القومية البارزة، كما كانت تحاول استغلال الحركات القومية من أجل تحقيق هدم الدولة العثمانية من الداخل، فنشأ جيلٌ في بعض الكليات العصرية في تركيا يستهينُ بقيمة الدين.

من ناحيةٍ أخرى قامت جمعية الاتحاد والترقي بتشكيلها الداخلي بدورٍ أساسي في الثورة القومية في تركيا، فكان اليهود يمدُّونها بالمال، وكانت أوروبا تمدُّها بالنفوذ الإعلامي القوي في القيام بتشجيع الحركات القومية التركية، واستطاعت جمعية الاتحاد والترقي أن تنظِّمَ في سلانيك عدداً من ضباط الجيش،

---

(١) انظر صالح زهر الدين، مرجع سابق، ص٣٨-٥٥؛ نقلاً عن الموسوعة الفلسفية العربية م٢، ق٢/٨٢٩-٨٣٠؛ وكذلك (الموسوعة السياسية) المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت ١٩٧٤م، ص٣٦٣؛ وأيضاً تاريخ العرب لفيليب حتي، ص٥٣٨.
(٢) انظر محمد حرب، السلطان عبد الحميد، مرجع سابق، ص٢٣١-٢٣٣.
(٣) انظر زين نور الدين، مرجع سابق، ص٨١-٨٣.

يدعمهم تنظيمٌ سياسي من الشبان الأتراك من أجل القيام بثورةٍ عسكرية ضد السلطان، وكانت هذه الثورة هي حركة قومية إصلاحية عربية تركية تبدو في شكلها الخارجي أنها دعوةٌ لإطلاق الحريات، وإعلان الدستور، وإجراء الانتخابات، وأخذهم حقّ إصدار الصحف، أما اليهود فقد انتهزوا هذه الثورة في محاولاتهم القضاء على الدولة[١].

وقد رأت (جمعية الاتحاد والترقي) ضرورة سحق العناصر غير التركية بمطرقةٍ تركية. وفي عام ١٩١١م رأت الجمعية ضرورةَ عقد مؤتمر سنوي في إستانبول، يضمُّ وفوداً تمثّل البلاد الإسلامية لبحث الشؤون التي تهمُّ العالم الإسلامي، لكنَّ قادة العالم الإسلامي أظهروا شكّاً في إخلاص الجمعية، وذلك بسبب أنَّ قادتهم من البنائين الأحرار (الماسون) بالإضافة إلى أنَّ يهود سلانيك كانوا جزءًا لا يتجزَّأ من جمعية الاتحاد والترقي. وعلى هذا فقد ظهر تبنّي الجمعية لفكرتي: الاتحاد الإسلامي والاتحاد الطوراني، واستغلالهما لمصالحها[٢]. وكانت جمعية الاتحاد والترقي ترىٰ ضرورة فرض اللغة التركية على جميع الرعايا في الدولة، كما كانت محاولةً عن عمد لجعل اللغة التركية تحلُّ محلَّ العربية في البلدان العربية ومن جانبٍ آخر كان الأتراك يحترمون اللغة العربية لغة القرآن[٣].

وكان للدول الأوروبية دروها المؤثِّر في الإطاحة بالسلطان العثماني، والقضاء عليه، فاتخذت سياسة (الهدم من الداخل)[٤].

---

(١) رفيق شاكر، مرجع سابق، ص١٢٤ ـ ١٢٦.

(٢) زين نور الدين، مرجع سابق، ص٨٦ ـ ٨٧.

(٣) المرجع السابق، ص٩٥ ـ ٩٦.

(٤) السلطان عبد الحميد، مذكراتي السياسية، مرجع سابق، ص٤٦، يقول السلطان عبد الحميد في مذكراته عن دور الدول الكبرىٰ في المؤامرات التي أحاطت بالدولة وأدت إلى الإطاحة بحكمه: . . .«إنَّ الشيء الذي يقودنا إلى الهاوية أكثر من غيره، هو مؤامرات الدول الكبرىٰ، لقد صرفنا الملايين للقضاء على هذه المؤامرات، كان الأجدر بها، أن تُصرَف على مشاريع حيوية تستفيد منها. ويقول: لقد علمت أنَّ الأتراك الشباب في جنيف عقدوا مؤتمراً بكلِّ معنى الكلمة، وبالرغم من أنَّ اجتماعاتهم كانت سرية فإنَّ استخباراتي حصلت على أسماء سبعة عشر رجلاً منهم. ومن دواعي الأسف أنَّ هؤلاء=

وقد عبَّر السلطان عبد الحميد عن موقف الدول الأوروبية هذا بقوله: «لقد استطاع الإنجليز بدعايتهم المخططة أن يبثُّوا بذورَ القومية والعصبية في بلادنا، وقد تحرَّك القوميون في الجزيرة العربية وفي ألبانيا، وظهرت في سوريا بوادر تحرُّكٍ مماثل. وفي وقتٍ قليل استطاعوا أن يجمعوا في أيديهم وسائل القوة في المكان الذي يستقرُّون فيه، وفي هذه الحالة نكون قد وقَّعنا قراراً بالموت على إخواننا في الدين». وكانت وسيلة الدول الأوروبية في إسقاط الدولة هي إيجاد العداء بين العناصر المسلمة في الدولة، واستنهاض الروح القومية، وذلك عن طريق المدارس الأجنبية والبعثات التنصيرية، التي حاولت تقليب العرب ضد الدولة، بإيقاظ الشعور القومي لديهم، وكان للمدارس البريطانية في ذلك الوقت دورها الفعال في هذا الأمر، حتى تغلَّبت على المدارس الفرنسية التي سبقتها في القيام بهذا الدور، وقد حاول السلطان مقاومة هذا التيار بتكثيف الدعاية إلى اتحاد المسلمين ودعوتهم إلى الجامعة الإسلامية[1].

= الشباب منقادون لما يدبّره بعض المتآمرين من الرجال المغرورين. إنهم يقدِّمون شعاراتٍ براقة لتوعية الأمة وترقيتها، بغية القضاء على النظام القائم، وهدم ما بناه الأجداد طيلة قرونٍ خلت، وفي الحقيقة إنهم يريدون الإطاحة برجال دولتي المجربين، وتولّي زمام الأمور بأنفسهم، إنهم عصابةٌ منافقة دنيئة تنكّرت لدينها ووطنها، وحالفت الصليبية العدوّة في القضاء على أبناء جلدتنا وإخوتنا في الإسلام».

(١) انظر محمد حرب، السلطان عبد الحميد آخر السلاطين العثمانيين الكبار، مرجع سابق، ص١٢٧ ـ ١٣٠؛ وفي هذا الصدد يقول (كادمي كوهين) الكاتب الصهيوني في كتابه (دولة إسرائيل): «في الجزيرة العربية ولد الإسلام، والعرب هم الذين تولوا نشره عبر الدنيا، وعملوا منه ديناً عالمياً عظيماً، لقد تضامنت مع الكتلة العربية الهائلة كتلٌ عديدة غير عربية، ولكنها اعتنقت الإسلام، فشعوب الملايو (ماليزيا) في جزر الهند، والهندوس، والأفغان، والتتر، على ضفاف نهر الفولجا وشبه جزيرة القرم في أوكرانيا والفرس والأتراك والبوسنيون في البلقان، والبربر في مراكش، والزنوج في أفريقيا الوسطىٰ، حيث يوجد مسلمون أكثر جداً مما يوجد عرب وإذا أرادت السياسة الأوروبية أن تتحرَّر من العقبات التي ترهقها في مستعمراتها ينبغي عليها أن تسعىٰ لتفكيك هذه الهوية المصطنعة التي تتحرَّك ضدها، هوية بين المفاهيم العربية والمفهوم الإسلامي، وعندما تتجرَّأ على حل المسألة العربية، فإنها تحطم آلياً التشابك الموجود بين المفهومين، وتفتّت الوحدة الإسلامية. =

وقد اتبعت (تركيا الفتاة) سياسةً لا إسلامية ظهرت في محاولتهم ترجمة القرآن الكريم إلى التركية إلى جانب إحياء حركةٍ سابقة للإسلام، وقد ظهرت في إحاطة الأتراك الطورانيين أمثال جنكيز خان وهولاكو (وهم من المغول وليس من الأتراك) بهالةٍ من التقديس، والعمل على تسمية أولاد المسلمين الأتراك بأسماء طورانية فمثلاً يسمَّىٰ الشخص (أوغوز) بدلاً من محمد، وعليهم أن يحملوا أعلاماً عليها صورة الذئب التركي.

بالإضافة إلى هذا أصدرت إحدى الجمعيات التركية الطورانية المسماة (ترك أوجاقي) أي جمعية (الموقد التركي) بياناً جاء فيه: «إنَّ هذه البدعة الخيالية المخيفة التي يسمُّونها (الأمة الإسلامية) التي ظلَّت إلى أمدٍ طويل سدّاً يحول دون التقدم بوجهٍ عام، ودون تحقيق الوحدة الطورانية بوجهٍ خاص، هي في طريقها الآن إلى التفكك فالزوال»[1].

= كما أنَّ القوميات الاستعمارية الأوروبية تؤمن بهذا. إنَّ نظرية الوحدة العربية هي خير علاج وأفضل ترياق ضد الوحدة الإسلامية فهي لا تشكِّل خطراً أكثر مما تشكِّله القومية التركية الحالية، إذ عندما تنصرف عن الدعوة إلى المشاعر الدينية، ولأنها هي على العكس تشكِّل عرقيةً أساسية تصبح عنصراً صحيحاً للتوازن السياسي في العالم القديم.

إنَّ تفتيت الهوية التي تجمع بين الإسلام والعروبة هو القادر على جعل الضفة الشرقية للبحر الأبيض المتوسط ما يجب أن تكونه في الحقيقة واجهة القارة الآسيوية التي تطلُّ على العالم الغربي ورأس جسر لأوروبا نحو آسيا الكبرىٰ». ويضيف (كادمي كوهين الصهيوني) قائلاً: «إنَّ الوحدة العربية تصبح قادرةً على مقاومة الوحدة الإسلامية إذا ما نظِّمت سياسياً، فإيقاظُ الشعور القومي العربي هو الذي يهيمن على المسألة، وينبغي ألا يغربَ عن بالنا أنَّ تألُّقَ نجاحات الإسلام هو الذي ولَّد الإيمان الجديد عند العرب بتشكيل الأمة الإسلامية. إنَّ القومية الإسلامية تتفوَّق على الفكرة العائلية، وعلى العصبية العشائرية أو القبلية التي كانت معروفةً حتى الآن، فإذا لم يتراجع الغرب أمام تلك الديانة الجديدة، وإذا ما أقرَّ وأكَّد على وجود قوميةٍ عربية تمتدُّ من البحر الأبيض المتوسط إلى بلاد فارس قومية تختلف في جوهر تحديدها عن التتر والهندوس والبربر، فإنه يحرِّر بذلك قوةً هائلة إذا ما تأطَّرت بشكلٍ مناسب استطاعت أن تلعبَ دوراً في العالم المتمدن تؤهِّلها له أصالتها الرفيعة».

(١) انظر زين نور الدين، مرجع سابق، ص٨٩ ـ ٩٠.

وكان نتيجة هذه السياسة التي اتبعتها (تركيا الفتاة) أن قام ردُّ فعلٍ طبيعي من زعماء العرب بالتشديد على المطالبة بالاستقلال التام وقيام القومية العربية.

ونستطيع القول: إنه كان هناك ثلاث دوائر عملت في اتساقٍ من أجل القضاء على الدولة العثمانية ألا وهي:

١ ـ **القوىٰ الصليبية**: وكانت على شكل مبشرين ومستشرقين في المدارس والمؤسسات والمؤتمرات والأبحاث.

٢ ـ القوىٰ الاستعمارية في صورة الأساطيل والحروب والمعاهدات والامتيازات والعملاء في السفارات.

٣ ـ **القوىٰ اليهودية**: بأشكالها المختلفة: من يهود متخفِّين وراء الإسلام (يهود الدونمة)، وماسون، ومحافل، وصحف، وإعلام، وعلماء دين، وبيوت أموال، وتنظيمات، وجمعيات، وتغلغل كل هؤلاء في البنية الاقتصادية والسياسية والعسكرية والثقافية والتربوية في الدولة، فعرقلوا تقدُّمها وقسموا ممتلكاتها فيما بينهم[١].

وترجع جذور فكرة القومية في الدولة العثمانية إلى ارتباطها بالدعوة إلى القومية اليهودية والتي تمثَّلت في الحركة الصهيونية[٢].

دور المدارس التبشيرية في انتشار القومية التركية:

وقد انبثقت فكرة القومية العربية من المدارس التبشيرية التابعة للدول الاستعمارية، والتي كانت تنتشر في بلاد الشام، خاصةً في لبنان، حيث نشرت إنجلترا مدارسها التبشيرية هناك في منطقة الدروز، وكانت هذه المدارس هي المنبع الأول للحركة الانفصالية للقومية العربية في الدولة العثمانية، فهي التي

---

(١) انظر محمود ثابت الشاذلي، المسألة الشرقية، مرجع سابق، ص١٢٠ ـ ١٢٥.

(٢) في هذه المناسبة يقول (ناحوم غولدمان): «إنَّ النزعة القومية التي خلقت الحركة الصهيونية، هي نفسها التي خلقت حركة القومية العربية، لقد نمت الحركتان في وقتٍ واحد».

حرَّضت العرب على الانفصال عن الدولة من خلال إثارتها للقومية، وخاصةً نصارىٰ العرب. ويعتبر نصارىٰ الشام هم الذين حملوا لواء القومية العربية بمفهومها العلماني، حيث أسَّسوا جامعة القديس يوسف في بيروت، ومن خلالها سرىٰ تيار القومية لدىٰ العرب والمسلمين في الدولة.

وقد ارتبطت القومية في الشام بحركة التنصير العالمية وبالتعليم الأجنبي من خلال مدارس الجزويت والكاثوليك والبروتستانت، وبثُّوا من خلال هذه المدرسة فكرةَ الانفصال عن الدولة العثمانية.

وفي عام ١٨٦٢م أنشأ البروتستانت كليةً في بيروت رأسها (دانيال بلس) وقد تطوَّرت هذه المدرسة وأصبحت (الكلية السورية الإنجيلية) وهي الآن (الجامعة الأمريكية) في بيروت.

وقد أمر السلطان عبد الحميد بإغلاق مدارس المتغرِّبين في الشام عام ١٨٨٨م حيث كانوا يثيرون الفتن ضد الدولة، ويتجسسون لحساب دولهم، ويبثُّون الفتن بين رعايا الدولة.

كما أمر السلطان بإلغاء الصحف التي تصدر من قبل أحزاب داخلية وطائفية في الدولة، ومنع أية منشورات تدعو للأفكار الانفصالية والقومية، وكان مروِّجو هذه المنشورات جمعية (بيروت السرية) و(جمعية المقاصد الخيرية) و(جمعية النهضة العربية)[١].

وإلى جانب هذا قام العرب النصارىٰ بتنظيم إخوانهم في العِرق والقومية من المسلمين في المحافل الماسونية المنتشرة في أرجاء الدولة.

وفي سبيل مقاومة هذا التيار حاول السلطان عبد الحميد التصدِّي لنشاط هذه المدارس الأجنبية، والحدّ من ازدياد نفوذ المحافل الماسونية من خلال دعوته إلى الجامعة الإسلامية، واهتمامه بإنشاء المساجد، وتبادُل الزيارات بين مشايخ المسلمين في مختلف أنحاء الدولة[٢].

---

(١) محمد حرب، السلطان عبد الحميد، مرجع سابق، ص٢٤٣ ـ ٢٤٦.

(٢) مذكرات السلطان عبد الحميد، محمد حرب، دار القلم، مرجع سابق، ص١١٥؛ رفيق=

قامت المدارس التبشيرية التابعة للدول الاستعمارية بدورٍ كبير، حيث أوجدت الإرساليات التبشيرية المطابع العربية، ونشرت الكتب العربية بلغةٍ سهلة، فظهر خريجو هذه المدارس متبنِّين أفكارَها، فأصبحَ منهم الأدباء والشعراء أمثال (بطرس البستاني)(١) و(جبران خليل جبران) و(ميخائيل نعيمة) وغيرهم، وعن طريقهم بدأ تنظيم الحركات القومية العربية في ظلِّ هذه المدارس والكليات التبشيرية.

وقام الشبان الأتراك بعد خلع السلطان عبد الحميد واستيلائهم على السلطة باستبعاد العناصر العربية من مراكز الدولة، وبدأت سياسة التتريك تنتشر في أرجاء الدولة، وهؤلاء الشبان ما هم إلا عملاء للقوى الاستعمارية(٢).

ويرجع أول جهدٍ منظَّم في حركة العرب القومية إلى سنة ١٨٧٥م - أي قبلَ ارتقاء السلطان عبد الحميد العرش بسنتين - حين ألَّفَ خمسةُ شبان، من الذين درسوا في (الكلية البروتستنتية السورية) ببيروت جمعيةً سرية. وكانوا جميعاً نصارى، ولكنَّهم أدركوا قيمة انضمام المسلمين والدروز إليهم، فاستطاعوا أن

= شاكر، مرجع سابق، ص١٣٥ - ١٣٦؛ وفي معرض حديث السلطان عبد الحميد عن هؤلاء الأتراك الشبان يقول: «إنَّ السبب في تردّي الأمور إلى الحد الذي نراه في يومنا هذا، هو مبلغ الطيش الذي بلغه الأتراك الشباب في عهد أخي المريض». (السلطان عبد الحميد، مذكراتي السياسية، ص٢٦).

(١) بطرس البستاني: نصراني بروتستانتي، احتكَّ بعددٍ كبير من الإرساليات الغربية، وأسهمَ بترجمة الإنجيل إلى اللغة العربية. وأصدر قاموساً للغة العربية في جزأين بعنوان (محيط المحيط)، واختصره تسهيلاً لانتشاره في مجلدٍ واحد سماه (قطر المحيط) ووضع دائرة معارف البستاني. ولم يظهر منها إلا ستة مجلدات في حياته، ثم أتمَّها أولاده حتى ظهر منها أحد عشر مجلداً. وهذا بجانب نشاطه الصحفي، ومنه إصدار مجلة (الجنان) وكان (مدحت باشا) يشجعه عندما كان والياً على سوريا. وكان بطرس حريصاً في كل نشاطه على عامل التثقيف، وبث الحياة القومية والأدب القومي في نفوس الشاميين. (السلطان عبد الحميد الثاني، آخر السلاطين العثمانيين الكبار، محمد حرب، مرجع سابق، ص٢٤٤).

(٢) رفيق شاكر، مرجع سابق، ص١٤٥.

يضمُّوا إلى الجمعية نحو اثنين وعشرين شخصاً ينتمون إلى مختلف الطوائف الدينية، ويمثّلون الصفوة المختارة المستنيرة في البلاد، وكانت الماسونية قد دخلت قبل ذلك بلاد الشام على صورتها التي عرفتها أوروبا[١]، فاستطاع مؤسسو الجمعية السرية، عن طريق أحد زملائهم، أن يستميلوا إليهم المحفل الماسوني الذي كان قد أنشئ منذ عهدٍ قريب، ويُشركوه في أعمالهم[٢].

ومن ناحيةٍ أخرى كانت هناك نوعيةٌ من الشخصيات ترىٰ أنَّ مبادئ الحرية والمساواة والعدالة والديمقراطية تتجلّىٰ في ارتباط الدولة بالدول الاستعمارية التي تحمل هذه المبادئ في سياستها، ومن أبرز هذه الشخصيات شخصية (نجيب عازوري)[٣] مؤسس (جمعية الوطن العربي في القرن العشرين) ومؤلف كتاب

---

(١) أسّس (مدحت باشا) أول محفل ماسوني في دمشق مركزه منزل الخطاط مصطفى السباعي في منطقة (مئذنة الشحم) في سوق الطويل، وكان من أبرز أعضاء هذا المحفل الشيخ طاهر الجزائري. (انظر محمد سعيد الباني: علماء الشام كما عرفتهم ط. دار القادري). (الناشر)

(٢) رفيق شاكر، مرجع السابق، ص١٤٥ ـ ١٤٦.

(٣) نجيب عازوري الذي يرجعُ أصله إلى سوريا هو مسيحي كاثوليكي، ثقافته فرنسية، تولّى منصب نائب متصرف للقدس في الفترة ١٨٩٩ ـ ١٩٠٤م كان متصرف القدس في ذلك الوقت هو (كاظم بك الحسيني) الذي اختلف معه بسبب سوء تصرف الإدارة العثمانية، واستقال من منصبه، ذهب إلى الشام ودعا هناك إلى إنشاء حزبٍ سياسي باسم (جمعية الوطن العربي) وعندما علمت السلطات العثمانية بنشاطه غادرَ الشام، والتجأ إلى فرنسا، ونشر كتابه (يقظة الأمة العربية) كما أسس مجلة (الاستقلال العربي) وهي مجلةٌ شهرية باللغة الفرنسية (١٩٠٧ ـ ١٩٠٨م) ثم عاد إلى مصر، وأقام فيها حتى مات عام ١٩١٦م. (انظر الشناوي: ٣/ ١٢٣٤)؛ استهدفت دعوة نجيب عازوري إلى:

١ ـ **مهاجمة حركة الجامعة الإسلامية**، والقضاء على السلطان عبد الحميد، وتعيين خليفة في مكة المكرمة.

٢ ـ **تفتيت العالم العربي**: حيث اقتصر كلامه على سوريا ولبنان وفلسطين فقط، فكان هدف عازوري تقويض الدولة العثمانية في غربي آسيا، وذلك تمهيداً لسيطرة إنجلترا وفرنسا على المنطقة.

٣ ـ **تأسيس دولة عربية علمانية**، تحترم المصالح الأجنبية والامتيازات التي منحها العثمانيون، وكان معنى هذا هو تأسيس الدولة العربية باستقلالها عن الدولة العثمانية فقط، وفي نفس الوقت وضعها تحت الحماية الأوروبية. (انظر الشناوي: ٣/ ١٢٣٨)؛ =

(يقظة الأمة العربية) الذي دعىٰ فيه لإنشاء دولةٍ عربية علمانية تدعمها القومية العربية، وقد هاجم في هذا الكتاب السلطان عبد الحميد، وكان يرىٰ أنَّ العرب أحقُّ بالخلافة من الأتراك، كما رأىٰ أنَّ إنشاءَ الدولة العربية العلمانية ينتجُ عنه القضاء على مخاوف المسيحيين في بلاد الشام على اختلاف مذاهبهم، كما سيقضي على مخاوف اليهود الذين يشكِّلون مئة ألف يهودي.

كما ندَّد عازوري بالسياسة العثمانية في الولايات العربية وادَّعىٰ عازوري أيضاً أنَّ أملَ الدولة العثمانية هو في التقرُّب إلى فرنسا وبريطانيا وعلى الأخص فرنسا لما لها من تقاليد حرة، ودعىٰ العربَ عام ١٩٠٥م إلى الانفصال عن الدولة العثمانية، وقد هوجم عازوري واتُّهم بأنه يعمل لحساب الاستعمار بوزارة الخارجية الفرنسية.

وكان (عازوري) الذي قد أصدر من فرنسا مجلةً شهرية تسمَّىٰ (الاستقلال العربي) نادىٰ فيها بنزع الخلافة عن العثمانيين، في الوقت الذي كان ينادي فيه السلطان عبد الحميد بالدعوة إلى قيام الجامعة الإسلامية[١].

وبعد سقوط السلطان عبد الحميد سنة ١٩٠٨م قام (نجيب عازوري) ونادى بالعودة إلى فلسطين إلا أنَّ الأتراك حكموا عليه بالإعدام بسبب نشاطه الذي يمسُّ أمنَ الدولة، فهربَ إلى القاهرة وأسَّس محفلاً ماسونياً فيها متأثِّراً بالحركة القومية الإيطالية، وانتشرت فروع هذا المحفل في جميع الأقطار العربية، وكان تحت رعاية بريطانيا[٢].

أما (ضياء كوك ألب) الذي يُعرف بالأب الروحي للقومية التركية، فقد اقترحَ قبل قيام الحرب العالمية الأولى: إقامة دولةٍ مزدوجة تُسمَّى الدولة التركية-

---

= وقد عمل في خدمة الدولة العثمانية في القدس، وهو الذي كوَّن (عصبة الوطن العربي) في باريس لمناوئة الحكم العثماني كما دعا إلى علمانية دولة الخلافة العربية عند إنشائها وذلك بإقامة سلطتين واحدة روحية في الحجاز، وأخرى زمنية في أي مكان (انظر محمد حرب، السلطان عبد الحميد، ص٢٣٩). عبد العزيز الشناوي: ٣/ ١٢٣٣-١٢٣٨.

(١) محمد حرب، السلطان عبد الحميد، مرجع سابق، ص٢٣٩.

(٢) عبد العزيز الشناوي: ٣/ ١٢٣٧.

العربية يرأسها خليفةٌ تركي[1].

ومن جانبٍ آخر نشطت في الدولة التشكيلات الماركسية التي كانت تلجأ للسلاح من أجل فرض أفكارها، وقام بمواجهة هؤلاء: (ألب أرسلان توركش) زعيم حزب الحركة القومية، الذي تبنَّى فكرة التصدي للتيار الشيوعي والعمل على نشر الفكرة القومية التركية ضد الشيوعية[2].

تاثير الدول الغربية على القومية التركية والعربية:

وفي معرض الحديث عن القوميات والدول الاستعمارية، والتحرر من سيطرة الدولة، كانت الآراء تؤكِّد أنَّ اللجان الوطنية الانفصالية الأرمنية، والكردية، والألبانية، والبلغارية، والعربية، واليونانية، كان لها قوة كبرىٰ. وكان للعرب ثلاث لجان في أوروبا وأمريكا، وجمعيتان في مصر، وجمعيات سرية في المدن الرئيسة في سوريا وبلاد الرافدين، ويتفق هؤلاء على القيام بنشاطٍ مشترك ونهائي.

وقد كان من مصلحة رجال المال الأوربيين الذين يملكون رأسمالاً في تركيا؛ ومن مصلحة التجار وأصحاب البنوك الذين تربطهم أعمالٌ في تلك البلاد؛ أن يشجِّعوا هذه المشاريع القومية، حيث إنه عند إسقاط السيطرة التركية سوف تفتح آسيا بأكملها على التجارة الدولية. أمّا توظيف رؤوس الأموال الذي كان يعطي فائدة (٤٪) تحت السيطرة التركية فسيعطي يوم تحررها منها (٥٠٪) وسوف يجد الأوروبيون والأمريكيون مجالاً أكثر نفعاً في حالة تخليص أممٍ كبيرة من سيطرة الأتراك، وسوف يؤدي إلى فتح مجالٍ واسع للربح أمام كافة الناس الشرفاء، الذين يريدون العمل[3].

في تلك الفترة وُجِّهت الاتهامات إلى العرب، واستُبْعِدَ الكثيرُ منهم، حتى

---

(١) زين نور الدين، مرجع سابق، ص٩٢.

(٢) محمد حرب، محمد علي آغجا، ظاهرة التمرد في المجتمع التركي ضد المعاصر، مرجع سابق.

(٣) رفيق شاكر، مرجع سابق، ص١٤٩؛ نقلاً عن حديثٍ لعازوري في كتابه (يقظة الأمة العربية)، ص٢١٨ـ٢١٩.

إنه لم يبقَ في وزارة الخارجية التركية سوى موظف عربي واحد، وذلك تبعاً لنظام التتريك الذي نادت به جمعية الاتحاد والترقي، والتي كانت تملك زمام الدولة، على عكس سياسة السلطان عبد الحميد، الذي كان يقرِّبُ إليه الكثير من العرب المسلمين أمثال (عزت باشا العابد الدمشقي)، و(الشيخ أبو الهدئ الصيادي) وغيرهم..

وبعد تغير نظام الحكم أصبحت الدولة تتأرجح بين الجماعات المتحالفة والقوميات والتناقضات التي قامت عليها سياستهم، وبين سياسة الاستعمار الأوروبي والصهيوني، وكانت هذه التناقضات هي سمة العصر اللاحق للسلطان عبد الحميد[1]. وحينما تمَّ عزلُ السلطان كخليفةٍ للدولة العثمانية وللأمة

---

(١) انظر رفيق شاكر، مرجع سابق، ص١٥١؛ ومن التقارير التي جاءت بخصوص علاقة (جمعية الاتحاد والترقي) بالصهيونية ما جاء على صفحات (مجلة المنار) وعلى لسان مراسله الخاص الذي كان يشهد الأحداث التي قضت على آخر محاولةٍ لإعادة الحياة الدستورية إلى الدولة العثمانية نتيجة الانقلاب الذي قاده أنور بك، حيث ذكر المراسل أسماء الوزراء الذين تمَّ تعيينهم في وزارة محمود شوكت، وهي على النحو التالي: (بساريا) أو (بانزاريا أفندي) ناظر النافعة (أي وزير الأشغال) وكان رئيس تحرير (جون تورك) (تركيا الفتاة) ومراقباً لما يكتب فيها من قبل الجمعية و(جون تورك) جريدة صهيونية. (نسيم مازلياح) ناظر التجارة والزراعة؛ وتقول وجهة النظر العربية إنه بعد تعيين مازلياح غلبَ عليها الطابع الاحتجاجي فعدد نفوس اليهود في الدولة لا يعادل عشر معشار نفوس العرب ومع ذلك فإنَّ لهم في الوزارة الاتحادية عضوين، وليس للعرب، وهم أكثر من نصف المملكة عضوٌ واحد في الوزارة، وقد انتقد السوريون تعيينه في الوزارة العثمانية دون أن يكونَ للعرب وزيرٌ واحد في الدولة. (د. يونان لبيب رزق، نسيم مازلياح، الأهرام، ١٤/٥/١٩٩٨م)؛ ومبعوث إزمير الإسرائيلي سابقاً ومفوض الجمعية الصهيونية، أما الوزير الثالث الذي وصف بأنه صهيوني فهو (جاويد بك) وزير المالية. وقد أدخل هؤلاء الوزراء أعداداً كبيرة من اليهود، وكانوا هم مروجي أشغالهم وأعمالهم أكثر منهم موظفين عثمانيين، وكلُّ القروض التي اقترضتها الوزارات الاتحادية كانت بواسطة هؤلاء الموظفين الإسرائيليين. (جريدة الأهرام المصرية، ١٤/٥/١٩٩٨م). ويجدر بنا أن نحلل المعارضة التي قابلها السلطان عبد الحميد من قبل اليهود فقد ظهرت في نشاط المستشرقين اليهود في أوروبا عن طريق كتاباتهم ونشراتهم، وقد برز موقفهم في إحياء فكرة القومية الطورانية، وكان من أبرز هؤلاء الذين تبنوا هذه=

الإسلامية على أيدي (الاتحاد والترقي) ومحرّكهم سواء اليهود أو الاستعمار الأوروبي، أصبحَ الشباب في الدولة ضحية المناهج الثقافية الغربية.

ومن أبرز اليهود المفكرين في الخارج اليهودي الفرنسي (إميل دور كايم) صاحب المذهب الاجتماعي والقومي، والذي ترك آثاراً في فكر رائد القومية التركية وفيلسوفها (محمد ضياء كوك ألب).

وفي عامي ١٩١٢م، ١٩١٣م أصدرت بعض الصحف اليهودية في سلانيك نقداً موجَّهاً إلى الحركة الصهيونية حيث دعت اليهود إلى الاندماج في الإمبراطورية العثمانية.. ومن أهم هذه الصحف صحيفة (هاأحدوت) (الوحدة)، وكان من أبرز الشخصيات التي تزعَّمت هذه الحركة (ديفيد بن غوريون) و(أبراهام بن تسيفي) كما تمَّ تشكيل جماعة من المتطوعين اليهود للالتحاق بالجيش التركي، قُدِّرَ عددهم أربعين فرداً، إلا أنَّ هذا الموقف لم يغيِّر من موقف السلطات العثمانية تجاه الصهيونية[١].

في عام ١٩١٣م ازدادت عمليات شراء الأراضي بفلسطين[٢] واستغرقت مرحلة حكم الاتحاديين الأعوام من ١٩٠٩م حتى عام ١٩١٨م، في هذا الوقت تمَّ فتحُ الأبواب أمام الصهيونية لدخول فلسطين، وظهرت الدعوة لتتريك البلاد، والأخذ بكلِّ ما هو غربي، وقد أعلن (الشيخ مصطفى صبري شيخ الإسلام) الذي أخرجوه من تركيا، وأقام بمصر، قوله في هذه المناسبة: «إنني أخافُ أن تسعدَ بلاد تركيا وترقىٰ بهذه الإدارة الحديثة اللادينية رقياً دنيوياً - وإن كان ذلك في غاية

= الفكرة (لاملي دافيدز) و(ليون كاهون) و(فامبري) وكانوا من مؤيدي (جمعية الاتحاد والترقي) وكان فامبري مستشاراً للسلطان يعمل جاسوساً لبريطانيا، وكان السلطان عبد الحميد على علمٍ بحقيقته.

(١) صموئيل إتينجر، مرجع سابق، ص٢٢٢ - ٢٢٣.

(٢) زار جورجي زيدان فلسطين، ونشر عدداً من المقالات من خلال مشاهداتٍ هناك جاء فيها: «إن اليهود باذلون جهودهم في ابتياع الأراضي في فلسطين بكلِّ وسيلةٍ ممكنة بمساعدة الجمعية الصهيونية، وإنَّ غور بيسان كان معروضاً للبيع في صيف عام ١٩١٣م وقد احتجَّ أعيان الوطنيين على الحكومة لمَّا بلغهم عزمها على بيعه لبعض الأجانب أو اليهود، فتوقفت الحكومة عن بيعه مؤقتاً».

البعد والاستحالة ـ فيفتتن بها المسلمون، الذين قلّما سَلِمُوا من أن يعجبوا بها وهي توغل في سبيل الإفلاس»[١].

وفي عام ١٩١٣م أيضاً نجحت الصهيونية بالاتفاق مع قادة الأتراك الاتحاديين برفع القيود عن الهجرة اليهودية إلى فلسطين، والسماح لهم بامتلاك الأرض[٢].

وفي سبيل مواجهة هذا الأمر تأسست في فلسطين مؤسساتٌ وطنية وخيرية في القدس، بغرض مقاومة المد الصهيوني في فلسطين، تدعو إلى مساندة الصناعات الوطنية، ونشر التعليم من أجل مواجهة الأخطار التي تهدِّد الدولة، ومن هذه المؤسسات: (الجمعية الخيرية الإسلامية)، (جمعية الإخاء والعفاف)، (شركة الاقتصاد الفلسطيني العربي) و(شركة التجارة الوطنية الاقتصادية) كما قام الطلبة الفلسطينيون بتأسيس (جمعية مقاومة الصهيونية) في الأزهر الشريف، وفي بيروت أسس طلبة نابلس (جمعية الشبيبة النابلسية) وفي حيفا تأسست (جمعية المنتدىٰ الأدبي). أما النساء الفلسطينيات فقد أسَّسنَ (جمعية الإحسان العام) و(جمعية يقظة الفتاة العربية)[٣].

وفي عام ١٩١٤م قام البريطانيون بتوقيع اتفاقية الخط الأحمر مع وزير المالية العثماني المرتبط بالدونمة[٤]. في ذلك الوقت أيضاً قامت الحرب العالمية الأولى بين ألمانيا والنمسا والمجر من جهة، وإنجلترا وفرنسا وروسيا من جهةٍ أخرى، وانضمَّت تركيا إلى جانب الألمان، وانتهت الحرب بهزيمة ألمانيا وتركيا عام ١٩١٨م، وتحطَّمت الدولة، وتقسَّمت بين الدول العظمىٰ، وهرب كلٌّ من (جمال) و(أنور) و(طلعت) رؤوس الماسونية في الدولة، وانتهىٰ في ذلك الوقت دور ماسونيي سلانيك الألمان، ليحلَّ مكانهم دور ماسونيي الإنجليز، حيث

---

(١) محمد الخير عبد القادر، مرجع سابق، ص١٩٢.

(٢) المرجع السابق، ص٩٧.

(٣) انظر رفيق شاكر، ص١٧٨.

(٤) محمد سرحان، مرجع سابق، ص٩٦.

تألَّفت في ذلك الوقت حكومةٌ برئاسة (توفيق باشا) الذي كان على صلةٍ وثيقة بالإنجليز[١].

في هذه الأثناء تمَّ عقد اتفاق في بطرسبرج بين روسيا وبريطانيا وفرنسا من أجل تقسيم الأراضي العثمانية، وبمقتضاه حصلت روسيا على أرضروم وطرابزون ووان وبتليس، واستولت فرنسا على سوريا وتشمل الموصل وحلب ودمشق وحمص وحماه، واستولت إنجلترا على أرض ما بين النهرين بما في ذلك البصرة على الخليج العربي، إلى جانب حيفا وعكا على البحر المتوسط[٢].

وفي عام ١٩١٩م احتلت اليونان إزمير طبقاً للمؤامرة التي تمَّت بين (لويد جورج) الماسوني الصهيوني، الذي أصدرت حكومته وعد بلفور و(بينفينزيلوس) رئيس وزراء اليونان[٣].

وفي عام ١٩٢٢م دعا الحلفاء حكومة أنقرة المؤقتة إلى عقد (مؤتمر لوزان) فتمَّ إرسال وفدٍ من قبل الحكومة على رأسه عصمت إينونو، ومعه حاخام اليهود (حاييم ناحوم) الذي فتح لليهود باب الهجرة إلى تركيا، ليكونوا بالقرب من فلسطين، وقد تفاوض هذا الوفد مع (اللورد كيرزون) وزير خارجية بريطانيا وممثل الحلفاء في شروط الصلح، في ذلك الوقت أعلن (كيرزون): **«إنه إذا كانت هذه هي الصهيونية فلماذا لا نكون جميعاً صهاينة»!!**[٤].

وفي هذا المؤتمر أظهرَ اليهود الأتراك انتماءً لتركيا، ففي الوقت الذي منحت فيه (لوزان) الأقليات حقَّ تعلُّم لغتهم الخاصة أصرَّ اليهود الأتراك على تعلُّم التركية، في حين فضَّل الأرمن واليونان تعلُّمَ لغتهم الخاصة[٥].

* * *

---

(١) محمود ثابت، الشاذلي، مرجع سابق، ٢٠٧ ـ ٢١٠.

(٢) انظر محمد أنيس، الدولة العثمانية والشرق العربي، (١٥١٤ ـ ١٩١٤م)، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، ١٩٩٣م، ص٢٨٧.

(٣) محمود ثابت الشاذلي، المسألة الشرقية، ص٢١٥.

(٤) المرجع السابق، ص٢٣٢ ـ ٢٣٣.

(٥) محمد نور الدين، شؤون تركية، عدد (١١)، ص٣٤، سنة ١٩٩٤م.

الفصل الثاني

دور اليهود المحلّي العثماني والدولي العالمي في فلسطين

● أولاً: دور اليهود المحلّي العثماني:

اتصالُ اليهود بالبلاط السلطاني:

في ١٤/ ٢/ ١٨٩٦م قام هرتزل[١] بنشر كتاب (الدولة اليهودية) حيث أثار فيه قضية الاضطهاد والتشرد الذي يلاقيه اليهود، ودعا إلى عقد المؤتمر الصهيوني الأول في مدينة (بال) بسويسرا عام ١٨٩٧م وقد قوبل كتابُه بالنقد من مختلف الدوائر، إذ وُصفت أفكارُه عن الصهيونية بالسطحية، ووصف بأنه يجهل اليهودية

---

(١) هرتزل هو صحفي نمساوي، كتب وهو في باريس سنة ١٨٩٥م كتاباً في استعمار اليهود سماه (الوطن الإسرائيلي) لم يزعم أنه يستنهض به الهمم، أو يستثير العزائم، بل قال: إنه كتبه لنفسه، لإيقاف بعض أصدقائه على آرائه. ولكنَّ الكتاب ما لبث أن طبع في فيينا بالألمانية، حتى نقل إلى الفرنسية والإنجليزية والعبرانية، وأعيد طبعه مراراً، وراج رواجاً عظيماً، وحرَّك الهمم فوق ما كان يتوقع الناس منه، وقد عارضه كثيرون، لكنَّ المجاري الاجتماعية اقتضت ظهور ثمرته، لأنَّ فكرة استعمار اليهود لفلسطين كانت قد نضجت، واستعدَّت لها الأذهان، وتاقت إليها النفوس، وخلاصة آراء هرتزل في ذلك الكتاب: «أنَّ أعداء الساميين آخذون في الازدياد، ولا يستطيع اليهود مقاومتهم لتشتت شملهم في الأرض، فهم في حاجةٍ إلى الاجتماع في وطنٍ خاصٍّ بهم» فاقترح إنشاء شركةٍ يهودية اقتصادية رأسمالها (٥٠,٠٠٠,٠٠٠) جنيه إسترليني، مركزها لندن. وأن تتألف جمعية سياسية يهودية تدبِّر أعمال هذه الشركة، وتشير عليها بما ينبغي عمله، واقترح للقيام بذلك ابتياع فلسطين أو الأرجنتين، على أن ينتقل إليها اليهود انتقالاً منتظماً. ثم عدَّلَ هرتزل رأيه هذا فحصر طلبه باستعمار فلسطين دون سواها، لعلمه أنَّ الناس لا يساقون بمثل الشعائر الدينية، واليهود هجروا فلسطين وقلوبهم في هيكل سليمان. (رشيد رضا، وقائع وأخبار الدولة العثمانية، مجلة المنار، ص٣٨٧ـ٣٨٨).

وآدابها وثقافتها، كما أنه وُصِفَ بأنه يجهل جذور الحركة الصهيونية التي سبقت دعوته[(١)].

وأول من أخذ بآراء هرتزل كانت (جمعية اليهود النمساوية) وكان ذلك عام ١٨٩٦م فقد وقَّع الآلاف على خطابٍ يطلبون فيه تأسيس جمعية يهودية في لندن، كان معظمهم من الشبان المتنورين، وقد عارض حاخامات اليهود هذه الدعوة الصهيونية في بادئ الأمر، إذ اعتبروها من آلات الكفر[(٢)].

وفي عام ١٨٩٦م قدِّر عدد سكان فلسطين بـ(٤٥٧,٠٠٠) نسمة، منهم حوالي (٦٠,٠٠٠) يهودي[(٣)] وقد اتَّبع هرتزل أساليبَ عديدة من أجل إقناع الحكومة العثمانية بتحقيق أهدافه، من هذه الوسائل:

---

(١) ورد في كتاب (الدولة اليهودية) الذي نشره تيودور هرتزل بخصوص ضرورة استيطان اليهود فلسطين: «فلتمنح لنا الدولة العثمانية السيادة على جزءٍ من الأرض يكفي لتلبية مطالبنا الوطنية الشرعية، وسنتولَّىٰ نحن الباقي» وذلك عن طريق «مجتمع اليهود الذي سيضع مشروعاً علمياً وطرقاً سياسية، وعن طريق الشركة اليهودية، التي ستنفِّذ كلَّ شيء. وسيكون للشركة اليهودية مهمتان كبيرتان وهما: تصفية ثروات اليهود في الدول التي سيتركونها، وتنظيم التجارة في البلد الجديدة». ويشرح هرتزل وجهة نظره في استعمار فلسطين بمقارنةٍ مذهلة فيقول: «لنفرض مثلاً أننا اضطررنا إلى تطهير بلدٍ من الحيوانات المتوحشة، فلا يجب أن نفعل ذلك بالطريقة التي اتَّبعها الأوروبيون في القرن الخامس عشر. فلا ينبغي أن نحمل الحربة والرمح، ونخرج فرادىٰ بحثاً عن الدببة، بل يجب أن نشكِّل جماعة صيدٍ ضخمة عظيمة، ونحصر الحيوانات كلها معاً، ثم نلقي في وسطها قنبلة». ويضيف هرتزل قائلاً: «ومن ناحيةٍ أخرى فإنَّ (فلسطين) هي وطننا التاريخي الذي لا ينسىٰ. ومجرد اسمها سيكون عاملاً مهماً فعالاً شديد الفعالية. ولو أعطانا صاحب الجلالة السلطان فلسطين فإننا بدورنا نتعهَّد بتدبير مالية تركيا تدبيراً كاملاً. وسنشكِّل عندئذٍ جزءًا من حائطٍ دفاعي لأوروبا وآسيا مركز المدنية ضد البربرية. ويمكن أن توضع الأماكن المسيحية المقدسة تحت نوعٍ من السيادة الدولية خارج الحدود» وهنا يتيح هرتزل لنفسه أن يقول نبوءة: «إنه بمجرد أن نبدأ في تنفيذ المشروع، فإنَّ المعاداة للسامية ستتوقف فوراً، وفي كل مكان». (ديز موند ستيوارت، تيودور هرتزل، مرجع سابق، ص٢٥٨ـ٢٥٩).

(٢) انظر رشيد رضا، المنار، م١٧ : ٥/٣٨٨.

(٣) انظر خيرية قاسمية، مرجع سابق، ص١٠.

١ ـ إغراء السلطان بحلّ مشاكل الدولة الاقتصادية:

في عام ١٨٩٦م حاول هرتزل زعيم الحركة الصهيونية اتخاذ المال وسيلةً للضغط على السلطان العثماني من أجل السماح بإنشاء دولةٍ لليهود في فلسطين، مدَّعياً أنها دعوةٌ إنسانية لا يبغي من ورائها أيَّ ضررٍ بالدولة، بل على العكس فقد اعتبرها دعوةً لإنقاذ الدولة من ديونها، وتسديد هذه الديون في مقابل السماح بهجرة اليهود إليها، وفي سبيل الوصول إلى هذا الغرض قام هرتزل بإجراء حوار مع السلطان عبد الحميد حيث أعلن: «إنْ نحنُ حصلْنا على فلسطين، سندفعُ لتركيا كثيراً، وسنقدِّم عطايا كثيرة لمن يتوسَّطُ لنا، مقابل هذا نحن مستعدُّون أن نسوِّي أوضاع تركيا المالية. سنأخذ الأراضي التي يمتلكها السلطان ضمن القانون المدني، مع أنه ربَّما لم يكن هناك فرقٌ بين السلطة الملكية والممتلكات الخاصة»[١].

وعلى أثر هذه المحاولات قام هرتزل بزيارة إستانبول، وحاول لقاء ابن الصدر الأعظم لترتيب مقابلة مع والده بشأن احتلال فلسطين، إلا أنَّ ابن الصدر الأعظم أجابهم: إنَّ في هذا إساءةً لمشاعر المسلمين[٢].

ثم حاول هرتزل مقابلة وزير الخارجية إلا أنها باءت بالفشل، ثم حاول مرةً أخرى عن طريق صديقه (نيولنسكي) وكان صديقاً للسلطان عبد الحميد أن ينقلَ له رغبة هرتزل فدارت محاورةٌ بين السلطان ونيولنسكي اقترحَ فيها السلطان عبد الحميد بعض الأمور حول استيطان اليهود تركَّزت فيها:

أ ـ منح اليهود حرية الإقامة واستيطان الأراضي في الأناضول والعراق وسوريا نظير مليون وستمئة ألف جنيه إسترليني، لكن هرتزل رفض هذا الاقتراح.

ب ـ استيطان اليهود في أفريقيا الشرقية، والتي سمِّيت بمشروع أوغندا.

---

(١) أحمد نوري النعيمي، اليهود والدولة العثمانية، مرجع سابق، ص١١٧.
(٢) المرجع السابق نفسه؛ أورخان محمد علي، مرجع سابق، ص٢٥٠ ص١١٨.

وقد تردَّد هرتزل في بداية الأمر في قبول هذا المشروع، إلا أنه عاد وقَبِلَه، ويعزى السبب في ذلك إلى أن الحركة الصهيونية: أرادت ممارسة الضغط الدبلوماسي على الدولة العثمانية عن طريق هذا المشروع، وإنَّ ذلك يعتبر اعترافاً ضمنياً من قبل بريطانيا بالحركة الصهيونية، لأنَّ بريطانيا كانت طرفاً في هذا الاقتراح، ومع ذلك فإنَّ هذه الاقتراحات لم تغيِّر من المخططات الصهيونية بشأن استعمار فلسطين حيث يقول هرتزل في هذا الصدد: «آمالنا في تحقيق هدفنا النهائي، لم تكن في يومٍ من الأيام أقوى مما هي عليه الآن، وسيقوى نضالي من أجل أرض صهيون، ويعظم ويشتدّ بفضل القوى والظروف الجديدة التي أصبحت في جانبنا»[1].

وقد أجابه (نيولنسكي): إنَّ فلسطين هي المهد الأول لليهود، لكنَّ السلطان ردَّ عليه قائلاً: إنَّ فلسطين لا تعتبرُ مهداً لليهود فقط، وإنما هي مهدٌ لكافة الأديان[2].

وأعلن له السلطان أيضاً، وهو صديقه الذي وسَّطه هرتزل للتداول مع السلطان: إذا كان هرتزل صديقَك بقدر ما أنتَ صديقي، فانصحه أن لا يسيرَ أبداً

---

(١) أحمد سوسة، مرجع سابق، ص٣٥٨.

(٢) محمد حرب، السلطان عبد الحميد آخر السلاطين العثمانيين الكبار، مرجع سابق، ص٨٩؛ وأورخان محمد علي، السلطان عبد الحميد الثاني؛ ويعقِّب نظام الدين تبه دنلي أوغلي بالتعليق على هذه المسألة قائلاً: «إنَّ تصرف السلطان عبد الحميد تجاه هرتزل بهذا الشكل كان ـ كما فطن السلطان لذلك ـ من شأنه أن يدفع هرتزل واليهود إلى تدعيم أعداء السلطان». وأعداء السلطان يتمثَّلون في الآتي:

١ ـ تأييد الأرمن، وتدعيم حركتهم ضد السلطان عبد الحميد.

٢ ـ تأييد الحركة القومية في البلقان لانفصال هذه المنطقة عن الدولة.

٣ ـ تأييد الحركة القومية الكردية التي ظهرت عام ١٨٨٠م، وبدأت بمحاولة اتحاد (٣٠) عشيرة كردية متنافرة.

٤ ـ تأييد كلّ حركة استقلال عن الدولة العثمانية.

٥ ـ تدعيم قوى حركة (الاتحاد والترقي) ودفعها إلى قلب الأوضاع السياسية في الدولة. (محمد حرب، السلطان عبد الحميد، مرجع سابق، ص٥٥ ـ ٥٦).

في هذا الأمر. لا أقدرُ أن أبيعَ ولو قدماً واحداً من البلاد، لأنها ليست لي، بل لشعبي، لقد حصل شعبي على هذه الدولة بإراقة الدماء، وقد غذّوها فيما بعد بدمائهم، وسوف نغطيها بدمائنا قبل أن نسمحَ لأحدٍ باغتصابها منّا. لقد حاربت كتيبتان من جيشنا في سوريا وفي فلسطين، وقتل رجالنا الواحد بعد الآخر في (بلونه)(pelevne) لأنَّ أحداً منهم لم يرضَ بالاستسلام، وفضّلوا أن يموتوا في ساحة القتال.

زار هرتزل إستانبول في الفترة من ١٨٩٦م حتى ١٩٠٢م خمس مرات من أجل مقابلة السلطان قابل في أثنائها السلطان مرتين[١].

عرض هرتزل على السلطان حلولاً لتصفية ديون الدولة، وقد عبَّر هرتزل عن هذا بقوله: «إذا أعطيتنا جلالةَ السلطان فلسطينَ فيمكننا أن نؤمِّنَ لك تنظيم المالية التركية تماماً، وسنشكِّل بالنسبة لأوروبا هناك قطعةً من سور ضد آسيا، وسنكون الحارس الأمامي للحضارة من البربرية، وسنبقى كدولةٍ محايدة على صلاتٍ مستمرة مع أوروبا كلها، وهي تلتزم بضمان كياننا»[٢].

وفي هذا الصدد نصح (فامبري) صديقَه هرتزل بقوله: «إنَّ السلطان سيستقبله، ولكن ليس كصهيوني، وطلبَ منه أن يكون حذراً جداً في المقابلة، حيث إنَّ السلطان يكره الصهيونية، وأخبره قائلاً: «إياك أن تحدِّثه عن الصهيونية، إنها فانوسٌ سحري. القدسُ مقدَّسةٌ عند هؤلاء الناس مثل الكعبة»[٣].

وفي هذه المقابلة قدَّم هرتزل مشروعه للسلطان عارضاً إنقاذ الدولة العثمانية من ديونها في مقابل حماية اليهود، مع عدم وضع أيِّ معوقات أمام المستوطنات اليهودية المشتتة، مع خضوع المستوطنين اليهود للمواطنة العثمانية قبل الهجرة، وقد أكَّد له السلطان عبد الحميد أنَّ اليهود يحظون بتعاطفه معلناً: «أننا نظنُّ بأنَّ بني قومكم يعيشون في الممالك المحروسة الشاهانية بعدالةٍ ورفاهية وأمن..

---

(١) أورخان محمد علي، مرجع سابق، ص٢٤٩.
(٢) محمد سرحان، مرجع سابق، ص٣٢.
(٣) أورخان محمد علي، مرجع سابق، ص٢٥٣.

وأضمنُ أنكم تُعامَلون نفسَ المعاملة الحسنة التي يُعامَل بها كافة تبعتنا دون تفريقٍ أو تمييز. هل لكم شكايةٌ ما، أو هنالك معاملةٌ غير عادلة ولا نعرفُها نحن؟»[١].

وردَّ عليه الحاخام (موسىٰ ليفي) الذي كان بصحبة هرتزل: «أستغفر الله سيدنا.. بفضل ظلِّ شاهانتكم نعيش بكمال الرفاه. حاشا، لا توجد لنا شكايةٌ ما، إننا نسترحم فقط جعل قومنا العائش (مشتت) فوق الأرض صاحب وطن في ظل شاهانتكم، ليقوموا هناك بفرائض الشكر والدعاء لحياة سيدنا العظيم طول بقاء الدنيا»[٢].

وفي هذه المقابلة أجَّل هرتزل طلبَه باستيطان فلسطين، وكان السلطان عبد الحميد مستمعاً لهرتزل أكثر منه متكلِّماً حتى يعطي له فرصةَ إظهار أفكاره ونواياه، وقد اعتقد هرتزل أنه نجح في مهمته، وخرج هرتزل من هذه المقابلة معلناً: «انطباعي عن السلطان أنه رجلٌ ضعيف وجبان، ولكنه طيب القلب، ولا أعتبره داهيةً ولا صارماً، بل سجيناً تعيساً، تَرتكِبُ بطانةٌ طمَّاعة رديئة سيئة السمعة ـ باسمه ـ أقبحَ رجسٍ»[٣].

وعندما تبيَّن للسلطان عبد الحميد حقيقة شكوكه في أهداف الحركة الصهيونية قام بإرسال بعض أمانة السر الخاصة به في قصره لتولِّي أمور متصرفية القدس بدلاً من الموظفين الذين كانوا يساعدون اليهود عن طريق الرشوة، فكان أول من أرسله السلطان عبد الحميد (توفيق بك) الذي قام بتطبيق القوانين بشدة. قام أيضاً السلطان بتعيين (رؤوف باشا) والياً للقدس، وكان رجلاً ذكياً غير قابل للرشوة، وكان الصراعُ معه شديداً، حيث إنه قام بتجميد النشاط الاستيطاني الصهيوني خلال فترة ولايته على القدس، إلا أنَّ سفير الولايات المتحدة (أوسكار شتراوس) وكان يهوديَّ الأصل، استطاع الضغط على السلطات العثمانية من أجل عزل والي القدس، واستبداله بآخر أقلّ عداءً للصهيونية، وتمَّ استبداله بالصدر الأعظم (رشاد باشا) الذي أبدىٰ محاباته للصهيونية، فقام عرب فلسطين بإرسال

(١) حسان علي حلاق، مرجع سابق، ص١٧٦ ـ ١٧٧.
(٢) المرجع السابق، ص١٧٧.
(٣) المرجع السابق، ص١٧٨.

شكوىٰ إلى السلطان، وطالبوا بإصدار فرمان يفيد بمنع هجرة اليهود وتحريم استيطانهم وامتلاكهم للأراضي الفلسطينية[١].

٢ ـ محاولات اليهود تشكيك السلطان في رجاله:

كان هرتزل يقوم بحملاتٍ ضد المحيطين بالسلطان بغرض تشكيك السلطان فيهم، فكان يقول: إنَّ اسم عبد الحميد الثاني رمزٌ لمجموعةٍ من أحطِّ الخبثاء، حرمت البلاد من أمنها وسعادتها. لم أكن أتصوَّر وجود مثل هذه العصابة من اللصوص. ولا تعتبر الرشوة التي تبدأ على البوابة الخارجية للقصر، ولا تنتهي إلا على بعد قدمٍ واحدة من العرش أسوأ ما في الأمر: فكلُّ شيءٍ مباح للتجارة فيه، وكلُّ موظفٍ لصّ.. فليست هذه العصابة إلا مجموعةً من الأفاعي السامة، أقلُّها خطراً الرأس المتوَّج، الذي تُرتكَب باسمه كل الخطايا، والذي تسند إلى شخصه كافة الكبائر. فأصبحَ الاعتقاد أنَّ ذلك الذي يجلس على العرش هو المجرم العريق في حين أنَّ المجرمين الحقيقيين لم يكونوا سوىٰ هؤلاء الذين يحيطون به[٢].

وكان ردُّ السلطان عبد الحميد على هرتزل شديداً وحازماً وجاء ردُّه: «لن يستطيع رئيس الصهاينة (هرتزل) أن يقنعني بأفكاره، وقد يكون قوله: «ستحلُّ المشكلة اليهودية يومَ يقوىٰ فيه اليهوديُّ على قيادة محراثه بيده» صحيحاً في رأيه، إنه يسعىٰ لتأمين أرضٍ لإخوانه اليهود، لكنه ينسىٰ أنَّ الذكاء ليس كافياً لحلِّ جميع المشاكل.. لن يكتفي الصهاينة بممارسة الأعمال الزراعية في فلسطين، بل يريدون أموراً مثل تشكيل حكومة، وانتخاب ممثلين، إنني أدرك أطماعهم جيداً، لكنَّ اليهود سطحيّون في ظنهم أنني سأقبل بمحاولاتهم، وكما أنني أقدِّر في رعايانا من اليهود خدماتهم لدىٰ الباب العالي، فإني أعادي أمانيهم وأطماعهم في فلسطين» «لماذا نترك القدس.. إنها أرضنا في كلِّ وقتٍ وفي كل زمان، وستبقىٰ كذلك، فهي من مدننا المقدسة، وتقع في أرضٍ إسلامية، لا بدَّ أن تظلَّ القدس لنا»[٣].

---

(١) رفيق شاكر، مرجع سابق، ص١٧٣.

(٢) مذكرات السلطان عبد الحميد، مذكراتي السياسية، مرجع سابق، ص٣٤ ـ ٣٥.

(٣) اليهود والدولة العثمانية، الدكتور أحمد نوري النعيمي، ص١٤٨ ـ ١٤٩؛ في ذلك =

ومن ناحية أخرى قدمت الدولة العثمانية اقتراحاً لاستيطان اليهود في ليبيا، وأبدت رغبتها في أنه في حالة الموافقة من قبل اليهود باستيطان منطقةٍ في ليبيا، فإن منطقة (سرت) بليبيا هي الملائمة لهم نظراً لموقعها الهام لما فيها من ثرواتٍ حيوانية ورعوية وبترولية أيضاً، سوف نقوم بتقديم التسهيلات والامتيازات التي تضمن لهم إقامتهم هناك، لكنَّ هذا المشروع لم يدخل حيز التنفيذ بسبب انقضاء حكم السلطان عبد الحميد سنة ١٩٠٩م[١].

٣ ـ اليهود يعرضون على السلطان العثماني مساعدته في قضية الأرمن مقابل استيطانهم فلسطين:

تعرَّضت الدولة العثمانية لعملياتٍ إرهابية قام بها الأرمن من أجل التحرُّر عن الدولة متحدِّين السلطان العثماني والحكومة العثمانية، فقاموا في آب ـ أغسطس عام ١٨٩٦م بهجومٍ على فرعِ (البنك المركزي العثماني) بإستانبول، وفرضوا حصاراً عليه، لم ينتهِ إلا بتدخُّل سفراء الدول الأجنبية، وحصولهم على الأمان من الباب العالي بضمان السفراء، حيث قاموا بمغادرة إستانبول بحماية السفراء على باخرةٍ فرنسية إلى خارج البلاد، وبعد ذلك قام بعض الأرمن بمهاجمة مبنىٰ الباب العالي، واقتحموا مكتب الصدر الأعظم، وهدَّدوا بقتله، وأثاروا الذعر في الشوارع العامة، وألقوا القنابل على المحلات العامة، ثم انتهزوا فرصة ذهاب السلطان للصلاة في جامع يلديز يوم الجمعة، وقاموا بإلقاء قنبلةٍ عليه نجا منها بأعجوبة، بينما لقي عشراتٌ من حراس السلطان والشرطة مصرعهم بلغ

= الوقت وبعد فشل محاولة هرتزل مع السلطان طلب (هرتزل) من (نيولنسكي) التوسط لدى السلطان من أجل إعطائه وساماً يعود به إلى بلاده، فيثبت بذلك حظوته عند السلطان. (ديزموند ستيوارت: تيودور هرتزل، ص٢٨٤).

(١) أحمد نوري النعيمي، اليهود والدولة العثمانية، مرجع سابق، ص١٥٠، كانت منطقة (سرت) في عهد الرومان ملجأً لليهود الذين فرُّوا إليها نتيجة المذابح والاضطرابات التي شهدوها في العهد الروماني، وكانت ليبيا في أواخر القرن (١٩) وبداية القرن الـ(٢٠) من أملاك الدولة العثمانية، وتتركز السلطة في مدينة طرابلس. (انظر أحمد نوري النعيمي، اليهود والدولة العثمانية، مرجع سابق، ص١٥٠).

عددهم (٢٦) شخصاً، وجرح منهم (٥٨) شخصاً[١].

في هذه الأثناء انتهز الصهاينة فرصةَ حدوث هذه الحوادث بين الدولة العثمانية والأرمن، فقاموا بعرض استعدادهم للسعي في حلِّ هذه المشكلة، وقد اعتبروها أسرعَ وسيلةٍ للحصول على رضىٰ السلطان عنهم، وقد رحَّب السلطان بفكرة تدخُّلهم في حلِّ هذه القضية، وطلب الاتصال بلجان الأرمن في أوروبا لمطالبتهم بوقف المذابح، وفي حالة قبولهم فسوف يمنحهم السلطان الصلاحيات التي رفضها عن طريق مساعي البلاد الأوروبية، إلا أنَّ هرتزل حاول استغلال الموقف للحصول على موافقة السلطان والسماح بهجرة اليهود إلى فلسطين، ورأىٰ أنَّ هذه القضية لا بدَّ وأن تسبقَ قضية الأرمن، لكنَّ السلطان عبد الحميد فطنَ بذكائه المعهود لتلك المؤامرة من قبل هرتزل، ورفض توسُّط هؤلاء اليهود ووأدَ مخطَّطَهم[٢].

---

(١) محمد حرب، السلطان عبد الحميد آخر السلاطين العثمانيين الكبار، مرجع سابق، ص٦٣.

(٢) عبد العزيز الشناوي: ٣/ ١٥٧٤ ـ ١٥٨٣؛ نقلاً عن ملف وثائق فلسطين جزءان من مطبوعات وزارة الإرشاد القومي، القاهرة، ١٩٦٩م، ج١ من عام ٦٣٧م إلى عام ١٩٤٩م وثيقة رقم (٢٦). يوميات هرتزل ٧/ ٥/ ١٨٩٦م. وبخصوص هذه الأحداث يقول السلطان عبد الحميد في مذكراته: إنّه شيءٌ مضحك أن نُتَّهمَ بتعذيب الأرمن واستغلالهم. لو جالَ المرء بنظره في تاريخ إمبراطوريتنا لثبتَ لديه أنَّ الأرمن كانوا دائماً أغنياء، الذين يعرفون حقائقَ الأمور يؤكدون تفوُّق الأرمن مالياً على رعايانا المسلمين، لقد تقلَّد الأرمن في جميع العهود أعلىٰ المناصب الوظيفية في الدولة بما فيها منصب الوزير الأعظم. ولا أكون مبالغاً أبداً إذا قلت: إنَّ ثلث الموظفين هم من الأرمن. وفيما عدا ذلك ليس على الأرمن الخدمة العسكرية، شأنهم شأن باقي الرعايا. والبدل النقدي الذي يؤدونه رمزي، لا يكافئ أبداً الزمن الذي يمضيه المسلمون في الخدمة العسكرية. وتجارة الأرمن في وضع ممتاز. ثم، أليست إدارة الضرائب تكاد تكون منحصرةً فيهم؟! ومَنْ سوىٰ الأرمن عارضَ إلغاء قانون الالتزام عندما أراده عبد المجيد بناءً على اقتراح رشيد باشا. لم يتنازلوا عن امتيازاتهم القديمة، فقاوموا هذا الإلغاء بإصرار، ونجحوا بإبقاء كلِّ شيءٍ على ما كان، وباستثناء الأرمن الذين يعيشون في جبال الأكراد عيشةً بائسة، فإنَّ الأرمن هم أغنىٰ الرعايا بمن فيهم الروم. والحقيقة التي لا غبارَ عليها أنَّ هؤلاء القوم يعرفون كيف يستفيدون من ثروات بلادنا. (انظر السلطان عبد الحميد =

وفي عام ١٨٩٦م عقد في فيينة مؤتمرٌ دعت إليه (جمعية الاتحاد والترقي) اشترك فيه الأرمن واليونان والعرب واليهود وبعض الأقليات وقد تقرَّر في هذا المؤتمر خلع السلطان وقلب نظام الحكم[1].

محاولات اليهود شراء أراضٍ في فلسطين:

وفي عام ١٩٠١م تأسَّس الصندوق القومي اليهودي بهدف شراء أراضٍ في فلسطين، وكان هذا العام هو الذي انعقدَ خلالَه المؤتمر الصهيوني الخامس في بال بسويسرة، وكانت أهم مقرراته إنشاء الصندوق القومي اليهودي لشراء الأراضي في فلسطين، وجعل أراضيها ملكيةً جماعية، وليست فردية، وتمكّن

= الثاني، مذكراتي السياسية، مرجع سابق، ص٢٧ ـ ٢٨)؛ يقول السلطان أيضاً: «إنَّ سفير ألمانيا البارون (دو ساور مايلسيكين)(do Saurmayelsekin) أفضىٰ إلى صحفي في برلين ببياناتٍ تفصيلية حول حوادث الأرمن، فقام الصحفي وكتب تعليقاً مطولاً على هذا الموضوع. إذا كان الكلام صحيحاً في نسبته إلى السفير فنحن محقُّون في أن نعلن امتعاضنا منه. لكنني لا أعطي لنسبته إليه أي احتمال، إنه يتَّهمنا فيه بالقضاء على الأرمن، ويحمِّل البلاد طولاً وعرضاً جريرةَ حفنةٍ من المذنبين، ويعلن على الملأ أننا على شفا أزمةٍ اقتصادية خطيرة جداً، وأننا آسيويون لسنا أكْفَاء للقيام بالإصلاحات، ولن نكونَ في عداد الأوروبيين يوماً، ويهذي بأمورٍ أخرى كثيرة، وما دام السفير الألماني أجاز لنفسه أن يتكلَّم في مثل هذه القضية الخطيرة، فإننا نقول: حسناً، ولكن كان عليه أن يمتنع عن ذكر اجتماعه الخاص بي، وتقدُّمه بنصائح معينة، فهذا تصرفٌ غيرُ سويّ في قاموس السياسة، ومغاير للتقاليد المتَّبعة في هذا المجال، ومجملُ القول: إنَّ المشكلة الأرمنية هي من صميم شؤوننا الداخلية، وإنَّ قيام هذا الديبلوماسي بالكشف عن أفكاره الشخصية للرأي العام دون أمرٍ من حكومته هو تدبيرٌ سيئ على أقل تقدير». (المرجع السابق، ص٥٠ ـ ٥١).

(١) يقول السلطان عبد الحميد في (مذكراته): «إنَّ سبب دفاع بعض الدول الكبرىٰ عن الأرمن نابعٌ من خشيتهم على امتيازاتهم من أن نسحبها يوماً، إنَّ فرض وصاية الأجانب علينا أمرٌ منافٍ لكرامتنا. تخلَّصَ اليابانيون من هذا الداء قبل سنواتٍ عدة، أما إذا كان الأمر معنا نحن العثمانيين، فليس لنا هذا الحق. إنَّ تطرُّفَ الدول الكبرى في الإجحاف بحقوقنا قد تجاوزَ جميع الحدود والمقاييس. (السلطان عبد الحميد الثاني، مذكراتي السياسية، مرجع سابق، ص٧٠).

الصندوقُ من شراء حوالي (١٥) ألف دونم من الأراضي في يافا والخليل. وكان هدفُ الصندوق القومي اليهودي هو استعادة الأراضي المقدسة من الدولة العثمانية بما فيها فلسطين وسوريا وشبه جزيرة سيناء، واعتبارها مناطقَ شرعية لليهود.

ثم دعا السلطان العثماني هرتزل مرةً أخرى عام ١٩٠٢م إلى محادثاتٍ جديدة عرض عليه فيها حسبما ورد على لسان هرتزل: «عرض السلطان استعماراً على أرضٍ ممنوحة من قِبَل الحكومة في آسيا الصغرى، ووادي الرافدين باستثناء فلسطين، كما طالبَ بتأسيس مؤسساتٍ تفي بأغراض كلِّ المشاريع المالية مثل البنوك والقروض، وتطويرات التعدين، وما شابه ذلك. وقد توجَّبَ عليَّ أن أرفضَ ذلك»[1].

وبعد هذا العرض علم هرتزل أنه قد أخفق في مهمته لدىٰ السلطان عبد الحميد، وعلى الرغم من تأكيدات هرتزل أنه في حالة منح السلطان فلسطين لليهود، فإنَّ اليهود سوف يأخذون على عاتقهم مهمة تسوية الأوضاع المالية لدى الدولة العثمانية، والتي كانت قد أرهقتها الديون، وانحدر وضعها الاقتصادي في العالم[2].

وعلى الرغم من إخفاق جهود هرتزل مع السلطان عبد الحميد، إلا أنه كان يؤكِّد في كتاباته قولَه: «يجب تملُّك الأرض بواسطة اليهود بطريقةٍ تدريجية دون ما حاجةٍ إلى استخدام العنف، سنحاول أن نشجِّع الفقراء من السكان الأصليين على النزوح إلى البلدان المجاورة بتأمين أعمالٍ لهم هناك، مع حظر تشغيلهم في بلدنا.

إنَّ الاستيلاء على الأرض سيتمُّ بواسطة العملاء السريين للشركة اليهودية، التي تتولَّىٰ بعد ذلك بيعَ الأرض لليهود. علاوةً على ذلك تقوم الشركة اليهودية

---

(١) أحمد نوري النعيمي، اليهود والدولة العثمانية، مرجع سابق، ص١٤٢؛ ومحمد حرب، السلطان عبد الحميد، ص٨٦؛ وأورخان، السلطان عبد الحميد، ص٢٤٨ ـ ٢٥٧.
(٢) أحمد نوري النعيمي، اليهود والدولة العثمانية، ص١٤٣.

بالإشراف على التجارة في بيع العقارات وشرائها، على أن يقتصرَ بيعها على اليهود وحدهم»[1].

وتمّت عملياتُ بيعٍ كثيرة للأراضي من جانب عائلة (سرسق) اللبنانية، وقد أثّرت عمليات البيع هذه على الفلاحين الفلسطينيين الذين احتجُّوا عليها، وقامت ردود الفعل الفلسطينية عن طريق الهجوم على المستوطنات اليهودية من ناحية، وتقديم عرائض الاحتجاج للسلطان من ناحيةٍ أخرى[2].

دور الإقطاع في تسهيل شراء اليهود لأراضي فلسطين، وتصدّي العثمانيين لهم:

قام عددٌ من الإقطاعيين العرب بتسهيل مهمة بيع الأراضي لليهود في فلسطين أمثال (مصطفى باشا) و(فؤاد سعد) وعلى رأسهم الإقطاعي اللبناني (إلياس سرسق) الذي تفاوضت معه الشركات الصهيونية في حزيران ـ يونيو ١٩٠٣م لشراء مقاطعة مرج بني عامر (وادي جزريل) وكانت من أهم المناطق خصوبةً في فلسطين، وقد طلبَ (إلياس سرسق) مبلغاً كبيراً من المال مقابل بيع هذه المقاطعة، وقد عبَّر هرتزل عن هذا بقوله: «إنَّ السيد سرسق يطلب (٢٥) فرنكاً للدونم الواحد، وتقاريرنا تقول: إنه لا يساوي أكثر من (١٥ ـ ١٨) فرنكاً لكنَّ السماسرة اليهود قاموا بشرائه بنفس السعر الذي حدَّده سرسق من قبلُ». وقد عارض الفلسطينيون عائلةَ سرسق بسبب بيعها مساحاتٍ واسعة من الأراضي الفلسطينية ذات الخصوبة العالية، مما أدّى إلى إخراج المزارعين العرب منها[3]. وفي سبيل مقاومة العرب لليهود من أجل منعهم شراء هذه الأراضي، فقد قاموا بالدعوة إلى تأسيس معهدين علميين وطنيين لإدانة الأعمال الصهيونية في البلاد، كما قام الفلسطينيون بتدمير مستعمرة (بيار تعيبا) ـ خير الله ـ وكانت مستعمرةً يهودية في غزة تأسست

---

(١) أحمد نوري النعيمي، اليهود والدولة العثمانية، مرجع سابق، ص١٤٧؛ وديزموند ستيوارت، تيودور هرتزل، مرجع سابق، ص٢٨٠.

(٢) انظر حسان علي حلاق، مرجع سابق، ص١٩٢ ـ ١٩٣.

(٣) المرجع السابق، ص٢٤٥.

عام ١٨٩٥م على مساحة (٤٨٠٠) دونم، وكان عدد سكانها (٦٥٥) نسمة[١] الأمر الذي أجبر الحكومة على إصدار بيانٍ لوقف عمليات استيطان اليهود في فلسطين.

في ذلك الوقت كان الفلسطينيون يواجهون ثلاث قوى: **الصهيونية، والحكومة الاتحادية، والإقطاع**. وفي ذلك الوقت أيضاً قامت الصهيونية بنقل السلاح إلى فلسطين لمواجهة الثورات الفلسطينية، الأمر الذي أدّى إلى زيادة التوتر، والاحتجاج من قبل الفلسطينيين في المنطقة، وأعربوا عن احتجاجهم بقولهم: «إنه إذا لم تنتبه الأمة العثمانية لكيدهم، وتُوْقِفْ حكومتَها عند حدود المصلحة العامة في مساعدتهم فإنَّ الخطر من نفوذهم عظيمٌ وقريب...»[٢].

تمكّن المستعمرون اليهود في حيفا من شراء قريتي بيت لحم وأم العمد (جوار الناصرة) من العائلات الإقطاعية اللبنانية، كما تمكّنوا من شراء بعض القرى بأسماء مستعارة باعتبارهم رعايا أجانب. وسعى اليهود المهاجرون القادمون من روسيا إلى تأسيس مصنعين في حيفا، وكان عدد اليهود في ذلك الوقت (٣٠٠٠) يهودي. واستمرت الهجرة في التزايد عن طريق الأساليب غير القانونية، وعن طريق الرشوة أيضاً[٣].

وقامت شركة الاستعمار اليهودي بجهودٍ ثقافية لربط اليهود بتاريخهم، فتأسست المدارس لتعليم العبرية إلى جانب التركية والعربية بهدف تشجيع اليهود للهجرة إلى فلسطين[٤].

محاولات اليهود إنشاء جامعة عبرية في فلسطين:

حاولت الصهيونية إنشاء جامعةٍ عبرية في بيت المقدس، وكان الهدف من ورائها هو التسلل إلى فلسطين عن طريق الغزو الثقافي لها، وكان هرتزل قد تقدَّم

---

(١) حسان علي حلاق، مرجع سابق، ص٢٤٦.
(٢) المرجع السابق، ص٢٦١ ـ ٢٦٢.
(٣) المرجع السابق، ص٢١٨.
(٤) المرجع السابق، ص٢١٨ ـ ٢١٩.

بطلب إنشاء الجامعة العبرية إلى السلطان عبد الحميد في أيار ـ مايو عام ١٩٠٢م بغرض فتح أبوابها للطلبة العثمانيين بدلاً من إيفادهم إلى الجامعات الأوروبية، وتعريضهم لأخطار الآراء الثورية التي يطالبون بتطبيقها في البلاد لدى عودتهم من أوروبا بالإضافة إلى تعرضهم للابتعاد عن التقاليد الإسلامية[١].

كان ردُّ السلطان على هذه المقترحات بقوله: «الدينا عددٌ كافٍ من اليهود، فإذا كنا نريد أن يبقىٰ العنصر العربي متفوقاً، علينا أن نصرفَ النظر عن فكرة توطين المهاجرين في فلسطين، وإلا فإنَّ اليهود إذا استوطنوا أرضاً تملَّكوا كافة مقدَّراتها خلال وقتٍ قصير، وبذا نكون قد حكمنا على إخواننا في الدين بالموت المحتم»[٢].

وكان هدف هرتزل من هذه المحاولة هو استدراج السلطان للحصول على ضمانٍ شرعي لإقامة مركزٍ ثقافي صهيوني في فلسطين، وعلى الرغم من رفض السلطان لهذا الطلب، إلا أنَّ هذه الجامعة ظلَّت قائمةً في فكر الصهيونيين حتى قاموا بوضع حجر الأساس لها قبل نهاية الحرب العالمية الأولى عام ١٩١٨م عندما خضعت فلسطين للانتداب البريطاني[٣].

---

(١) عبد العزيز الشناوي، الدولة العثمانية دولةٌ إسلامية مفترىٰ عليها: ٢/ ٩٩٤؛ جاء في المذكرة التي عرضها هرتزل على السلطان بشأن إنشاء الجامعة العبرية قوله: «إننا معشر اليهود نلعبُ دوراً هاماً في الحياة الجامعية في جميع أنحاء العالم، والأساتذة اليهود يملأون جامعات البلدان، كما أنَّ هناك عدداً كبيراً من العلماء والمتخصصين في جميع الحقول التعليمية. لهذا فإننا نستطيع أن نقيمَ جامعةً يهودية في إمبراطوريتكم، ولتكن في القدس مثلاً. وعندئذٍ لن يضطرَ الطلابُ العثمانيون إلى الذهاب إلى الخارج، بل يبقون في بلادهم، ويتلقَّون فيها أفضل التدريب، وهم خاضعون لقوانين بلادهم وتقاليدهم. والجامعة اليهودية تقوم بتقديم أفضل ما تقدمه أحسن الجامعات ومدارس التدريب المهني ومدارس الزراعة. ولن تقدم مثل هذه المؤسسة إلا ما هو الأفضل. وبذلك تقوم بدورها في خدمة العلم والطلاب (الشناوي: ٢/ ٩٩٤، نقلاً عن نص المذكرة في: وزارة الإرشاد القومي، الهيئة العامة للاستعلامات، ملف وثائق فلسطين، جزءان، القاهرة، ١٩٦٩م، وثيقة رقم ٥١: ١/ ١٣٩).

(٢) مذكرات السلطان عبد الحميد، مذكراتي السياسية، مرجع سابق، ص٣٤.

(٣) عندما خضعت فلسطين للانتداب البريطاني عام ١٩١٨م كان عدد اليهود فيها خمسين =

وقد أقيمَ الاحتفالُ بوضع حجر الأساس بالفعل لبناء هذه الجامعة، وتمَّ افتتاحها رسمياً في نيسان ـ إبريل عام ١٩٢٥م، وكان على رأس الحاضرين افتتاحها (بلفور).

وقد شجعت الحكومة البريطانية وقت انتدابها على فلسطين على إنشاء هذه الجامعة، بينما رفضت وحاربت إنشاء جامعةٍ عربية في القدس، ويمكن لنا القول إنَّ الدولة العثمانية قاومت محاولات اليهود والصهيونية بكلِّ الوسائل، إلا أنها لم تنجح أمام الضغط الأوروبي الذي ارتبطت مصالحه مع مصالح الصهيونية[1].

وقد عبَّر الصهاينة عن خططهم المستقبلية في الدولة العثمانية بقولهم: كنّا في ظلِّ الحكم التركي السابق مرغَمين على أن نطلبَ حريةً معينة، واحتجنا إلى ضماناتٍ رسمية على شكل ميثاق، أما في ظلِّ دولةٍ دستورية فلا نحتاجُ إلى حقوقٍ معينة، فالقانون العام كافٍ[2].

الجمعية الصهيونية ودروها في استيطان اليهود فلسطين:

من أشهر الجمعيات التي كوَّنها الإسرائيليون وأكبرها هي (الجمعية الصهيونية) التي كانت غايتُها «استعمار أرض فلسطين وعمرانها» وكان إنشاء هذه الجمعية عام ١٨٩٦م الذي عُقِدَ فيه المؤتمر الصهيوني الأول في مدينة بال بسويسرا سنة ١٨٩٧م وكان هرتزل من أكبر دعاتها، وكانت مهمتهم مساعدة إخوانهم اليهود لنقلهم من روسيا ورومانيا والأراضي التي اضطُهدوا فيها إلى أرض آبائهم فلسطين. وكان عدد المنضمين إليها يقرب من مليون شخص،

= ألف نسمة، بينما كان عدد السكان العرب (٦٥٠) ألف نسمة، فكان اليهود يمثّلون نسبة (١٠٪) من عدد السكان العرب فيها، ويرجع نسبة السكان اليهود الضئيلة تلك إلى السياسة التي اتبعها السلطان عبد الحميد مع اليهود (انظر الشناوي: ٢/ ١٠٠٠).

(١) انظر عبد العزيز الشناوي، مرجع سابق: ٢/ ٩٩٥ ـ ٩٩٨.

(٢) خيرية قاسمية، مرجع سابق، ص٥٢. جاء على لسان مندوب سلانيك في المؤتمر أنَّ تركيا تجد في اليهود ما تطلبه من مهاجرين جديين أذكياء مسالمين. واليهود يجدون في تركيا ما ينقصهم من أرضٍ كريمة ومساحات واسعة، تعطيهم فرصةً لتطوير إمكانياتهم.

كما كان لهذه الجمعية العديد من الصحف في إنجلترا وأمريكا وألمانيا وروسيا، ومن أشهر رؤساء هذه الجمعية في فيينا (تيودور هرتزل) وفي فرنسا (ماموريك) وكان لها رئيسٌ في أمريكا، وآخر في روسيا، وأهم فروع هذه الجمعية كانت جمعية (الشركة الإنجليزية الفلسطينية) التي جمعت أموالاً لشراء أراضٍ في فلسطين من أجل تسهيل عملية استيطانهم هناك(١).

وتأسست عام ١٩٠٢م (شركة الاستعمار الإسرائيلية) التي وهبها البارون (هيرش) مليوني جنيه، وكان من آثار هذه الجمعية هو شراء أراضٍ في جهات (الحولة) و(طبريا) و(يافا) و(حيفا) وغيرها حيثُ استوطنها اليهود(٢).

وتأسس في نفس العام أيضاً (بنك أنجلو ـ فلسطين) في لندن، وكان أول فرع له في القدس(٣)، وفي عام ١٩٠٣م امتدت فروع (بنك أنجلو ـ فلسطين) إلى مدن فلسطين، وكان دوره مدُّ المستعمرات والشركات والمؤسسات الصهيونية بالأموال والقروض(٤).

وفي عام ١٩١٠م تأسس (الصندوق القومي اليهودي) الذي يتكون رأس ماله من التبرعات(٥).

---

(١) شاهين مكاريوس، تاريخ الإسرائيليين، مرجع سابق، ص٧٠٨ ـ ٧١٠.

(٢) يعبِّر هرتزل عن رأيه بصدد العمل على استيطان فلسطين: «نحن لا نريدُ أن نذهبَ إلى فلسطين بأساليب خداعة، ولا نريد أن ندخلها تهريباً، بل نذهب ونحن آمنون نستقر فيها، لا نريد أن نبدأ شيئاً من أعمالنا الاستعمارية في فلسطين قبل الحصول على ترخيصٍ قانوني بدخولنا إليها. كما أعلن فيه قائلاً: «إنَّ مساعينا تتجه الآن للحصول على براءة (اعتراف) من الحكومة التركية، وتأتي هذه البراءة في ظل سيادة صاحب الجلالة السلطان العثماني، وسوف نجلبُ للحكومة التركية منافع لقاء منحنا هذه البراءة». وكان السلطان عبد الحميد الثاني هو ذلك السلطان الذي يقصده هرتزل، وكان السلطان في حاجةٍ شديدة إلى المال في ذلك الوقت، فكان هرتزل يتوقَّع أن يغري السلطان بهذا العرض.

(٣) عبد العزيز الشناوي، مرجع سابق: ٢/ ٩٩٣.

(٤) المرجع السابق نفسه.

(٥) المرجع السابق نفسه.

- **ثانياً: دور اليهود العالمي في محاولة حصولهم على فلسطين:**

بالإضافة إلى دور اليهود المحلي في الدولة العثمانية لتحقيق أغراضهم كان هناك شكلٌ آخر للمعارضة اليهودية، تمثّلت في الحركة اليهودية الصهيونية العالمية التي تزعّمها هرتزل، والذي اتخذ من ألمانيا وبريطانيا وفرنسا قوةَ ضغطٍ على الدولة العثمانية، إلى جانب قيادته اليهودية العالمية لتدعيم أعداء السلطان عبد الحميد. وهم المتمرّدون الأرمن، والقوميون في البلقان من ناحية، وحركة حزب الاتحاد والترقي من ناحيةٍ أخرى، والوقوف مع كلّ حركةٍ انفصالية ضد الدولة العثمانية[١].

توجُّه هرتزل نحو الممولين الأوروبيين وكبار أغنياء اليهود:

في عام ١٨٩٧م بدأت المساعي من أجل إنجاح عمليات التمويل الصهيوني لامتلاك فلسطين، فقام هرتزل بالاتصال بالمموّلين الأوروبيين، ومن بينهم الأغنياء اليهود مثل (ج.ك.بوزنالسكي) وكان أغنىٰ رجلٍ في بولونيا، وكان متحمساً للقضية الصهيونية، بالإضافة إلى هذا قام هرتزل بالاتصال بكبار الرأسماليين بغرض إنشاء (البنك اليهودي الاستعماري) وقد أعلن هرتزل عام ١٨٩٨م أنَّ إقامة هذا البنك هو الأمرُ الذي سيبرزنا إلى الوجود. يجب أن نخلقه إما بمساعدة أصحاب الرؤوس الكبيرة أو بالرغم عنهم[٢].

وفي عام ١٩٠٥م حاولت الدول الأوروبية إخضاع مالية الدولة العثمانية إلى مراقبةٍ دولية، وخاصةً في الولايات المقدونية الثلاث: سلانيك ومناستر وكوسوفو لكنَّ السلطان عبد الحميد رفض هذا الإجراء بشدة. فقامت البنوك الأوروبية من جانبها بالامتناع عن مساعدة الدولة لتخليصها من ديونها، حيث إنَّ كبار الممولين الأوروبيين أمثال (أورلاندو توبيني وشركاه) كانوا يخضعون

---

(١) محمد حرب، السلطان عبد الحميد آخر السلاطين العثمانيين الكبار، مرجع سابق، ص٢٣٣ ـ ٢٣٤.

(٢) حسان علي حلاق، مرجع سابق، ص١٣٨؛ نقلاً عن، يوميات هرتزل، ٢٢/ ٢/ ١٨٩٨م، ص٦١٣ (ث.ع. ص٩٠).

لبيوتات المال اليهودية، وذلك في محاولةٍ للضغط على الدولة بالموافقة على المشروع الصهيوني، والسماح بهجرة اليهود دون قيدٍ أو شرط[١].

محاولات هرتزل الاتصال بالأوساط الدينية في روما:

حاول هرتزل الاتصال بالأوساط الدينية في روما لمؤازرته في مشروعه إلا أنه وجد معارضةً من جانب الفاتيكان، الذي أصدر رسالةً دورية يحتجُّ فيها ـ باسم المسيحية ـ على مشروع احتلال اليهود للأماكن المقدسة، وكانت فرنسا هي حامية المسيحيين في الشرق في ذلك الوقت[٢].

محاولات اليهود استغلال التقارب العثماني الألماني للحصول على تأييد ألمانيا لقضيتهم:

كانت ألمانيا ترىٰ أنَّ الاتجاه إلى الأناضول العثماني هو الوسيلة لحلِّ مشكلاتها الاقتصادية، فأخذت ألمانيا تتجه نحو صداقة العالم الإسلامي، وقد بدأ التقارب العثماني الألماني بالميدان الثقافي عام ١٨٩٠م، حيث زار الإمبراطور (غليوم الثاني) إمبراطور ألمانيا إستانبول عام ١٨٩٨م، وقد أكرمه السلطان عبد الحميد إكراماً بالغاً في هذه الزيارة، وكان السلطان عبد الحميد يرىٰ في قيام ألمانيا بإنشاء خطوط سكك حديدية تربط بين ألمانيا والدولة العثمانية وسيلةً لحلِّ مشاكل الدولة السياسية والعسكرية، ومن شأنها الدفاع عن أطراف الدولة، وعلى الرغم من ذلك كان السلطان عبد الحميد يراقِبُ سياسة ألمانيا في الدولة مراقبةً شديدة[٣].

قام هرتزل ومعه وفدٌ صهيوني بمقابلة إمبراطور ألمانيا (غليوم الثاني) الذي كان صديقاً شخصياً للسلطان عبد الحميد الثاني، وطلبوا منه التوسط لدىٰ

---

(١) المرجع السابق، ص٢٨١.

(٢) المرجع السابق، ص١٣٩؛ نقلاً عن، يوميات هرتزل، ١٨٩٧/٩/٤م، ص٥٨٩ (ث.ع. ص٦١).

(٣) محمد حرب، السلطان عبد الحميد آخر السلاطين العثمانيين الكبار، مرجع سابق، ص١٤٧ ـ ١٥٢.

السلطان من أجل السماح لليهود بالهجرة إلى فلسطين، وجاء ردُّ الإمبراطور الألماني مخيّباً لآمال الصهيونية من حيث إنه ردَّ عليهم بتصريحٍ جاء فيه: «إنَّ ألمانيا تؤيد الجهود التي يبذلها اليهود من أجل النهوض بالزراعة ومن أجل رفاهية الدولة العثمانية مع إعلان ولائهم للدولة» وقد اقتصر تصريحُه على مجال الزراعة فقط، وقام هرتزل بمقابلة الإمبراطور الألماني في إستانبول وقت زيارته لها، وحاول إقناعه بهجرة اليهود مرةً أخرى، إلا أنَّ الإمبرطور كان مستمعاً أكثر منه متحدِّثاً، فكان الإمبراطور يفطن إلى رفض السلطان عروضَ الهجرة إلى فلسطين، وكان تقديرُ الإمبرطور الألماني للموقف أنه إذا وقفت ألمانيا بجانب الصهيونية فسوف تثير شكوكَ السلطان ضدها، وأعلن الإمبراطور الألماني في النهاية أنه يُبقي على صداقة السلطان لألمانيا، كما أعلن حرصه الشديد على تدعيم صلاته بالدولة العثمانية، وخاصةً مصالح المسلمين فيها إلى جانب خدمته للعالم الإسلامي.

وكان التقارب الألماني العثماني يقلِق فرنسا وبريطانيا، فقد كانت ألمانيا تهدف من التقارب مع الدولة العثمانية إلى زيادة نفوذها في منطقة الشرق العربي الإسلامي، والذي سوف يساعدها في نموها الاقتصادي والتجاري، في ذلك الوقت أدرك الصهيونيون أنَّ مخططاتهم تجاه مساعدة ألمانيا لهم قد أخفقت بسبب تأييد ألمانيا للدولة العثمانية وللعالم الإسلامي[1].

ومن ناحيةٍ أخرى كان السلطان عبد الحميد يدرك وزن ألمانيا السياسي والاقتصادي والعسكري، وأراد أن يستفيدَ من إمكانياتها وخبراتها من أجل رفع شأن الدولة العثمانية، فاستقدمَ إلى إستانبول الخبراءَ الألمان العسكريين والمدنيين من رجال المال والهندسة الذين قاموا بتنفيذ المشروعات العديدة في الدولة[2].

لكنْ على الرغم من هذه المحاولات اليهودية لكسب تأييد ألمانيا فقد فشلت كل الجهود لدىٰ السلطان عبد الحميد لإنشاء دولةٍ يهودية في فلسطين، وأعلن قيصر ألمانيا بعد زيارته للدولة العثمانية ومفاوضاته مع السلطان أنه إذا

---

(١) انظر الشناوي، مرجع سابق: ٣/ ١٣٥٢.
(٢) المرجع السابق: ٢/ ١٠٢٤.

أعلنت ألمانيا تأييدها لليهود، فهذا معناه إثارة شكوك السلطان تجاه الصداقة الألمانية العثمانية التركية[1].

وفي تشرين الأول ـ أكتوبر عام ١٨٧٩م أرسل هرتزل رسالةً إلى قيصر ألمانيا يطلب مساعدته بإقامة شركةٍ يهودية تحت الحماية الألمانية، وذلك بغرض الاهتمام بأمور الهجرة اليهودية. وحاول الاتصال بألمانيا وإغراءها بكافة الامتيازات باعتبار أنَّ الدولة اليهودية ستكون سوقاً تجارياً وصناعياً لألمانيا، لكن محاولاته فشلت مرةً أخرى لدى الألمان[2].

مساعي اليهود نحو عقد المؤتمرات الدولية من أجل إنجاح دعوتهم:

بعد فشل محاولات هرتزل في إقناع الحكومة العثمانية بالسماح لهم بالإقامة في فلسطين توجَّه إلى عقد المؤتمرات من خلال محاولات أخرى لجذب الانتباه العالمي لقضيته.

ففي أول أيلول ـ سبتمبر عام ١٨٩٧م عقدت (المنظمة الصهيونية العالمية) برئاسة هرتزل **أول مؤتمر صهيوني** في مدينة (بال) بسويسرا، وذلك من أجل إعادة الشعب المختار إلى أرضه، وضمَّ هذا المؤتمر أكثرَ من مئتي مندوبٍ من فلسطين وأمريكا وروسيا، وطالب هذا المؤتمر إنشاء قرىً ومستعمرات لليهود في فلسطين.

وانتهىٰ هذا المؤتمر إلى الأخذ بالرأي القائل: إنَّ فلسطين هي أصلح مكان لتجميع اليهود، ليس عن طريق الاستيطان البطيء، بل بأساليب سياسية للحصول على فلسطين بشكل دولةٍ يهودية مستقلة، وكانوا يلقِّبونها بـ(الوطن القومي) وقام هرتزل بالعمل على تحقيق مقررات المؤتمرات الصهيونية، وقد تبنَّىٰ هذا المؤتمر المبادئ الآتية:

١ ـ تطوير المستعمرات اليهودية في فلسطين عن طريق المزارعين والعمال الصناعيين اليهود.

---

(١) حسان علي حلاق، مرجع سابق، ص١٥٤ ـ ١٥٦.

(٢) انظر المرجع السابق، ص١٦٦.

٢ ـ تنظيم وتوحيد جميع اليهود في العالم بالوسائل الممكنة، محلياً، ودولياً، وحسب قوانين الدول التي يوجدون فيها.

٣ ـ إيجاد حكومةٍ يهودية، والتي تعتبر من الأهداف الرئيسة للصهيونية(١).

٤ ـ اتخاذ إجراءاتٍ تمهيدية للحصول على الموافقة الدولية على تنفيذ المشروع.

٥ ـ الدعوة إلى إحياء اللغة العبرية، وتكثيف دراستها بين اليهود والمستوطنين في فلسطين(٢).

وقد عبَّر (حاييم وايزمان) عن صهيونية هرتزل بقوله: «هناك يهودٌ أغنياء ويهودٌ فقراء، الأغنياء الذين يرغبون في مساعدة الفقراء لديهم نفوذٌ واسع في مجالس الأمم، ثم هناك سلطان تركيا الذي يريد مالاً . . والذي يملك فلسطين . . وأكثر أهميةً من منح الأغنياء المال للسلطان هو كيفية دفع اليهود الفقراء إلى الرحيل إلى فلسطين. وهناك خطوتان للعمل:

أولاً ـ أن يقوم الأغنياء بفتح أكياس نقودهم.

وثانياً ـ إقناع الدول بممارسة ضغطٍ على تركيا وأن تكون ضماناً للصفقة» ولم يكن هرتزل يؤمن بمحاولة غزو فلسطين سرًا وكانت أكثر مناوراته الدبلوماسية تتركز على الإمبراطورية العثمانية، وفي لقاءاته المتعددة مع السلطان، كان يسعىٰ للحصول على ميثاقٍ يحتفظ بشكلٍ ما من أشكال السيادة العثمانية على فلسطين، ويعترف قانوناً باستيطانٍ يهوديٍّ فيها بشيءٍ قريب من الحكومة المحلية. وفي محاولة التأثير على السلطان يقول: «. . . دعونا نأتي إلى فلسطين. . حيث لا نعتبر كغرباء، ونحن سوف نضمنُ لكم ـ إلى جانب المبالغ نقداً ـ تطوُّرَ مجتمعٍ حديث مزدهر في قلب العالم، ووسيط بين الشرق والغرب، الذي سوف يدفع

---

(١) نوري النعيمي، اليهود والدولة العثمانية، مرجع سابق، ص١٠١.

(٢) عبد الوهاب المسيري، موسوعة المفاهيم والمصطلحات الصهيونية، مرجع سابق، ص٣٧٨.

الخطوط الحديدية نحو الهند وبغداد، ويعيد إحياء تركيا كما يحيي إسرائيل»[1].

وعلى الرغم من هذا فقد وقفت الدولة العثمانية ضد تحقيق هذه الأهداف حتى لا تفقد إشرافها على فلسطين الأرض المقدسة للديانات الثلاث. ووقف السلطان العثماني في مواجهتهم معلناً عبارتَه الشهيرة: «إنه لن يبيعَ فلسطين»[2].

طالب هرتزل في هذا المؤتمر الحصول على ميثاقٍ دولي من أجل إنشاء (الدولة اليهودية) وقد رأىٰ هرتزل أنَّ الهجرة اليهودية إلى فلسطين، «ستعطي قوةً لتلك الأرض الفقيرة جداً» على حدِّ قوله، وسوف تبعث القوة أيضاً إلى الدولة العثمانية، وأضاف أنَّ حلَّ المسألة اليهودية سيكون له تأثيرٌ على العالم المتحضِّر بأسره.

وقد جاءت مقررات هذا المؤتمر الضمنية، أنه في حالة استمرار رفض السلطان العثماني لمطالب اليهود فإنَّ تحطيم الإمبراطورية التركية شرطٌ أساسي لإقامة حكومةٍ صهيونية في فلسطين.

وكانت هناك مقرراتٌ سرية لهذا المؤتمر وردت مثيلاتها في بروتوكولات صهيون، وكادت تتطابق معها، فقد استعمل هرتزل في علاقاته مع الدولة العثمانية أسلوب الرشوة والتحايل حيث جاء في البروتوكول الأول من بروتوكولات صهيون ما نصُّه:

«ينبغي لنا ألاَّ نتردَّد في استعمال الرشوة والخديعة والخيانة متىٰ لاح لنا أنَّ بهذا نحقق الغاية»[3].

وكان لهذا المؤتمر أهميةٌ عظمىٰ على يهود العالم، وقد ذكر زعيم الصهيونية هرتزل في يومياته قوله: «لو طلب تلخيص مؤتمر بال في كلمةٍ واحدة ـ وعلى أنْ أحرصَ على عدم تلفُّظها بصوتٍ عالٍ لكانت هي: في بال أُسِّسَت الدولة اليهودية، ولو قلتُ بصوتٍ عالٍ لضحك الجميع مني، ولكن ربما في خمس سنوات على

(١) خيرية قاسمية، مرجع سابق، ص٢٢.
(٢) المرجع السابق، ص٢٣.
(٣) عجاج نويهض، مرجع سابق، ص١٨٢ ـ ١٨٦.

وجه الاحتمال، وبعد خمسين سنة على وجه التأكيد سيعلم كلُّ واحد بالأمر»[1].

وأضاف أيضاً أنَّ هذا المؤتمر هو الذي وضع حجر الأساس للوطن وكانت اتجاهات الحركة الصهيونية تسير في اتجاهين مختلفين اتجاه جماعة أحباء صهيون ويرأسهم (آحاد هاعام) زعيم مدرسة الصهيونية الروحية، وقد اعتبروا استيطان فلسطين باعتبارها مركزاً يهودياً لمقدساتهم أما الاتجاه الثاني فكانت تدعمه الرأسمالية اليهودية الذين كانوا يرغبون إقامة دولةٍ يهودية دون تحديد موقعها.

ومن ناحيةٍ أخرى كان هناك مَنْ عارضَ مقررات مؤتمر (بال) الأول، وهم اليهود المتدينون، الذي كانوا يعتقدون أنَّ المسيح لم يأتِ، وفي حالة ظهوره سوف تجدَّد مملكة إسرائيل، ويكون المسيح ملكاً في أورشليم.

وفي عام ١٨٩٧م ازدادت ردود الفعل العربية، وكوَّنت المعارضة الفلسطينية برئاسة مفتي القدس (محمد طاهر الحسيني) هيئةً عربية هدفها وقف عمليات الاستيطان اليهودية في فلسطين، وكان من نتائج هذه الهيئة أن توقَّفت عملية الحصول على أراضٍ جديدة لعدَّة سنوات.

أما على مستوىٰ الزعامات العربية فلم تظهر أي ردود فعل ضد الصهيونية، وكانوا يستبعدون إمكانية قيام دولةٍ يهودية في فلسطين نظراً لوجود القدس الشريف بها من ناحية، وعدم إمكانية قبولهم لدىٰ المسيحيين، الذين يرفضون أن يكونَ بيت المقدس بأيدي اليهود. ومن جهةٍ أخرى، لم تتنبَّه الصحافة العربية لهذا الخطر، ولم تشر إليه، **اللهم إلا جريدة (المنار)، وهي أول صحيفة إسلامية طالبت بمواجهة الخطر الصهيوني، وكان صاحبها (رشيد رضا) أول من دعا العرب والمسلمين إلى دراسة الخطر الصهيوني**[2].

---

(١) حسان علي حلاق، مرجع سابق، ص١٣١؛ نقلاً عن يوميات هرتزل، ١/ ١٠/ ١٨٩٧م، ص٥٨١ (ت. ع. ص٨٩).

(٢) وجَّه رشيد رضا دعوته إلى العرب بالتيقُّظ فخاطبهم قائلاً: «أترضون أن يُسَجَّلَ في جرائد جميع الدول أنَّ فقراء أضعف الشعوب الذين تلفظهم جميع الحكومات من بلادها هم من العلم والمعرفة بأساليب العمران وطرقه بحيث يقتدرون على امتلاك بلادكم واستعمارها، وجعل أربابها أجراء وأغنيائها فقراء»، (رشيد رضا، المنار، م١، عدد (٧٦)، نيسان ـ إبريل ١٨٩٨م، ص٤٤).

وقد أوضح هرتزل أنَّ مصطلح (وطن قومي) يعني الدولة اليهودية التي كان يتصور حدودها التي كتبها في مذكراته وهي: «الحدود الشمالية جبال قبادوكيا في (تركيا) والحدود الجنوبية قناة السويس والعراق شرقاً ويحدُّها البحر المتوسط غرباً»[1].

أما شعارنا ـ على حد قول هرتزل ـ فهو: (فلسطين داود وسليمان). وحين كان هرتزل في طريقه إلى إستانبول في ١٥/ ١٠/ ١٨٩٨م لعرض موضوع اليهود على السلطان عبد الحميد الثاني، كتب في يومياته يقول: «المساحة المطلوبة من نهر مصر إلى الفرات. نريد فترةً انتقالية في ظل مؤسساتنا الخاصة، وحاكماً يهودياً في هذه الحقبة. وما إن يصبح السكان اليهود في منطقةٍ ما، ثلثي سكانها حتى تصبحَ الإدارة اليهودية سارية المفعول، على الصعيد السياسي»[2].

كان اليهود والصهيونية يعتقدون أنَّ عرب فلسطين يرون في هجرة اليهود إليهم فائدةً لهم، ولم يعيروا اهتماماً للخطر العربي الذي يمكن أن يلاقوه، إلا أنَّ أحد المستشرقين اليهود ويدعىٰ يهودا(A.S.yahoda) اهتمَّ بهذه القضية، محاولاً إلقاء الضوء على وضع أسس بين اليهود الجدد والسكان العرب الأصليين، وكان حاضراً في هذا المؤتمر الصهيوني الأول، وقد علّق عليه بقوله: «كان هدفي الرئيس لحضور المؤتمر أن أواصلَ حديثي مع هرتزل عن عرب فلسطين. حاولتُ أن أثبتَ لهرتزل أنَّ عرب فلسطين يجب أن يُكسَبوا لقضيتنا، ويُعرَّفوا بالفوائد التي يجنونها من فكرة العودة إلى صهيون، حثثْتُه كي يقيمَ علاقاتٍ ودية مع الأعيان العرب، وأن ينشِئَ علاقاتٍ من التفاهم المتبادل. ولكنَّ مستشاري هرتزل المقرَّبين سَخروا من آرائي، وأثبتَ الزمن أنّي على حق. لقد أهملنا مهمة إبلاغ جيراننا أهدافَنا، تاركين المجالَ مفتوحاً لبذور الكراهية التي يبذرها صانعو المشاكل»[3].

وفي آب ـ أغسطس ١٨٩٨م عقد المؤتمر الصهيوني الثاني في فيينا عاصمة

---

(١) أمين عبد الله، مرجع سابق، ص٣٧.
(٢) انظر نوري النعيمي، اليهود والدولة العثمانية، مرجع سابق، ص٩٩.
(٣) خيرية قاسمية، مرجع سابق، ص٣٧.

النمسا، وقد كان أكثرَ عدداً وتنظيماً من المؤتمر الأول، حيث بلغ عدد أعضائه أربعمئة عضو، اشترك فيه مئة وخمسون عضواً من اليهود الإنجليز، واعتبروا أنَّ اليهود يكوِّنون مجتمعاً دينياً، وليس سياسياً.

وكان من أهم مقررات هذا المؤتمر هو: السعي لدى الدولة العثمانية لتحقيق المشروع الصهيوني، وإنشاء (البنك اليهودي الاستعماري) وتشجيع تعليم اللغة العبرية، وإطلاق يد هرتزل للتفاهم مع الدول الأوروبية لتحقيق الهدف اليهودي.

وبعد انعقاد المؤتمر الثاني في فيينا عاصمة النمسا سنة ١٨٩٨م تضاعفت الجمعيات الصهيونية وأصبح عددها (١١٥٠) جمعية وآمن بها كثيرٌ من رجال الدين.

والمؤتمر الثالث عقد في (بال) في سويسرا عام ١٨٩٩م، وكانت أبحاثه أكثرها في نيل امتيازٍ من السلطان عبد الحميد، وتضمَّن تقرير هرتزل نتائج اتصالاته مع القيصر الألماني[١].

وفي عام ١٩٠٠م انعقد **المؤتمر الصهيوني الرابع** في بريطانيا من أجل الحصول على تأييد بريطانيا للمشروع الصهيوني، وأكَّد هرتزل أنَّ الرجال الإنجليز كانوا أقرب الرجال لفهم مبادئ الصهيونية، وقد أعلن في افتتاح المؤتمر: «بأنَّ إنجلترا الدولة العظمى الحرَّة، والتي تطلُّ بأراضيها وممتلكاتها على جميع بحار العالم، هي الدولة التي تفهمُ حركتنا وجهودنا»[٢].

وانتهت مقررات المؤتمر إلى تكثيف الجهود من أجل تحقيق مقررات المؤتمرات السابقة والعمل على زيادة الجمعيات الصهيونية، وأعلن ستون مرشحاً لمجلس العموم البريطاني تأييدهم للمشروع الصهيوني.

والمؤتمر الخامس الذي عقد في بال في سويسرا في كانون الأول ـ ديسمبر

---

(١) عبد الوهاب المسيري، موسوعة المفاهيم والمصطلحات اليهودية، مرجع سابق، ص٣٧٨.

(٢) حسان علي حلاق، مرجع سابق، ص١٦٧.

عام ١٩٠١م، وكان هذا المؤتمر من أهم المؤتمرات الصهيونية التي عقدت، حيث تمَّ فيه إقرار قانون النظام الأساسي للمنظمة اليهودية، وكان من قراراته تقديم إعانةٍ مالية لدار الكتب القومية اليهودية في بيت المقدس، كما قرَّر وضع دائرة معارف يهودية، وإنشاء مكتب لشؤون الإحصاء[١].

وفي الوقت نفسه، عُقِدَ أول مؤتمر صهيوني في فلسطين عام ١٩٠١م، أعدَّ له (مناحم أوسسكين)[٢] واجتمعوا في مستعمرة (زخروف يعقوب) وقد تمَّ فيه وضع تنظيم يجمع كلَّ يهود فلسطين، وقسمت فيه فلسطين ستة أقسام، وكان الهدف منه عقد مؤتمراتٍ في فلسطين بدلاً من الدول الأوروبية، إلا أنَّ الحكومة العثمانية قامت بوقف هذا النشاط الصهيوني داخلَ فلسطين، وقد رضخَ اليهودُ لهذا الموقف[٣].

والمؤتمر السادس عقد في (بال) في سويسرا سنة ١٩٠٣م قدَّم فيه هرتزل تقريراً عن مباحثاته مع البريطاني (جوزيف تشمبرلين) بشأن استيطان اليهود سيناء، لكنَّ بريطانيا رفضت هذه الفكرة، وعرضت مشروعاً لاستيطان (أوغندا) عُرِفَ باسم مشروع شرق أفريقيا، تقرَّرَ فيه إرسال لجنة إلى (أوغندا) تبحثُ إمكانية استعمار هذه البلاد باعتبارها حلاً مؤقتاً وعاجلاً بالنسبة لهم، وكان هذا المؤتمر هو آخر مؤتمر حضره هرتزل[٤]، وتقرَّر تخصيص (٢٠٠٠٠٠) جنيه إسترليني لشراء أراضٍ في فلسطين وسوريا.

وفي ١٩٠٤م توفي هرتزل، وانتخب الصهاينة مكانه الدكتور (ماكس نوردو) الذي وجدَ فيه اليهود والماسون عزاءهم بعد فجيعتهم بموت هرتزل، فأقاموه زعيماً لشؤونهم، كما كانوا يفعلون مع أميرهم هرتزل[٥]. وفي ذلك

---

(١) عبد العزيز الشناوي، مرجع سابق: ٢/ ٩٨٧.
(٢) مناحم أوسسكين (١٨٦٣ ـ ١٩٤١م) أحد أقطاب الصهيونية، روسي المولد، أقام بعضاً من الوقت في أودسة.
(٣) عبد العزيز الشناوي، مرجع سابق: ٢/ ٩٩٢.
(٤) عبد الوهاب المسيري، موسوعة المفاهيم والمصطلحات اليهودية، مرجع سابق ص٣٧٩
(٥) جواد رفعت أتلخان، مرجع سابق، ص١١١.

الوقت عرضت إنجلترا على اليهود أرضاً في شرقي أفريقيا، وإنشاء مستعمرةٍ يهودية مستقلة تحت رعاية إنجلترا إلا أنَّ اليهود رفضوها نظراً لضيق هذه البقعة.

والمؤتمر السابع عقد في (بال) في سويسرا ١٩٠٥م حيث انتقلت فيه رئاسة المؤتمر إلى (ماكس نوردو) وقد تقرَّر فيه السعي في التنقيب عن الآثار، وترويج الزراعة والصناعة، كما أكَّدوا فيه العمل على شراء الأراضي، وبناء اقتصاد مستقل لليشوف الاستيطاني داخل فلسطين[١].

والمؤتمر الثامن عقد في (لاهاي) في هولندا عام ١٩٠٧م برئاسة (ماكس نوردو).

وقد تركَّزت مناقشات هذا المؤتمر حول إنشاء المستعمرات الزراعية في فلسطين. كما تقرر فيه إيفاد (حاييم وايزمن) إلى فلسطين من أجل تقصّي أحوال اليهود هناك، وانتهىٰ تقرير المؤتمر بالعمل على ضرورة توطيد الاستعمار في المناطق التي تسيطر عليها الإمبراطوريات، مثل توطيد سيطرة بريطانيا على أفريقيا والهند والشرق الأقصىٰ، وتوطيد سيطرة إيطاليا في ليبيا، وإسبانيا في المغرب وجزر المحيط الأطلسي، وذلك من أجل القضاء على نفوذ الدولة العثمانية، وقد أعرب المؤتمر أنَّ مكمن الخطر على الدول الاستعمارية هو المناطق العربية التي تقع تحت نفوذ الدولة العثمانية، ورأوا ضرورة فصل الجزء الأفريقي في المنطقة العربية عن جزئها الآسيوي، وضرورة إقامة ما عُرِفَ باسم (الدولة العازلة) وهم يعنون بالقطع إقامة الدولة اليهودية، وكانت توصيات المؤتمر تقضي بالأمور التالية:

١ - **الإشارة إلى زرع شعبٍ غريب في شرقي قناة السويس**، أي في سيناء وفلسطين، باعتبارهما منطقتين وحيدتين يمكن أن تَفْصِلا عرب آسيا عن عرب أفريقيا، هذه الإشارة تعني مباشرةً الشعب اليهودي.

٢ - كان تقرير مؤتمر لندن عام ١٩٠٧م بمثابة الضوء الأخضر للسياسة

---

(١) عبد الوهاب المسيري، موسوعة المفاهيم والمصطلحات اليهودية، مرجع سابق، ص٣٧٩.

البريطانية والحركة الصهيونية في انتزاع فلسطين عن سائر الوطن العربي، لإيجاد نواة استعمارية تؤمِّنُ استمراريةَ النفوذ الاستعماري في المنطقة.

٣ ـ لم يكتفِ التقرير بضرورة إيجاد (الدولة اليهودية) في فلسطين، بل رأى أنَّ الضمانة الأكيدة لاستمرار النفوذ الاستعماري في المنطقة العربية هو ضرورة إيجاد ظروف التقسيم والتفكك والتناحر بين الشعب العربي.

٤ ـ إنَّ تقرير المؤتمر الاستعماري يعني حتمية الصراع بين مجموعة الدول التي اشتركت في المؤتمر من جهة، وبين ألمانيا والدولة العثمانية من جهةٍ أخرى، ذلك لأنَّ النتائج التي توصَّل إليها خبراء اللجنة العليا، أوضحت أنه لا يمكنُ الوصول إلى تجزئة العالم العربي وتقسيمه إلا بعد إقامة دولةٍ عنصرية غربية في المنطقة، ولا يتمُّ ذلك أيضاً إلا بعد تصفية الدولة العثمانية، وكان ذلك أمراً مستحيلاً ما لم يتمّ القضاء على ألمانيا ـ الطامعة في الشرق، لأنَّ أيَّ صدامٍ مع الأتراك يعني الصدام مع ألمانيا[١]. وفي نهاية المؤتمر تمَّ الاتفاق على تكوين شركةٍ لتنمية الأراضي المملوكة لليهود في فلسطين[٢].

وكان من نتائج هذا المؤتمر أنْ توصَّل (حاييم وايزمن) لحلِّ جميع الخلافات بين الأجنحة الصهيونية، وذلك للمضيّ في طريق الهجرة إلى فلسطين إلى التقدم. وتقرَّر في هذا المؤتمر أيضاً تأسيس شركةٍ للأراضي الفلسطينية لبناء مستعمراتٍ جديدة في يافا عن طريق قرضٍ يقدِّمه البنك القومي اليهودي، كما قرر المؤتمر اعتبار اللغة العبرية لغةَ التخاطب الرسمية للصهيونية، كما أكَّد (حاييم وايزمن) في هذا المؤتمر، أنَّ العزيمةَ والإصرار من قبل اليهود تمكِّنهم من التغلُّب على الأتراك وعلى قوانينهم[٣].

---

(١) حسان علي حلاق، مرجع سابق، ص٢٢٣ ـ ٢٢٤؛ نقلاً عن ملف وثائق فلسطين: ١٥٣/١.

(٢) عبد الوهاب المسيري، موسوعة المفاهيم والمصطلحات اليهودية، مرجع سابق، ص٣٨٠.

(٣) انظر حسان علي حلاق، مرجع سابق، ص٢١٧؛ وفي هذا الصدد عبَّر الماسون عن دورهم في القضاء على السلطان، وذلك في كتاب (الماسونية في تركيا والعالم)، فجاء=

والمؤتمر التاسع عقد في (هامبورغ) في ألمانيا في كانون الأول ـ ديسمبر سنة ١٩٠٩م وقد اهتمَّ هذا المؤتمر ببحث النتائج المترتبة على الثورة التركية بشأن استيطان فلسطين، واتخذَ هذا المؤتمر قراراً بإنشاء المستوطنات التعاونية مثل الكيبوتس والموشاف[١].

والمؤتمر العاشر عقد في (بال) عام ١٩١١م وكانت أهم مناقشاته هو إحياء الثقافة العبرية.

وفي**المؤتمر الحادي عشر** الذي عُقِدَ في فيينا عاصمة النمسا في أيلول ـ سبتمبر عام ١٩١٣م برئاسة (دافيد ولغسون) فقد تقرر فيه إنشاء جامعة أورشليم (القدس) لتعليم العلوم بالعبرانية[٢]. اهتمَّ هذا المؤتمر أيضاً بتجشيع شراء الأراضي في فلسطين.

والمؤتمر الثاني عشر عقد في (كارلسباد) في ألمانيا في أيلول ـ سبتمبر ١٩٢١م برئاسة (ناحوم سوكولوف) وهو أول مؤتمر يعقد بعد إصدار وعد بلفور، وتمَّ فيه مناقشة أنشطة الصندوق التأسيسي اليهودي الذي أسس عام ١٩٢٠م، وكان يهدف إلى تحقيق وعد بلفور، وقرر أن يكون للمجلس التنفيذي للمنظمة

= فيه: «لم يستطع عبد الحميد الثاني السماحَ للحركة الماسونية بالعمل، لأنها كانت تحمل مبادئ الحرية، فقام بإغلاق محافلها، ومع ذلك فقد استمرت الحركة الماسونية بشكلٍ سري في عملها طيلةَ السنوات ١٨٧٦م ـ ١٩٠٩م. وتأسيس (المحفل التركي الكبير) المرتبط بالمحفل الإيطالي الكبير المسمَّىٰ بمحفل (ريزورتا) في سنة ١٨٨٤م من قبل (سافا باشا). و. . وقد انتشرت الماسونية بشكلٍ خاص في سلانيك وحواليها، ومع أنَّ عبد الحميد حاول أن يحدَّ ويشلَّ الحركة الماسونية هناك، إلا أنه لم يوفَّق في مسعاه» و. . . «وقد قامت هذه المحافل، لا سيما محفل (ريزورتا) ومحفل (فاريتاس) بدورٍ كبير في تأسيس وتوسيع حركة (جمعية الاتحاد والترقي). كما كان للماسونيين دورهم في إعلان الحرية سنة ١٩٠٨م».

(١) عبد الوهاب المسيري، موسوعة المفاهيم والمصطلحات اليهودية، مرجع سابق، ص٣٨٠.

(٢) المنار، م١٧: ٥/٣٨٩.

الصهيونية مقرّان: أحدهما في لندن، والآخر في القدس، وتمَّ انتخاب (حاييم وايزمان) رئيساً للمنظمة[1].

والمؤتمر الثالث عشر عقد في (كارلسباد) في آب ـ أغسطس ١٩٢٣م عقب إعلان الانتداب البريطاني على فلسطين، وأعلن فيه تعاون بريطانيا مع اليهود الراغبين في الهجرة إلى فلسطين.

والمؤتمر الرابع عشر عقد في (فيينا) في آب ـ أغسطس ١٩٢٥م برئاسة (جابوتنسكي) الذي طالبَ بتبنّي سياسةٍ صهيونية أكثر إيجابية، بمعنىٰ أن تكونَ أكثرَ قوةً وعنفاً في تنفيذ الاستيطان الصهيوني.

والمؤتمر الخامس عشر عقد في (بال) في أيلول ـ سبتمبر ١٩٢٧، اهتمَّ هذا المؤتمر ببحث دراسة الأوضاع الاقتصادية اليهودية، وظاهرة تفشّي البطالة بينهم، والتي أدَّت إلى توجُّه هجرة اليهود إلى خارج فلسطين.

والمؤتمر السادس عشر عُقد في (زيورخ) في آب ـ أغسطس ١٩٢٩م، وقد ظهر فيه (دافيد بن غوريون) كأحد نواب رئيس المؤتمر، وتمَّ فيه الإعداد لدستور الوكالة اليهودية[2].

والمؤتمر السابع عشر عقد في (بال) في تموز ـ يوليو ١٩٣١م برئاسة (ليوموتزكين) وأعلن في المؤتمر الاحتجاج على مقترحات البريطاني (باسفيلد) الذي وضعَ بعض القيود على هجرة اليهود هناك.

والمؤتمر الثامن عشر عقد في (براغ) عاصمة تشيكوسلوفاكيا في أيلول ـ سبتمبر ١٩٣٣م، درسَ هذا المؤتمر برنامجاً واسعاً لتوطين اليهود الألمان فلسطين، وذلك بعد وصول هتلر إلى الحكم في ألمانيا.

والمؤتمر التاسع عشر عقد في (سويسرا) في أيلول ـ سبتمبر ١٩٣٥م

---

(١) عبد الوهاب المسيري، موسوعة المفاهيم والمصطلحات اليهودية، مرجع سابق، ص٣٨٠.

(٢) المرجع السابق، ص٣٨١.

برئاسة (وايزمان) وكانت مناقشاته حول أوضاع اليهود الألمان، وترتيب هجرتهم إلى فلسطين[1].

والمؤتمر العشرون عقد في (زيورخ) في آب ـ أغسطس ١٩٣٧م برئاسة (مناحم أوسيسكين) تناول تقرير لجنة بيل لتقسيم فلسطين. وأعلنَ فيه (وايزمان) تأييدَه لإجراء مفاوضاتٍ مع بريطانيا من أجل تكوين دولةٍ يهودية مستقلة[2].

والمؤتمر الحادي والعشرون عقد في (جنيف) في آب ـ أغسطس ١٩٣٩م تمَّ فيه مناقشة وضع بريطانيا بالنسبة لهجرتهم.

والمؤتمر الثاني والعشرون عقد في (بال) في كانون الأول ـ ديسمبر ١٩٤٦م برئاسة (ويزمان) واتَّبعَ هذا المؤتمر سياسة الضغط على بريطانيا لفتح أبواب فلسطين لهجرةٍ يهودية واسعة.

والمؤتمر الثالث والعشرون عقد في (القدس) في آب ـ أغسطس ١٩٥١م وكان أول مؤتمر صهيوني يعقد في إسرائيل برئاسة (ناحوم غولدمان)، أوصى المؤتمر بتنظيم العلاقة بين الدولة الصهيونية الناشئة والحركة الصهيونية، وحصلت فيه الحكومة الإسرائيلية على قانونٍ أخذت بموجبه حقَّ جمع الأموال من يهود العالم، وتمويل الهجرة إلى إسرائيل.

والمؤتمر الرابع والعشرون عقد في (القدس) في أيار ـ مايو ١٩٥٦م برئاسة (سيرنيزاك) وكان هذا المؤتمر تمهيداً للعدوان الإسرائيلي على مصر.

والمؤتمر الخامس والعشرون عقد في (القدس) في كانون الأول ـ ديسمبر ١٩٦٠م برئاسة (ناحوم غولدمان) وشهد هذا المؤتمر الخلاف بين (بن غوريون) و(غولدمان) حول العلاقة بين إسرائيل والمنظمة الصهيونية العالمية، وانتهى إلى ضرورة تدعيم التعليم اليهودي.

ثم تلاه **المؤتمر السادس والعشرون** الذي عقد في (القدس) عام ١٩٦٥م

---

(١) عبد الوهاب المسيري، مجموعة المفاهيم والمصطلحات اليهودية، ص٣٨١.
(٢) المرجع السابق نفسه.

والسابع والعشرون الذي عقد في (القدس) عام ١٩٦٨م والثامن والعشرون الذي عقد في (القدس) في كانون الثاني - يناير ١٩٧٢م[١].

توجُّه اليهود إلى إنجلترا لتحقيق أغراضهم:

بعد فشل هرتزل في مساعيه للحصول على تأييد ألمانيا للحركة الصهيونية، اتجه إلى بريطانيا لتحقيق إقامة دولةٍ يهودية تحت الوصاية البريطانية، على أن تكونَ هذه الدولة في شبه جزيرة سيناء، بحيث يتمُّ عزل مصر عن غرب آسيا، فينتج عن هذا ضعفُ الدولة العثمانية، ولكنَّ هذه المساعي لم تنجح أيضاً[٢].

وقد جاء في مقالٍ نشرته جريدة (التايمز) اللندنية في آب - أغسطس ١٨٤٠م بعنوان: (إعادة توطين اليهود):

«إنَّ اليهود الغربيين بحوزتهم القدرة المالية على شراء واستئجار فلسطين من السلطان العثماني، وإرسال أعداد كبيرة من المهاجرين اليهود، ليستقرُّوا فيها، شريطةَ أن تتكفَّل الدول الخمس الكبرىٰ بتوفير الحماية اللازمة لهم.

واستطردت الجريدة قائلةً: «إنَّ قيام دولة يهودية سوف يفصل بين تركيا ومصر، ويدعم النفوذ البريطاني في الليفانت سياسياً وعسكرياً واقتصادياً» وإنَّ «قيام هذه الدولة المقترحة ستكون أداةً لخدمة مصالح الاستعمار البريطاني في منطقة الشرق الأدنىٰ»[٣].

ومن ناحيةٍ أخرى قامت إنجلترا بعرض مشروع استيطان اليهود لأوغندا، لكنَّ اليهود قابلوا هذا العرض بمعارضةٍ شديدة.

وفي عام ١٨٩٨م أصدر السلطان عبد الحميد قوانين جديدة تقضي بمنع اليهود دخول فلسطين، لكنَّ هذه القوانين لقيت معارضةً شديدةً من القنصليات الأجنبية، بينما تشدَّدت الحكومة العثمانية من أجل تنفيذ هذه القوانين، فقامت

---

(١) عبد الوهاب المسيري، المرجع السابق، ص٣٧٧ - ٣٨٣.
(٢) حسان علي، مرجع سابق، ص١٥٩.
(٣) أمين عبد الله، مرجع سابق، ص٢٠.

بمنع نائب قنصل بريطانيا في منطقة أنطاكيا من دخول فلسطين باعتباره يهودياً، وكان هذا القانون يسري على كلِّ مناطق فلسطين، وليس على القدس فقط، وفي الوقت نفسه أعلنت بريطانيا أنه «على الإمبراطورية العثمانية أن تعيدَ النظر في هذه الأنظمة المطروحة على البحث، لأنها تتعارض مع حقوق الإنسان»(١).

قدّمت الدول الأوروبية والولايات المتحدة العديدَ من الاحتجاجات ضدَّ الحكومة العثمانية، كما احتجت على معاملة تركيا للأجانب الذين يقيمون في أراضيها، وخضوعهم لمحاكم الدولة العثمانية(٢).

---

(١) رفيق شاكر، مرجع سابق، ص١٧١ ـ ١٧٢.

(٢) ويردّ رشيد رضا على هذه الاحتجاجات بقوله: «إنَّ الردَّ على هذه الاحتجاجات يسوقنا لسؤال هو: ماذا عرف من أحكام القرآن في العدل والمساواة؟ ومن أين استنبط حكمهم عليه؟ قال الله تعالى في مسألة الحكم بين اليهود ـ وكانوا أشد الناس عداوةً للنبي ﷺ وللمؤمنين من جميع من ناصبوه ـ: ﴿وَإِنْ حَكَمْتَ فَاحْكُم بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ [المائدة: ٤٢] والقسط هو العدل. وقال تعالى في مسألة الحقوق والحكم العام بين الناس كافةً من مسلم وغيره: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ النَّاسِ أَن تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ﴾ [النساء: ٥٨] قال بين الناس، ولم يقل بين المسلمين.

وأما المساواة فهي لم توجد على حقيقتها وإطلاقها وعمومها إلا في الإسلام، كما تدلُّ على ذلك النصوص والأعمال، وتشهد به تواريخ القرون والأجيال، وأما العدل فقد اشتهر عن الخلفاء الراشدين وغيرهم من أمراء المسلمين من العدل والمساواة ما لم يؤثر عن غيرهم. وناهيك بقضية غضب علي المرتضىٰ من عمر الفاروق لأنه كنَّاه وسمَّىٰ خصمَه اليهودي، ولم يساوِ بينهما في التسمية كما ساوىٰ بينهما في سائر الأمور. واعترف عمر بذلك.

والأمريكيون يقولون: إنَّ المسلمين أعطوا الأجانب ما أعطوهم من امتياز الحكم فيما بينهم طوعاً واختياراً، لأنَّ الإسلام لا يقدر أن يتصوَّر وجود أناس غير مسلمين يستحقون أن يتمتعوا بعدل الإسلام. فكأنهم يقولون: إنَّ المسلمين يريدون بذلك أن يتجاهلوا وجودَ أحدٍ غير مسلم في الأرض. ولغلبة الحرية الدينية والتسامح في الإسلام، واحترام عقائد الناس سمح الخلفاء والملوك لغير المسلمين بأن يتحاكموا إلى رؤساء دينهم في الأمور الشخصية، وكذا في غيرها أحياناً إذا كان خاصاً بهم. فهذه المبالغة في الحرية والتسامح واحترام المخالفين كان يجب أن يطري به الأمريكي وغيره على الإسلام والمسلمين، فما كان منهم إلا أن قلبوا الحقيقة، وعكسوا القضية، فجعلوا ما يقتضي=

وعلى الرغم من تشدُّد الحكومة العثمانية في تنفيذ القرارات إلا أنَّ اليهود كانوا يتسلّلون إلى الأراضي الفلسطينية عن طريق مساعدة القناصل الأوروبيين، وعن طريق الرشاوىٰ.

أما بشأن القانون العام الذي حاول الصهاينة الانتشار عن طريقه، فكان ينصُّ على تأسيس دولةٍ ذات حكمٍ ذاتي من المستعمرات اليهودية في فلسطين، لتكون قائمةً بذاتها. والصهيونية لا تكتفي بذلك، لأنها ترىٰ أنَّ نظام المستعمرات ليس إلا ممارسةً للحقوق الخاصة والمطلوب هو تكوين دولة حقيقية(١).

= الإطراء في المدح، موجباً للإسراف في الذمّ والقدح!!. فالدين الإسلامي هو الذي أوجد الحضارة والفتوحات بطبيعته، لا بقوة سيوف أهله، ولم تكن الفتوحات الموجِدة أو الناشرة له. ومن التناقض في كلامهم أنهم جعلوا العلة لنفور الأجانب من الخضوع للمحاكم العثمانية هي كونها تستند في أحكامها إلى القرآن المنافية للعدل والمساواة، ثم اعترفوا بأنَّ العثمانيين أخذوا معظم قوانينهم عن الأوروبيين. وليته يعلم أنهم لو حكموا بين الأجانب بما يأمر به القرآن لكان خيراً لهم، لأنهم حينئذٍ يحكمون بعدلٍ كامل، يقيمون بالإخلاص سراً وجهراً، وليست حالهم في القوانين كذلك. هذا وإنَّ الحقائق التي أشرنا إليها يعرفها كثيرٌ من الأوروبيين، ويصرّح بها بعض المستقلين.

ويقول رشيد رضا عن اليهود في الدولة العثمانية: «خبرنا الآستانة بإقامتنا فيها سنةً كاملة فرأينا أنَّ نفوذ اليهود في جمعية (الاتحاد والترقي) عظيم، وأنَّ ناظر المالية إسرائيلي النسب، وأنه جعل كاتبَ سره وكثيراً من موظفي نظارته من اليهود، فعلمنا أنْ سيكونُ لليهود شأنٌ أيُّ شأن في هذه المملكة، وآمالهم في القدس وفلسطين معروفة، ومطامعهم المالية في المكان يعظم نفوذهم فيه غير مجهولة، وقد أشرنا إلى ما يخشىٰ من مغبة ذلك، ثم جاءت أنباء مجلس الأمة العثمانية مصدقةً لما قلناه، ومثبتةً ما توقعناه، فقد خطب بعض النواب المستقلين والمعارضين للحكومة خطباً بيّنوا فيها خطر جمعية اليهود الصهيونية على المملكة العثمانية، وخطباً أنكروا فيها على ناظر المالية بيعه أحسنَ موقعٍ عسكري في الآستانة لشركةٍ أجنبية بثمنٍ دون ثمن المثل بسمسرة بعض اليهود، وهم يرون أنه يمكن بيع ذلك المكان بأضعاف ذلك الثمن، وقد دافع الصدر الأعظم عن الحكومة وعن اليهود ودافع (جاويد بك) عن نفسه، ونحن لا نتعرّض للمحاكمة والترجيح بين المجلس والحكومة وحزبها، وإنما ننبّه الناس للتأمل والاعتبار.

(١) ميم كامل، ص٥٨ ـ ٥٩؛ نقلاً عن OFM (332/17), Doc. no. 23598/216, Anthopoulos to Tewfik Pasha, Londn, 8 June 1898.

جهود هرتزل للحصول على تأييد روسيا لقضية اليهود:

وفي عام ١٨٩٩م سعىٰ هرتزل لمقابلة قيصر روسيا للحصول على تأييده للقضية، وحاول إيضاح أنَّ وجود فلسطين تحت سيطرة الدولة العثمانية لا يخدمُ المسيحيين، ولكن هذه المحاولة لم تلقَ إيجاباً من القيصر.

وفي نفس هذا العام أعلن الباب العالي أنه «لا يرغبُ أن يبيعَ أيَّ جزءٍ من الأرض العربية ومهما كانت كميات الذهب التي تقدَّم لهذا الغرض فإنَّ الموقف لن يتغيَّر»[1].

توجُّه هرتزل لكسب تأييد أمريكا:

اتَّجه هرتزل نحو أمريكا حيث كان بعض الأمريكيين يؤيدون القضية الصهيونية، ومن أهمهم السفير الأمريكي (شتراوس) الذي كان يعطفُ على الصهيونية في الخفاء.

---

(١) السلطان عبد الحميد الثاني، تأليف ميم كامل أوكه، ص٧٠؛ جاء في مقالات (رشيد رضا) في جريدته (المنار) داعياً العرب لليقظة من الخطر القادم بما يلي:
الأول - يدعو العرب إلى اليقظة القومية، والتنبُّه إلى الاستيطان اليهودي وخطورته، ويوجِّه نداءً بأسلوبِ ناقد لاذع عندما يقول: «فيا أيها القانعون بالخمول اقنعوا رؤوسكم (ارفعوها) حدِّقوا أبصاركم وانظروا ماذا تفعل الشعوب والأمم، أفيقوا لما تتحدَّث به العوالم عنكم».
الثاني - يدعو (رشيد رضا) إلى التثبت والتحري عن أهداف الحركة الصهيونية، والعمل بجدية لمواجهتها، إذ هي حقيقةٌ واقعة والعمل على التناظر، وعقد الاجتماعات والمؤتمرات بين العرب والمسلمين. ويتابع نداءه بالقول: «تفكَّروا في هذه المسألة، واجعلوها موضعَ محاورتكم، لتتبيَّنوا هل هي حقةٌ أم باطلة، صادقة أم كاذبة. ثم إذا تبيَّن لكم أنكم مقصِّرون في حقوق أوطانكم، وخدمة أمتكم، فانظروا وتأملوا وتفكَّروا، وتحاوروا وتناظروا في مثل هذا الأمر، فهو أخلقُ بالنظر من اختلاف المصايب وانتحال المثالب، وإلصاقها بالبرآء، وأحرىٰ بالمحاورة من التذقح والتجنّي على إخوانكم، فإنَّ في الخير شغلاً عن الشر، وفي الجدِّ مندوحةً عن الباطل، وما يتذكر إلا من ينيب».
رشيد رضا، المنار، ٩/٤/١٨٩٨م، م١، ٦/١٠٦-١٠٨.

وقد حاول مراتٍ كثيرة التدخل لدى الدولة العثمانية من أجل نجاح المشروع الصهيوني عن طريق الحملات الإعلامية.

وفي عام ١٩٠٠م أصدرت الحكومة العثمانية، تعليماتٍ بشأن دخول الزوار اليهود إلى الأرض المقدسة، تتضمَّن أنه لم يعد مطلوباً من اليهود أن يدفعوا تأميناً نقدياً كضمانٍ لرحيلهم بعد شهر. وبدلاً من ذلك فإنه على كلِّ اليهود - بما فيهم الرعايا العثمانيون - أن يسلِّموا أوراقهم عند دخول البلد، وفي مقابل هذا يتسلَّمون تصريحَ إقامة، يسمح لهم بالإقامة في فلسطين لمدة ثلاثة أشهر، وبسبب لون هذا التصريح أصبح اسمه (التذكرة الحمراء) ويجب أن يسلِّم الحجاج هذا التصريح عند الرحيل، وهكذا يمكن مراقبة اليهود الذين يزورون فلسطين. ويجب أن تجمع كل شهرٍ بياناتٌ مفصلة، لتتمكَّن السلطات العثمانية من طرد الحجاج الذين انتهت مدة إقامتهم. والموظفون الذين يفشلون في تطبيق هذه الأوامر يعاقبون بشدة، واليهود الذين لا يستطيعون أن يعملوا في تناسقٍ مع الأوامر القائمة يرفض دخولهم إلى البلاد، ويعودون على البواخر نفسها التي جلبتهم، ويجب أن نؤكد هنا أنه أثناء تنفيذ هذه الإجراءات فإنَّ اليهود «لم يعانوا من أيِّ سوءٍ في المعاملة من أيِّ كائن»[(١)].

في هذا الوقت تمَّ إرسال العديد من الاحتجاجات على القرارات العثمانية من قبل الحكومة الإيطالية، والولايات المتحدة الأمريكية وبريطانيا، الأمر الذي أدى بالسلطان عبد الحميد لقبوله مقابلة زعيم الحركة الصهيونية (تيودور هرتزل) في ١٧/٥/١٩٠١م، وقد دُعي هرتزل لمقابلة السلطان بصفته «رئيساً لليهود، وصحفياً ذا تأثير» شرط ألا يتحدَّث مع السلطان عن الصهيونية[(٢)].

في هذا العام (١٩٠١م) ألغت الحكومة العثمانية قانون تأمين الخمسين ليرة تركية وتحديد إقامة اليهود في فلسطين بـ (٣١) يوماً الصادر في ١٨٨٧م، وسمح لكلِّ يهوديٍّ أجنبي بزيارة فلسطين والإقامة فيها لمدة ثلاثة أشهر، مع تقديم جواز

---

(١) ميم كامل أوكي، مرجع سابق، ص٧٣.
(٢) رفيق شاكر، مرجع سابق، ص١٨٠.

مرور يسجل مدة الزيارة، وهدفها، وبعد انتهاء المدة يتوجَّب طردهم من الأراضي بالقوة، وكانت هذه القوانين تجديداً لقانون ١٨٨٢م، وقد احتجت على هذه القوانين أمريكا وإنجلترا، وجاءهم الردُّ على هذا الاحتجاج بأنَّ هذه القوانين ليست جديدة، وأنَّ الحكومة مصرةٌ على تنفيذها.

تصدِّي الدولة العثمانية للاتجاهات التغريبية:

الدولة العثمانية دولةٌ إسلامية، قامت على أسسٍ إسلامية وشرعية، وكان السلطان عبد الحميد حاكماً مسلماً، نشأ على الثقافة الإسلامية، كما أنه لم يكن ضد التقدم، وكان يرىٰ أنَّ عدم الأخذ بالجديد في العلوم من أسباب تأخر الدولة، فنادىٰ بتحديث النواحي المدنية في الدولة، عن طريق تطوير المدارس، وإرسال البعثات التعليمية إلى الخارج، للأخذ بالوسائل الحديثة في التعليم، إلى جانب اهتمامه بالنواحي العسكرية وبناء أسطول حديث، وتجهيز الجيش بأسلحةٍ حديثة متطورة.

أما من ناحية تطوير الزراعة في الدولة فقد أرسلت الدولة بعثةً تعليمية إلى فرنسا للتدريب على مكافحة الحشرات، وأخرى إلى ألمانيا للاطلاع على أصول تربية الحيوان[1]. وفي هذا الصدد يقول السلطان: «لقد بذلنا جهوداً كبيرة كي يتلقىٰ شبابُنا العلومَ الأوروبية» وكان يرىٰ أنه يجب تواجد هؤلاء الطلاب في البلاد الأوروبية لمدةٍ قصيرة، فيتعلَّموا فيها الأمور النافعة، ويتَّسع أفقهم، ويعودوا إلى بلادهم سالمين دونَ أن يجلبوا معهم سمومَ تلك الحضارة. ويرىٰ أيضاً أنَّ التطور لا يمكن أن يحدث تحت تأثيراتٍ وضغوط خارجية[2]؟

ولكن مع سياسة السلطان عبد الحميد في تطوير العلوم، والأخذ بالأساليب الحديثة في تشكيلها، إلا أنَّه تصدَّىٰ لمحاولات الدول الاستعمارية في القضاء على الدولة، فيقول في هذا المجال: «إنَّ أعداءنا يتظاهرون بالحزن والأسىٰ على حالتنا المتأخرة، ويسعون ـ عن خُبْثٍ ـ إلى القيام بأيِّ عملٍ كان لما يسمُّونه برفع

---

(١) السلطان عبد الحميد، مذكراتي السياسية، مرجع سابق، ص١٨٨.
(٢) المرجع السابق، ص١٨٩ ـ ١٩٠.

مستوانا، إنني معجبٌ بالتطور الصناعي في أوروبا وأمريكا، لكننا في صدد تطورٍ طبيعي، وستأتي الأجيال القادمة بعدنا، فتأخذ الجانب الحسن من الحضارة الغربية، فتصقله بمفاهيم شرقية، وتصنع منهما حضارةً جديدة متكاملة، ومن الظلم أن نُتَّهم بمعاداة كلِّ شيءٍ جديد يأتي من الغرب»[١].

وفي معرض حديث السلطان عن الأوروبيين وأسلوب حياتهم فيقول: «إنهم أناسٌ لا يؤمنون بمبدأ، ولا يدينون بدين، وإن مفاهيمَ الحياة عندهم تغاير مفاهيمنا. إنني أرىٰ من حولي المسلمين، فأجدهم فطريين سعداء، فلا أملكُ إلا أن أقاومَ هذه الأفكار الأوروبية بكلِّ ما أوتيتُ من قوة، ولا بدَّ أن نأسفَ لحال شبابنا الذين أصيبوا بالمرض الأوروبي، فالإسلام لا يعادي التطور والرقي، لكنَّه يرفض التطور المستند إلى مبادئ غريبة عنه»[٢]. ويؤكد السلطان غاية هذه البلاد الغربية وهو الحطُّ من شأن الدولة، ورفع شأن النصارىٰ على حساب الدولة[٣].

وقد حدثت موجةٌ من الاحتجاجات العربية ضد الاستيطان اليهودي مما أثَّر على النواحي الاقتصادية والاجتماعية والصحية هناك.

توجُّه هرتزل إلى ملك إيطاليا ومشروع استعمار طرابلس الغرب:

في عام ١٩٠٤م اتجه هرتزل إلى ملك إيطاليا، وتحدَّث إليه عن إمكانية استعمار طرابلس الغرب كمرحلةٍ تمهيدية لاستيطان فلسطين، وقد ظهر عطف ملك إيطاليا، وتشجيعه للمشروع الصهيوني، وكانت أكثر المحافل الماسونية في سلانيك تحت الحماية الإيطالية، وكان هناك نزاعٌ بين السلطان عبد الحميد والسفير الإيطالي بسبب معارضة السلطان عبد الحميد لهذه المحافل[٤].

محاولة هرتزل كسب تأييد بابا روما:

في عام ١٩٠٤م اجتمع هرتزل ببابا روما من أجل كسب تأييده للحركة

---

(١) السلطان عبد الحميد، مذكراتي السياسية، مرجع سابق، ص١٩٢ ـ ١٩٥.
(٢) المرجع السابق، ص١٩٦ ـ ١٩٧.
(٣) المرجع السابق، ص٨٩.
(٤) حسان علي حلاق، ص١٩٥ ـ ١٩٦.

الصهيونية لكنَّ البابا أعلنَ رفضَه قبولَ اليهود رسمياً في فلسطين، وكانت معارضةُ البابا بسبب موقف اليهود تجاه المسيحية، وكان هرتزل يعتبر نفسه (بابا اليهود)(١).

وتظهر ميول (هرتزل) القيادية حينما ذكر أنه خلال زيارته لفلسطين تحاشىٰ ركوبَ حصانٍ أو حمار أبيض، حتى «لا يحرجه أحدٌ، ويحسبه المسيح المنتظر»(٢). وأعلن البابا بأنَّ القدسَ يجب ألا تكون بأيدي اليهود، وهو لا يريدها أيضاً بأيدي المسلمين ـ أي تحت سيطرة الدولة العثمانية ـ أيضاً». فكان رفضُ البابا لاعتباراتٍ دينية، وليست سياسيةً أو اقتصادية(٣).

وتوفي هرتزل في نفس هذا العام ١٩٠٤م. وبعد فشل جميع المساعي وكافة الإغراءات والعروض التي قدَّمها اليهود للسلطان، لم يكن أمام اليهود سوىٰ المؤامرات والدسائس من أجل عزل السلطان عبد الحميد، فقام اليهود بالفعل بالمضيّ في طريق إقصاء السلطان عبد الحميد عن الحكم، حتى يفسحَ الطريق أمامهم لتحقيق رغباتهم في استيطان فلسطين.

تطور النوايا الصهيونية بعد هرتزل:

وفي عام ١٩٠٥م عقد المؤتمر الصهيوني السابع في مدينة (بال) بسويسرا، وهو أول مؤتمر يعقد بعد وفاة (هرتزل) وقد تمَّ انتخاب الدكتور (ماكس نوردو)

---

(١) جاء في مذكرات هرتزل: «ابتدأ مرةً ثانية النزاع بين روما التي يمثّلها البابا، وبين القدس التي أمثّلها أنا» معتبراً أنَّ مركزه عند اليهود يماثل مركز البابا عند المسيحيين. (نقلاً عن يوميات هرتزل).

(٢) حسان علي حلاق، مرجع سابق، ص١٩٦.

(٣) يقول (البابا) في هذا الصدد عن وضع فلسطين: «أعرف أنَّ كونها الآن في حوزة الأتراك سيئ، وهذا ما علينا أن نتحمَّله، ولكن لا يمكن أبداً أن ندعمَ اليهود في الاستيلاء على هذه الأماكن المقدسة». ومن أجل ذلك أوضحَ أنَّ هناك احتمالين اثنين لدخول اليهود فلسطين: «إما أن يحتفظَ اليهود بإيمانهم القديم، ويبقوا على انتظارهم لمجيء المسيح الذي جاء بالنسبة لنا، فينكرون بذلك ألوهية يسوع المسيح، ولا يمكننا إذ ذاك مساعدتهم، أو أنهم يرغبون في الذهاب إلى فلسطين كشعبٍ لا دينَ له على الإطلاق، وفي تلك الحالة يكون تأييدنا لعملهم على درجةٍ أقلّ». انظر، حسان، ص١٩٦.

ليرأس المؤتمر، وطلب (د. ماكس) بضرورة التعاون بين الحركة الصهيونية والدولة العثمانية للوقوف ضد اليقظة العربية، التي تهدد كيان الدولة العثمانية، وأكَّد أنه من مصلحة تركيا ضرورة منع قيام شعبٍ قوي ومنظم في فلسطين وسوريا وذلك من أجل تجنُّب الحركات الثورية.

وقرر المؤتمر بأغلبيةٍ ساحقة رفض مشروع استيطان (أوغندا) مع رفض أيِّ مشروع بديل عن فلسطين، وأعلن المؤتمر أنه يشكر الحكومة البريطانية لعرضها توطين اليهود في (أوغندا) وأنَّ عرضهم هذا دليل اعترافهم بالمنظمة الصهيونية، وإيمانهم بضرورة إيجاد وطن لليهود، وأعرب المؤتمر عن أمله في مساعدة الحكومة الإنجليزية من أجل تحقيق مقررات مؤتمر (بال) وعلى الرغم من هذه التقريرات استمرت الحكومة العثمانية في معارضتها لهذا المشروع[١].

ورداً على هذا قامت المنظمة الصهيونية والدوائر البريطانية باتباع سياسةٍ أخرى، وهي الاعتماد على فعالية المال والرشوة من أجل تحقيق الأهداف الصهيونية، فقامت بالاتصال بـ(رشيد باشا) متصرف القدس لإغرائه بالمال ومساعدتهم فقام (رشيد باشا) بإرسال رسالةٍ إلى وزير الداخلية في إستانبول يطلب فيها السماح للمهاجرين اليهود الأجانب بتملُّك الأراضي، إلا أنَّ طلبَه هذا رُفض من قبل الحكومة العثمانية[٢].

في عام ١٩٠٥م زاد نشاط (جمعية الاتحاد والترقي) في مناطق سلانيك وكوسوفو ومناستر نظراً لنظام المراقبة الدولية الذي كان متَّبعاً برعاية كلٍّ من

---

(١) حسان علي حلاق، مرجع سابق، ص٢٠٧ـ٢٠٨.

(٢) وبخصوص نظام الرشوة الذي تفشَّىٰ بالدولة، يقول السلطان عبد الحميد: «إنَّ أصول الرشوة عندنا سيئة للغاية، إنها عمليةٌ تضرُّ مجتمعنا كثيراً، يمكن أن نصفحَ عن الهدية المقدَّمة إلى صغار الموظفين ممَّن قلَّت رواتبهم، وكثر عيالهم، في حال تأخر هذه الرواتب. لكنَّ كبار الموظفين يقبضون أساساً رواتب ضخمة، فعليهم أن يُحيلوا هذه الهدايا إلى خزينة الدولة لا أن يأخذوها، وليس ما يسعىٰ إليه الباشوات من اقتطاعٍ للامتيازات أهونُ شراً من تلك الهدايا، ولا ينبغي لأحدٍ أن ينحطَّ إلى درجة التعاون مع أدعياء الصناعة والاتصال بأشخاصٍ مشبوهين بحيث يؤثِّر على مكانتنا لدى رجال الصناعة والتجارة في الغرب» (السلطان، مذكراتي السياسية، مرجع سابق، ص٩٢ـ٩٣).

إنجلترا وفرنسا وروسيا والنمسا وإيطاليا فكانت كلُّ منطقةٍ تابعةً لمراقبة دولةٍ أو اثنين من هـذه الدول على الرغم من وجود مفتشٍ عثماني بها إلا أنه كان يفقد السيطرة على هذه المناطق بسبب دخول هذه الدول تبعاً لنظام الحماية الأجنبية الذي كان متَّبعاً في الدولة، ولهذا فقد تحدَّثنا من قبلُ أنَّ محفل سلانيك كان من أقوى المحافل الماسونية في الدولة، ومن هذا المحفل كانت سيطرةُ اليهود ـ وخاصةً يهود الدونمة ـ على مقدراتٍ كثيرة في نظام الدولة(١).

وقد أحدثت هذه الأحداث يقظةً فكرية وقومية من جانب العرب، فزادت الاحتجاجات والمظاهرات بعد عام ١٩٠٥م، الأمر الذي أدى بالدولة العثمانية إلى إصدار تعليماتٍ إلى متصرف القدس (رشيد باشا) بمنع تملُّك المهاجرين الأجانب بما فيهم اليهود للأراضي الفلسطينية.

وفي عام ١٩٠٦م أقام اليهود رابطةً صهيونية في إستانبول، وكان اليهود يأتون إلى فلسطين لغرضٍ ديني، ثم يستقرُّون بها، ويقيمون المستوطنات هناك. فكانوا يواجهون الهجمات الفلسطينية عليهم من كلِّ جانب، الأمرُ الذي حاول اليهود استغلاله في تقديم المساعدة العثمانية لمنع قيام الثورات العربية(٢).

وفي عام ١٩٠٦م أيضاً اتَّبع (بن غوريون) و(إسحاق بن زفي) أسلوباً جديداً في عملية الاستيطان، وهو مقاطعة اليد العاملة العربية، وتمَّ عزل المهاجرين اليهود ضمن مستعمراتٍ جماعية عُرفت باسم (الكيبوتس)(٣).

---

(١) حسان علي حلاق، مرجع سابق، ص٢١٨.

(٢) انظر حسان علي، مرجع سابق، ص٢٥٠ ـ ٢٥١.

(٣) والكيبوتس تستخدمها الصهيونية للإشارة إلى مستوطنةٍ تعاونية، تضمُّ جماعةً من المستوطنين اليهود، يعيشون ويعملون سوياً، وتعني تجميع المنفيين، وكانت في بداية الأمر تعتمد على الزراعة، ويسكنون في أماكن مملوكة للجماعة، ولا مكان للثروة أو الملكية الخاصة فيها، ويغلب عليها طابع المزرعة الكبيرة، ويتراوح عدد أفراد كلّ جماعة من (٣٠ ـ ١٥٠٠) نسمة.

وقد تمَّ تأسيس أول كيبوتس عام ١٩٠٩م في فلسطين، وكل كيبوتس مصمَّم بطريقةٍ خاصة، تعطيه القدرة على الدفاع عن نفسه، وكانت هذه الكيبوتسات أحياناً تؤسَّس في الليل، فكانت أول خط دفاع لليهود قبل قيام دولة إسرائيل، ولكل عضو في الكيبوتس عملٌ يؤديه إلى جانب تدريبه على حمل السلاح، وبعد قيام دولة إسرائيل لا يزال الكيبوتس=

قائم، وله مميزاته الخاصة في عمليات الدفاع وتجميع المستوطنين. وفي إحصاءٍ ظهر أنَّ ثلثَ ضباط الجيش الإسرائيلي، و(٢٥٪) من ضحايا حرب ١٩٦٧م، و(٦٠٪) من الطيارين الجدد كانوا يعيشون في مزارع الكيبوتس. بالإضافة إلى هذا فقد ثبت للقيادات الصهيونية أنَّ الكيبوتس هو الطريقة المثلى لاستيعاب المهاجرين في المجتمع. وحياة الكيبوتس الداخلية حياةٌ جماعية وليست فردية، وكانت في الماضي تتَّسم بشيءٍ من التقشُّف، حيث كانوا يسكنون بيوتاً صغيرة قريبة من بعضها، وكل واحدة عبارة عن غرفةٍ صغيرة يقطنها رجلٌ وامرأة، أما باقي الاحتياجات فهي جماعية مشتركة بينهم، والكيبوتس الآن بدأت مظاهر التقشف تنحصر منه، وتمَّ تشييد صالات حديثة واسعة لتناول الطعام بالإضافة إلى الوحدات السكنية الواسعة. (انظر عبد الوهاب المسيري، موسوعة المفاهيم والمصطلحات الصهيونية، ص٣٢٠ ـ ٣٢٤؛ وإيمان حمدي، دراسة بعنوان الأحزاب السياسية الإسرائيلية واستيعاب المهاجرين، ندوة الأحزاب والتنمية في الوطن العربي، مركز دراسات وبحوث الدول النامية، كانون الأول ـ ديسمبر ١٩٩٦م، ص٣ـ٩).

وفي أواخر العشرينيات بدأت هذه الكيبوتسات ترتبط بالأحزاب الصهيونية، وسعت إلى ضمّها في اتحادات، من أجل تشجيع الهجرة والاستيطان، ونشر اللغة العبرية، وكانت أيديلوجية الكيبوتس تقوم على المبادئ الاشتراكية والعلمانية. وقد نجح الكيبوتس مع اليهود الغربيين، لكنه لم ينجح كثيراً مع اليهود الشرقيين بسبب ميولهم الدينية التي ترفض المبادئ الاشتراكية والعلمانية.

ومن خلال مقالٍ جاء في صحيفة (أورتادغو) بعنوان (الرأي العام لإسرائيل) تحدَّثت فيه عن حالة أبناء إسرائيل الآن وباليهود الذين تربّوا داخل الكيبوتس، وشعورهم تجاه تركيا جاء فيه: «إنَّ إسرائيل التي ذهب إليها رئيس وزراء تركيا لعقد اتفاقياتٍ معها تبلغ نسبتها المئوية عُشْرَ تركيا وهي دولةٌ شابة، يبلغ دخل الفرد فيها (١٨٠٠٠) دولار، وعلى الرغم من أنَّ تاريخَ اليهود يرجع إلى آلاف السنين فإنَّ دولتهم حديثة، وفي متحف (دياسبورا) في تل أبيب عرضت صورٌ لنماذجَ من اليهود في أنحاء العالم، وبرغم أنهم من أجناسٍ مختلفة ويختلفون عن بعضهم فإنَّ تمسُّكهم بدينهم قد حمىٰ دولةَ اليهود وحقَّق لديهم الشعور بالقومية، وقد انعكس في إسرائيل التي تكوَّنت من أناسٍ جاؤوا من بيئاتٍ ثقافية مختلفة، حتى إنَّك أثناء التجوُّل في تل أبيب تشعر أنك تتجوَّل في أوروبا، وأحياناً تشعر أنك في شارعٍ من شوارع الدول العربية، وأحياناً أخرى تشعر أنك في تركيا.

إنَّ أول جيلٍ تـركَ أرضه وجاء لتأسيـس دولة إسرائيل عاش في (كيبوتس) ومراكـز الكيبوتس هي المراكز التي قوَّت الشعور بالأمة والدولة تحت علمٍ واحد، ويتكلّمون لغةً مشتركة على الرغم من أنهم تربّوا في بيئاتٍ ثقافية مختلفة، ويتحدَّثون لغاتٍ شتىٰ،

وأعلن (بن غوريون) في تلك الفترة أنَّ استعمار فلسطين لن يتمَّ إلا بجمع التبرعات والحصول على الامتيازات. وفي تلك الفترة ظهر نفوذ (الإليانس) وبدأت الحركة الصهيونية تتجه نحو الدين لتثبتَ أقدامها في الأراضي المقدسة بالإضافة إلى تمتُّع رجال الدين اليهود بنفوذٍ كبير[1].

وفي محاولة التنسيق بين طلب الجهود السياسية والعملية اجتمع (حاييم وايزمن) مع (آرثر بلفور) عام ١٩٠٦م من أجل طلب مساعدة بريطانيا لليهود، والعمل نحو تحقيق الأهداف الصهيونية. فقامت بريطانيا بمحاولة انتزاع خليج العقبة من الدولة العثمانية، كما حاولت استغلال العجز الاقتصادي الذي كانت تواجهه الدولة العثمانية ذلك الوقت في محاولةٍ للضغط عليها، وكانت ديون الدولة عام ١٩٠٦م تقدَّر بـ(٢٢٨,٠٠٠ و١٠٤) جنيه عثماني بفائدة (٤٪)، إلا أنَّ الدولة العثمانية رفضت محاولات الضغط عليها بهذا السبب[2].

وخلال عامي ١٩٠٧م - ١٩٠٨م قام العرب بتشكيل لجان لمواجهة الخطر اليهودي، وقاموا بعمليات إحراق وتخريب المؤسسات الأجنبية والصهيونية التي كان يقيمها اليهود هناك.

قام العرب بتأييد ثورة الاتحاديين ضد السلطان عبد الحميد حيث إنهم تصوَّروا أنَّ في هذه الثورة تحقيق مطالبهم في تحسُّن أحوال البلاد، ولكنَّ هذا التأييد لم يكن على مستوىٰ فئات الشعب العربي كلها، لأنها وجدت معارضةً في فلسطين وسوريا، وقامت مظاهراتٌ في إستانبول في تشرين الأول - أكتوبر ١٩٠٨م تطالب بإعادة الشريعة التي هاجمها الاتحاديون، وفي ذلك الوقت قام

= وتلك المراكز هي التي عملت على جعلهم مجتمعاً واحداً، والجيل الذي تربَّىٰ في الكيبوتس لا يريدُ حتى أن يتذكَّر سنين طفولته، ويقولون لا يوجد جيلٌ على ظهر الأرض عاش الحياة التي عشناها، فالآن يعيشون في منازل مريحة، ومسرورين من حياتهم الخاصة بعد أن كانوا يقيمون في مخيمات. وإنَّ مراكز الكيبوتس تستخدَمُ اليومَ كأماكن للترفيه وكمدنٍ جامعية». Oytun H. Sahin, Milli Gorus Israil, Ortadogu, Elylul 1998.

(١) حسان علي حلاق، مرجع سابق، ص٢١٣.

(٢) انظر المرجع السابق، ص٢١٥ - ٢١٦.

الاتحاديون بارتكاب العديد من المخالفات الدينية، منها نشر المراقص والملاهي في شتىٰ أنحاء البلاد[1].

---

(١) يقول رضا نور في مذكراته في مجال هجومه على الاتحاديين وقد أوردناها للدلالة على موقف هذا السياسي المفكر الإسلامي من الاتحاديين: «كان وضع المجلس على هذا الشكل: ليس لأيِّ نائبٍ برلماني رأيٌ ولا قوة، الآمر الناهي في المجلس البرلماني ثلاثة أو أربعة أشخاص: جاويد (من يهود الدونمة) وطلعت (ماسوني) وقراصو (يهودي دونمة أيضاً). وأخيراً قررتُ الدخول في معركةٍ معهم. وكان عملهم خطيراً. فكرتُ كثيراً. ثم كتبتُ مقالةً ونشرتها في جريدة (يني غزته) أوضحتُ فيها مدى استبداد (الاتحاد والترقي) في (مجلس المبعوثان) وقلتُ: لا أحدَ من أعضائه يمتلك الإرادة الحرة. قلت في مقالتي: إنَّ هذا ليس بمجلس، إنه ماكينة بسيطة لا روحَ فيها. تتحرك وعمود حركتها في يد رجالٍ مثل طلعت، وجاويد، وجاهد، وهؤلاء الرجال قد كوَّنوا فيما بينهم (شركة احتكارية). كان هذا المقال قنبلة، إذ لم يكتب أحدٌ، بل ولم يتكلم أحدٌ ضد الاتحاديين حتى كتابتي لهذا المقال، وبهذا أكون أول من رفع راية المعارضة في وجه الجمعية لأول مرة.

قلت لنفسي: ترىٰ هل أخطأتُ؟ الجو العام ضدي. معنىٰ هذا أنني أخطأتُ. فكَّرتُ ثانيةً وجدتُ نفسي أنني على حق. في ردهة البرلمان رآني طلعت (زعيم من كبار الاتحاديين). كان وجهه مثل الطين (على حد قوله) فقد كان طلعت يبدو هكذا إذا غضب، عدَّل مسارَه، وتوجَّه نحوي، مال على أذني، وقال: «جهِّز كفنك» كان هذا تهديداً فظيعاً، هل الخوف لم يستولِ عليّ؟! خفتُ فعلاً لدرجة أنَّ هواجسَ صوَّرت لي أنَّ الاتحاديين سيقتلونني فور خروجي من البرلمان. لم أعد أخرج من البيت في مساءٍ ولا بليل. كذلك لم أستقبل أحداً في بيتي، ومع ذلك فلم أتنازل عن أفكاري ولا حركاتي. ثم إذا بالمقالات تتوالىٰ ضد الاتحاديين. معنى هذا أنَّ كثيراً من الناس ضد الجمعية، كما صورت صحفٌ جديدة تعارض الجمعية. كان (جاهد) يكتب ضدي، ويكتب يهاجمني في جريدة (طنين).

أما صحف المعارضة فكالت لي المديح، وفي مقابل هجوم الصحافة على جمعية الاتحاد والترقي، قام الاتحاديون بإصدار مجموعةٍ عديدة من الصحف في كلٍّ من سلانيك ومناستر. وكانت هذه الصحف تتكلَّم بغرورٍ شديد. واحدة منها كانت تشتم ملك الصرب، وتقول: إنَّ الاتحاديين سيتوجَّهون للاستيلاء على بلغراد، كانت هذه الصحف تتحدَّىٰ العالم كلَّه. واحدٌ من الصحافيين المعارضين كان اسمه (تحسين السلاحي) نسبةً إلى جريدته التي كان يصدرها باسم (السلاح) لم يترك هذا الرجل شيئاً لم يقله. وأخيراً أصدر (طلعت) (وهو مَنْ هو في رئاسة جمعية الاتحاد) أمرَه بقتل تحسين هذا، مع وضع جثته في جوال، السبب في ذلك أنَّ تحسين عارضَ طلعت. لقد=

= كان الاتحاديون يذبحون كلَّ من يعارضهم، ولو كان المعارضون من رجالهم أنفسهم. (مذكرات رضا نور، ص١٦ ـ ٢١ في مجلة المجتمع الكويتية، العدد (٥٣٣)، حزيران ـ يونيو ١٩٨١م).

وعن رأي رشيد رضا في سياسة الاتحاديين فقد أوضحَ دورَها في تنفيذ أحكام الدستور، وتحدَّثَ عن سلوكها مع المستبدّين، وأوضحَ لنا الأخطاء التي وقعت فيها. وخاصةً الدور الذي قامت به في سوريا فقال: أخذت جمعية الاتحاد والترقي على نفسها كفالة الدستور وحفظه، فألَّفت لها لجاناً، وأحدثت لها شُعَباً في جميع بلاد السلطنة، وأبعدت أعوان السلطان عنه، وسعت في محاكمة بعض المعروفين بالظلم منهم، وتدخلت في انتقاء الحكام والعمال وانتخاب المبعوثين، انتدبت للقيام بكلِّ ما قلنا إنه لازمٌ واجبٌ ـ لا لأننا قلنا، بل لأنها تعلم ما علمنا ـ ولكنها لم تحسن العمل في كلِّ ما تشبَّثت فيتم سرورنا بعملها، سافرنا إلى الديار السورية، وزرنا أهم مدن الولايتين، ورأينا تصرُّفَ جمعية الاتحاد والترقي فيها، وما كان من عمل (اللجنة المرخصة) التي أرسلتها من سلانيك، فرأينا خللاً وخطلاً وسوءَ تصرُّف، كنا نعتذر عنه للناقمين عليها، حتى إنه لم يوجد لها مَنْ دافعَ عنها كما دافعنا، وليس تفصيلُ تصرفها في سوريا من موضوع هذا المقال الذي وضع لبيان الحالة العامة.

١ ـ إنَّ سلوك الجمعية مع أعوان الاستبداد لم يكن سلوكَ من يريد القضاء على الاستبداد، بإزالة نفوذ أهله، وإخضاعهم للدستور، بل سلوك مَنْ اغتنمَ الفرصة للاستفادة منهم، فقد كانت تؤخذ المبالغ الكبيرة منهم وتدعُهم وشأنَهم، أو تضمُّهم إليها، وقد حدَّثني الثقات من أهل الشام أنَّ اللجنة المرخصة التي ذهبت لأجل التحقق في الحادثة التي جرت لي في آخر شهر رمضان قد أخذت مبلغاً عظيماً من النقود باسم الإعانة للجمعية من رؤساء الفتنة وزعماء الاستبداد الذين بلغَ من جنونهم في محاربة الدستور أنهم تحدَّثوا بنصبِ خليفةٍ في الشام يبايعونه ويقاومون به الحكومة الدستورية.

٢ ـ إنها لم تحسن انتقاء العمال والحكام، فقد ساعدت كثيرين من أعوان الاستبداد، على الترقي في الوظائف، وأهملت شأنَ كثيرٍ من الأحرار والمجربين، وقد كان أكبر رجاءٍ لي في حكومتنا الجديدة الإنصاف في اختيار الموظفين من الأكفاء لا سيما بين المجربين في مثل مصر، ويتَّهمون الجمعية بأنها كانت تبيع الوظائف العالية بالمال، والله أعلم بحقيقة الحال.

٣ ـ إنها جعلت همَّ لجانها في جميع البلاد النفوذَ في الحكومة، لا مجرد الرقابة عليها، لئلا تخرج عن القوانين ولا مساعدتها على حفظ الأمن الذي اختلَّ بعد إعلان الدستور في جميع الولايات، كل ولاية بحسب درجتها في الأخلاق، وحال الاجتماع. =

= ٤ ـ إنها لم تحسن الانتقاء والاختيار في تأليف شُعبها ولجانها، فأدخلت فيها كثيراً من المتقهقرين أو الرجعيين. وظهر في بعض لجانها التعصُّب للجنس التركي، حتى يكاد يكون الأعضاء من الترك هم أصحاب الشأن، ومن معهم من غيرهم كالآلات. وقد سمعتُ كثيراً من الشكوىٰ في ذلك فكنت أدافع بالتي هي أحسن.

٥ ـ حمل الضباط في جميع البلاد على الاشتغال بالسياسة، وجعل نفوذهم هو الأعلى في لجان الجمعية، وهذا خطرٌ على الدولة، كان يجب التشدد في منعه، والاكتفاء بأن يكون بين الجمعية وبين الضباط صلةٌ خفية، كما قلنا، وانصراف كلٌّ إلى عمله: الضباط إلى العمل العسكري المحض، الذي لا شائبةَ فيه للسياسة، والجمعية لمراقبة سير الدستور من غير مشاركة الضباط في ذلك. فإن ظهرت قوةٌ تسعىٰ لإلغاء الدستور، وإبطال مجلس الأمة، أو الاستبداد والظلم، جازَ حينئذٍ استنجاد الجمعية بالضباط لمقاومة ذلك. وأنه لا يختلف عاقلان من علماء الاجتماع في وجوب منع الضباط من الاشتغال بالسياسة والإدارة حتى إذا أبَوا أُخرِجوا من الجيش، وفي كون الجندي الذي يدخل في الثورة يكون خطراً على الأمة، فإذا لم يتيسَّر استصلاحه حالاً، وجبَ إخراجُه من الجندية أو قتله.

٦ ـ تصرُّفها مع السلطان. انتقد عليها شيءٌ منه، لا نحبُّ الخوض فيه، ولكننا نقول: إنَّ الذين يرون أنَّ السلطان هو روح الحركة التي وجهت في هذه الأيام إلى إسقاط الجمعية يقولون: لولا أنها أحرجته لما كان شيءٌ من ذلك.

٧ ـ سيرتها في حمل الناس على انتخاب المبعوثين: رأيتُ بعيني بعضَ ذلك في طرابلس الشام، وقد كنت أدافع عن الجمعية بقدر الإمكان لئلا تشتدَّ الفتنةُ ويستشري الفساد.

٨ ـ طريقة تأييد نفوذ الجمعية في (مجلس المبعوثان) بما كاد يكون مهدِّداً لسائر الأعضاء، سالباً لاستقلالهم.

٩ ـ العبث باستقلال الوزارة بحيث كانت الجمعية مانعةً من وجود وزارةٍ مستقلة مسؤولة أمام مجلس الأمة وحده عن عملها.

١٠ ـ ظهورها بمظهر السلطة المستبدة غير المسؤولة، حتى صرتَ تسمع من العثماني الحر والمتقهقر ومن الأجنبي المتطرف والمعتدل هذه الكلمة التي أذاعتها الجرائد: إنَّ (جمعية الاتحاد والترقي) قد أزالت استبداد المابين، وأبدلت منه استبدادَها هي. وتفرَّعَ عن هذه الكلمة كلامٌ كثير، منه قول الكثيرين: إنَّ استبداد السلطان ابن السلطان ابن السلطان أهونُ علينا من استبدادِ أوشابٍ من الناس، لا يُعرَفون، فإنَّ السلطان أشرفُ منهم، والذل له أقلُّ عاراً من الذل لهم، وإرضاءه أسهل من إرضائهم، لأنه شخصٌ =

أيضاً حدثت العديد من الاحتجاجات من قبل الفلسطينيين تجاه استيطان اليهـود، وظلّت هذه الحملات حتى عام ١٩٠٩م حيث أجبرَ النـوّابُ العربُ في (مجلس المبعوثان) الصدرَ الأعظم بإعلان عدم السماح لليهود استيطان فلسطين في الوقت الذي أجبروا فيه وزير الداخلية بإعلان معارضته للأهداف الصهيونية[١].

من ناحيةٍ أخرى اتهمت (جمعية الاتحاد والترقي) السلطانَ عبد الحميد بتدبير حادثة (٣١) آذار ـ مارس[٢].

= واحد يمكن أن يعرف ما يرضيه، ولا يعرف ما يرضي هؤلاء الكثيرين. (وقائع وأخبار الدولة العثمانية، مجلة المنار، ص٢٣٤ ـ ٢٣٧).

ويقول أيضاً: لم يحصل بعد الدستور شيءٌ من السلطة يُحمد إلا هدوء الآستانة، وحسن السير في حل مشكلتي البوسنة والبلغار، وكان الفضل الأكبر في ذلك لكامل باشا، ولكن الجمعية لم تلبث أن أسقطت كاملاً من كرسي الصدارة، وغيَّرت وزارته، لأنه كان معارضاً لنفوذها الفعلي في الحكومة، فانتقدَ (ساسة أوروبا) هذا العمل، وعدّوه استبداداً من الجمعية في الحكومة، وقال بمثل قولهم كثيرون في الدولة، لأنهم لم يصدِّقوا أنه كان مضاداً للدستور كما ادعت. ثم قتل (حسن بك فهمي) رئيس تحرير جريدة (سر بستي) غيلةً، ففهم السواد الأعظم في الآستانة وغيرها أنَّ الجمعية هي التي اغتالته، لأنه كان ينتقد أعمالَها، فاشتد السخط عليها، وانفجر بركانه، وكان بعضُ أعضاء الجمعية اقترح في مجلس الأمة تقييد حرية المطبوعات، ونشرَ في أثناء ذلك مقال (كامل باشا) الذي بيَّن فيه سبب إسقاط الجمعية لوزارته، وما كان من شأنه وشأنها قبل ذلك، ولم تحسن الجمعية التصرُّفَ في شأن حادثة قتل (حسن فهمي) الذي عُدَّ قتله قتلاً للحرية الشخصية، واستقلال الفكر، فثارت الآستانة على الجمعية، وكان ابتداء الثورة يوم دفن (حسن بك فهمي) فسقطت وزارة (حسين حلمي باشا) التي هي وزارة الجمعية بعد أن أهينَ لمروره بمركبته من مكان تشييع الجنازة، وعدم حضورها تبعاً لزعماء الجمعية الذين لم يحضروها. وفرَّ أعضاء الجمعية هاربين من الآستانة، وقتل كثيرون من البرآء، وجرح آخرون، ودمرت أندية الجمعية، واُدِّارت بعض جرائدها، واستحوذ الرعب على أهل العاصمة، وخافوا من سوء العاقبة. (انظر وقائع وأخبار الدولة العثمانية، مجلة المنار، ص٢٣٧ ـ ٢٣٨).

(١) رفيق شاكر، مرجع سابق، ص١٧٦.

(٢) تتمثَّل هذه الحادثـة في قيام بعض الجنـود بقتل بعض ضباطهم الشبان بحجـة: أنهم يخالفون الإسلام في تصرفاتهم، مع المناداة بعودة العمل بالشريعة الإسلامية، وإبعاد=

ويمكننا القول: إنَّ «منعَ السلطان العثماني من تحقيق هدف إنشاء دولةٍ يهودية في فلسطين، كلَّفه فقدان عرشه، وأدىٰ هذا فيما بعدُ إلى انهيار الدولة العثمانية كلها» على الرغم من أنَّ السلطان العثماني كان يدرك: أنَّ «اليهود يمتلكون قوى كثيرة تستطيع النجاح في العمل المنظم، فالمال كان عندهم، والعلاقات التجارية الدولية كانت في أيديهم، كما كانوا يمتلكون الصحافة الأوروبية والمحافل الماسونية»[1].

وعندما خاب هرتزل في مسعاه لدىٰ السلطان العثماني، اشتدَّ العداء ضدَّه، وهذا ما كان يتوقَّعه عبد الحميد، لأنَّ اليهود قومٌ يتقنون العمل المنظم، وكانت لديهم قوى عديدة تضمن لهم النجاح في مسعاهم، وكانت صحافة أوروبا في قبضتهم، فكان في مقدورهم إطلاق العواصف التي يريدونها لدىٰ الرأي العالمي متى شاؤوا. . .».

وقد بدؤوا أولاً بتحريك تطبيق (الدستور) في الصحافة العالمية، ثم أخذوا بتوحيد أعداء عبد الحميد في المجتمع العثماني، فإذا بأنصار المشروطية يتَّخذون طابعاً منظماً وهجومياً، علماً بأنهم كانوا حتى ذلك الوقت متفرقين، ويعملون دون نظامٍ ودون تنسيق، إذ لم يكن صعباً عليهم توحيد أعداء عبد الحميد الذين نشؤوا في المجتمع العثماني. وقد أخذَ (المشرق الأعظم) الماسوني الإيطالي على عاتقه هذه المهمة في توحيد وتنسيق هؤلاء الأعداء،

= ضباط الاتحاد والترقي عن الحكم، ويقول أغلبُ المؤرخين: إنَّ هذه الحادثة ما هي إلا تمثيلية سياسية قامت بها (جمعية الاتحاد والترقي) من أجل إسقاط السلطان عبد الحميد ومن المصادر من يقول: إنَّ هذه الحادثة دبِّرت من قبل اليهود بغرض القضاء على السلطان عبد الحميد، وتحقيق هدفهم في السماح بإقامة وطنٍ قومي لهم في فلسطين. (محمد حرب، السلطان عبد الحميد آخر السلاطين العثمانيين الكبار، مرجع سابق، ص٤٦ ـ ٤٧).

(١) محمد حرب، السلطان عبد الحميد آخر السلاطين العثمانيين الكبار، مرجع سابق، ص٨٨؛ نقلاً عن (جريدة بويوك ضوغو) في مقالٍ لمحرم فوزي طوغاي بعنوان: (فلسطين والمسألة اليهودية) والتي نشرت في تاريخ ٢/ ٥/ ١٩٤٧م، العدد (٦١).

حيث إنه كـان أقرب مركزٍ ماسوني للدولة العثمانية. ولعب محفل (مقدونيا ريزورتا) (macedonia risorta) ومحفل (سلانيك) دوراً ملحوظاً...[1].

وكانت سلانيك مركزَ النشاط اليهودي في البداية، ثم اكتشفوا فائدةَ منظمةٍ أخرى وهي (الماسونية) ولمّا كان يصعب على عبد الحميد أن يعملَ في سلانيك بنفس الحرية التي كان يتمتع بها في الأجزاء الأخرى من الإمبراطورية، فإنَّ المحافل الماسونية القديمة في تلك المدينة استمرت تعمل دون انقطاع ـ بطريقةٍ سرية ـ وضمَّت إلى عضويتها عدداً ممن كانوا يرحِّبون بفكرة خلع عبد الحميد، واستخدمت هذه المحافل السرية لتكون أماكن للاجتماع[2].

ويمكن لنـا أن نستخلصَ الخطوات اليهودية في استيطان فلسطين، ومحاولات السيطرة عليها من البداية، وعلاقاتها بالدولة العثمانية في النقاط التالية:

١ ـ محاولة اليهود السيطرة على فلسطين عام ١٧٩٨م حينما أيَّدهم فيها نـابليون خلال حملته على الشرق فكان اليهود من الممولين الأوائل للحملـة الفرنسية.

٢ ـ تـأييد بريطانيا لليهود بعد فشـل أهداف الحملة الفرنسـية، ففي عام ١٨٣٨م افتتحت أول قنصلية بريطانيا في القدس، وأعلنت حماية بريطانيا لليهود في فلسطين، وكان لإنجلترا اعتبارات لتحقيق هذه الحماية، منها وأهمها **إبعاد أي قوةٍ تهددها في وجودها في قناة السويس.**

٣ ـ عـام ١٨٤٥م طالبت بريطانيـا الحكومة العثمانية بطرد المسلمين من فلسـطين، وإحلال اليهود مكانهم، ولكن قوبل هذا الطلب بـالرفض من قبل الحكومة العثمانية.

٤ ـ محاولة السيطرة على فلسطين عام ١٨٧٥م بمعاونة الإنجليز في شراء أسـهم قناة السويس عن طريق التمويل اليهودي، وخاصةً عائلة (روتشـيلد)

---

(١) أورخان محمد علي، مرجع سابق، ص٢٨١ ـ ٢٨٢.
(٢) المرجع السابق، ص٢٨٣.

اليهودية الثرية، فكان هدف هذا التمويل هو سيطرة اليهود على فلسطين.

٥ ـ عام ١٨٨٢م تزايدت الهجرة اليهودية إلى فلسطين، وقد أصدرت الحكومة العثمانية قوانين تحدُّ من هذه الهجرة.

٦ ـ المساعي اليهودية لاستيطان فلسطين التي تبلورت في مؤتمر (بال) عام ١٨٩٧م برئاسة (هرتزل) والتي طالبت بضرورة إقامة وطنٍ لليهود في فلسطين، وقد قابلتها الحكومة العثمانية بقوانين صارمة إلا أنهم كانوا يتسرَّبون إليها عن طريق الرشوة، والتسلل، مستغلّين وضع الدولة الاقتصادي الذي كان متردياً في تلك الفترة.

٧ ـ الدور الذي قام به الإقطاع في بيع أراضي فلسطين لليهود، وخاصةً اللبنانيين أمثال عائلات (سرسق) و(تويني) و(مدور). ومن فلسطين عائلات (كسار) و(روك) و(خوري) و(حنا) وغيرهم، وكان ذلك في عام ١٨٨٦م.

٨ ـ الدور الذي قامت به (جمعية الاتحاد والترقي) وعلى رأسها القادة اليهود والماسون في الثورات التي أدَّت إلى عزل السلطان عبد الحميد، الذي كان العقبة الكبرىٰ في طريق الحركة الصهيونية وذلك عام ١٩٠٨م ـ ١٩٠٩م.

٩ ـ الدور الذي قامت به الدول الأوروبية في مساعدة اليهود لاستيطان فلسطين من أجل الحصول على امتيازاتٍ لها في المنطقة، والذي استمرَّ على طول هذه الأعوام حتى عام ١٩٠٩م.

وفي هذا الصدد ينبغي لنا أن نذكرَ أنَّ المجتمع اليهودي في تركيا قد مرَّ بثلاثة مراحل:

المرحلة الأولىٰ: وتمثّلت في اليهود المهاجرين من إسبانيا والبرتغال وإيطاليا والمهاجرين من النمسا والمجر وروسيا وألمانيا وبولندا، نتيجة الاضطهاد الذي واجهوه في تلك البلاد، وهؤلاء عاشوا في ظلِّ الدولة العثمانية، واكتسبوا منها الحرية الدينية والأمان. وقد نشر هؤلاء خبراتهم التي استمدُّوها من البلاد التي كانوا يعيشون فيها، فظهر في البلاد استخدام البنادق، وصناعة المدفع بسبب خبرتهم في صناعة السلاح، كما ظهر في الدولة أول مطبعة في الأراضي

العثمانية بعد مرور خمسين سنة على ظهور مطبعة غوتنبرغ في القرنين (١٦ ـ ١٨) وكانت مدينة إستانبول مركزَ الطباعة العبرية في الدولة، ومن أشهر الشخصيات التي برعت في مجال الطباعة (صموئيل محياس) و(دافيد) اللذان نفيا من إسبانيا، وعائلة (صونسينو) وأصلها من إيطاليا.

ومن ناحيةٍ أخرى نشطت حركة الاقتصاد في الدولة عن طريق الشركات اليهودية، والعلاقات التي كانت تقيمها مع أوروبا، حيث إنهم كانوا يمدُّون الدولة بالوضع المالي والاقتصادي للدول الأوروبية، وتؤكد المراجع المختلفة أنَّ يهودَ إستانبول كانوا يديرون أنشطةً تبلغ (٢٠) مهنة مختلفة.

المرحلة الثانية: تمثّلت في ظهور الحركات اليهودية، والتي أُطلِقَ عليها اسم (حركات التحرير) وكان ذلك خلال القرن السابع عشر، وتمثّلت هذه الحركات في الدعوة إلى استيطان فلسطين عن طريق هجرة اليهود إليها، وقد سببت هذه الحركات توتُّراً في العلاقات العثمانية اليهودية.

والمرحلة الثالثة: في القرن التاسع عشر حينما منحت الدولة العثمانية اليهودَ امتيازاتٍ وحقوق قانونية لهم، كما منحتهم حرية العبادة، وتكوين التنظيمات، في تلك الفترة لاقىٰ اليهود معاملةً طيبة من السلطان عبد الحميد، ويشهد بهذه المعاملة اليهود المقرَّبون من السلطان وهو (أرمينوس فامبيري) وكان صديقاً شخصياً للسلطان عبد الحميد[1].

أما المؤسسات التي أنشأتها المنظمة الصهيونية لتحقيق أغراضهم في استيطان فلسطين فكانت:

أ ـ (البنك الاستيطاني اليهودي)(The jewish colonial trust) بمؤسساته المتفرعة، وهو شركةٌ مسجلة في لندن سنة ١٨٩٩م كجهازٍ مالي للمنظمة الصهيونية، برأسمال قدره (٢) مليون جنيه إسترليني، من أجل تطوير فلسطين والبلاد المجاورة صناعياً وتجارياً، وكان يعمل في فلسطين عن طريق:

---

(١) عايدة العلي، دول المثلث، مرجع سابق، ص٣٢٥.

ب ـ (بنك أنجلو ـ فلسطين) وفروعه في يافا، والقدس، وحيفا، وصفد، وبيروت، والخليل، وطبريا، وغزة، وهو شركةٌ مسجلة في لندن برأسمال قدره (١٠٠,٠٠٠) جنيه (عام ١٩٠٣م) كشركةٍ متفرعة من Trust لمنح قروضٍ للأغراض الصناعية والتجارية.

جـ ـ (الصندوق القومي اليهودي) أو ما يطلق عليه بالعبرية (كيرين كاييمت) المسجل كشركةٍ إنجليزية سنة ١٩٠٢م، اكتتب له (٣٠٠٠٠٠) جنيه إسترليني، وهدفه الرئيس جمع الأموال بشتىٰ السبل للحصول على أرضٍ في فلسطين للشعب اليهودي، لا تنتقل ملكيتها، وإنما تؤجر لفترةٍ لا تزيد على (٤٩) سنة، بعقود إيجار يدفع المستوطن بموجبها إيجاراً سنوياً من (٢ إلى ٣٪) حسب قيمة الأرض. وحسب نظام هذا الصندوق فإنَّ ثلثي أمواله تخصَّص للشراء، والثلث الباقي احتياطي. ومع اهتمامه بشراء الأرض، فقد شارك إلى حدٍّ ما في عملية تحسين الأراضي وتشجيرها، وبناء بيوت للعمال وأحياءً جديدة في تل أبيب.

د ـ (شركة تطوير الأراضي)(Palestine land development) التي اقترح روبين تأسيسها عام ١٩٠٧م وسجلت في إنجلترا سنة ١٩٠٩م برأسمال قدره (١٧٥٠٠) جنيه إسترليني، وخطَّتها تتركز في الحصول على الأراضي (للصندوق القومي اليهودي) وشركات الاستيطان الخاصة والأفراد، من أجل إعادة بيعها لمستوطنين في المستقبل.

هـ ـ وشركة the (Eretz Israel) colonization Association Coopetative Settlement.

وتأسست عام ١٩١٠م من أجل تشجيع ومساعدة تأسيس جمعيات زراعية تعاونية في فلسطين[١].

---

(١) خيرية قاسمية، مرجع سابق، ص٥٦ ـ ٧٥؛ قامت جريدة (المنار) بعرض كتابٍ للزعيم الصهيوني (أوسيشكن)والذي ترجمته جريدة فلسطين إلى اللغة العربية «عن تدرُّج الصهيونية لاستيطان فلسطين، وبلوغها لغرضها» وذلك في الفصل الثالث من الكتاب جاء فيه: إنَّ سبب قلة نجاح الحركة الصهيونية في الخمس وعشرين سنة الأخيرة يرجع=

= معظمه إلى النقص في العمل - فجمعية (محبة صهيون) لم تهتم في بحر عشر سنوات في غير أمر البلاد، وحالة الأرض فقط، ولم تعرف أنْ تحوّلَ هذه الحركة إلى حركة رسميةً سياسيةً، ولم تجرب أن تستميلَ إليها الدول الأجنبية، بل اكتفت بأن تظهرَ في مظهر المحسن بإنشاء بضع مستعمراتٍ تعيشُ من مال الإحسان، ولذلك انتهت هذه المدة الأولى من تاريخ الصهيونية بأزمة سنة ١٨٩١.

على أنَّ المدة الثانية التي تلت الأزمة وهي مدة انتشار الصهيونية الروحية، لم تكن بأسعد حظاً من الأولى، فقد أُهمل فيها أمرُ البلاد كما أُهمل في التي قبلها أمرُ الظروف الخارجية. وبعد خمس سنين انصرفتْ في أثنائها جميعُ المساعي إلى التعليم الداخلي، وتنبيه الشعور العقلي فقط، نبغَ عددٌ قليل من العاطلين، فلم يجدوا لما تعلّموه فائدةً محسوسة أو عملاً مادياً، وأصبحت الحركة الصهيونية مهددةً بالموت - إلى أن عقد المؤتمر الأول، فابتدأت به المدة الثالثة، وهي عصر الصهيونية الذهبي، فبعثت الحركة من مرقدها، ودبّت في الأمة روحٌ جديدة، لأنها وجدت في المؤتمر ضالتها، ووافقت قراراتُه هوًى في نفسها. إنَّ جميع الصهاينة الحقيقيين أصحاب ومفكري الأمة رأوا في برامج مؤتمر (بال) الأول إدغام البرامج السابقة بأخرى جديدة، حوت صفوةَ ما تقرّر، وخلاصةَ رغبات الأمة، ولا سيما في تصريحه جلياً على مسمع من العالم أجمع بأننا نجاهد لإنشاء حكومةٍ يهودية في فلسطين، وأنه لا بدَّ أن نصلَ إلى هذه الغاية من أربعة أمور:

١ - امتلاك فلسطين اقتصادياً وأدبياً.

٢ - تنظيم قوى الشعب، وإنشاء رؤوس أموال عامة له.

٣ - إنماء الشعور القومي في الشعب وترقيته.

٤ - السعي بكلِّ طرق السياسة لجعل الظروف الخارجية موافقةً لنا.

وفي الحقيقة إنَّ الشجاعة الأدبية التي أظهرها هذا المؤتمر في إعلان حقوق الأمة الإسرائيلية على فلسطين، والخطة الجلية الصريحة التي رسمها لبلوغ هذه الغاية، والقوة المعنوية التي تجلّت من خلال أبحاثه، كان فعلُها في الشعب اليهودي فعلَ المعجزات. فإنه تنبّه من سباته العميق، وفي كلِّ محلٍّ بلغت إليه أخبار المؤتمر عقدت الاجتماعات، وألقيت الخطب، فأسست الجمعيات، وتألفت الشركات.

ومنذ ذلك الحين أخذ العمل يتقدّم بسرعةٍ وبجدٍّ واجتهاد عظيمين، فاشتدَّ ساعد الجمعية الصهيونية، وأنشأ صندوق المال، وانضمّت لها قوى سياسية خارجية، وظهر لنا من نتيجة مقابلات الملوك والوزراء بأنَّ حركتها ستنمو وتتقوّى على مرِّ الأيام. غير أنَّ القريب من مركز إدارة هذه الحركة والواقف على مجرياتها، يلاحظ في الحال أنَّ الخطأ=

= العظيم الذي كانت الصهيونية تتألّم منه في مدّتيها الأولى والثانية ـ وأعني به قيادة الحركة من جهةٍ واحدة فقط وتوحيد المساعي وصرفها وراء نقطةٍ واحدة من نقط البرنامج ـ ما زال يرتكب حتى الآن، وذلك بسعينا وراء العمل السياسي فقط لاجتناب العقبات الخارجية، أما الجهات الأخرى فلم يلتفت إليها، بل أهملت بالكلية.

فالأمر الأول من برنامج مؤتمر (بال) هو امتلاك (فلسطين) اقتصادياً وأدبياً، كان من نتيجة قلة الاهتمام به أنَّ اللجنة التي عيَّنها المؤتمر للنظر في المسائل الاستعمارية لم تعمل شيئاً، لأنه لم يدخل صندوقَها شيءٌ من المال، ووجد مديرو هذه الحركة في فلسطين أنفسهم بعد ست سنوات أنهم لم يتقدَّموا خطوةً إلى الأمام، بل ظلوا في النقطة ذاتها التي ابتدؤوا منها.

ثم إنَّ الآداب الإسرائيلية لم تتقدَّم أيضاً تقدماً محسوساً، وكانت مسألة البحث في إحيائها تبدو في كلِّ مؤتمرٍ كشبحٍ مرعب. والدليل على ذلك النجاح البطيء الذي صادفته اللغة العبرانية في السبع السنوات الأخيرة، مع أنها من أكبر العوامل على تنبه الشعور القومي.

وجاء في الفصل الخامس من الكتاب أنَّ النقطة الأساسية في برنامج مؤتمر (بال) هي إنشاء وطنٍ سياسي حر مستقل للشعب الإسرائيلي في فلسطين. ويفهم من هذا بوضوح أنَّ الغاية الوحيدة من الحركة الصهيونية هي إنشاء بلادٍ ذات سياسية حرة مستقلة لليهود في فلسطين، لإيجاد ملجأ أو مركز روحي لهم، وقد ذُكِرَتْ فلسطين ولم يُذكر غيرها، لأنَّ كلَّ سعي يرمي إلى بلادٍ غير فلسطين ليس هو من الصهيونية في شيء، وأحرىٰ بالقائمين به ألاَّ يستظلُّوا بالعلم الصهيوني لنشر فكرتهم. ولذلك أصبحَ من واجب المؤتمر السابع أن يهدمَ ما وضعه أولئك المنافقون المتظاهرون بالصهيونية، ويزيدَ على برنامج المؤتمر الأول كلمةً واحدة لها معنى كبير وهي كلمة «فقط» أي «فلسطين فقط».

ويحتاط بمادةٍ أخرى يضيفها إلى القوانين الأساسية الصهيونية تضمن لمجموعها عدم التنقيح والتغيير فيها.

وهنالك أيضاً أشياء أخرى يجب على المؤتمر تقريرها. منها: أن يصادق على طرق العمل التي وردت في المواد الأربع المذكورة في برنامج مؤتمر (بال) وأن لا ينقص حرفٌ منها، ولا يزيد عليها شيءٌ من شأنه أن يصرفَ الأذهان إلى طرقٍ أخرى، كإنشاء ملاجئ، أو مستعمرات خيرية، فإذا عمل ذلك سهل عليه إنهاض الحركة من كبوتها، والقبض على أزمَّتها، والسير بها في أقوم طريق.

وها نحن أولاء نأتي الآن على شرح تلك المواد الأربع من برنامج مؤتمر بال، لا كما وردت بالترتيب، ولكن بحسب درجاتها في الأهمية، وما يترآىٰ لنا من سهولة تناولها. =

= ويعلّق (رشيد رضا) على فصول هذا الكتاب بقوله: لو لم ينشر من هذا الكتاب الصهيوني إلا هذه الفصول لكفت من يعتبر من العرب الفلسطينيين وغيرهم عبرةً وبياناً لمقاصد هؤلاء الصهاينة. وليعلم من لم يكن يعلم دينَ هذه الأمة وتاريخَها أنَّ الصهاينة إذا تمَّ لهم ما يريدون، فإنَّهم لا يُبقون في (أرض الميعاد) التي يؤسِّسون ملكهم الجديد فيها مسلماً ولا نصرانياً. وليست أرض الميعاد فلسطين عندهم ما نسميه نحن الآن فلسطين فقط، بل هي في عرفهم وتحديد كتبهم الدينية تمتد إلى سوريا حتى (النهر الكبير) أي نهر الفرات. فهذه بلادٌ لا يجوز عندهم أن يقيمَ فيها أحدٌ غير الإسرائيليين. وفي سفر (تثنية الاشتراع) أنَّ الرب أمرهم عند دخولهم فيها بعد خروجهم من مصر على يد موسى عليه السلام أن لا يستبقوا من أهلها نسمةً ما ـ والنص في ذلك تجده في باب الفتاوىٰ ـ نعم إنهم لا يبيدون الآن من فيها من غير اليهود بالسيف والنار كما فعل أسلافهم من قبل، بل يبيدونهم بقوَّتَي **الكيد والمال**، وهما قوتان لهذا الشعب الصغير، ترهبهما كبرىٰ الأمم والدول، حتى إنَّ دولة روسيا القوية القاهرة أنشأت تستميل في هذه الأيام يهودَ بلادها على قلَّتهم، لئلا يُحدثوا فيها أحداثاً وفتناً داخلية تزلزل أقدامها في هذه الحرب التي تقتضي مصلحة الدول المحاربة فيها أن لا يكون لها شاغلٌ داخلي يشغلها، فماذا عسىٰ أن يفعل العرب أصحاب فلسطين من أسباب المحافظة على وطنهم وأملاكهم فيه، وعلى جهلهم أيضاً بقوة أنفسهم، وبطريق الانتفاع بها، لا أقول: إنه لا يمكن أن يعملوا، ولكن أقول: لا بدَّ من الروية والحزم وقوة الاجتماع، ولا بدَّ من المسارعة إلى تنظيم وسائل الدفاع، وليعلموا **أنه لا يكاد يوجدُ شعبٌ من شعوب الأرض غافلٌ عن قوَّته واستعداده كالشعب العربي. فقوَّتُه واستعداده كامنان فيه كمونَ النار في حجر الصوان تحت الثلج، فمن ذا الذي يزيل أو يذيب الثلج عن هذا الحجر الصلد، وأين مقدحةُ الحديدِ التي تقدحُ النارَ من هذا الزند؟** ستجيب عن هذين السؤالين الأيام، فإنَّ الجوابَ عنهما أحداثٌ وأفعالٌ لا أحاديثُ ولا كلام. (وقائع وأخبار الدولة العثمانية، رشيد رضا، مجلة المنار، ١٧ : ٩/ ٧٠٧ـ٧٠٨).

* * *

الفصل الثالث

اليهود والسلطان العثماني عبد الحميد الثاني

معاملة السلطان عبد الحميد الثاني ليهود الدولة:

تولّى السلطان عبد الحميد عرش الدولة العثمانية في ٧/ ٩/ ١٨٧٦م، وقد حكم الدولة مدة أربعة وثلاثين عاماً (١٨٧٦ ـ ١٩٠٩م). وفي عهده كانت الأزمات تحيطُ بالدولة من كل جانب، فقد كانت أوضاع البلاد الاقتصادية متدهورة، والجيش ضعيفُ القوى، وكان الشعب ينادي بالحكم البرلماني، هذا إلى جانب المؤامرات السياسية والدولية لاقتسام الدولة، وتدخل البلاد الأجنبية في شؤون البلاد الداخلية، وامتلاء القصر السلطاني بعناصر تكره الدولة مثل النصارى، ويهود الدونمة الذين تخفّوا وراء أسماء إسلامية.

ومن ناحية أخرى كانت تمرّدات الجبل الأسود والصرب والبوسنة والهرسك ضد الدولة، ومحاولة القوى العظمى الزجَّ بالدولة للحرب مع روسيا تلك المحاولة التي تبنّاها المحيطون بالسلطان، وعلى رأسهم (مدحت باشا) الصدر الأعظم، رغم أنَّ الدولة لم تكن قادرة على دخول هذه الحرب[1].

كان السلطان عبد الحميد يعمل على توحيد العناصر المتعددة في الدولة من ترك وعرب وأكراد وغيرهم لمواجهة الغرب، كما كان يرى ضرورةَ العمل على تدعيم أواصر الأخوّة الإسلامية بين كلّ مسلمي العالم، وكان يرى أيضاً أنّه لا أملَ في المستقبل إلا بوحدة العالم الإسلامي، وفي سبيل اعتقاده هذا كان يحيطُ نفسَه برجال الدين والعلماء الإسلاميين أمثال الشيخ أبو الهدى الصيادي، والسيد

---

(١) محمد حرب، السلطان عبد الحميد، مرجع سابق، ص٣٤ـ٤٢.

محمد رشيد رضا، والشيخ عاطف الأسكليبي، والأمير شكيب أرسلان، ومحمد عبده، والشيخ عبد الرحمن الكواكبي وغيرهم[١].

وعمل أيضاً على توجيه اهتمام الدولة إلى بناء المساجد في المدن العربية، وبناء المدارس الإسلامية، لتكوين الموارد للدولة والاهتمام باللغة العربية تدعيماً للإسلام، وإنشاء شبكة خطوط حديدية لربط مركز الدولة بمختلف الولايات الإسلامية؛ مثل إنشاء خط سكة حديد الحجاز بين دمشق والمدينة المنوّرة، دون استعانة برأس مال أوروبي، كما استعان في بنائها بمهندسين مسلمين عثمانيين، هذا إلى جانب دعوته إلى الجامعة الإسلامية[٢].

ومن الطبيعي أن يكونَ لموقف السلطان عبد الحميد تجاه الإسلام والمسلمين ردّ فعلٍ قوي من الجانب الغربي، ومن الصهيونية على وجه الخصوص.

وقد كتب العديد من المؤرّخين والكتّاب الكثير عن السلطان عبد الحميد الثاني ومواقفه الشهيرة مع اليهود، بالإضافة إلى مذكرات السلطان عبد الحميد التي كتبها بنفسه وبيّن فيها علاقته باليهود.

وقد عامل السلطان عبد الحميد يهود الدولة في بداية حكمه معاملةً طيبةً، وقد شهد بهذه المعاملة صديق السلطان عبد الحميد الشخصي المستشرق الهنغاري (أرمينيوس فاميري)[٣]، كما عامل السلطان عبد الحميد حاخام اليهود كما يعامل كبار موظفي الدولة كالعادة العثمانية، واتّخذ تقليداً بأن يرسِلَ سنوياً في عيد الفصح إلى حاخام إستانبول ثمانية آلاف فرنك لتوزيعها على فقراء اليهود

---

(١) لم يكن هؤلاء جميعاً من مؤيدي السلطان، فالكواكبي ومحمد رشيد رضا كانوا من خصومه. (الناشر)

(٢) هدى درويش، مرجع سابق، ص٤١ ـ ٤٢.

(٣) يقول فامبري: إنّه من خلال الصداقة المستمرّة التي تربطني بالسلطان منذ سنوات طويلة كان لي الفرصة للتعرف على معاملته الطيبة لليهود. فكان يعطيهم المساواة أمام القانون مع رعاياه المسلمين، وعندما استلم الحكم أمر بإعطاء رواتب شهرية لحاخام تركيا الأكبر.

في العاصمة العثمانية. وعندما منعت حكومة كريت المحلية في عام ١٨٨١م مشاركة اليهود في الانتخابات البلدية ألغى عبد الحميد هذه الانتخابات، ووبخ السلطات لتعدّيها على حقوق اليهود.

وفي عام ١٨٨٢م ونتيجة للحريق الذي شبَّ في الحي اليهودي (حسكني) (Haskani)، تشرَّدت ستة آلاف عائلة يهودية في إستانبول، فبذل السلطان عبد الحميد كل ما باستطاعته لتخفيف هذه الكارثة عن اليهود[١].

وفي مجال معاملة السلطان الطيبة لهم فإنه في عام ١٨٩٦م أنعمَ السلطان بالوسام الحميدي على حاخام باشي الطائفة الإسرائيلية بمصر وتوابعها (رابي أهارون بن سيمئون)، وفي عام ١٩٠٢م منحه الوسام العثماني الثاني، وبالرغم من هذه المعاملة الطيبة إلاّ أنَّ السلطان عبد الحميد كان يميّزُ في المعاملة بين اليهودية والصهيونية، وكان هذا سبباً رئيساً في تدبير المؤامرة اليهودية الصهيونية الماسونية الدونمية عليه[٢].

كما شهد الصهاينة أنفسهم على معاملة السلطان العثماني لليهود، ونستطيعُ القولَ: إنَّ دراسة موقف الدولة العثمانية من الحركة الصهيونية تبدأ بتاريخ السلطان عبد الحميد الذي واجه محاولات الزحف اليهودي إلى فلسطين بكلّ ما أوتي من قوة ودبلوماسية أيضاً.

فقد تصدّى السلطان العثماني للأطماع الصهيونية في فلسطين، ورفض كافّةَ أنواع الإغراءات المادّية والمعنوية في سبيل المحافظة على المقدّسات الدينية في فلسطين من السيطرة الصهيونية واليهودية عليها، الأمر الذي أدّى به في النهاية بعد حكم استمرّ (٣٣) سنة إلى فقدان عرشه، وعزله عن حكمه ونفيه، وظلّ حتى موته يدافعُ عن فلسطين من توطينها لليهود ولم يرجع عن قراره.

---

(١) حسان علي حلاق، مرجع سابق، ص٣٠٣. نقلاً عن الموسوعة اليهودية بالروسية، م١، ص٧٣ـ٧٤.

(٢) عايدة العلي، دول المثلث، مرجع سابق، ص٣٢٥.

اعتلى السلطان عبد الحميد الثاني عرشَ الدولة العثمانية عام ١٨٧٦م، وهو السلطان الرابع والثلاثون من سلاطين الدولة العثمانية. في ذلك الوقت كان المسيطِرُ على الإدارة والإعلام في الدولة، أعضاء المحافل الماسونية، وبالذات محفل (سر) الذي أنشأه الأرمن في إستانبول عام ١٨٦١م، وكانت هذه النخبة المسيطرة هم: الصدر الأعظم (مدحت باشا)، ورئيسي مجلس المبعوثان (أحمد وفيق باشا) و(خير الدين باشا التونسي)، وقمّة الإعلاميين في ذلك الوقت أمثال (نامق كمال) و(ضيا باشا) و(إبراهيم شناسي)[١]. وما إن اعتلى حكمه للدولة حتى بدأ بتغيير الكثير من الأنظمة التي كانت متَّبعة في الدولة من قبل، على الرغم من كثرة المشاكل والصعوبات التي كانت تواجه الدولة في تلك الفترة، فكانت الدولة تواجِهُ الثورات في البوسنة والهرسك والجبل الأسود وبلغاريا، وكانت الدول الأوروبية تشجّع هذه الثورات، وتمدّها بالمال والسلاح[٢].

وكانت فلسطين في عهد الدولة العثمانية مقسّمة إلى أربعة ألوية: القدس، ويافا، والخليل، والسامرة، وكانت هذه التقسيمات الإدارية خاصّة بفلسطين حيث تُعدُّ جزءاً من بلاد الشام، وفي نفس الوقت كانت لها أهميتها الخاصة التي تِرجع جذورها لأسباب دينية تتعلَّقُ بالأراضي المقدَّسة[٣].

كان البارون (هيرش) يأمل في إقامة وطن ليهود روسيا في الأرجنتين[٤] إلا

---

(١) محمد حرب، السلطان عبد الحميد، أعلام المسلمين، ص٨٤؛ انظر محمد حرب، مرجع سابق، ص١٣ ـ ٢١.

(٢) انظر أورخان محمد علي، السلطان عبد الحميد، مرجع سابق، ص٩٨ ـ ٩٩. يقول السلطان عبد الحميد: إنَّ الماسونية الدولية كانت له بالمرصاد، منذ أن واجهها ونفى من البلاد رئيس وزرائه مدحت باشا، (محمد حرب، السلطان عبد الحميد، ص٨٥).

(٣) أحمد نوري النعيمي، أثر الأقلية اليهودية في سياسة الدولة العثمانية تجاه فلسطين، مرجع سابق، ص٣٧.

(٤) البارون هيرش مليونير يهودي، ومؤسس جماعة (الاستعمار الاستيطاني اليهودي)، بلغت ثروته عام ١٨٩٠م عشرة ملايين جنيه، تبرّع للإليانس بمبلغ (٢٠٠) ألف جنيه، نادى بتهجير اليهود إلى الولايات المتحدة، وكندا والبرازيل والأرجنتين، والعمل على تحويل اليهود إلى شعب زراعي، (عبد الوهاب المسيري، موسوعة المفاهيم =

أن هذه المسألة أصبحت بعد تدخّل هرتزل في القضية تأخذ شكل إقامة وطن لكل اليهود، وليس ليهود روسيا فقط، فلم يعد هذا المكان هو (الأرجنتين)، بل أصبح (فلسطين) وكانت فلسطين جزءاً من الدولة العثمانية[1].

وكانت الدولة العثمانية في البداية تسمحُ بهجرة اليهود إلى أراضيها حتى ظهرت نواياهم الصهيونية من ناحية، وتدخّل الدول الأجنبية في شؤونها من ناحية أخرى، إلى جانت احتجاجات العرب الفلسطينيين ضد هجرة اليهود إلى فلسطين في الوقت الذي كان معظم المهاجرين اليهود كانوا من يهود روسية، وكانت روسيا ضد تركيا في ذلك الوقت[2].

طلب (روتشيلد) المصرفي اليهودي الشهير من السلطان عبد الحميد خلال زيارةٍ له في إستانبول إقامةَ وطن لليهود في سنجق القدس، حيث طلب «إقامة قرى يهودية في فلسطين في مكان تحدده الحكومة العثمانية، ولا مانع من وجود منازل إسلامية في هذه القرى، وسوف يتبع اليهود القادمون من الخارج قوانين ونظم الدولة العثمانية، وسيتمُّ مقابل هذا تقديم الخدمات والتسهيلات في مسألة الديون العمومية، وسيتمُّ تقديم الضمان الكافي لذلك»[3].

لكنَّ السلطان رفضَ هذا الطلب، بل وأمرَ سفراء الدولة العثمانية في واشنطن وبرلين وڤيينا ولندن وباريس بتعقّب الحركة الصهيونية، وإرسال مخبرين عثمانيين إلى الاجتماعات الصهيونية في أوروبا، وكتابة التقارير عنها، وإرسال قصاصات الصحف والمجلات الأوروبية المتعلقة بنشاط اليهود في البلاد الأوروبية إليه في إستانبول، كما أمر السلطان نظارة الشؤون العقارية بعدم بيع أراضٍ للمهاجرين إلى فلسطين[4].

= والمصطلحات اليهودية، ص٤٢٤)، (أمين عبد الله، مرجع سابق، ص١٤٥).

(١) مذكرات السلطان عبد الحميد، محمد حرب، دار القلم، مرجع سابق، ص٥٣.

(٢) رفيق شاكر، مرجع سابق، ص١٧٤.

(٣) مذكرات السلطان عبد الحميد الثاني، محمد حرب، دار القلم، مرجع سابق، ص٥٤.

(٤) محمد حرب، العثمانيون في التاريخ والحضارة، ص٣٨، يقول محرم فوزي طوغاي في=

وكانت فلسطين سنجقية تدخل ضمن الشام التي كانت مقسَّمة إلى إيالات، فقام السلطان (عبد الحميد الثاني) بإدخال تغييرات على الوضع الإداري لبيت المقدس حيث جعلها عام ١٨٨٧م (متصرفية)[١] تابعة للباب العالي مباشرة، وكان هدف السلطان عبد الحميد من تحويلها من سنجقية إلى متصرفية مستقلّة مراقبة تحركات الهجرة اليهودية إلى فلسطين، والحدّ منها[٢].

كما كانت مقسمة إدارياً إلى قسمين هما: (متصرفية القدس) وكانت ترتبط بوزارة الداخلية، وكانت تتبعها أقضية بئر سبع، والخليل، وغزة، ويافا، وبيت لحم، وأريحا. وكان لمتصرفية القدس هذه المكانة نظراً لأهميتها المقدَّسة، حيث إنَّ معظم الأماكن المقدسة تقع في هذه المناطق و(شمال فلسطين) كان يتبع لواءين: لواء نابلس ولواء عكا، أو متصرفية نابلس ومتصرفية عكا[٣].

وفي عام ١٨٨٧م صدرت أوامر بشأن هجرة اليهود إلى فلسطين بعد أن تحقق السلطان عبد الحميد من خطر استيطان اليهود فلسطين، وما يترتّب عن الامتيازات التي يحصلون عليها باعتبارهم رعايا أجانب، فأصدر قراراً إلى متصرفي القدس ويافا بالسماح لليهود بدخول البلاد كحجاج أو زوار فقط، وعلى كل يهودي أن يدفع (٥٠) ليرة عثمانية مقابل تعهده بمغادرة البلاد خلال (٣١) يوم[٤]، وقد امتدَّت بعد ذلك المدة المسموح بها إلى ثلاثة أشهر.

= مقالته التي نُشرت بمجلة بيوك طوغو التركية في ٢/ ٥/ ١٩٤٧م تحت عنوان فلسطين والمسألة اليهودية جاء فيها: «إنَّ تصرف عبد الحميد تجاه الحركة اليهودية بهذا الشكل المعادي كان معناه أنه يتسبب في هدم تاجه وهدم عرشه، ليس هذا فقط بل وبالتالي في هدم الدولة العثمانية كلها (انظر مذكرات السلطان عبد الحميد، محمد حرب، دار القلم، مرجع سابق، ص٥٥).

(١) المتصرفة هي وحدة إدارية تلي الولاية في الأهمية والمساحة.

(٢) انظر أحمد نوري النعيمي، أثر الأقليات اليهودية، ص٣٥؛ عبد العزيز الشناوي، مرجع سابق: ٢/ ٩٧٩.

(٣) انظر خيرية قاسمية، النشاط الصهيوني في الشرق العربي وصداه ١٩٠٨ ـ ١٩١٨م، مركز الأبحاث، منظمة التحرير الفلسطينية، ١٩٧٣م، ص٩.

(٤) رفيق شاكر، مرجع سابق، ص١٦٨ ـ ١٦٩.

وقد كانت هذه القيود موضع مراسلات بين السفارة البريطانية وإستانبول التي أعلنت فيها السفارة البريطانية رفضها تحريم الرعايا البريطانيين من التمتّع بحقوق الامتيازات في السفر والإقامة بفلسطين، وأنَّ القيد الوحيد الذي يمكن أن تقبله هو القيود التي توضع بشأن النواحي الصحية أو الازدحام أو الإضرار بالأمن العام، وقد كان اليهود في ذلك الوقت يحصلون على جنسيات بريطانية حتى يتمكّنوا من دخول فلسطين بجوازات بريطانية، فيحصلون على الحماية عن طريقها، وقد فطنت الدولة العثمانية لهذه المحاولات التي حاول اليهود عن طريقها دخول فلسطين، حتى إنَّ القنصل (ديكسون) أرسل رسالة إلى السفير (أوكونر) يعبّر فيها عن رفضه لهذه القرارات العثمانية بقوله: «إنَّه لا يجب تقديم أي اعتراض على إبعاد مثل هؤلاء عند نهاية الشهور الثلاثة»[1].

تصدى السلطان العثماني للموقف البريطاني تجاه استعمار اليهود فلسطين، وأعلن استياءه لموقفها في تشجيعها لهجرة اليهود غير الشرعية إلى فلسطين، وحمايتها لليهود، الذين رفضوا العودة من فلسطين بعد تأديتهم طقوسهم الدينية[2].

وفي هذا الشأن أرسل السلطان عبد الحميد إلى متصرف القدس لإجراء اتصالاته بقناصل الدول الأجنبية عام ١٨٨٧م لإبلاغهم استياء السلطان والحكومة العثمانية لعدم قيام القنصليات الأجنبية في القدس بإخراج اليهود الذين انتهت مدة إقامتهم، فكان ردُّ القناصل على المتصرّف إنهم لن يقبلوا تنفيذ الأمر حتى يتلقوا تعليمات من سفاراتهم في إستانبول[3].

في ذلك الوقت لم يكن للسلطات العثمانية أيّ صلاحية لطرد اليهود الأجانب، ذلك لأنها كانت مضطرة للرجوع إلى القناصل بسبب نظام الامتيازات

---

(١) خيرية قاسمية، مرجع سابق، ص٢٥.
(٢) رفيق شاكر، مرجع سابق، ص١٦٩.
(٣) المرجع السابق، ص١٦٩.

الذي كان متَّبعاً في الدولة العثمانية في ذلك الوقت الذي كان اليهود يلجؤون فيه إلى الرشـوة حتى يتغاضوا عن مسـألة تركهم البلاد[١]. وكان موظفو ميناء يافا المرتشين يرسلون للباب العالي بيانات كاذبة تفيدُ بأنَّ اليهود الذين دخلوا البلاد قد غادروها بعد انقضاء مناسكهم، وقد فطنت الحكومة[٢] لأمر هؤلاء، فاستبعدت العناصر الفاسدة، وأعلنت بريطانيا عام ١٨٨٨م احتجاجها على هذه القوانين، فقامت السلطات العثمانية بالرد على هذا الاحتجاج بقولها: إنَّها لن تطبقَ إجراءات المنع على اليهود الإنجليز الذين يأتون فرادى، وإنما التطبيق يطبّق على اليهود الذين يأتون بأعداد كبيرة[٣].

وفي عام ١٨٨٩م أرسل (يوسف ضيا الخالدي) ممثل القدس في (مجلس المبعوثان) رسالة إلى حاخام (صادق خان) قال فيها: «إنَّ فلسطين جزءاً لا يتجزَّأ من الإمبراطورية العثمانية، وإنَّ سكانها ليسوا من اليهود، لذا رأى الخالدي خطراً على مصير شعب فلسطين، لأنَّ الهجرة اليهوديـة ممكن أن تـؤدّي إلى طـرد الفلسطينيين من ديارهم، ولكنّ اليهود سيواجهون بالطبع حركة شعبية، من قِبَلِ السكان العرب؛ لذا طلب الخالدي من الحاخام إفهام اليهود أنَّه من الأفضل لهم أن يذهبوا إلى مكان آخر غير فلسطين»[٤].

وقام الحاخام (صادق) بدوره بإرسال هذه الرسالة إلى (تيودور هرتزل) فجاء رد (هرتزل) بما يلي: «إنَّ اليهودَ كانوا وما زالوا وسيبقوا من أحسن أصدقاء تركيـا... وأن الفكرة الصهيونيـة ليس لديها مشـاعر العداء تجاه الحكومـة العثمانية، بل على العكس من ذلك تماماً فهذه الحركة مهتمة بإيجاد موارد جديدة للإمبراطورية العثمانية عن طريق السماح لعدد محدود من اليهود بالهجرة.. ولهذا لا يوجد شيء على الإطلاق يثيرُ الخوف من هجرتهم..» أما بالنسبة

(١) خيرية قاسمية، مرجع سابق، ص٢٥ ـ ٢٦.
(٢) رفيق شاكر، مرجع سابق، ص١٧٣.
(٣) المرجع السابق، ص١٧٠.
(٤) حسان علي حلاق، مرجع سابق، ص٢٤١ ـ ٢٤٢. نقلاً عن Y. Roi The Zionist Attitude to the Arabs 1908 - 1914, pp. 200 - 238.

لشعب فلسطين، فإنهم سيكسبون إخوة أذكياء كما سيكسب السلطان رعايا مخلصين. . . لقد قدمت لجانب السلطان بعض المطالب العامة، وأنا سعيد لاعتقادي بأنَّ ذكاءه الحاد سيجعله يقبل الفكرة من حيث المبدأ. . . وإذا رفضها سنبحث واثقين بأننا سنجدُ ما نبتغيه في مكان آخر. . .»[1].

وفي نفس هذا العام أيضاً (١٨٨٩م) حدثت عدَّة مصادمات بين العرب واليهود أدّت إلى تدخّل الشرطة العثمانية، وكانت هذه المصادمات بسبب تزايد بيع العائلات اللبنانية المالكة للأراضي للمهاجرين اليهود.

وخلال ١٨٩٠ ـ ١٨٩١م اشتدّت حركة الهجرة إلى فلسطين من قِبَل اليهود في الوقت الذي اشتدّت فيه السلطات العثمانية في منعهم من دخول فلسطين على الرغم من ضغوط أمريكا وبريطانيا، وذلك استجابةً منها لشكاوى أعيان بيت المقدس وعرب فلسطين من التسلل اليهودي نتيجة لإنشاء مستعمرة (ديشوفوت) التي أنشأت أول مدرسة عبرية للبنات في يافا إلى جانب العديد من المدارس العبرية في القرى الزراعية[2].

وفي عام ١٨٩٢م صدرت أوامر الباب العالي إلى متصرّف القدس (إبراهيم حاجي باشا) من إدارة تسجيل الأراضي أن يوقف بيع الأرض الميري (Miri Arazi) (وهي أراضي الدولة التي يتطلّب نقل ملكيتها الحصول على تصريح رسمي) إلى اليهود حتَّى ولو كانوا رعايا عثمانيين. أما بالنسبة للأراضي الخاصة التي كانت ملكاً للأفراد فكان من الصعب تنفيذ هذا القانون عليهم[3].

وفي ٦/ ٢/ ١٨٩٦م تنبأ أحد الشخصيات اليهودية ويدعى (دسور) بقيام

---

(١) حسان علي حلاق، مرجع سابق، ص٢٤٢. انظر نص الرسالة كاملةً في الملحق رقم (١٨). إلا أنه يلاحظ من خلال دراسة يوميات هرتزل بأنه لم يأتِ على ذكر الرسالتين سواء رسالة الخالدي أو جواب هرتزل عليها.

(٢) مستعمرة ديشوفوت أنشأتها جماعة بني موسى برئاسة آحاد هاعام، (انظر عبد العزيز الشناوي، مرجع سابق: ٢/ ٩٨٠).

(٣) ميم كامل، مرجع سابق، ص٧٥.

دولة إسرائيل في فلسطين خلال خمسين سنة، وكان هذا الرجل يهودياً نمساوياً يعمل في الشؤون المصرفية[1].

سياسية السلطان عبد الحميد نحو هجرة اليهود إلى الدولة العثمانية:

كان السلطان يرى أنَّ الدولة لديها عدد كافٍ من اليهود، فإذا كانت تريد أن يبقى العنصر العربي متفوّقاً، فإنه يجب صرف النظر عن فكرة توطين المهاجرين في فلسطين، وإلاَّ فإنَّ اليهودَ إذا استوطنوا أرضاً تملّكوا كافةَ مقدّراتها خلال وقت قصير، وبذا تكون الدولة قد حكمت على المسلمين بالموت المحتّم فيها[2].

أمّا سياسة السلطان عبد الحميد العامة نحو الهجرة، فكان يرى ضرورة تنظيم الهجرة بشكل مناسب، وهذا لا يعني هجرة اليهود إليها، فقد مضى عهدُ دخول أتباع الأديان الأجنبية إلى المجتمع التركي كدخول الشوكة في الجسد ـ على حدّ قوله ـ: وكان يرى أنَّ مَنْ يدخل الدولة فإنه لابد وأن يشارك الشعب في العقيدة، ونتيجة لذلك فلابد من الاهتمام بتقوية العنصر التركي (العثماني) والسعي إلى زيادة المسلمين في البوسنة والهرسك وبلغاريا، ودعوتهم إلى الهجرة إلى هذه المناطق واستيطانها[3].

---

(١) حسان علي حلاق، مرجع سابق، ص١٣٢.

(٢) يقول السلطان عبد الحميد: «إنني أدرك أطماعهم جيداً، لكنّ اليهود سطحيون، في ظنهم أنني سأقبل محاولاتهم، وكما أنني أقدر في رعايانا من اليهود خدماتهم لدى الباب العالي، فإني أعادي أمانيهم وأطماعهم في فلسطين. (انظر رفيق شاكر، مرجع سابق، ص١٨٤).

(٣) رفيق شاكر، مرجع سابق، ص١٨٥. يوضّحُ السلطان عبد الحميد الأسبابَ التي دعته للوقوف في وجه الهجرة اليهودية إلى فلسطين بقوله: كان لابدّ من إشغال الأراضي الخالية من السكان في داخل إمبراطوريتنا، وكان علينا أن نتبّع طريقة تهجير مناسبة، ولكننا لم نجد أنَّ هجرة اليهود مناسبة، لأننا لا نريدُ أن نزرع في أرضنا سكاناً لا ينتمون إلى نفس ديننا وعاداتنا حتى لا نمكّنهم من السيطرة على الحكم، ولذلك نقبل أن يكونَ المهاجرون من نفس الدين والإيمان، وواجبنا يحتّم علينا تقوية العنصر التركي المسلم، وإلى تشجيع هجرة المسلمين إلى البوسنة والهرسك وبلغاريا والعمل لاستيطانهم =

وأعلن السلطان أنَّ الاتحاديين قد ألحّوا عليه بأن يصادِقَ على تأسيس وطن قومي لليهود في الأرض المقدّسة ـ فلسطين ـ ورغم إصرارهم فإنَّ السلطان لم يقبل هذا التكليف بصورة قطعية، ثم وَعدوا بتقديم مئة وخمسين مليون ليرة إنجليزية ذهباً للدولة، فرفض هذا التكليف بصورة قطعية أيضاً[(١)].

وقد عبّر السلطان عبد الحميد بموقفه هذا بقولته الشهيرة: «لستُ مستعداً لأن أتحمّلَ في التاريخ وصمةَ بيع بيت المقدس لليهود، وخيانة الأمانة التي كلّفني المسلمون بحمايتها»[(٢)].

أمّا عن سياسته تجاه فلسطين والعرب المسلمين فهو يرى «أنَّ دولاً أوروبية كثيرة أرادت التخلّصَ من اليهود، وأيّدت هجرتهم إلى فلسطين، وإذا حدث هذا الأمر، وسمحنا لهم بالهجرة إليها، فإنَّهم في فترة قصيرة يسيطرون على الحكم، وتصبح فلسطين تحت سيطرتهم، ونكون بذلك قد قضينا بأيدينا على عنصر ديننا بالموت الأكيد»[(٣)].

= فيها...» (مذكرات السلطان عبد الحميد).

(١) يقول السلطان بهذه المناسبة: إنه أجابهم بالجواب القطعي الآتي: «إنكم لو دفعتم ملءَ الدنيا ذهباً ـ فضلاً عن مئة وخمسين مليون ليرة إنجليزية ذهباً ـ فلن أقبل بتكليفكم هذا بوجه قطعي. لقد خدمتُ الملّةَ الإسلامية والأمة المحمدية ما يزيدُ عن ثلاثين سنة، فلن أسوّد صحائف المسلمين آبائي وأجدادي من السلاطين والخلفاء العثمانيين، لهذا لن أقبلَ تكليفكم بوجه قطعي أيضاً. وبعد جوابي القطعي اتفقوا على خلعي، وأبلغوا أنهم سيبعدونني إلى سلانيك فقبلتُ بهذا التكليف الأخير. هذا وحمدتُ المولى وأحمدُه أنني لم أقبل أن ألطّخ الدولة العثمانية والعالم الإسلامي بهذا العار الأبدي الناشئ عن تكليفهم بإقامة دولة يهودية في الأراضي المقدّسة فلسطين. وقد كان بعد ذلك ما كان. ولذا فإنني أكرر الحمد والثناء لله المتعال، وأعتقد أنَّ ما عرضته كافٍ في هذا الموضوع المهم، وبه أختم رسالتي هذه. (السلطان عبد الحميد، مذكراتي السياسية، مرجع سابق، ص٢٩).

(٢) انظر هدى درويش، ص٤١، نقلاً عن Sehbender Zade, s. 771 - 772.

(٣) حسان حلاق، مرجع سابق، ص٢٧٠ ـ ٢٧١. يقول السلطان عبد الحميد: «لابدّ للتاريخ يوماً أن يُفصحَ عن ماهية الذين سموا أنفسهم (الأتراك الشبان) أو (تركيا الفتاة)=

وقد شعر السلطان عبد الحميد بخطر هؤلاء اليهود في استيلائهم على فلسطين، فقام بإصدار عدة فرمانات تمنعُ استعمارَ اليهود لفلسطين، وكان ذلك قبل إصدار هرتزل لكتابه (الدولة اليهودية)[1]، والفرمانات التي صدرت عن الحكومة العثمانية، والتي كتبها السلطان بيده عام ١٨٩١ ثلاثة فرمانات هي كالتالي:

= وعن ماسونيتهم. استطعت أن أعرف من تحقيقاتي أنَّ كلهم تقريباً من الماسون، وأنهم منتسبون إلى المحفل الماسوني الإنجليزي، وكانوا يتلقون معونة مادية من هذا المحفل. ولابدَّ للتاريخ أن يُفصحَ عن هذه المعونات، وهل كانت معونات إنسانية أم سياسية»؟! (انظر مذكرات السلطان عبد الحميد، محمد حرب، ط٣، ص١١٥ ـ ١١٦).

ويقول أيضاً: وكما قلت من قبلُ: إنَّ الصحف التي صدرت في أوروبا ومصر بمختلف أسمائها، ورجال الجمعية الذين يجوبون هذا البلاد، لم يخرجو للبلاد كاتباً جاداً واحداً. ولكنّ محافل الماسونية ـ رغم كلّ تعقّبنا لهم ـ جعلت من هؤلاء المتسكعين أعلاماً. عندما حرّكوا الضباط من أعضاء (الاتحاد والترقّي)، وتلك هي قصة (تركيا الفتاة) وجمعية (الاتحاد والترقي). نعم، هذه هي حكايتهم، ولكنّ النتيجة نشاهدها اليوم بكلّ أسف أمام أعيننا. سيقولون لي: إنّك تعلمُ كلَّ هذا، ومع ذلك لم تتصدَّ له ولم تمنعه. لماذا أغمضتَ عينيكَ عن خراب الدولة وانهيارها؟ حاشا! ليست المسألة مسألةَ إغماضِ عينٍ، لقد كنتُ يقظاً في كلّ لحظة، لكني لم أكن أستطيعُ منعَ هذا. كنت بمفردي، وكان معهم كلُّ عالم العدو. لم تكن طبيعتي وظروفي تساعدني إلا بهذا القدر، يدينني أصدقائي بأنني متساهل، أما أعدائي فيقولون: إنّي ظالم غدّار. والجانبان مخطئان، فلا أنا كنت السلطان سليم الأول، ولا بلاد السلطان سليم الأول كانت تحت إمرتي: الإطاحة فوراً بعدة رؤوس؛ كلامٌ من السهل قوله، من الصعب تنفيذه، وكل رأس إنسان تفتح إمام الإنسان هُوة، ولو استطعت أن تملأ هذه الهوة فسيخافون منك، وتستطيع عندها أن تهدد، وكل ما تهدد به سينفذ، وفي حالة عدم تغطية هذه الهوة، فليس هناك شيء قط يمكن عمله، وأنا إنسان رحيم منذ ميلادي، ولكني أعلم أنَّ الدولة لا يمكن أن تدار بالرحمة. كل ما استطعتُ عمله عملتهُ، ولو كان السلطان سليم الأول سلطاناً في عصرنا لكان يمكن أن يعمل مثلما عملته أنا. أديتُ واجبي، وسعيتُ وراء الصالح، وحرصتُ ألاّ أؤذي الأهالي، عارضتُ سفك الدماء في كل مكان، ولكن عبثاً ما فعلته. ليس ما قدمته لأعضاء (تركيا الفتاة) شفقة، فبلادي أضحت ضحية لغفلة هؤلاء الأتراك الشباب، وإنّها لغفلة لا يمكنُ الصفحُ عنها». (مذكرات السلطان عبد الحميد، محمد حرب، ط٣، دار القلم، دمشق، ص١٣٤ ـ ١٣٥).

(١) أورخان، ص٢٥٧ ـ ٢٥٩.

الفرمان الأول: «نعيدُ إليكم المذكرة. . إنَّ قبول الذين طُرِدوا من كلّ مكان في الممالك العثمانية سيؤدي في المستقبل إلى تشكيل حكومة موسوية، لذا فإنَّ إجراء هذه المعاملات غير جائز، وبخاصة أنَّ الممالك الشاهانية ليست من قبيل الأراضي الخالية والمتروكة، ولمّا كان من المفروض إرسال هؤلاء إلى أمريكا؛ لذا فلا يقبل هؤلاء ولا أمثالهم، بل يجبُ وضعهم في السفن فوراً لإرسالهم إلى أمريكا، وأن يتّخذ مجلس الوزراء قراراً قطعياً بخصوص تفاصيل هذا الأمر وعرضه علينا، إذ ما الداعي لقبول مَن طردهم الأوروبيون المتمدّنون، ولم يقبلوهم في ديارهم؟!! وفضلاً عن ذلك، فإنَّ هناك دسائس كثيرة؛ لذا فإنَّ هذا الأمر غيرُ جائز على الإطلاق، وبناءً على ذلك، وحتى لا يبقى هناك أي مجال بعد الآن لأية معروضات أخرى في هذا الخصوص، تُعاد هذه المذكرة للصدارة العظمى لاتّخاذ قرارٍ عام في هذا الموضوع».

الفرمان الثاني: وقد صدر بعد سبعة أيام من صدور الفرمان الأول، وقد جاء فيه: «إلى اللجنة العسكرية للجمعية السنية: إنَّ قبول هؤلاء الموسويين وإسكانهم أو إعطاءهم حقّ المواطنة شيءٌ ضار جداً فقد يتولّد عن هذا في المستقبل مسألة حكومة موسوية؛ لذا يجبُ عدم قبولهم، وأن يؤخذ هذا في الحسبان عند عرض المسألة، وأن يعرضَ هذا القرار بسرعة هذا اليوم، وأن تُعطى المعلومات للصدارة العظمى من السكرتارية الخاصة».

الفرمان الثالث: صدر بعد يوم واحد من الفرمان الثاني، صدر فيه: «لا يحقُّ لأية دولة أن تعترضَ على عدم قبولنا الموسويين الذين طردتهم دول متمدنة، ولم تقبلهم الدول المتمدنة الأخرى، وهؤلاء الذين يحتجّون ويعترضون علينا كان من الأحرى بهم الاحتجاج على الدول التي طردتهم، ورفضت قبولهم. وبناءً عليه فإنَّ هؤلاء الموسويين لو أُسكنوا في أي مكان (من أجزاء الإمبراطورية) فإنّهم سوف يتسلّلون إلى فلسطين شيئاً فشيئاً، مهما اتخذت من تدابير، وسيسعون لتشكيل حكومة موسوية بتشجيع وحماية الدول الأوروبية، ولن يعملَ هؤلاء في الزراعة والفلاحة، بل سيحاولون الإضرار بالأهالي، كما فعلوا في البلدان التي

طُردوا منها، ومادام هؤلاء كانوا بصدد الهجرة إلى أمريكا، إذن فإنَّ من المناسب أن يهاجروا إلى هناك، ونرى وجوب المذاكرة بشكل مفصَّل في هذا الموضوع في اللجنة العسكرية».

أما بخصوص التعليمات التي أصدرها السلطان عبد الحميد، وتخصّ زيارة اليهود للقدس، وكان ذلك في غضون عام ١٩٠٠م فجاءت كالتالي:

المادة الأولى: لابدَّ للموسويين ـ سواء أكانوا من رعايا الدولة العلية أم من الممالك الأجنبية ـ الذين يذهبون لفلسطين لأجل الزيارة أن يحملوا معهم تذكرة مرور ـ أو جواز سفر ـ تتضمن صفة وغاية السياحة وتابعية حاملها.

المادة الثانية: على جميع هؤلاء الزوار الموسويين الذين يصلون ولاية بيروت، أو إلى أي ميناء من موانئ ولاية القدس الشريف إيداعَ تذاكر مرورهم أو جوازات سفرهم لدى موظف الجوازات، والحصول ـ مقابل قرش واحد ـ على تذكرة زيارة أو إقامة مؤقتة لمدة ثلاثة أشهر في فلسطين، ولتيسير تمييز هذه التذاكر عن غيرها يجب أن تكون بلون وشكل متميز، ويجب إبراز هذه التذاكر لموظفي الدولة وللشرطة عند الطلب في أثناء السياحة أو الإقامة، ويُخرَج بقوة الشرطة أو بوساطة قنصل الحكومة المنتسب إليها كلُّ مَنْ يتجاوز هذه الأشهر الثلاثة.

المادة الثالثة: يجب تنظيم قائمة بمندرجات وتواريخ تذاكر الإقامة المؤقتة للزوار الموسويين المذكورة في المادة السابقة، وتنظَّم هذه القوائم في نهاية كل شهر ليتسنَّى إخراج الذين يتجاوزون هذا المدة، وكذلك معاقبة الموظفين الذين يتهاونون في هذا الخصوص.

المادة الرابعة: إذا ظهرت في الجداول المنظَّمة لأمور السياحة والإقامة أية مخالفة لدى الزوار الذين يكملون المدة المسموحة لإقامتهم أو سياحتهم، ويتركون أرض فلسطين أو يأتون ميناء بيروت لركوب البواخر أو ينهون مدة إقامتهم، أو الذين يُزوَّدون بوثائق المرور ووثائق الإقامة فيجب اتّخاذ إجراءات

حازمة ضد المخالفين وضد الموظفين المسؤولين عن تطبيق هذه التعليمات[١].

سياسة الضغط على السلطان لإجباره على إعلان الدستور، ودور اليهود فيها:

منذ عام ١٩٠٦م بدأت الحكومة في استعمال العنف، واتّباع أساليب العصابات المسلّحة، وحدث الكثير من الانفجارات والاضطرابات وعمليات خطف المسؤولين الحكوميين والضباط الكبار، ولجأ الضباط إلى إعلان العصيان ضد الحكومة، وقام الاتحاديون باغتيال (شمسي باشا)، وكان هذا الحدث دليلاً على مدى تغلغل الاتحاديين داخل الجيش، كما قاموا بإرسال تهديدات للقصر لإجباره على إعلان الدستور، وفي النهاية قرّر السلطان إعلان الدستور معلناً أنَّه سوف ينحني للتيار، وكان من نتائج إعلان الدستور أنْ أصبحتْ (جمعية الاتحاد والترقّي) لها سلطتها العلنية على البلاد بعد أن كانت مستترة ومتخفية، وانتشرت فروعها في أنحاء البلاد، وتمّت تغييرات في السياسة الداخلية للبلاد، وتم تعيين (كامل باشا) صدراً أعظم بعد استقالة (سعيد باشا) كما تمّ تعيين (رجب باشا) وزيراً للحربية.

وبالنسبة للسياسة الخارجية فقد أعلنت النمسا ضم البوسنة والهرسك لها، كما أعلنت إمارة بلغاريا انفصالها عن الدولة العثمانية، وتمّ إلحاق جزيرة كريت باليونان[٢].

في ٢٣/٧/١٩٠٨م اندلعت الثورة ضد الحكم مطالبةً بإعلان الدستور، حيث خرجَ الجيش الثالث من مقدونيا ـ وخاصة سلانيك ـ مهدداً بالتقدم نحو العاصمة إستانبول، وقام الجيش باحتلال دار البرق، وأبلغوا الحكومة بضرورة إعلان الدستور، وقد حاول السلطان عبد الحميد مواجهة هذه الثورة عن طريق جيشه في ألبانيا، إلا أنه عدل عن هذا العمل خوفاً من تدخّل الدول الكبرى التي

---

(١) أورخان محمد علي، مرجع سابق، ص٢٥٩ ـ ٢٦٠.
(٢) المرجع السابق، ص٣٢٠ ـ ٣٢٢.

كانت تؤيّد أهداف الثورة، وتقف في صف الاتحاديين الذين وعدوها بمزيد من الاستثمارات في الدولة، وكانت الفئة البارزة في هذه الثورة هي (يهود الدونمة) الذين كانـوا يتلقَّون المسـاعدات المالية من الرأسمالية العالمية[1]. وعلى هذا أعلن السلطان أنه «سيدع نفسه للتيار»[2].

وقد رضخ السلطان لهذه الثورة معلناً الحكم الدستوري على الرغم من رفضه الشديد له، وذلك حفاظاً على الدولة من الانهيار، وتمّ إعلانُ القانون الأساسي في البلاد، وأكّدت الأحداث أنَّ إنجلترا وفرنسا كان لهما الدخل الأكبر في قيام هذه الثورة لما لهما من أهداف وأغراض في الشرق، وقد أكَّدَ هذا القولَ السلطانُ العثمانيُّ بقوله: «إنَّ منظمة مناستر كانت تُدار بواسطة الإنجليز، بينما أعضاء (تركيا الفتاة) في سلانيك كانوا تحت تأثير ماسون ألمانيا وإيطاليا.

وقد بدأ أنور ونيازي تحت ضغط الماسون الألمان ـ مع جماعة سلانيك ـ بـالتحرك ضدي. . . وأنّ الاتحاديين في سـلانيك كانوا يـرون أنَّ التحالف مع الإنجليز ضرورة ملحّة، لأنَّها أكبر دولة بحرية[3].

وقد عمّت الفرحةُ الشعبَ، وأصبح لجمعية الاتحاد والترقي قوة في الدولة، وأخذت تنشر فروعها في أنحاء البلاد، وعلى الرغم من إعادة الدستور إلاَّ أنَّ السلطان عبد الحميد عقد عزمه على التخلُّص من الاتحاديين ومن الدستور، فقد كان على علم قوي بالنوايا التي عقدوها ضده[4].

---

(١) حسان علي حلاق، مرجع سابق، ص٢٩٤ ـ ٢٩٨.

(٢) أورخان محمد علي، مرجع سابق، ص٣١٩. وفي هذه المناسبة قال السلطان عبد الحميد: «إذا كنتُ في ذائب فعليل العواء! وبغضّ النظر عن المحاسن والمساوئ يجب أن أفتح (مجلس المبعوثان) وأعلن الدستور، لكي أظهر أنني أقومُ بأمرٍ هام (السلطان عبد الحميد الثاني، مذكراتي السياسية، مرجع سابق، ص٣٢).

(٣) مذكرات السلطان عبد الحميد، محمد حرب، مرجع سابق، دار القلم، ص١٥٠.

(٤) يقول جرنير (Garnier) إنَّ يهود سلانيك المنتمين إلى المحافل الماسونية كان باستطاعتهم أن يحدّدوا بحزم العناصر الحكومية التي ستتولّى الحكم في المستقبل، وأنَّ المبادئ الأساسية الموجِّهة للاتحاديين إنَّما ظهرت تحت تأثير الصهيونية المتخفية. =

وبعد إعلان دستور ١٨٧٦م، تولّى (يوسف ضيا الخالدي) رئيس لجنة المهاجرين[(١)] تمثيل القدس في (مجلس المبعوثان)، وكان ذلك عام ١٨٧٨م، لكنَّ الدستور ظلَّ معلّقاً حتى عام ١٩٠٨م، وعند إعادته بعد حركة ١٩٠٨م تمَّ انتخاب (سعيد الحسيني) و(روحي الخالدي) نائبين عن متصرفية القدس المستقلة[(٢)].

وكان نتيجة ثورة ١٩٠٨م أنْ زاد النفوذ اليهودي في شؤون الدولة العثمانية، وبدأت الهجرة اليهودية تتدفّق إلى فلسطين مع إلغاء القيود التي كانت مفروضة عليهم من قبل الحكومة العثمانية، وبعد إعلان الدستور دخلَ كثيرٌ من يهود الدونمة الآستانة، وبدأ نفوذهم الاقتصادي والسياسي يظهر على المستوى العام للدولة، وحاولوا تهيئة كافة الأجواء من أجل الإطاحة بالسلطان عبد الحميد.

في ذلك الوقت أعلن زعماء الاتحاد والترقي وفي مقدمتهم الدكتور ناظم الذي صرّحَ بأنَّ الحكومة العثمانية على استعداد لإنفاق مبلغ (٥) ملايين ليرة عثمانية لتوطين مهاجرين في المناطق المقدونية بما فيهم عشرين ألفاً من يهود رومانيا[(٣)].

وفي عام ١٩٠٨م استطاع (فكتور جاكوبسون) رئيس مكتب المنظمة الصهيونية في إستانبول كسب ثقة ألمانيا، حيث تمكّن عن طريق النفوذ الألماني والصهيوني من مراقبة ما يحدث في فلسطين، وتعاون الدونمة الذين كانوا موالين لألمانيا، وأدّى هذا الموقف إلى غضب بريطانيا التي كانت تؤيّد الصهيونية[(٤)].

= وبلغَ من نفوذ اليهود في أوساط (تركيا الفتاة) أن جُعل مركز الجمعية الرئيس في سلانيك إرضاءً لرغبات اليهود والماسونية معاً، بالإضافة إلى كثرة أعضائها في مقدونيا حيث يشكّلون عناصرَ فعّالة في الجمعية (انظر حسان، مرجع سابق، ص٣٠٧).

(١) مذكرات السلطان عبد الحميد، محمد حرب، ص١٠١.

(٢) أحمد نوري النعيمي، أثر الأقلية اليهودية، مرجع سابق، ص٣٧.

(٣) خيرية قاسمية، مرجع سابق، ص٥٣.

(٤) انظر حسان حلاق، مرجع سابق، ص٢٢٥.

كما حاولت المنظّمة الصهيونية عام ١٩٠٨م تشجيع الحكومة الألمانية لمساعدتها عن طريق الجذب الاقتصادي لها، حيث أكّدت أنَّ مساعدة الحركة الصهيونية سوف تعود بمنافع اقتصادية لألمانيا وأوروبا، وكانت الدولة العثمانية على علم بكل هذا الأساليب، فقام السلطان عبد الحميد بإصدار عدد من الفرمانات لتثبيت السلطة العثمانية في فلسطين، وقد أوعزَ إلى متصرف القدس بالاهتمام بأهالي المتصرفين من الناحية الاقتصادية والاجتماعية، وفي سبيل تحقيق ذلك قام متصرف القدس في نيسان ـ إبريل ١٩٠٨م بجولات استطلاعية للتعرّف على أوضاع الفلاحين هناك، وقد ألقى خطاباً في بئر سبع وجّهه إلى مشايخ وأهالي المنطقة(١).

وكان الصهاينة يتصوَّرون حدودَ إسرائيل الكبرى من جبل الشيخ الذي يضمُّ منابع نهر الأردن ووادي بردى في الشمال إلى الأراضي المحصورة بين راشيا وصيدا، وقناة السويس وشبه جزيرة سيناء من الجنوب، والجزيرة العربية في الشرق، والبحر المتوسط في الغرب. وبتكوينها هذا تصبح فلسطين بين يدي شعب يعرف كيف يدافع عنها. . . بلداً صعب المنال»(٢).

---

(١) قال متصرف القدس في خطابه: «من المعلوم أنكم بأقل همة وجد وسعي تستخرجون ذخائر كافية ليس فقط لأهل بئر السبع، بل وتعم أهالي لواء القدس، بل وأهالي سوريا بأجمعهم. . . وأمّا مزروعاتكم فهي كالزمرد في اخضرارها». وبدأ يذكر مشاريع الدولة بأنه «سينشأ مكتب كبير في مركز السبع لتعليم دروس الزراعة. . . وتوفير الطواحين لطحن الحبوب. . . فالزراعة هي روحكم ومداد حياتكم. . . انظروا أيضاً كيفَ أمر مولانا الخليفة بالأشياء الخيرية لكم، فإنّه سينشئ في بئر السبع شعبة بنك زراعي. . . سيصير إقراضكم الدراهم بكمال السهولة، فتخلصون من أيدي المحتكرين والصرّافين، وتجلبون بذاركم ومؤونتكم وذخائركم وأدواتكم الزراعية بكل سهولة، وأيضاً سيجلب لكم بواسطة الحكومة ماكنات وآلات زراعية من الجنس الذي استعمل بـ(يافا) فتحرثون بها أراضيكم، وتبذرون بها بذاركم. . . (انظر حسان علي حلاق، ص٢٢٧).

(٢) حسان علي حلاق، ص٢٤٨.

حادثة (٣١ مارت) في (١٣/٤/١٩٠٩م) وموقف اليهود منها:

وقعت ثورة في إستانبول مضادة لثورة ١٩٠٨م عُرفت باسم حادثة (٣١ مارت) اشترك فيها بعض فئات الشعب والجنود وأركان السراي، بدأت الحركةُ قربَ منتصف ليلة ٣١ مارت (١٣ نيسان ـ إبريل) في ثكنة (طاش قشلة) عندما قام جنود (آوجي طابوري) بحبس ضباطهم في الغرف، ثم تدفقوا إلى ساحة (سلطان أحمد) وبدؤوا عند حلول صباح اليوم التالي بإطلاق الرصاص في الهواء مما ولَّد فزعاً ورعباً عند الأهالي، ثم أخذوا يهتفون: نريدُ الشريعة! نريدُ الشريعة!، ثم أرسل الجنود المتمردون رسلاً إلى معسكرات الجيش الأخرى يطلبون الالتحاق بهم، وفعلاً التحق بهم بعضُ الجنود الآخرين، كما التحقَ بهم بعض طلبة المدارس الدينية والصوفية وبعض المدنيين من المعارضين لجمعية الاتحاد والترقي، ومع أنَّ السلطان أرسلَ رئيسَ كتابه للمتمردين حال سماعه النبأ يخبرهم بأنَّ الشريعة بخير، وأنّه لا يستطيعُ أحدٌ أن يمسّها بسوء، إلاَّ أنَّ المتمردين أصبحت لهم مطالب أخرى منها تغيير الصدر الأعظم (حسين حلمي باشا)، ووزير الحربية (علي رضا باشا) وقائد الفرقة الأولى (محمود مختار باشا)، ورئيس مجلس المبعوثان (أحمد رضا)، ونفي الاتحاديين من البلد، وإعادة ضباط الـ(آلايلي) إلى الخدمة، والعفو عن جميع المشتركين في هذا التمرّد، لأنّهم لا يقصدون سوءاً.

في هذه الأثناء كان الجنود يفتّشون عن رئيس مجلس المبعوثان (أحمد رضا بك) وعن الصحفي (حسين جاهد يالجين) لشيوع عداوتهما للإسلام، غير أنهم لم يعثروا عليهما، فقد اختفيا عن الأنظار، ولكن قتل وزير العدل (ناظم باشا) إذ ظن المتمردون أنه (أحمد رضا بك)، كما ذهب نائب اللاذقية الأمير (محمد أرسلان) ضحيةَ خطأ أيضاً، إذ حسبه الجنود المتمردون الصحفيَّ المعاديَ للإسلام (حسين جاهد)، كما قتل عدد غير معلوم من الضباط من خريجي الكلية الحربية، إذ كان المتمرّدون يستوقفون الضباط ويسألونه: هل أنت ضابط متخرج من المدارس أم ضابط خدمة (آلايلي)؟ فإنْ كانَ الجواب أنه خريج الكلية الحربية

قُتِل، ومع أنَّ السلطان بدَّلَ الصدر الأعظم، وعيّن توفيق باشا مكانه، كما تمّ تبديل وزير الحربية وقائد الفرقة الأولى نزولاً عند رغبة المتمرّدين، طمعاً في إنهاء حركة التمرّد إلاّ أنَّ حركة التمرّد لم تنتهِ[(١)].

وكانت تطالب بـ:

١ ـ إحياء الشريعة.

٢ ـ عزل الصدر الأعظم وناظِرَيْ الحربية والبحرية.

٣ ـ طرد (أحمد رضا بك) و(حسين جاهد بك) و(جاويد بك) و(رحمي بك) و(طلعت بك) و(إسماعيل حقي بك). . . من المجلس[(٢)].

ويذكر المؤرّخون أنَّ هذه الحادثة ما هي إلى تمثيلية سياسية دبّرتها جمعية الاتحاد والترقّي بإيعاز من الصهيونية بهدف عزل السلطان عبد الحميد[(٣)].

وقد اعتبر أعضاءُ (الاتحاد والترقي) السلطان (عبد الحميد) هو المدبّر لهذه الحادثة، فأرسلوا قواتهم من سلانيك إلى إستانبول، وكان هذا الجيش يحمِلُ اسم (جيش الحركة) ويتكوّن من قوات نظامية، وقوات غير نظامية. كما كان يحتوي على رجال عصابات مسلحة، من البلغار والصرب واليونانيين، وهؤلاء يتعاونون مع (الاتحاد والترقّي) المنادي: بالقومية والمساواة[(٤)].

---

(١) أورخان، محمد علي، مرجع سابق، ص٣٢٢ـ٣٢٣.

(٢) محمد حرب، السلطان عبد الحميد آخر السلاطين، مرجع سابق، ص٤٦ ـ ٤٧؛ حسان علي حلاق، مرجع سابق، ص٣١٦.

(٣) محمد حرب، السلطان عبد الحميد، مرجع سابق، ص٤٦ ـ ٤٧.

(٤) وبمناسبة اتهام السلطان عبد الحميد بتدبير هذه الحادثة يقول السلطان عبد الحميد في مذكراته: «ارتعشتُ رغماً عني عندما شرعتُ في كتابة تاريخ اليوم. الواقع أنَّ هناك ثلاثة عشر يوماً ناقصة على هذا اليوم إذا ما وضعنا في اعتبارنا حساب التاريخ الجديد. إنّ هذا الاسم قد خرجَ من كونه رقماً إلى كونه عَلَماً على تاريخ فترة. قليلٌ جداً من الناس هم الذين أحسّوا بأنّ حادثة ٣١ مارت ستحدث. لكن لم يعلم أحد قط حقيقة هذه الحادثة وسببها ومسببيها جميعاً. وإنّي لا أريدُ على الإطلاق أن تبقى هذه المسألة محجوبة، =

. . . .

= سأسجلها هنا مراعياً ألا أكتمَ شيئاً منها أو أحرِّف منها شيئاً. لم أتدخَّل قطعياً في حادثة ٣١ مارت، ولم أسف بنفسي لأفيد من هذه الفرصة التي جاءت من تلقاء نفسها. ولو كان لي دخلٌ فيها، ولو كنتُ أردتُ الإفادة منها، ما كنت اليوم (منفيا) في قصر بكلربكي وإنما كنت سأكون (في السلطة) في قصر يلديز. تصوَّرت جمعية (الاتحاد والترقي) أن حُسْن معاملتي لهم عندما كانوا ضعفاء جداً في ١٠ تموز، تصورتْ أنَّ هذا ضعفٌ مني، أو أنني لم أستطع الإفادة من قوتي. فبدأتْ تتحفَّز للانقضاض عليَّ من أعلى. وعلمتُ أنَّ خلافاً كبيراً حدث بين الجنود. ورأيتُ أنَّه من الخطر الكبير غير العادي عليَّ وعلى الدولة حدوث ثورة، وبشكل خاص تدخُّل الجنود في أعمال مثل هذه الأعمال، أخبرتُ (حسين حلمي باشا) بالموقف، بل واستدعيتُ في إحدى الليالي وزير الحربية والغازي (مختار باشا زاده محمد باشا) قائد القوات الخاصة إلى السراي، وكان معنا الصدر الأعظم، وتباحثنا في الأمر بحثاً طويلاً، قالوا: إنهم يقدِّرون خطورة الموقف، وإنهما سيتَّخذان فوراً التدابير اللازمة، ولكن عندما اتخذت هذه التدابير كان الموقف قد اختلط وتغيَّر وتعقَّد تماماً. عجزُ السلطة كان واضحاً، فقد أعلنت الصحف والجمعيات والنوادي وبشكل مثير عن حريق ٣١ مارت. لم أتدخل حتى لا أكون شريكاً في مسؤولية الواقعة، كان يمكن لحكومة (حسين حلمي باشا) قمع هذه الفتنة خلال ساعتين لو كان لديها العزم الصادق على هذا، يقول رجالي بعد أن حققوا في الأمر: إن هذه الواقعة بدأت بعدد قليل من العسكر. وكان سعيد باشا ابن كامل باشا هو الذي أتى برجل ألباني اسمه الجاويش حمدي. وأمدّه بالمال اللازم، ودفعه لتحريض هؤلاء العسكر. لو لم يتردَّد (حسين حلمي باشا) ورفاقه، ولولا أن تقاعسوا عن أداء واجبهم لانتهت حادثة ٣١ مارت في ساعة واحدة.

استقالت وزارة (حسي حلمي باشا) بعد أن أحاط الحريق بالمدخنة. طالب المجتمعون في ميدان آيا صوفيا بصدارة (كامل باشا) وأن يكون (ناظم باشا) وزيراً للحربية، ونظراً لأنهم لم يكونوا حذرين فإني أوصيت بتعيين (توفيق باشا) وهو محايد، في الصدارة العظمى، وبتعيين الغازي (أدهم باشا) وزيراً للحربية». (مذكرات السلطان عبد الحميد، محمد حرب، ص١٨٤ـ١٨٦، ١٨٨ـ١٩٠).

وتؤيد الأميرة شادية ابنة السلطان عبد الحميد «كنت في السابعة عشرة من عمري عندما وقعت حادثة ٣١ مارت التي زجّوا بأبي فيها، لم يكن لدى أبي أيّ خبرٍ عنها، وعندما سمع بها حزن كثيراً، كانت المسألة عبارة عن مؤامرة مفجعة جداً. افتعلتها قوات الحفاظ على المشروطية بتحريض بعض المغرضين لخلع أبي من السلطنة، افتعلتها=

تحرّك (جيش الحركة) من سلانيك، بقيادة محمود شوكت باشا، ووزع منشوراً يقول فيه: إنّه «جاء إلى إستانبول لينقذَ السلطان من أيدي المتمرّدين» كما أعلن هذا القائد في برقيةٍ جوابية إلى الشريف حسين شريف مكة المكرمة: «إننا جئنا إلى إستانبول لحماية السلطان خليفة المسلمين». وكان لمحمود شوكت باشا ضابطان شابان، هما أركان حربه: عزيز المصري[1] ومصطفى كمال (أتاتورك).

وعندما وصل (جيش الحركة) طلب قادة الجيش النظامي الأول الموجود في إستانبول من السلطان الإذن بالحرب، فرفض السلطان عبد الحميد ذلك حقناً للدماء. وفي ٢٥ نيسان ـ إبريل أصبح (محمود شوكت باشا) هو المسيطر على العاصمة. واجتمعَ مجلس المبعوثان، واتخذ قراراً بخلع السلطان، ولم يستطع

= على شكل تمرد ضد مجلس المبعوثان». (مذكرات الأميرة شادية ابنة السلطان عبد الحميد، ص٣٢)؛ و(مذكرات السلطان عبد الحميد، محمد حرب، ص١٨٥).

ويقول الدكتور (رضا نور) في مذكراته عن هذه الحادثة وموقف السلطان عبد الحميد فيها: «ادّعى الاتحاديون أنَّ عبد الحميد هو الذي دبّر الحادث، وهذا كذب. مسكين عبد الحميد فلم يكن له أيُّ دخل في هذا الحادث، حتى إنني أعلم يقيناً أنّه رفض مقابلة الجاويش حمدي القائم على هذا الحادث؛ عبد الحميد براء من هذه الحادثة لم يدبّرها، ولم يشترك فيها، ولم يوافق عليها. لكنّه أيضاً لم يتحرّك ضدها. وفي هذا أيضاً لم يكن يستطيع أن يضادها. ولم تكن هذه وظيفته. (مذكرات رضا نور، الحلقة ٤، المجتمع، العدد ٥٣٣، يونيو ١٩٨١م: الكويت)؛ و(مذكرات السلطان عبد الحميد، محمد حرب، ص١٨٥).

(١) عزيز المصري: ضابط شركسي انخرط في عدة جمعيات في العهد العثماني، شارك في حرب طرابلس وكان له موقف مشين مع الليبيين، اتصل بالإنجليز واجتمع معهم في طهران!! وتزوج بامرأة أمريكية، بعد سقوط الدولة العثمانية ذهب إلى مصر، ثم التحق بثورة الشريف حسين، لكن الشريف طرده فعاد إلى مصر. هرب من مصر إبان الحرب العالمية الثانية ملتحقاً بالقوات الألمانية في ليبيا، ومنها ذهب إلى ألمانيا وبقي فيها حتى سقوط برلين، عاد بعدها إلى مصر ليشارك في ثورة ٢٣ يوليو مع الضباط الأحرار، ثم عيّنه عبد الناصر سفيراً في الهند، وبالإجمال فهو شخصية غامضة ومريبة، توفي في القاهرة في أواسط السبعينيات. (انظر صحوة الرجل المريض لموفق بني المرجة). (الناشر)

(الاتحاد والترقي) الحصول على فتوى شرعية بالخلع إلا بالجبر. وأبلغو السلطان القرار بواسطة وفد يرأسه (عمانويل قره صو) اليهودي العثماني، عضو مجلس المبعوثان، ورئيس المحفل الماسوني في سلانيك[1].

وقد دخل جيش مقدونيا في هذه الأثناء إستانبول، وحدثت حالة من الفوضى في الدولة، وقد كانت هذه الثورة بفعل اليهود بهدف إثارة الفوضى في البلاد، وإحداث الارتباك في النظام الذي يؤدي إلى خلع السلطان[2].

وقد عبَّر السلطان عن هذه الحادثة بقوله: «أعرف جيداً أنَّ كل ما يرومون هو خلعي أو قتلي وأنا شخص واحد، فإذا أمرتكم بالمقاومة سقط القتلى منكم ومنهم، وأنتم جميعاً أفراد من هذه الأمة، والأمة ستحتاج إليكم فيما ينزل بها من شدائد»[3].

دور اليهود في خلع السلطان عبد الحميد الثاني:

لم يتوقف اليهود طوال إقامتهم في الدولة عن المحاولات والمناورات من أجل تنفيذ أغراضهم، وكان عدوهم الأساس الذي وقف حائلاً أمام تحقيق رغباتهم هو السلطان عبد الحميد الثاني، ولم يجدوا أمامهم بعد أن استنفدوا جميعَ المحاولات السلمية لإخضاع السلطان، وانتهوا بالفشل، غير أنَّهم قرّروا التخلّص منه بكلّ الوسائل، وكان من ضمن مؤامرتهم للقضاء على السلطان، كانت محاولة اليهودي (نوردلنج) الذي قدّم مشروعاً لاغتيال السلطان، كان هذا اليهودي يدعى (علي نوري بك) قنصل أول عثماني سابقاً، وهو يهودي سويدي ادّعى الإسلام، قام هذا اليهودي بعرض فكرة اغتيال السلطان عبد الحميد عن طريق شراء بارجتين، وتأجير ألف رجل، وتدخل هاتان البارجتان البسفور، وتقومان بتدمير قصر يلديز الذي يقيم فيه السلطان، ولكنّ هذا المشروع رفض من

---

(١) محمد حرب، السلطان عبد الحميد، ص٤٧ ـ ٤٨.
(٢) انظر حسان علي حلاق، مرجع سابق، ص٣١٧.
(٣) مذكرات السلطان عبد الحميد، مرجع سابق، ص١٨٥.

قبل هرتزل تحسباً من وقوع فتنة لليهود داخل الدولة في حالة فشل هذه المؤامرة[١].

ومن ناحية أخرى تجلّى ظهورُ اليهود في حركة الاتحاد والترقي ومساندتهم لها في القضاء على السلطان. ففي ٢٤/ ٤/ ١٩٠٩م ذهب وفدٌ إلى مفتي الإسلام (محمد ضياء الدين) من أجل إصدار أمر بخلع السلطان، وكان لليهود دورهم الملموس في هذا الأمر، فقد ذهب وفدٌ مكوَّنٌ من (عارف حكمت باشا) رئيس الوفد، وعضوية كل من (أسعد طوبتاني باشا) و(غالب باشا) و(آرام أفندي الأرمني) ومن زعماء اليهود الماسونيين المنتسبين إلى يهود الدونمة (عما نويل قره صو) ووصلوا إلى يلديز لإبلاغ السلطان نبأ الخلع[٢].

وتم نفي السلطان وسجنه في سلانيك في ٢٧/ ٤/ ١٩٠٩ في فيلا (آلاتيني) وكلّف شفيق رمزي بك بحراسته، ثم نقل إلى (قصر بكلربكي) ومنع عنه الزوار، وحدثت حركات معارضة ضد الاتحاديين من قبل الصحافة، وخاصة الألبان وبعض المناطق العربية في سوريا ولبنان الذين لم يرحّبوا بخلع السلطان[٣].

---

(١) محمد حرب، السلطان عبد الحميد آخر السلاطين العثمانيين الكبار، مرجع سابق، ص٢٣٤ ـ ٢٣٥.

(٢) كانت مشاعر الحزن والأسى باديةً على السلطان، فقال بغضب مشيراً إلى (قره صو) قائلاً: «ما هو عمل هذا اليهودي في مقام الخلافة. وحدّق بغضب إلى قره صو، وتابع كلامه: بأي قصد جئتم بهذ الرجل أمامي... وبدلاً عن الجواب ساد الارتباك الجماعة وبالأخص اليهودي، وعلاوة على ذلك استولى عليه الخوف... فلم يجد في نفسه قدرة على الجواب. ومما زاد في حسرة السلطان أنّه سبق أن طرده من مجلسه في قصر يلديز حينما حاول التأثير عليه لإسكان اليهود بفلسطين. وخاصة أن قره صو هذا اعتُقل بتهمة التجسس في قصر يلديز على أبواب ثورة ١٩٠٨م وسيقَ إلى السجن إلى أن عفا عنه السلطان. (مذكرات السلطان عبد الحميد، محمد حرب).

(٣) انظر محمد حرب، السلطان عبد الحميد، مرجع سابق، ص٤٨ ـ ٤٩، وفي معرض حديث السلطان عبد الحميد ـ بعد خلعه ـ عن الاتحاديين قال: «السلطنة العثمانية آنية قديمة متفسخة منعتها ـ بالاعتماد على مرهم (إدارة مصلحت) ـ من السقوط، وذلك مدة ثلث قرن، على أنّ الاتحاديين ما كادوا يتسلمونها مني ـ واستولوا عليها بقوة الشباب=

وبعد ذلك تمكّنت العناصر اليهودية من النفوذ إلى الدولة فأصبح (جاويد بك) وزيراً للمالية، و(طلعت بك) وزيراً للداخلية، و(جاهد بك) مستشاراً لجاويد بك. وجميعهم ينتمون إلى الماسونية.

وبعد تعيين (محمد رشاد) الملقَّب (محمد الخامس) خلفاً للسلطان عبد الحميد، أصبحَ هذا السلطان أداةً بأيدي الاتحاديين، الذين هيمنوا على مقدرات الدولة[1].

= المخدوع بقوته ـ حتى أضاعوا التوازن، وبدأ الانهيار دون أن يشعروا بالأمر».

ويقول أيضاً: نحن جميعاً نعلم مدى الحقد الذي يكنّه اليهود منذ زمن الرسول ﷺ على الإسلام ومقام الخلافة، هو جزاء عدم إعطائي وطناً لليهود.

يذكر السلطان في مذكراته في مناسبة حادثة خلعه قوله: بكيتُ بكاءً مرّاً وأنا في القطار على طول الطريق. لم أكن أبكي على نفسي، وإنما على الظلام الذي وقعت فيه بلادي. فلو أني كنتُ موقناً من أهلية هؤلاء الذين تولوا السلطة في بلادي، ولو أهلية بسيطة لإدارة البلاد، فوالله وبالله لاحتسبتُ ذلك عيداً بالنسبة لي. (مذكرات السلطان عبد الحميد، محمد حرب، ص١٠٤).

وبهذه المناسبة يجدر بنا أن نذكر أنَّ أحد كبار المعارضين للسلطان، وكان من كبار رجال الاتحاد والترقي أيضاً وكان فيلسوفاً وشاعراً قد نظَم قصيدة عن السلطان عبد الحميد وقد كتبها عند وفاة السلطان قال فيها: عندما يذكر التاريخ اسمك يكونُ الحقُّ في جانبك ومعك يا أيها السلطان العظيم، كنّا نحن الذين افترينا ـ دون حياء ـ على أعظم سياسي العصر، قلنا: إنّ السلطان ظالم، وإنّ السلطان مجنون، قلنا: لابد من الثورة على السلطان، وصدقنا كلّ ما قاله لنا الشيطان، وعملنا على إيقاظ الفتنة، لم تكن أنت المجنون، بل نحن، ولم نكن ندري علقنا القلادة على فتيلٍ واهٍ، لم نكن مجانين فحسب، بل كنا قد عَدِمْنا الأخلاقَ فلقد بصقنا ـ أيها السلطان العظيم على قبلة الأجداد. (محمد حرب، العثمانيون في التاريخ والحضارة، مرجع سابق، ص٢٩ ـ ٣٠).

(١) يقول السلطان في مذكراته أنه بعد خلعه زاره فتحي بك قائد الحرس، وطلب منه مساعدة للجيش وجاء على قول السلطان: «كيف يمكن لسلطان مخلوع مثلي أن يساعدَ الجيش. لقد نُفينا مع أولادنا، وحُبِسنا في قصر حتى إنّهم منعونا من قراءة الصحف. كنا نعيش بألف ليرة تدفعها لنا الدولة، وهي لا تكفي حتى لمعيشتنا. سألته بتعجب: ـ وكيف هذه المساعدة؟ ـ بأن تمنحوا نقودكم وسنداتكم الموجودة في البنوك إلى الجيش: لم أتعجب وقت أن أنزلوني عن العرش ونفوني إلى سلانيك وحتى عندما لم يسمحوا لنا بفتح شيش=

قضى السلطان عبد الحميد بعد خلعه ثلاث سنوات في قصر (آلاتيني) في سلانيك من ١٩٠٩ حتى ١٩١٢م لايتصل بأحد ولا أحد يتصل به، وكانت الدولة

= نوافذ القصر، وتعجبتُ حقيقةً عندما طلبوا مني سنداتي وتحويلاتي الموجودة في البنك، ذلك لأنَّ هذه الثروة لم تعد تبلغ حتى نصف ثروتي وقت أن كنتُ ولياً للعهد، وقد استخدمتها في شؤون الدولة والشعب مع حب الثروة الشخصية، وذلك عندما استدعت إليها الحاجة، لم أفكر أبداً في أيّ وقتٍ من الأوقات في استردادها، والآن يريدون الاستيلاء على آخر شيء في يدي أستطيعُ الاستناد عليه، ويستعدون لتركي بلا أمان مدة طويلة، وأنا لا أفكر في نفسي، ولكن ماذا سيحدث لأولادي، فقد كنتُ صاحبَ أسرة كبيرة، والتفكير في حياتهم واجبٌ عليّ. والثروة التي تحت يدي ـ وهي تُعدُّ قليلة ـ من قبيل تأمين مستقبلهم، وإن كانت لا تستطيعُ دفعَ مشاكلهم الحياتية. شرحتُ هذا بهدوء، ودون أن تسيطرَ عليّ الحدّة، شرحته لفتحي بك ثم قلت له: إنّ حضرة أخي السلطان رشاد يعلمُ بحالي جيداً، وليس لي من الدولة قرش واحد يحميني، ولو أعطيتُ كلّ مالي للجيش فلن يسد احتياجات كتيبة واحدة من الجيش. الدولة العثمانية لاتستطيعُ أن تقفَ على قدميها من جراء بعض نقود أمتلكها. كان فتحي بك يسمعني وهو مطأطئ، ولم يقل شيئاً قط، ثم سألته: أهذا أمرٌ من أخي؟ فقال: هذا رجاء من الجيش والحكومة مقدمٌ إليكم. ـ حسناً، وماذا يحدث لأولادي؟. إنَّ حياة ونفقات ذات دولتكم، وكذلك أولادكم تكفلها الدولة والجيش. لاحظتُ وهو يجيبني بأنَّه فصلَ الدولةَ عن الجيش، كان يتكلَّم وكأنَّ الجيش دولة داخل الدولة. والمعنى الذي يُستنتَج من هذا: أنَّ جمعيةَ الاتحاد والترقّي هي الدولة، وهي التي تمثّل القوة المدنية للحكومة، والسراي، ومجلس المبعوثان، وقوة الجيش العسكرية، وهذا يعني أنَّ الأسرة الحاكمة لم تعد إلا اسماً فقط. إنَّ هذه هي أول مرة في تاريخ الدولة العثمانية تستحوذُ فيه على الدولة هيئةٌ غيرُ مسؤولة. و(محمد حرب، السلطان عبد الحميد، ص١٠٨ ـ ١١٠)، يتحدّث رضا نوري في مذكراته عن رأيه في الحكم الاتحادي الذي أمسك بزمام الأمر في ذلك الوقت، وكلّ ما فعله الاتحاديون من مساوئ، إلا أنهم بالنسبة لمصطفى كمال (أتاتورك) كانوا رجالاً ممتازين، لكنّ الحكم المشروطي (الذي جاء به الاتحاديون) جعلنا نفتقد عبد الحميد، ونترحّم على أيامه. عانينا كثيراً من الاتحاديين، وقاسينا منهم كثيراً، وإذا بمصطفى كمال يتّخذ مكانه فوق رقابنا سيفاً مصلّتاً. عند ذلك قلنا: آه! كم كان الاتحاديون وكم كانوا!! كم هي مسكينة هذه الأمة. هذا قدرها، فلنرَ ماذا سيكون من مصطفى كمال بعد ذلك؟ أخذ العرب يفكّرون في تأسيس حزب عربي. وكان هذا الفكر القومي العربي أمراً بالغ الخطورة، وإذا انفتح هذا الطريق (أي القومية العربية) فإنَّ نهايته لابدّ وأن تكونَ وخيمةً». (مذكرات رضا نور، مجلة المجتمع الكويتية، ١٩٨١م، ص٢٥).

تحت قيادة جمعية الاتحاد والترقي التي أخذت في التهاوي بعد إعلان بلغاريا استقلالها عن الدولة، واحتلال إيطاليا لطرابلس، وإلحاق البوسنة والهرسك بالنمسا. في ذلك الوقت تمَّ نقلُ السلطان من سلانيك إلى إستانبول في تشرين الثاني ـ نوفمبر عام ١٩١٢م، وأقام السلطان عبد الحميد في قصر (بكلربكي) في إستانبول، وكان ممنوعاً من لقاء أفراد عائلته سوى أيام الأعياد فقط، وبعد عامين من إقامته بالقصر قامت الحرب العالمية الأولى، وقد أقلقت الأحداثُ السلطانَ عبد الحميد، الذي حثَّ الاتحاديين على الدفاع عن مدينة إستانبول، وظلَّ السلطان في هذا القصر مدة خمس سنوات، حتى وافته المنية يوم الأحد ١٠/ ٢/ ١٩١٨م[١]

وقد اعترف السلطان العثماني لطبيبه عاطف بك عام ١٩١١م عن موقف اليهود بعد خلعه: أنا متأكد أنَّه مع مرور الوقت سوف يستطيعون وسوف ينجحون في إقامة دولتهم في فلسطين[٢].

يجدر بنا أن نَصِفَ الأعوام التي تلت خلع السلطان عبد الحميد بأنَّها العصر الذهبي لليهود، فعن طريق جمعية الاتحاد والترقي تصدَّرَ الصهاينة مراكزَ الصدارة في توجيه الدولة بعد أن شغل رجالهم المراكز الحساسة بالدولة، وأصبحَ التحالف بين اليهود والاتحاديين واضحاً للغاية.

وقد أرسل السفير البريطاني في إستانبول في مذكرة إلى وزارة الخارجية البريطانية في آب ـ أغسطس ١٩١٠م صرح فيها: «إنَّ لجنة الاتحاد والترقي، تبدو في تشكيلها الداخلي، تحالفاً يهودياً ـ تركياً مزدوجاً، فالأتراك يمدّونها بالمادة العسكرية الفاخرة، ويمدّها اليهود بالعقل المدبّر وبالمال، وبالنفوذ الصحفي القوي في أوروبا، إنَّ اليهود الآن في موقف الملهم والمسيطر على الجهاز الداخلي للدولة»[٣] وبتأييد من الماسونية والصهيونية والدول الاستعمارية قامت الجمعيات

---

(١) انظر: أورخان، مرجع سابق، ص٣٣٧، ٣٥٢؛ ومحمد حرب، السلطان عبد الحميد، مرجع سابق، ص٤٩.

(٢) ميم كامل، مرجع سابق، ص٨٤.

(٣) ليلى عبد اللطيف أحمد، مرجع سابق، ص٤٨.

القومية التركية بتكوين مجموعة من الشباب والسياسيين والوطنيين لمعارضة أنظمة الدولة التي كانت سيئة في ذلك الوقت، وانضمّ إليهم عدد من العسكريين الذين كانوا منضمين للجيش العثماني، وكان أول تشكيل لهذه الجمعية وأول المنتمين إليها هو (إسحاق سكوتي) و(شرف الدين نعومي)[١].

وفي هذه الفترة قويت الروابط بين اليهود وأتراك مقدونية وظهرت الشركات الصهيونية في مناطق (ماستر) و(أسكوب) و(قونية) و(جانينا) و(أضنة) وغيرها، وأصبح اليهود مسيطرين على جهاز الدولة الاقتصادي والصناعي، فازداد عدد المؤسسات المالية اليهودية، ومن أبرزها شركة (أنجلو ـ ليفانتين) و(شركة تطوير الأراضي الفلسطينية) و(شركة أرض إسرائيل) وغيرها من الشركات الاستثمارية والمصرفية اليهودية التي لعبت دوراً بارزاً في تعزيز الصهيونية في فلسطين[٢].

ولما كان السلطان عبد الحميد يهتمّ بالعناصر الإسلامية، ويسلّمهم مناصبَ هامة في الدولة أمثال (عزت باشا العابد الدمشقي) و(الشيخ أبو الهدى الصيادي) وغيرهم إلاّ أنَّ وضع هؤلاء تغيّر بالكامل بعد أن تسلّم الاتحاديون زمامَ الأمر، فقد قاموا باستبعاد كافة العناصر العربية من المناصب الهامة، ويقال: إنَّ وزارة الخارجية التركية استبعدت منها العناصر العربية حتى إنَّه لم يبقَ بها سوى موظف عربي واحد، وأصبحت الصحف الاتحادية تنشر مقالات ضد العرب، ومن أبرز هذه الصحف صحيفة (طنين) التي كان يرأسُ تحريرَها (حسين جاهد) اليهودي، الذي هاجم فيها العرب بشدّة[٣].

وقام (يهود الدونمة) بنشر كلمة (بيس) بمعنى (قذر) مقترنةً بكل ما هو عربي، ومن ناحية أخرى نشروا بين الأوساط العربية عبارة (بيس تركلير) بمعنى (الأتراك القذرون) حتى يحدثوا الخلافات بين العرب والترك[٤].

---

(١) رفيق شاكر، مرجع سابق، ص١١٨ ـ ١٢٦.
(٢) حسان علي حلاق، ص٣٢٩.
(٣) حسان علي حلاق، مرجع سابق، ص٣٣٢.
(٤) المرجع السابق نفسه.

ولم يكتفِ زعماء الصهيونية بطلب الهجرة إلى فلسطين فحسب، وإنما طالبوا بإيجاد مراكز تسهّل عليهم عملية نزول المهاجرين إلى فلسطين عبر الموانئ، وطالبوا من القنصل البريطاني في القدس بالتدخّل لتسهيل هذه العملية، إلاّ أنَّ القنصل البريطاني أعلنَ صعوبةَ هذه المهمة نظراً لرفض الحكومة العثمانية المشروع الصهيوني، وأعلن القنصل البريطاني أنّ تأسيس الدولة اليهودية القومية لن يتمَّ إلا بالمال، والعمل على تشكيل لجان لجمع التبرعات لأجل هذا التأسيس، فقامت الرأسمالية اليهودية في بريطانيا، بتشجيع اليهود لإقامة المستوطنات، وإغداقهم بالأموال، كما تمّ إنشاء (الشركة اليهودية ـ البريطانية) لأجل هذا الغرض، وقد سبب إنشاء هذه الشركة مشاكل عديدة بين بريطانيا والدولة العثمانية[١].

وعلى الرغم من ذلك استمرت الهجرة اليهودية إلى فلسطين. ومن أهم الشخصيات التي هاجرت إلى فلسطين في تلك الفترة (دافيد بن غوريون)[٢]

---

(١) انظر: حسان علي حلاق، مرجع سابق، ص٢١٠ـ٢١١.

(٢) دافيد بن غوريون (١٨٨٦ ـ ١٩٧٣م) زعيم صهيوني وسياسي إسرائيلي وعالم توراتي، ولد في بولندا في منطقة الاستيطان اليهودي في روسيا، نشأ نشأةً يهوديةً، كان أبوه عضواً في جماعة أحباء صهيون، انضمّ إلى جماعة عمال صهيون عام ١٩٠٤م، حاول تغيير اتجاه الحزب من التركيز على الأقليات اليهودية إلى التركيز على المستوطنين الصهاينة في فلسطين، كان من دعاة بعث اللغة العبرية، قامت السلطات التركية بنفيه بسبب نشاطه الاستيطاني غير الشرعي في فلسطين، تولّى رئاسة الهستدروت خلال الفترة من ١٩٢١ ـ ١٩٣٢م، في عام ١٩٣٠م ساهم في إنشاء (الماباي)، انتُخب عضواً في اللجنة التنفيذية للوكالة اليهودية عام ١٩٣٧م، وفي عام ١٩٤٨م قام بنفسه بإعلان قيام إسرائيل، طالب بجعل القدس عاصمة لإسرائيل، تولّى منصب رئيس وزارة إسرائيل عدّة مرّات، وشغل منصب وزير الدفاع في الوزارات التي رأسها، جهّزَ لحرب ١٩٥٦م ضد مصر، في أيام حياته الأخيرة كتب في مذكراته: لقد انتقمنا من المصريين والسوريين لأسلافنا، وأحياناً كان ينادي بالسلام مع العرب، وأحياناً أخرى يصرّحُ بالاحتفاظ بكلّ الأراضي التي استولت عليها إسرائيل، كان ابن غوريون من أكبر الاشتراكيين الصهاينة، كان يؤمِنُ بتفوّق الشعب اليهودي على شعوب العالم، من أهم كتبه (سنوات التحدّي)، و(بعث إسرائيل ومصيرها)، و(إسرائيل: تاريخ شخصي)، و(ابن غوريون ينظر إلى الوراء)، و(ابن غوريون ينظر إلى العهد القديم). (عبد الوهاب=

و(إسحاق بن زفي)[١].

وفي عام ١٩١١م طلبت بريطانيا ـ بإيعاز من فرنسا ـ من الحكومة العثمانية إلغاء القيود القائمة التي تمنع اليهود الأجانب من امتلاك الأراضي في مقاطعتي سوريا والقدس (أي فلسطين)، وكان هذا المطلب بإيعاز من أسرة روتشيلد اليهودية في باريس عن طريق الحكومة الفرنسية. فردّت الحكومة العثمانية بأنّها تحتفظ لنفسها بحقّ التصرّف، لأنّ هذا الأمر من صميم شؤونها الداخلية[٢].

وقد ذكر أيضاً أنّ بعض وزراء الدولة العثمانية ـ هاجموا الصهيونية ووصفوها بأنّها ضرب من الخيال، وأنّها ضد الفكرة العثمانية. ويفسِّر موقف الحكومة العثمانية ـ بأنه الموقف الرسمي لجمعية الاتحاد والترقي، فبعدَ ثورة الشبان الأتراك على السلطان عبد الحميد عام ١٩٠٨م تابع اليهود نشاطهم، واعتقدوا أنَّ موقف الاتحاديين سيكون أكثر تساهلاً ومودّة، ولكنّ الحكومة الجديدة سارت على نفس سياسة عبد الحميد، وتزايدَ عِداءُ الحكومة العثمانية للصهيونية. وبدا جليّاً هذا الموقف في عامي ١٩١١ و١٩١٢م عندما هاجم كثير من النوّاب الصهيونية، وأوعزت الحكومة إلى السلطات المحلية في فلسطين أن تشدِّدَ الرقابة على تنفيذ الأنظمة التي تحظر على اليهود امتلاك الأراضي»[٣].

كانت السياسة التي يتّبعها الاتحاديون في الدولة بعدَ القضاء على السلطان

= المسيري، موسوعة المفاهيم والمصطلحات اليهودية، مرجع سابق، ص١٠٦ ـ ١٠٧.

(١) إسحاق بن زفي (١٨٨٤ ـ ١٩٦٣) صهيوني، عمالي، ثاني رؤساء دولة إسرائيل، ولد في أوكرانيا، سافر إلى تركيا عام ١٩٠٩م للاتصال بالقيادات اليهودية هناك. ذهب مع ابن غوريون إلى فلسطين مع نشوب الحرب العالمية الأولى، إلاّ أنّهما سُجنا ورحّلا إلى مصر، ثم إلى نيويورك، وأسسا هناك جمعية الروّاد عام ١٩١٥م، ساهم في تجنيد الأفراد للفيلق اليهودي، انتُخِبَ رئيساً للدولة عام ١٩٥٦، وأعيد انتخابه عام ١٩٥٧م. (عبد الوهاب المسيري، موسوعة المفاهيم والمصطلحات اليهودية، مرجع سابق، ص١٠٥ ـ ١٠٦).

(٢) محمد الخير عبد القادر، مرجع سابق، ص٩٣.

(٣) المرجع السابق، ص٩٣ ـ ٩٤.

هي إدارة الدولة بزعامة حزبهم في مجلس الأمة، ورجالهم في وزارات الباب العالي وسائر المصالح، ويؤيّدهم في ذلك طائفة من ضباط الجيش، يجري بطريقة تجعله آلة في أيدي زعماء الجمعية كـ(طلعت بك) و(رحمي بك) و(جاويد بك) و(خليل بك) ومن يليهم في النفوذ كـ(جاهد بك) و(إسماعيل حقي بك) فإذا اتّفق هؤلاء مع لجنة سلانيك على مسألةٍ ما، جمعوا حزبهم للمذاكرة فيه، وهو متفق عليه بين الزعماء ومن يقنعون به قبل الاجتماع ممن يسهل إقناعهم، ومن نظام حزبهم أنّه إذا أقرّ الثلثان من حاضري الجلسة فيه أمراً وجب على الباقين اتّباعهم بغير مناقشة، فكان إذا حضر الجلسة ستون وهم نصفُ أعضاء الحزب، واتفق أربعون منهم على المسألة تبعهم الباقي الذي يصل عددهم (١٢٠) فينفذ في المجلس على أنّه رأي أكثر أعضائه.

وكان هؤلاء الزعماء من شيعة الماسون الذين يجتهدون في نشاطها، وجعل رجال الحكومة من أعضائها، وينشرونها بين ضباط الجيش، وقد يكون هذا تمهيداً للفصل بين السياسة والدين، وتجريد السلطان من صفة الخلافة الإسلامية.

ومن ناحية أخرى فإنَّ تشيعَهم للماسونية، وقوةَ نفوذ اليهود فيهم وفي الدولة، أدّى إلى فوز الجمعية الصهيونية في استعمار بلاد فلسطين، الذي يُراد به إعادة ملك إسرائيل إلى وطنهم الأول، وإلى ابتلاع أصحاب الملايين من اليهود لكثير من خيرات البلاد.

وكان من أهم مقاصد هؤلاء الزعماء جعل السيادة والسلطة في المملكة العثمانية للشعب التركي والتوسل بقوة الدولة إلى إضعاف اللغة العربية وإماتتها في المملكة، وتتريك العرب مع إبقائهم ضعفاء، ومنع الألبانيين والأكراد من تدوين لغتهم، وجعلها لغة علمية، وكان الاتحاديون يصفون جمعيتهم بالجمعية المقدّسة[1].

---

(١) يصف رشيد رضا (جمعية الاتحاد والترقي) أنها جمعية الأحمرين: الدم والذهب، فهي دم باعتبارها ثورية، وذهب لنهبهم أموال السلطان عبد الحميد ومصادرة أغنياء الأمة، وابتياع البوسنة والهرسك للنمسا، وطرابلس الغرب لإيطاليا، وبيع أراضي الدولة =

والوزارة الجديدة التي كوّنها الاتحاديون في ذلك الوقت كان على رأسها (محمود شوكت باشا) صدراً أعظم لها، وناظراً للحربية، ورجالها كانوا: شيخ الإسلام محمد أسعد أفندي الذي كان أميناً للفتوى، وهو من أعظم رجالها، والحاج عادل بك ناظر الداخلية. وبساريا أفندي ناظر للنافعة. وشكري بك ناظراً للمعارف، والبرنس سعيد حليم باشا ناظرا الخارجية، وإبراهيم بك ناظر العدلية - (والي إستانبول سابقاً) ونسيم مازلياح ناظر التجارة والزراعة - مبعوث إزمير الإسرائيلي سابقاً، ومفوض الجمعية الصهيونية. ومحمود جوروك صول ناظر البحرية - يقال: إنَّه كان خلف عبد الله باشا في قيادة الجيش. وأوسقان أفندي - لنظارة الديون العمومية الذي أرسل مفتشاً مالياً إلى الروملي، وأصبحَ ناظرَ البوسنة فيما بعد.

وفي الوزارة هناك (٣) وكلاء (وزراء) من قِبَل الجمعية الصهيونية: نسيم مازلياح، وجاويد بك، وبساريا أفندي، أما العرب فلا يوجد لهم فيها رجل واحد[1]، وكانت سياسة حكم الاتحاد والترقي - في الفترة ما بين ١٩٠٩م حتى ١٩١٨م تقوم على تتريك الأقاليم[2] كما كانت (جمعية الاتحاد والترقي) موضع شُبهات، وقد لعب اليهودُ فيها دوراً له أهمية في مجالس الاتحاديين قبلَ الثورة وبعدَها، كما كانت دُوْرُ الماسونية هي الأماكنُ التي استخدمها الضباط الاتحاديون

= ومزارع السلطان للجمعية الصهيونية، ومساعدتهم في امتلاك البلاد المقدّسة لتكوين الوطن اليهودي عليها.
يقول رشيد رضا: إنَّ الثورات التي استتبعت عزل السلطان، والتي كان محرّكها هو الاتحاديون منذ أربعة أعوام هو قلب الجيش على حكم عبد الحميد. وإنشاء حكومة دستورية، ثم قام الجيش فقلب تلك الحكومة. ثم قام رجال تلك الحكومة فقلبوا بعض طوابير ذلك الجيش، ثم عاد ضباط الجيش وقبلوا ذلك الحكم، فقام الاتحاديون وقلبوا حكومة ذاك الجيش، وهي خامس ثورة حدثت في أربعة أعوام في سبيل القبض على الحكومة ليس غير. (انظر وقائع وأخبار الدولة العثمانية، مجلة المنار، م١٦: ٢/ ١٥١).

(١) وقائع وأخبار الدولة العثمانية، مجلة المنار، ج٢م١٦، ص١٥٧.
(٢) محمد الخير عبد القادر، مرجع سابق، ص٨٣، ٢٠٩.

لعقد اجتماعاتهم السرية»[1].

وشهد عام ١٩١١م ظهور حزبٍ مناوئ للاتحاديين، يدعو إلى دعم الحقوق المقدّسة للخلافة والسلطنة، وينادي بتعديل الدستور لتحقيق هذا الهدف في ٢١/ ١١/ ١٩١١م كما ظهر في نفس هذا العام اتحاد الأحرار، الذي ضمَّ كل المعارضين لجمعية الاتحاد والترقي، وقد كوّن هذا الاتحاد معارضةً برلمانيةً ضد الاتحاديين، فاضطرَ هؤلاء إلى حلّ البرلمان في كانون الثاني ـ يناير عام ١٩١٢م وأجروا انتخابات في نيسان ـ إبريل سنة ١٩١٢م فجاءت بمن يريدون، وسُمِّيت انتخابات العصا الغليظة.

وفي شهري أيار وحزيران ـ مايو ويونيو ١٩١٢م تجمّع عدد من الضباط في إستانبول عُرفوا بـ(فرقة الإنقاذ) وكان من أهدافهم إسقاط (جمعية الاتحاد والترقي) وبرلمانها وحكومتها، وإعادة الحياة الدستورية، وفرضت هذه الحركة تعديلاً جذرياً أدّى إلى تكوين ما سُمّيَ بـ(الوزارة العظيمة) برئاسة الغازي أحمد مختار باشا في ٢١/ ٧/ ١٩١٢م التي حقّقت مطالبَ المعارضة في إبعاد (جمعية الاتحاد والترقي) ـ مؤقتاً ـ عن السلطة، وحلّ برلمانها في ٥/ ٨/ ١٩١٢م.

كانت الدولة العثمانية في ذلك الوقت مشغولةً بحرب البلقان (تشرين الأول ـ أكتوبر ١٩١٢م) وبالعدوان الإيطالي على ليبيا (١٩١١م) فدبّر الاتحاديون انقلاباً مضاداً لاستعادة السلطة بقيادة (أنور بك) في ٢٣/ ١/ ١٩١٣م، وأسقطوا الوزارة، وقتلوا وزيرَ حربيتها (ناظم باشا) وفي ١١/ ٦/ ١٩١٣م عادت جمعية (الاتحاد والترقي) إلى السلطة في صورة دكتاتورية ثلاثية يتزعَّمها (أنور) و(طلعت) و(جمال)[2].

ويجدر بنا الإشارة هنا إلى الدور الذي قام به اليهودي (قره صو) في احتلال إيطاليا لليبيا، ونتيجة لخيانته هرب إلى إيطاليا، وحصل هناك على حقّ المواطنة،

---

(١) محمد الخير عبد القادر، نكبة الأمة، مرجع سابق، ص٨٥.
(٢) المرجع السابق، ص٩٦.

واستقرّ فيها حتى مات عام ١٩٣٤م(١).

وفي عام ١٩١١م أيضاً انتخب يهود تركيا (داود النقوة) لتمثيلهم في المؤتمر الصهيوني العاشر، وقام هذا الشخص بإصدار صحيفة يهودية في إستانبول تؤيد الحركة الصهيونية(٢).

تأييد الدول الأوروبية لليهود من أجل تقسيم الدولة:

كان السلطان (سليم الثالث) جدّ السلطان عبد الحميد يعبّر عن نفوذ الدول الأوروبية في الدولة العثمانية بقوله: «إنَّ أيدي الأجانب تتجوّل متنزّهةً فوق كبدي».

أما السلطان عبد الحميد فقد أضاف على قول سليم قولهُ أيضاً: «إنَّ أيدي هؤلاء الأجانب ليست فوق كبدي، وإنما في داخله» معبّراً عن سريان نفوذهم في الدولة الذي تعدّى السياسة الخارجية إلى السياسة الداخلية، هذا إلى جانب نفوذ المحافل الماسونية في البلاد، ونجاحهم في استقطاب كبار الموظفين في الدولة، وتأثيرهم على الضباط الشبان في الجيش من أجل القيام بعزل السلطان، وقد عبَّرَ السلطان عبد الحميد عن هذا بقوله: إنَّهم «يشترون صدوري العظام ووزرائي، ويستخدمونهم ضد بلادي»(٣).

قامت الدول الأوروبية بدور مؤثّر من أجل تقسيم الدول التي كانت تحت إمرة الدولة العثمانية، وعملت على تفكيكها من أجل مصالحها وأهدافها الاستعمارية.

وكانت دول أوروبا الكبرى تريدُ تقسيم العالم فيما بينها عن طريق الدولة العثمانية، وكانت تتذرَّع في هذا بإعطاء الحقوق للمسيحيين في الدولة العثمانية،

---

(١) محمد حرب، مقدمة مذكرات السلطان عبد الحميد، دار الأنصار، مرجع سابق، ص٦.
(٢) صموئيل إتينجر، اليهود في البلدان الإسلامية، مرجع سابق، ص٢٢٩.
(٣) محمد حرب، السلطان عبد الحميد آخر السلاطين العثمانيين الكبار، مرجع سابق، ص٩٢.

فاتبعت أساليبَ (فرّق تسُد) بين مختلف طوائف الدولة، فانتهجت لتحقيق هذا وسيلتين:

الأولى: تأييد المسيحيين ضد المسلمين، ومساعدتهم في شن الثورات والحروب ضد المسلمين.

الثانية: العمل على إيجاد اختلافات وفتن بين المسلمين أنفسهم، وهذا مما يسهّل أهدافَ الدول الأوروبية بعد إضعاف الدولة العثمانية»[١].

ويرى السلطان عبد الحميد أنّ التنافس بين الدول الكبرى سيجرّها أخيراً إلى التصارع والتصادم فيما بينها. وعلى هذا، فإنَّ الدولة العثمانية أمام تصارع وتصادم كهذا، تصبحُ بعيدةً عن أخطار التمزّق وتقسيمها، ويوم التصادم (الدولي) سيوضح قيمة الدولة العثمانية بين الدول الأخرى، ذلك هو سرّ السياسة التي انتهجها السلطان عبد الحميد طيلة (٣٣) عاماً[٢].

فكان الإنجليز يثيرون على السلطان اتحاديي مناستر، ويثير الألمان اتحاديي سلانيك، وكانوا يعملون على قيام انقلاب للاستيلاء على الدولة من

---

(١) حسان علي حلاق، مرجع سابق، ص٢٧٦.

(٢) مذكرات السلطان عبد الحميد، محمد حرب، دار القلم، مرجع سابق، ص١٣٧.
يقول السلطان في مذكراته: «منذ أربعين عاماً وأنا أنتظر أن تشتبك الدول الكبرى مع بعضها البعض. كان هذا كل أملي. كنتُ أرى أنَّ سعادة الدولة العثمانية مرتبطةً بهذا. وجاء ذلك اليوم الذي كنت أنتظره، ولكن... هيهات. فقد أبعدوني عن العرش، وابتعدَ الذين حكموا البلاد بعدي عن العقل والتبصّر، الفرصة العظيمة التي ظللتُ أربعين عاماً في انتظارها ولّت، وأفلتت من يد الدولة العثمانية إلى الأبد، جاهدتُ لكي لا يعزلونني عن العرش طوال ثلاثين عاماً وجهادي هذا كان من أجل هذه الفرصة. حبست الأسطول في الخليج ولم أخرجه ولو للتدريب، وحبسي له كان من أجل هذه الفرصة. تجاهلتُ الحرب اليونانية لكي لا أدعَ للإنجليز منفذاً للاستيلاء على كريت. وتجاهلي هذا كان من أجل هذه الفرصة. بمعنى آخر. إنَّ كل مجهودي قرابة ثلاثين عاماً، بصوابه وبخطئه، إنَّما كان من أجل هذه الفرصة (مذكرات السلطان عبد الحميد، محمد حرب، مرجع سابق، ص٦١).

الداخل. أمّا اتحاديو سلانيك الواقعون تحت تأثير المحافل الماسونية الألمانية، فقد تحرّكوا عن طريق أنور ونيازي. واغتيل شمسي باشا. وأضاع اتحاديو مناستر المحاولة. كما قام الإنجليز بعمل محادثات سرية عن طريق أبي الهدى الصيادي الذي كان موضع ثقة السلطان[١]. ولسبب ما أوقف الإنجليز مباحثاتهم السرية، وأصبحت الحرب وشيكةَ الوقوع، وكان السلطان يعلم بكلّ هذه الأمور، لكنّه لم يتخذْ موقفاً مضاداً تجنّباً لإراقة الدماء، وفي النهاية قام الاتحاديون بإسقاط السلطان، وتوصّلوا إلى اتفاقية مع الإنجليز، ودخلوا الحرب كحليف مع ألمانيا[٢].

من ناحية أخرى قامت الدول الأوروبية بتزوير الوثائق، وتمويه السلطات العثمانية في هوية اليهود، الذين كانوا من رعاياها، ويرغبون في الإقامة في فلسطين[٣].

بالإضافة إلى هذا فقد كان للصحافة الأوروبية دورها في مهاجمة السلطان، وفي هذا الصدد يقول السلطان عبد الحميد في مذكراته: «كانت الصحف الأوروبية تكتب بشكل دائم وتهاجمني، وتلقّبني بالسلطان الأحمر، وكانت تحرّض الرأي العام العالمي ضدّي»[٤].

---

(١) أبو الهدى الصيادي (١٨٤٩-١٩٠٩م) من أشهر علماء الدين في عصره. كان نقيباً لأشراف عموم حلب. لمع نجمه في عهد السلطان عبد العزيز (عم السلطان عبد الحميد). بلغ مكانة كبيرة في عهد السلطان عبد الحميد، فُوجهت إليه رتبة الحرمين منها: (مستشار الملك). قضى (٣٠) سنة في خدمة الدولة العثمانية يدافع عن الخلافة، ويؤكد واجب المسلمين في مؤازرة الخليفة. عندما قام حزب (الاتحاد والترقّي) بانقلابه وعزل السلطان عبد الحميد، ضبط رجال الحزب وثائقَ تبيَّن من خلالها أنّ أبا الهدى الصيادي لم يكن منافقاً ولا متجسساً للسلطان، بل كان منه في مقام الناصح المرشد، كما ورد في (مذكرات محمد كرد علي. ولأبي الهدى الصيادي رسالة بعنوان (داعي الرشاد لسبيل الاتحاد والانقياد). (مذكرات السلطان عبد الحميد، محمد حرب، مرجع سابق، ص ٢٧٠).

(٢) مذكرات السلطان عبد الحميد، الدكتور محمد حرب، الطبعة الثالثة، دار القلم، ص ١٥٠.

(٣) أورخان محمد علي، ص ٢٦٠.

(٤) مذكرات السلطان عبد الحميد، محمد حرب، مرجع سابق، ص ١٢٨.

ومن الأسباب الرئيسة التي سعت الدول الأوروبية من أجلها إلى تفتيت الدول العثمانية هو الحصول على البترول، الذي تزخر به البلاد العربية وغيرها، التي كانت من ضمن أملاك الدولة العثمانية، حتى إنّ السلطان عبد الحميد علم بمخططاتهم، فقام بإغلاق الآبار التي فتحوها بالموصل وبغداد، وقد غضب الإنجليز كثيراً من موقف عبد الحميد(١).

---

(١) رفيق شاكر، مرجع سابق، ص١٣٧ ـ ١٣٨، وفي هذه المناسبة يقول السلطان عبد الحميد في مذكراته: كنتُ أعرفُ من قبلُ أنّه من أجل العثور على البترول في الأفلاق (في رومانيا) يقوم المختصون بحفر الآبار، وعن طريقها يبحثون عنه. بعد فترة جاءني السفير الإنجليزي بحجة أن يقول لي خبراً آخر. قال لي: إنّ قسماً كبيراً من أراضي سوريا والحجاز عبارة عن صحراء، والمعاناة شديدة في هذه الأماكن من العطش، لعدم وجود الماء، ولهذا السبب، فإنّه يتعذّر تعمير هذه المناطق، ولذا، فإنّ الحكومة الإنجليزية ـ إذا أصدرتُ موافقتي ـ مستعدّة باسم الإنسانية أن تفتحَ آباراً هناك، ولكن لهذا شروط: إذا تم العثور على الماء، وتكوّنت واحات، فإنهم سيتركون استخدام الماء الذي سيخرج للأهالي، ولكنهم في هذه الحالة يصبحون أصحاب الماء. إن مسألة الاتفاق ذاته لا يسير كما أريد. رفضتُ الاقتراح، ولم أكتفِ بهذا، بل أغلقتُ رسمياً الآبار التي فتحوها بالموصل وبغداد. تأثّر الإنجليز أبلغ التأثير بهذا، وغضبوا، وتركوا الآبار كما هي، ولكنهم بدؤوا يأخذون على عاتقهم التحرّش بمسألة الخلافة، متّخذين من جمال الدين الأفغاني وسيلة لمآربهم. كما كانوا يريدون الوصول إلى غايتهم باحتواء أمير الحجاز. وفي هذا الصدد يقول (كادمي كوهن) الكاتب الصهيوني في كتابه (دولة إسرائيل): في الجزيرة العربية ولد الإسلام، والعرب هم الذين تولّوا نشره عبر الدنيا وعملوا منه ديناً عالمياً عظيماً، لقد تضامن مع الكتلة العربية الهائلة كتل عديدة غير عربية، ولكنها اعتنقت الإسلام، فشعوب الملايو (ماليزيا) في جزر الهند والهندوس والأفغان والتتر على ضفاف نهر الفولغا وشبه جزيرة القرم في أوكرانيا والفرس والأتراك والبوسنيون في البلقان والبربر في مراكش والزنوج في أفريقيا الوسطى حيث يوجد مسلمون أكثر جداً مما يوجد عرب، وإذا أرادت السياسة الأوروبية أن تتحرر من العقبات التي ترهقها في مستعمراتها ينبغي عليها أن تسعى لتفكيك هذه الهوية المصطنعة التي تتحرك ضدها، هوية بين المفاهيم العربية والمفهوم الإسلامي، وعندما تتجرأ على حل المسألة العربية، فإنّها تحطّم آلياً التشابك الموجود بين المفهومين، وتفتت الوحدة الإسلامية، كما أنّ القوميات الاستعمارية الأوروبية تؤمن بهذا هدوءاً لم تعرفه منذ أمد طويل. إن نظرية الوحدة العربية هي خير علاج وأفضل ترياق ضد الوحدة الإسلامية، فهي لا تشكل خطراً أكثر مما تشكله القومية التركية الحالية إذ عندما=

وقد أرجعَ بعضُ الكتّاب والمفكّرين ضعفَ الدولة العثمانية إلى أنَّ العلّة الحقيقية في حال الدولة العثمانية هو فقر المملكة، واضطراب الحكومة، حيث كانت الحكومة الدستورية في أيدي الأمة، والأمة العثمانية ضعيفة الأخلاق، عريقة في الانقسام، بسبب ما توالى عليها من أعصر الفساد. وكانت الولايات التي تتبعها في آسيا كل ولاية منها مملكة قائمة بنفسها، فالعراق كانت مملكة البابليين والآشوريين، وكانت سوريا مؤلّفة من عدة دول، وهذه الولايات إذا أحسنت سياستها وإدارتها صارت غنية، وسوف يؤدي هذا إلى النهوض بالدولة وإصلاحها، وهذا لا يتم والأمـة على ما هي عليه؛ فالوسـيلةُ المثلى للنهوض بالدولة العثمانية إنما هي ترقية الشعب، وهو لا يقدر أن يرقي نفسه رغم استعداده الطبيعي للرقي، وقد يقوم بذلك حاكم عادل عاقل، إنما يشترط أن يكون مستبدّاً، وهذا لا يتسير والحكومة دستورية، فلابدّ من الاستعانة بالأجانب، وأسلم الطرق أن تتحالف الدولة العثمانية مع دول تثقُ بصداقتها، فتستعين برجالها على إصلاح حكومتها، وترقية شعبها، وصيانتها من مطامع الدول الأخرى، بشرط أن لا يكونَ

= تنصرف عن الدعوة إلى المشاعر الدينية، ولأنها هي على العكس تشكل عرقية أساسية تصبح عنصراً صحيحاً للتوازن السياسي في العالم القديم. إن تفتيت الهوية التي تجمع بين الإسلام والعروبة هو القادر على جعل الضفة الشرقية للبحر الأبيض المتوسط ما يجب أن تكونه في الحقيقة، واجهة القارة الآسيوية التي تطلّ على العالم الغربي ورأس جسر لأوروبا نحو آسيا الكبرى.

ويضيف (كادمي كوهين) الصهيوني قائلاً: إنّ الوحدة تصبح قادرة على مقاومة الوحدة الإسلامية إذا ما نظّمت سياسياً. فإيقاظ الشعور القومي العربي هو الذي يهيمن على المسألة. وينبغي أن لا يغربَ عن بالنا أن تألق نجاحات الإسلام هو الذي ولّد الإيمان الجديد عند العرب بتشكيل الأمة الإسلامية. إنّ القومية الإسلامية تتفوق على الفكرة العائلية وعلى العصبية العشائرية أو القبلية التي كانت معروفة حتى الآن، فإذا لم يتراجع الغرب أمام تلك الديانة الجديدة، وإذا ما أقرّ وأكّد على وجود قومية عربية تمتد من البحر الأبيض المتوسط إلى بلاد فارس قومية تختلف في جوهر تحديدها عن التتر والهندوس والبربر، فإنه يحرر بذلك قوة هائلة إذا ما تأطّرت بشكل مناسب استطاعت أن تلعب دوراً في العالم المتمدّن تؤهلها له أصالتها الرفيعة.

لهذه الدولة مطمع في الاستعمار. فإذا وُفِّقت إلى ذلك في أثناء أربعين سنة نهضت واسترجعت رونقها[1].

وقد أقيم عام ١٩٠٩م منتدى عمالي في سلانيك ضمّ مندوبين عن أصحاب المهن المختلفة من اليهود، وأصدر هؤلاء صحيفة (لاناسيون) (الأمة) وصحفاً أخرى عديدة[2].

وفي عام ١٩٠٩م وبعد خلع السلطان قامت المنظمة الصهيونية بعقد المؤتمر الصهيوني التاسع في هامبرغ وكان ذلك في ٢٦/ ١٢/ ١٩٠٩م وهو أول مؤتمر يعقد بعد تغيير النظام الحكومي العثماني، وقد عبّر الصهاينة عن تفاؤلهم بهذا المؤتمر، وأنّه سيفتح عصراً جديداً للصهيونية، ووصفوه بأنّه أول مؤتمر يعقد في ظل الحكم التركي الجديد، واعتبره الصهاينة المؤتمر الأول الذي يعقد في وجود سلطة شعب[3].

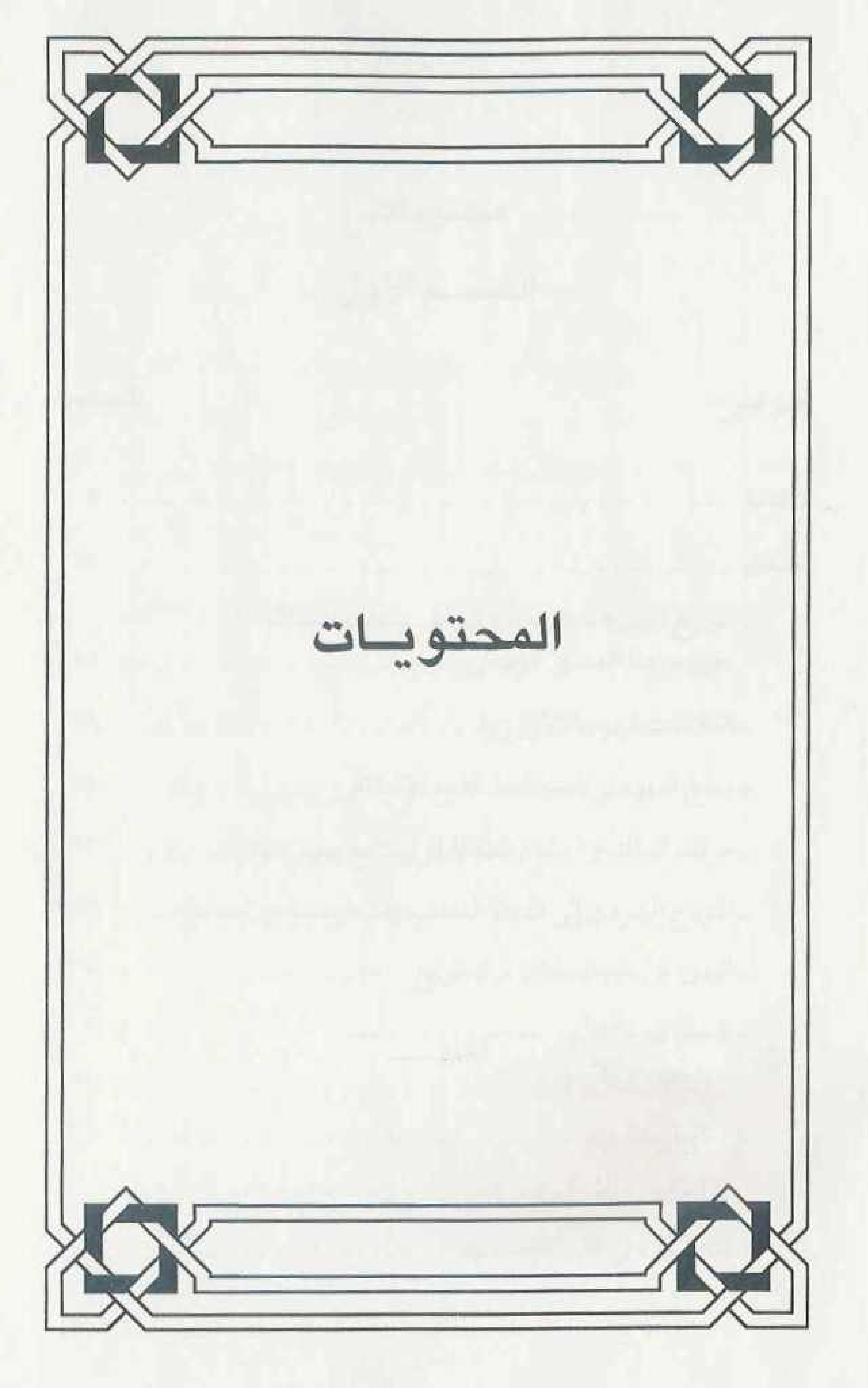
* * *

---

(١) وقائع وأخبار الدولة العثمانية، مجلة المنار، م١٧ : ٤/ ٣٠٧. نقلاً لرأي جورجي زيدان من أجل النهوض بالدولة العثمانية.

(٢) صموئيل إتينجر، اليهود في البلدان الإسلامية، مرجع سابق، ص٢٢٢.

(٣) خيرية قاسمية، مرجع سابق، ص٥٢.



المحتويـات



محتويات

القســم الأول

القسم الأول
في العهد العثماني

* * *